العلماء المصلحون في اليمن

برنارد هيكل*

أعطت اليمن على مدى قرون عديدة عدداً من العلماء ذوي الرأي الحر ممن انشقوا عن المذهب الهادوي الزيدي أي أتباع إمام زيدية اليمن الأول الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين (توفي عام 298هـ/911م). وكان تعزيز مبدأ الاجتهاد وقبوله من قبل الزيدية عاملاً لظهور هؤلاء العلماء، وكذلك رفضهم لمبدأ أهل السنة بإغلاق باب الاجتهاد. ومن أبرز هؤلاء العلماء في مجال الاجتهاد، محمد بن إبراهيم الوزير (توفي عام 840هـ/ 1436م)، والحسن بن أحمد الجلال (توفي عام 1084هـ/ 1673م)، وصالح بن المهدي المقبلي (توفي عام 1108هـ/1696م)، ومحمد بن إسماعيل الأمير (توفي عام 1182هـ/1769م)، وأخيراً محمد بن علي الشوكاني (توفي عام 1250هـ/1834م). لقد وصف هؤلاء العلماء في الدراسات اليمنية المعاصرة بأنهم مصلحون وينتمون إلى مدرسة التجديد لأنهم ينادون بإعادة النظر في بعض المعتقدات والتقاليد المتوارثة، بعيداً عن التقليد الأعمى

كانت السمة المميزة لهؤلاء العلماء إصرارهم على الاجتهاد والابتعاد عن التقليد الذي يقضي بقبول آراء الآخرين بدون نص أو برهان، ولهذا أحس الجميع بأن هذا التقليد قد أدى إلى التنافر والانقسام بين المسلمين بمذاهبهم الفقهية المختلفة (الزيدي والشافعي والحنبلي وغيرهم)، وكذلك مذاهب علم الكلام (كالمعتزلة والأشعرية والماتريدية). ونتيجة لذلك كان هؤلاء العلماء اليمنيون المجتهدون خصوماً للمذاهب الكلامية على الرغم من أن بعضهم - مثل ابن الوزير - كان قد أتقن علم الكلام تماماً، كما كانوا ضد الصوفية وتعاليم ابن عربي والعادات الشعبية المتبعة كزيارة قبور الأولياء وغيرها.

والظاهرة التي جمعت بين هؤلاء العلماء المصلحين هي مفهومهم المشترك للسنة في أنها تعتمد كلياً على كتب الأمهات الست، أي صحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي والنسائي وأبي داوود وابن ماجه، وهذا ما أدى إلى وجود منهج فقهي يعتمد على السنة في الأساس ويدحض كثيراً من الآراء الفقهية في المذهب الهادوي.

والجدير بالذكر أن مصادر أهل السنة هذه إما أنها لم تكن متوفرة في زمن الإمام الهادي يحيى بن الحسين، وإما أنه لم يكن يرى جدوى في استخدامها. لذلك يرى أهل السنة أن آراءه تستند إلى الأحاديث التي انتقلت إليه من آبائه كما هي موجودة في أمهات الأحاديث عند الزيدية مثل أمالي الإمام أحمد بن عيسى وغيرها من الكتب.

استند علماء الزيدية إلى مصادر أهل السنة منذ عهد المتوكل على الله أحمد بن سليمان (توفي عام 566هـ/1171م). وكان المنصور عبد الله بن حمزة (توفي عام 614هـ/1217م) من هؤلاء الذين رجعوا إلى مصادر السنة، وكذلك الناصر صلاح الدين محمد بن علي (توفي عام 793هـ/1391م)، والهادي عز الدين بن الحسن (توفي عام 900هـ/ 1495م). والمتوكل يحيى شرف الدين (توفي عام 965هـ/ 1572م)، والمنصور القاسم بن محمد (توفي عام 1029هـ/1620م). والمؤيد

---

* كلية ماغدلين، أكسفورد- بريطانيا.

محمد بن القاسم (توفي عام 1054هـ/ 1644م). ولم يكن أحد من هؤلاء الأئمة المذكورين قد استند إلى مصادر أهل السنة على حساب كتب ومراجع الزيدية في الفقه والحديث أو العودة إليها. وقد ظل لآراء علماء الزيدية الذين سبقوهم أهميتها الكبيرة في كتاباتهم، والأهم من ذلك أنهم ظلوا مخلصين لمبادئ وعلم أصول الدين الخاص بالمذهب الزيدي، وهذا ما لم يفعله العلماء المصلحون.

لقد أدى رفض المصلحين لكثير من المعتقدات المتوارثة والتعاليم الدينية والآراء الفقهية في المذهب الزيدي الهادوي إلى إثارة غضب الكثير من اليمنيين المنتسبين إلى مذهب الهادي، ولذلك تعرض هؤلاء المصلحون للنقد أثناء حياتهم، وما تزال كتبهم موضعاً للخلاف في مجالس الزيدية حتى اليوم. ومع ذلك تعدّ أعمال العلماء المصلحين شهادة على قبول الزيدية خلال عصور مبدأ الاجتهاد المطلق. وفي هذا المقال سأحاول أن أقدم ترجمة لحياة خمسة من هؤلاء العلماء المصلحين مع ذكر أهم مؤلفاتهم وموجز عن الخلافات التي كان لهم دور فيها وما كان في سيرة حياتهم من جوانب مشتركة.

السيد محمد بن إبراهيم الوزير (775-840هـ/ 1374- 1436م)،

يُعد ابن الوزير أول المصلحين بين الزيدية ممن كانت لهم توجهات نحو السنة. وكانت ولادته في رجب عام 775هـ الموافق كانون الأول- الثاني عام 1373- 1374م، في هجرة الظهراوين من شظب. تنقل كثيراً في اليمن، ودرس على أيدي العلماء البارزين في عصره كما زار مكة المكرمة مرتين في مناسبتين مختلفتين، حيث درس على يد قاضي قضاة الشافعية المعروف محمد بن عبد الله بن ظهيرة (توفي عام 817هـ/ 1414م). ومن الذين تتلمذ على أيديهم نفيس الدين العلوي الذي قرأ عليه في تعز عدداً من كتب الحديث. لقد كان ابن الوزير تلميذاً لامعاً برع في جميع المواد التي درسها، وكان موضع إعجاب أساتذته، وقال عنه الشوكاني في البدر الطالع:

"والحاصل أنه قرأ على أكبر مشايخ صنعاء وصعدة وسائر المدائن اليمنية ومكة وتبحر في جميع العلوم وفاق الأقران واشتهر صيته وبعد ذكره وطار علمه في الأقطار..الذي يغلب على الظن أن شيوخه لو جمعوا جميعاً في ذات واحدة لم يبلغ علمهم إلى مقدار علمه.. ولو قلت: إن اليمن لم ينجب مثله لم أبعد عن الصواب. (البدر الطالع، ج2، ص81- 82، 92).

صرف ابن الوزير أيامه الأولى في دراسة علم الكلام واكتشف أن أكثره يقوم على أقوال ضعيفة، وقد آثر ابن الوزير فيما يتعلق بعلوم الحديث ودراسة الأدلة الاعتماد على شواهد من القرآن الكريم والحديث الشريف، كما فعل الحنابلة وابن تيمية، لأنه وجد فيها أساساً متيناً لمعتقداته وآرائه.

يقول ابن الوزير متحدثاً عن تلك الفترة المبكرة من حياته وعن خياراته المنهجية: "وقد وهبت أيام شبابي ولذاتي، وزمان اكتسابي ونشاطي، لكُدُورة علم الكلام والجدال، والنظر في مقالات أهل الضلال، حتى عرفت صحة قول من قال:

لقدْ طفتُ في تِلكَ المَعَاهِدِ كُلِّهَا
وسَيَّرْتُ طرْفِي بَيْنَ تِلْكَ المَعَالِمِ
فلَمْ أرَ إلاَّ واضِعاً كَفَّ حَائِرٍ
على ذَقَنٍ أو قارِعاً سِنَّ نَادِمِ

وسبب إيثاري لذلك، وسلوكي تلك المسالك، أن أول من قرع سمعي، ورسخ في طبعي: وجوب النظر، والقول بأن من قلّد في الاعتقاد، فقد كفر، فاستغرقت في ذلك جدّةُ نظري، وباكورة عمري وما زلت أرى كلَّ فرقة من المتكلمين تداوي أقوالاً مريضة، وتقوي أجنحة مهيضة، فلم أحصل على

طائل، وتمثلت فيهم بقول القائل:

كَلٌّ يُداوي سقيماً منْ مقالتِه
فمنْ لنا بصَحيحٍ ما بِهِ سقَمُ

فرجعت إلى كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقلت: لابد أن يكون فيها براهين، وردود على مخالفي الإسلام، وتعليمٌ وإرشادٌ لمن اتَّبع الرسول صلى الله عليه وسلم، فتدبرت ذلك فوجدت الشفاء كلَّه: دِقَّه وجِلَّه، وانشرح صدري، وصلح أمري وزال ما كنت به مُبتلى". (العواصم والقواصم، ج1، ص 201- 202).

يركز ابن الوزير في معظم أعماله على أهمية تطبيق الاجتهاد ورفض التقليد. وقد حصل على لقب المجتهد المطلق، وكتاب سيرة عائلته "تاريخ بني الوزير" يصفه بقوله: وله في علوم الاجتهاد المحل الأعلى، والقدح المعلى، وبلغ مبلغ الأوائل بل زاد، واستدرك واختار وصنف وألف وجمع وقيد وبنى وشيد، وكان اجتهاده اجتهاداً كاملاً مطلقاً لا كاجتهاد بعض المتأخرين فإن ذلك يسمى ترجيحاً لأدلة بعض الأئمة المستنبطين على بعض لا ابتداء اجتهاد واستخراج لحكم عما عرف من غير معترف

(تاريخ بني الوزير، ص 74- 75)

ويصف الشوكاني منزلته العلمية بقوله:

وبالجملة فصاحب الترجمة ممن يقصر القلم عن التعريف بحاله وكيف يمكن شرح من يزاحم أئمة المذاهب الأربعة فمن بعدهم من الأئمة المجتهدين في اجتهاداتهم ويضايق أئمة الأشعرية والمعتزلة في مقالاتهم ويتكلم في الحديث بكلام أئمته المعتبرين مع إحاطته بحفظ غالب المتون ومعرفة رجال الأسانيد شخصاً وحالاً وزماناً ومكاناً وتبحره في جميع العلوم العقلية والنقلية على حد يقصر عنه الوصف (البدر الطالع، ج2، ص90)

وتظهر استقلالية ابن الوزير ومبادرته إلى رفض التقليد كلياً في هذه الحادثة: عندما كان يدرس في مكة مع ابن ظهيرة سأله أستاذه وقد أدرك حقيقة قدراته، لماذا لم يتبع المذهب الشافعي، فقال له ابن ظهيرة:

أيها السيد الشريف لو أنك تممت كمالك بتقليد الإمام محمد بن إدريس، فقال له (ابن الوزير): سبحان الله أيها القاضي، إنه لو كان يجوز لي التقليد لم أعدل عن تقليد جدي الهادي والقاسم إذ هما أولى بالتقليد من غيرهما لمكان العناية في أهل البيت الإلهية والمادة المعصومة السماوية.

(تاريخ بني الوزير، ص79، والبدر الطالع، ج2، ص90).

عندما سمع عدد من علماء المذهب الهادوي رأيه حاولوا إقناعه بالعودة إلى المذهب، كما هاجم بعضهم ما قاله في الاجتهاد، وكان من بين معارضي ابن الوزير أستاذه في علم الأصول والتفسير السيد جمال الدين علي بن محمد بن أبي القاسم (توفي عام 837هـ/ 1434م).

وأهم أعمال ابن الوزير كتابه " العواصم والقواصم في الذبِّ عن سنة أبي القاسم". كُتب رداً على السيد جمال الدين عندما هاجم ابن الوزير لانحرافه عن تعاليم المذهب الهادوي ولمطالبته بفتح باب الاجتهاد. ومن بين الاتهامات الكثيرة التي وجهها السيد جمال الدين لابن الوزير أنه يقدم رواية هؤلاء الذين هم فساق تأويل أو كفار تأويل على رواية أهل العدل والتوحيد. وإلى جانب ذلك أُتُّهِمَ ابن الوزير بأنه خالف إجماع أهل البيت عليهم السلام وأنه قدَّم رواية أهل التشبيه والجبر على رواية أهل التوحيد والعدل. ونستشهد هنا بمقطع من تاريخ بني الوزير الذي يلخص ما أثير من جدل بن الرجلين:

ووقع بين السيد عز الدين (محمد بن إبراهيم الوزير)، وبين شيخه السيد جمال الدين علي بن محمد بن أبي القاسم منازعة في مسائل، وكان من حي السيد جمال الدين رحمه الله طرفاً من الحيف في السؤالات وتحوير لما يرويه عن حي سيدي عز الدين على صفة أنه يأخذ من كلامه مفهوماً وما لم يقصده، أو قد صرح بنفيه، والإجماع منعقد على عدم اعتبار مفهوم وقع التصريح بخلافه، وما كان ذلك إلا لمكان دعوى الاجتهاد. وكان أعظم ما دعا إلى ذلك دعوى اللحاق بأهل السبق من المجتهدين

والانعزال والارتفاع عن مرتبة المقلدين، ويَعُدّ السيد جمال الدين الاجتهاد غاية التبعيد، ومنعه عن أكثر الأمة من أهل التوحيد، واستظهر بكلام الغزالي وحكى في ذلك أقواله وبمن منع من الفقهاء من الاجتهاد بعد محمد بن إدريس، وساق من الحكايات والمقامات ما يعضد ذلك ممن سلك مثل هذه الطريق.

(تاريخ بني الوزير، ص 80- 81).

كان لكتاب العواصم والقواصم لابن الوزير أثر كبير على المجددين والمصلحين في اليمن، ومعظم المجلد الأول من هذا الكتاب يتحدث عن إمكانية الخلف لممارسة الاجتهاد، وفي المجلدات الأخرى ينتقد آراء المعتزلة والأشعرية. فهو يرفض مثلاً آراء فخر الدين الرازي، أحد كبار الأشاعرة، في مسألة العلم الإلهي، وناقش مطولاً مسألة خلق الأفعال، وهذه نماذج قليلة من المسائل العديدة التي عالجها في بحثه المطول، لقد كان الشوكاني شديد الإعجاب بكتاب العواصم، ويقول عنه:

ولو خرج هذا الكتاب من الديار اليمنية لكان من مفاخر اليمن وأهله، ولكن أبى ذلك لهم ما جبلوا عليه من غمط محاسن بعضهم لبعض ودفن مناقب أفاضلهم.. وكلامه لا يشبه كلام أهل عصره ولا كلام من بعده بل هو من نمط كلام ابن حزم وابن تيمية.. فإن له معهم- أي أهل عصره- قلاقل وزلازل، وكانوا يثورون عليه ثورة بعد ثورة، وينظمون في الاعتراض عليه القصائد، وأفضى ذلك إلى أن اعترض عليه شيخه.. وكان يجاوبهم ويصاولهم ويجاولهم فيقهرهم بالحجة ولم يكن في زمنه من يقوم له لكونه في طبقة ليس فيها أحد من شيوخه فضلاً عن معارضيه. (البدر الطالع، ج2، ص91)

ومن قراءتنا لكتاب العواصم نرى أن ابن الوزير لم يتبع العقيدة الزيدية بل آثر علوم السنة وسلك مسلكاً مستقلاً بعيداً عن المعتزلة والأشعرية والجبرية.

وقد حاول كثير من العلماء أن يقنعوا ابن الوزير بالرجوع إلى المذهب الزيدي الهادوي، ومنهم أخوه الهادي، ولكن دون جدوى. وهذه بعض الأبيات من قصيدة كتبها الهادي إلى أخيه محمد يدعوه إلى إعادة النظر في منهجه الجديد والعودة إلى المذهب الزيدي:

فأتمّ قولك بالمصير إليهم
في كل قولٍ - يا محمدُ - تهتدي
فهمُ الأمانُ، كما ذكرتَ، ونهجُهم
نهجُ البلوغ إلى تمام المقصدِ
مالي أراك تقولُ فيهم هكذا
وبغير مذهبهم تدينُ وتقتدي

ومنها:

ونقول: في كتب الحديث محاسنٌ
من سُنّةِ المختار لمّا نقصد
لكن نرجحُ ما رواه أهلُنا
سُفُن النجاةِ وأهلُ ذاك المسجد
ونقول: مذهبُهم أصحُ روايةً
وأمتّ في متن الحديث المُسند
فيهم على كل الأكابر نبتدي
وإليهمُ أبداً نروحُ ونغتدي
وبهديهم في كل سَمتٍ نهتدي
وبقولهم في كلّ أمرٍ نقتدي
وبفعلهم في كلّ مَجدٍ نحتذي
وبعلمهم في كلّ وقتٍ نجتدي
وإذا تعارض عندنا قولٌ لهم
ولغيرهم قولٌ وإنْ هو واحدي
ملنا إلى القول الذي قالوا به
لِتوثّق في حفظهم مُتشدّدِ

(هجر العلم، ج3، ص 1349- 1350).

ولكن يبدو أن الهادي نفسه قد اقتنع أخيراً بمنهج أخيه الجديد وآرائه بعد أن قرأ كتاب "العواصم والقواصم".

ومن العلماء الآخرين الذين كانوا على خلاف مع ابن الوزير وأثار الجدل معهم الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى (توفي عام 840هـ/ 1436م)، لقد كان الخلاف بين العالمين قائماً لاعتبارات سياسية على الأغلب وقد تصالحا في نهاية المطاف. فابن الوزير لم يرض بمنصب إمامة ابن المرتضى وبهذا كان موالياً لخصمه الذي طالب بهذا المنصب وهو الإمام المنصور علي بن الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي (توفي عام 840هـ/ 1436م)، لقد كان ابن المرتضى في ذلك الوقت أكثر جدارة ويفي بجميع الشروط لمنصب الإمامة، على عكس المنصور. وبالرغم من ذلك نجد أن ابن الوزير كتب دفاعاً عن المنصور بعنوان "الحسام المشهور في الذب عن دولة الإمام المنصور". وربما يعود وقوف ابن الوزير إلى جانب المنصور في الحقيقة لاعتبارات عائلية، فقد كان اخوه الهادي من المؤيدين المتحمسين للإمام الناصر (والد المنصور، توفي عام 793هـ/ 1390م). وكان قد كتب رسائل يمدحه ويدافع عنه.

ومن الموضوعات التي أثارت الجدل بين ابن الوزير والمهدي بن المرتضى شروط ومتطلبات الإمامة، ثم تركز الخلاف حول انعزال ابن الوزير ورفضه لأتباع المذهب الهادوي، وهكذا تركز الجدل حول مسائل علم الكلام وأصول الدين.

وبعد حياة مليئة بالعمل والدراسة والمناظرة والتعليم قرر ابن الوزير أن ينسحب من ضراوة الحياة، فآثر الخلوة واشتغل بالذكر والعبادة وملازمة الخلوات والأماكن الخالية. وفي السنوات الأخيرة كان يقضي الأشهر الثلاثة (رجب وشعبان ورمضان) في عزلة على سطح الجامع الكبير في صنعاء.

مات ابن الوزير في صنعاء يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من محرم عام 840هـ الموافق 7 آب 1436م، بالطاعون مع كثير من العلماء في ذلك الوقت ومنهم معارضه ابن المرتضى.

السيد حسن بن أحمد الجلال

(1014-1084هـ/ 1605-1673م):

ولد السيد الحسن الجلال في رجب عام 1014هـ الموافق تشرين الثاني- كانون الأول عام 1605م في هجرة رغافة. لقد تنقل كثيراً في بلاد اليمن ليواصل دراسته. درس في صعدة وشهارة وآنس وفي اليمن الأسفل وفي صنعاء، وهناك أصبح من المجتهدين، ومن أبرز الذين تتلمذ على أيديهم عبد الرحمن الحيمي (توفي عام 1068هـ/ 1658م)، والحسين بن القاسم بن محمد (توفي عام 1050هـ/ 1640م)، ومحمد عزالدين المفتي (توفي عام 1050هـ/ 1640م). وقرر الجلال الاستقرار في الجراف خارج مدينة صنعاء حيث قضى بقية حياته في التعليم والتاليف.

وكان الجلال كثير من العلماء يعتبر أي صلة مع الحكم والحكومة نوعاً من الفساد، ولهذا ظل بمنأى عن مركز السلطة طوال حياته، ولم يقبل أي منصب أو عطية مالية من الأئمة، ونحن نعلم أن الإمام المهدي أحمد بن الحسن بن القاسم (توفي عام 1092هـ/1681م) حاول أن يبعث إليه "بحوالة" ليحسن منزله المتواضع في الجراف ولكن السيد الجلال رفضها. وقد عاش الجلال- على ما يبدو- من بيع نتاج فرس كان يملكها وذلك كان يكفيه.

ولم يتوقف الجلال عن انتقاد الأئمة. لقد انتقد- مثلاً- الإمام المتوكل على الله إسماعيل عندما أرسل قواته إلى يافع وحضرموت والشحر، وذلك في إحدى رسائله المسماة "براءة الذمة في نصيحة الأئمة". ولكن المتوكل ظل مع ذلك يكن له كثيراً من التقدير والاحترام.

من أهم أعمال الجلال كتاب "ضوء النهار"، وهو شرحٌ لكتاب "الأزهار" للإمام أحمد بن يحيى المرتضى. وقد طبع الكتاب حديثاً مع حاشية بعنوان "منحة الغفار" لابن الأمير. ويقدم "ضوء النهار" آراء الجلال بطريقة مبوبة، وقد قيل فيه:

ولم يشرح الأزهار على كثرة شروحه بمثله، بل لا نظير له في شروح الفقه المطولة على الإطلاق، استخرج فيه الأدلة وبناها على القواعد الأصولية وحرر فيه اجتهاداته على مقتضى الدليل ولم يعبأ بمن وافقه أو خالفه. (مقدمة ضوء النهار، ص10).

ووضع الجلال في علم أصول الفقه أيضاً كتاباً بعنوان "نظام الفصول في علم الأصول" وهو شرح على "الفصول اللؤلؤية" لصارم الدين إبراهيم بن محمد الوزير (توفي عام 914هـ/ 1508م)، كما كتب رسائل عديدة وقصيدة مشهورة بعنوان "فيض الشعاع"، وألف أيضاً "شرح تهذيب المنطق" في يَفْرُس في اليمن الأسفل أثناء الجهاد ضد الأتراك. ومن القصائد التي تظهر رأيه في مقدرته، والتزامه بالسنة، وكرهه لعلوم المنطق، قوله:

وقل لابنك الحسن الجلال مُباين
من قد غلا في الدين من تلعابه
لا عاجزاً عن مثل أقوال الورى
لو هابنا من علمهم لصعابه
فالمشكلات شواهدٌ لي أنني
أشرقت كل محقق بلعابه
لولا محبة قدوتي بمحمد
زاحمت رسطاليس في أبوابه
لكنني أولى الورى بمقامه
فأنا ابنه ولسير في أعقابه

أعطى الجلال آراء مثيرة للجدل في أيامه ومنها أن لأي مسلم الحق بالإمامة، وهو يخالف بذلك الزيدية الذين يؤمنون أن الإمامة من حق السلالة النبوية المنحدرين من السيدة فاطمة، وكذلك رأي أهل السنة الذين يقولون بأن الإمام يجب أن يكون من قريش.

وقد انتقد الشوكاني بعض آراء الجلال ولكنه اعتبره مع ذلك من الذين استخدموا الدليل ووقفوا ضد التقليد. وموقفه المثير للجدل خلق حوله كثيراً من المعارضين وأثار كثيراً من الجدل بين العلماء في اليمن. يقول الشوكاني في ترجمته في "البدر الطالع":

وكان له مع أبناء دهره قلاقل وزلازل كما جرت به عادة أهل القطر اليمني من وضع جانب أكابر علمائهم المؤثرين لنصوص الأدلة على أقوال الرجال. (البدر الطالع، ج1، ص193).

وعندنا نص هنا من ترجمته في كتاب "بهجة الزمن" للمؤرخ اليمني المشهور يحيى بن الحسين (توفي عام 1099هـ/ 1688م)، حيث يظهر طبيعة الجدل الذي أوجدته آراء الجلال في اليمن في ذلك الوقت.

وكان يدعي الاجتهاد وأنه ترجح له مذهب داود الظاهري، ويعود عليه في أقواله في الأصول والفروع، ويقول: إن الإجماع ليس بحجة، ويقول بالمتعة، موافقة للرافضة الإمامية، ولا يحتج بالآحاد، موافقة للكاساني، وإن صح بالإسناد، ولا يحتج إلا بالتواتر، وما لم يجده فبالبراءة الأصلية، وقال: إنه رأي ابن حزم في العمل بالبراءة، وله أقوالٌ عجيبة ونوادر غريبة، وفيها ركة وإباحة ومخالفة لجمهور الأمة، وللإجماعات المنبرمة فلا قوة إلا بالله، ولو توقف على مذهب داود الظاهري نفسه لكان أقل من تلك النوادر والمخالفات، ولكنه خرج عن أصل داود في موافقة الرافضة في المتعة، وفي سبِّ عثمان رضي الله عنه، وفي موافقة الخوارج في منصب الإمامة، وقال إنها في جميع الناس، عربي وعجمي فيها على السواء، وإنما يشترط فيهم التقوى، وكان يرى في خلق الأفعال مثل قول أهل السنة، وثبوت الخروج لأهل الكبائر من النار بالشفاعة، والرؤيا، وكان يكفر بالإلزام، كما يقول به محققو علماء الإسلام. (الأكوع، الهجر، ج1، ص342).

ويذكر عبد الله بن علي الوزير في كتابه "طبق الحلوى" آراء الجلال بالتفصيل ولكنه كان أكثر احتياطاً من يحيى بن الحسين ويقول ما يلي في تاريخه لعام 1060هـ: "وفيها نسب إلى السيد الإمام الحسن بن أحمد الجلال الجنوح إلى شيء من مذهب الظاهرية وطريقة ابن حزم من العمل بالبراءة الأصلية، وإسقاط الاحتجاج بالأخبار الآحادية، وقصر التعويل على

التواترية، وإنكار حجية العموم ودليل المفهوم، وتحليل المتعة، وإسقاط الأذكار في الصلاة، والاعتدال، والقول بأن الإمامة لا منصب لها معين بل هي صالحة في جميع الناس مع التقوى كما يقوله نشوان والخوارج، وتحليل الزكاة للأغنياء والهاشميين، وعدم وجوب الجمعة إلا بحضور الإمام الأعظم، وغير ذلك، والله أعلم بحقيقة هذه النسبة، فقد أطرق صاحبها فيما لا يكون من كثير من النسب.

(طبق الحلوى، ص124- 125).

وخلافاً لبقية المصلحين اليمنيين كان للجلال آراء مخالفة لرجال هذه المدرسة، ويمكن أن يقال عنه أنه أكثر خاصية من غيره، فهو لم يكتف بالتصريح بأن الإمامة من حق أي مسلم كفؤ بغض النظر عن نسبه، بل أيد وجهة نظر الزيدية التي تمنع زواج غير الفاطمي من امرأة فاطمية، كما أيد تضمين "حي على خير العمل" في الأذان. ومن الواضح أننا بحاجة إلى دراسة جيدة لهذا العالم المدهش في بعض آرائه لأنه كان قد اتبع منهجاً اجتهادياً سلفياً. ويقوم الدكتور حسين العمري الآن بإعداد بحث عن الجلال ونأمل أن يشرح فيه ظروف ودوافع آرائه واختياراته*.

توفي الجلال في الجراف فجر يوم الواحد والعشرين من ربيع الآخر عام 1084هـ الموافق 4 آب 1673م، كان ابن الأمير من المعجبين بالجلال وقد مدحه في هذه القصيدة التي نظمها عندما زار ضريحه في الجراف بعد حوالي خمسين عاماً تقريباً من وفاته في عام 1133هـ.

جلت على قبر الجلال
عيني بدمع ذي انهمال
ووقفت فيه مدنها
أبكي على فقد المعالي

ومنها:

أبدى لنا ضوء النهار
فأشرقت منه الليالي
جمع الأدلة فيه جمع
الدر في جيد الغزال
بعبارة رقت ورا
قت فهي كالسحر الحلال
وتصرف بالاجتهاد
فلا يهاب ولا يبالي

ومنها:

وجفاه قوم ما دروا
كيف المثمن من الهزال
وكذا أفاضل كل عصر
غرضة لذوي الضلال
من صار فرداً في الكمال
رموه بالداء العضال

القاضي صالح بن مهدي المقبلي
(1038-1108هـ/ 1628-1696م):

ولد القاضي صالح المقبلي عام 1038هـ/1628م، في مَقْبَل وهي قرية في منطقة كوكبان ودرس مع السيد محمد بن إبراهيم بن المفضل في شبام قرب ثُلا حيث عاشت عائلته.

في أواخر عام 1077هـ/ 1666م عندما كان المقبلي في الثلاثينيات من عمره ذهب إلى صنعاء حيث درس علوم السنة والتفسير مع كثير من علماء صنعاء، ومن بين هؤلاء الذين درس معهم الإمام المتوكل على الله إسماعيل الذي أقام معه جدلاً بعدم ضرورة الالتزام بمذهب متوارث، بل لابدّ من الاجتهاد ورفض التقليد. وقد وصف إبراهيم بن عبد الله الحوثي في "نفحات العنبر" القاضي المقبلي بما يلي:

---

* صدر الكتاب في مجلد كبير عن دار الفكر المعاصر، بعنوان: العلامة المجتهد المطلق الحسن بن أحمد الجلال، حياته وآثاره (1014-1084هـ/1604-1673م)، تأليف: القاضي محمد أحمد الجرافي، د. حسين عبدالله العمري. (المحرر)

مجتهد مطلق.تنزه عن التقليد وناظر العلماء فيما يخفى دليله من المسائل وانتقد كثيراً مما أطبق عليه الكافة من قواعد أصولية وفروعية...الخ.

(نشر العرف، ج1، ص782- 783).

كما أثنى عليه الشوكاني في ترجمته في "البدر الطالع" فقال:

وهو ممن برع في جميع علوم الكتاب والسنة، وحقق الأصولين والعربية والمعاني والبيان، والحديث والتفسير، وله مؤلفات مقبولة كلها عند العلماء محبوبة إليهم يتنافسون فيها، ويحتجون بترجيحاته، وهو حقيقٌ بذلك، وفي عباراته قوةٌ وفصاحةٌ وسلاسةٌ تعشقها الأسماع، وتلتذ بها القلوب، ولكلامه وقعٌ في الأذهان قلَّ أن يمعن في مطالعته من له فهم فيبقى على التقليد بعد ذلك. وإذا رأى كلاماً متهافتاً زيَّفه ومزَّقه بعبارة عذبة حلوة. وقد أكثر الحط على المعتزلة في بعض المسائل الكلامية، وعلى الأشعرية في بعض آخر، وعلى الصوفية في غالب مسائلهم، وعلى الفقهاء في كثير من تفريعاتهم، وعلى المحدثين في بعض غلوهم، ولا يبالي إذا تمسك بالدليل بمن يخالفه كائناً من كان. وقد كان ألزم نفسه السلوك مسلك الصحابة وعدم التعويل على تقليد أهل العلم في جميع الفنون... (البدر الطالع، ج1، ص288).

إن رفض المقبلي للتقليد وإصراره على مبدأ دعم آرائه بالنص سبب له الكثير من المشكلات مع علماء المذهب الهادوي في صنعاء، كما حصل مع غيره من العلماء المصلحين، لكن الحملة على المقبلي كانت أشدّ قسوة من الحملة على المصلحين الآخرين كما سيظهر معنا في القصيدة التي كتبها الحسن بن علي الهبل (توفي عام 1079هـ/1668م)، ضد المقبلي والتي سنذكرها فيما بعد. وفي النهاية أضطر المقبلي إلى أن يغادر اليمن وأزمع على الاستقرار نهائياً في مكة المكرمة.

إن موقف المقبلي من التقليد والمذاهب كلها، ولاسيما المذهب الزيدي الهادوي، يمكن أن يلخص في هذه الأبيات من قصيدته:

ألم تعلما أنـي تركـتُ التمـذهبا
وجانبتُ أن أعـزى إليـه وأنسـبا
فلا شافعيٌ، لا مالكيٌ لا حُنبيـلٌ
ولا حنفيٌ، دعْ عنك ما كان أغربـا

والتعبير "دع عنك ما كان أغربا" كان يقصد به المذهب الزيدي الهادوي، وكان من بين المواقف الهادوية التي هاجمها تطبيق مفهوم إجماع أهل البيت في الأحكام الشرعية والآراء الفقهية. وقد قال في ذلك في كتابه "العلم الشامخ" ما يلي:

وهذا السؤال بعينه وارد على من زعم أن العترة والكتاب لن يفترقا، عملاً بحديث الترمذي، وأن معناه أن العترة دليل الحق، فإذا ذهبوا إلى شيء فهو حق وذهابهم إليه يغنينا عن الدليل، فيقال ذرية النبي صلى الله عليه وسلم بل قرابته افترقوا في الأمة على حد افتراقها: ففي كل من طوائف السنة والشيعة الكثير الطيب وفي أقوالهم التناقض الذي لا يخفى... ويلزم ذهاب خصوصية أهل البيت إذ لم ينفردوا بمقالة تجمعهم. (العلم الشامخ، ص17، 20).

كان يحيى بن الحسين بن الإمام المؤيد بن القاسم بن محمد (توفي عام 1090هـ/1679م) وأتباعه من أمثال الحسن بن علي بن جابر الهبل من أكثر المتعصبين للمذهب الهادوي، وكان الاثنان أعداء المقبلي. وقد هجاه الهبل- وهو من أشهر شعراء زمانه- بهذه القصيدة:

المُقبلـيُّ ناصـبيٌّ
أعمى الشقاءُ بصرَه
فرَّق ما بين النبي
وأخيـه الحيـدرَه
لا تعجبوا من بُغضِه
للعتـرة المطهـرة
فأمُّـه مَعْرفـةٌ
لكـن أبـوهُ نكِـرَه

وقد ردّ المقبلي على هجوم الهبل بهذه الأبيات:

لمنح الإله مفرقا
بين القرابة والصحابة
من كان هذا دينه
فهو الشقيّ بلا استرابه
الجمع بين ولائهم
يا طالباً عين الإصابة
ما إن قرنت به الدعاء
إلا توقعت الإجابة
إذ كان ذا في عصرنا
متجاوزاً حدّ الغرابة

احس المقبلي أن الهجوم عليه لم يعد يحتمل وربما احس بأن حياته اصبحت في خطر، لذلك قرر أن يبيع ممتلكاته في ثُلا والمغادرة مع عائلته إلى مكة عام 1080هـ/1669م. وفي مكة لم ينج المقبلي من المتاعب فمنهج عدم التقليد الذي نادى به أوقعه في كثير من المواجهات مع العلماء في مكة. ويذكر المؤرخ والعالم يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم بن محمد في كتابه "بهجة الزمن" الأسباب التي دفعت المقبلي إلى أن يترك اليمن، فقال:

والرافضة في هذا الزمان الذين من الزيدية كثيرٌ.. وعندما جرى هذا ترجح للفقيه صالح المقبلي الثُّلائي اليمني، أن باع أملاكه، ورحل بأولاده إلى مكة، واستقر بها، ودخل مذهب الشافعي رحمه الله.

(هجر العلم، ج1، ص241).

والقاضي إسماعيل الأكوع في كتابه في تراجم الرجال الذي نشره حديثاً بعنوان "هجر العلم ومعاقله في اليمن"، يشير بحق إلى أن المقبلي لم يصبح شافعياً أبداً وإنما ظلّ مخلصاً لآرائه الحُرَّة. لقد كان يحيى بن الحسين مخطئاً في كتابه "بهجة الزمن" وأن انتقاده المستمر للمقلدين قد جرّه إلى مشكلات أخرى في مكة. ففي قراءة كتاب المقبلي "العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ" نجد أن واحداً من علماء الحجاز يدعى محمد بن عبد الرسول البرزنجي المدني ردّ على المقبلي وهاجمه لتأييده مبدأ رفض التقليد ولكن المقبلي ردّ على البرزنجي بكتاب "الأرواح النوافخ لآثار إيثار الآباء والمشايخ" وفيه يهاجم المقلدين وقد أدى هذا إلى مزيد من الانتقاد من قبل بعض علماء الدين في مكة والمدينة ومن ثم اتهم بالزندقة لرفضه التقليد وانتقاد الأسلاف الذين تمسكوا به.

ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد، بل رُفع الأمر إلى الباب العالي في استنبول فأرسلوا عدداً من العلماء ليتحققوا من أمره، وبرئ المقبلي مما اتُّهم به واتضح أنه سليم العقيدة. ونحن نعلم أن الشريف أحمد بن غالب- حاكم مكة في ذلك الوقت- كان من المقربين إلى المقبلي، وربما يكون قد لعب دوراً في الحدّ من استمرار الحملة عليه. والجدير بالذكر أن المقبلي قد ألّف كتبه كلها في مكة، ومن أهم هذه الكتب: "الأبحاث المسددة في مسائل متعددة"، "الإتحاف لطلبة الكشاف" (انتقد فيه على الزمخشري)، "العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ"، "الأرواح النوافخ لآثار إيثار الآباء والمشايخ"، "المنار في المختار من جواهر البحر الزخّار". والكتاب الأخير "المنار" قد يكون أشهر كتبه، وهو عبارة عن حاشية على كتاب "البحر الزخّار" لأحمد بن يحيى المرتضى. وقد أصبح للمقبلي أتباع في بلاد الداغستان على شواطئ بحر قزوين بعد قراءتهم لكتابه "المنار". ولأن كتاب "البحر الزخّار" لم يكن متوفراً لدى الداغستانيين فقد أرسلوا شخصاً ليأتي به من مكة.

يروي لنا الشوكاني قصة طريفة في كتاب "البدر الطالع" عن اجتماعه مع الداغستاني الذي كان يبحث عن "البحر الزخّار" في صنعاء. لقد غادر هذا الداغستاني بلده بحثاً عن "البحر" وقال له إبراهيم بن محمد بن إسماعيل الأمير في مكة أنه موجود في صنعاء، فجاء إلى اليمن بحثاً عنه ولكن الرجل مات لسوء الحظ بعد وصوله بمدة قليلة وقبل أن يكمل مهمته.

ومن أعمال المقبلي السالفة الذكر التي تأثر بها المصلحون بشكل خاص كتاب "العلم الشامخ". وهو من أول المؤلفات اليمنية التي طبعت في مصر وذلك عام 1928م، وفي هذا الكتاب يحمل المقبلي على علماء الكلام (كالمعتزلة، والأشاعرة)، وأيضاً على الصوفيين، ولاسيما محيي الدين بن عربي واتباعه، ويحث على الاجتهاد ونبذ التقليد والتقييد والمذاهب.

وخلال حياته أصدر المقبلي عدة فتاوى كان أحدها موضوعاً لبحث كتبه الدكتور حسين العمري. وكانت الفتوى بخصوص الإسماعيلية وكيفية معاملتهم. لقد صرّح في الفتوى أن الإسماعيلية يجب أن يعاملوا "كالزنادقة"، وأن ليس للمسلم أن يتزوج إسماعيلية، ولا تجبى الزكاة منهم ولا تقام صلاة الجنازة على موتاهم.

ولم يتفق العلماء اليمنيون من مدرسة الإصلاح دائماً مع المقبلي. فالحسن بن أحمد الجلال مثلاً كان على خلاف معه حول دور العقل، وكذلك عارض الشوكاني كثيراً من آراء المقبلي واتهمه بأنه كان يجهل مصطلحات علماء الحديث ومما ترتب عليه استعماله للأحاديث الضعيفة دون دراية بها. ومع ذلك يثني الشوكاني عليه لموقفه المنصف واعتراضه على المتطرفين، والقصيدة التالية للشوكاني تظهر لنا ذلك:

لله درُّ المقبلي فإنه
بحرٌ خضمٌ دان بالإنصاف
أبحاثه قد سددت سهمًا إلى
نحر التعصب مرهف الأطراف
فمناره علمٌ للنجاح الطالب
مُذ روّح الأرواح بالإتحاف

توفي المقبلي ودفن في مكة يوم الأحد في الثاني من ربيع الأول عام 1108هـ الموافق 29 أيلول 1696م، عن 62 عاماً. وقد درس في مكة مع إبراهيم بن الحسن الكردي (كان ابنه طاهر بن إبراهيم الكردي شيخاً لمحمد بن إسماعيل الأمير)، وأمضى حياته في استظهار متون كتب الأمهات الست. كان للمقبلي مؤيدون كثرٌ في اليمن على مدى تسعين عاماً بعد وفاته، مما توضحه لنا هذه القصيدة للسيد حسين بن عبد القادر بن علي الروضي (توفي عام 1198هـ/ 1784م).

المقبليُّ ناصحٌ للمؤمنين البررَه
لحبِّهِ أهلَ الكمال وقلاه القصره
جمع بين الصُحب في وداده وحيدرَه
وبُغضَ آل المصطفى سيئةٌ مُستكبره
فمن رمى الشخص بها رمى بأيِّ مُنكره
يسأله إلهنا بيِّنةً مُقرره
والصُحب لا يبغضهم إلا خبيث المخبره
دلَّ كلام بعضهم بأنه قد كفَّره
إذ في كتاب ربِّنا بهم يغيظ الكفره
وفيه كم من آيةٍ بمدحهم مُصدَّرَه
ما قلت في مهاجرٍ لله أو من نصرَه
ما قلت في عشرة بجنةٍ مُبشَّرَه
ما قلت في الجمع الذي بايع تحت الشجره
وأهلُ بدر كلهم قد بُشِّروا بالمغفرَة
لا تعجبوا لمن رمى أهلَ العلوم البررَه
فما يضرُّ شامخاً رَميُه ببعرَه
وقذفه بقوله: إن أباه نكَّره
إثمٌ وبُهتٌ أم ترى شاهَده وحَضَرَه
يا عجباً لما جناهُ
من عظيم حقَّره

السيد محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني (1099-1182هـ/ 1688-1769م):

لقب "بالبدر" ويعرف بابن الأمير، ولد في هجرة كحلان وفي عام 1110هـ/1698م ذهب مع والده إلى صنعاء حيث درس على أشهر علماء عصره في ذلك الوقت، واتجه منذ أيامه الأولى إلى علوم الحديث، وأثنى على مؤلفات الحديث وعلمائه ورفض التقليد وحث على الاجتهاد. وقد سافر إلى الحجاز عدة مرات لأداء فريضة الحج ودراسة الحديث. وكان من أشهر شيوخه في الحجاز خطيب الحرم النبوي الشيخ عبدالرحمن بن الخطيب بن أبي الغيث، والشيخ طاهر بن إبراهيم بن حسن الكردي المدني.

كان لابن الأمير أثر كبير في نشر علوم الحديث في اليمن، كما تأثر به العديد من العائلات المثقفة

واقتنعوا بحججه وبراهينه، وكان منهم آل إسحاق وآل شرف الدين وآل المتوكل. ويمكن تلخيص موقفه من علوم الحديث والمحدثين بهذه الأبيات:

سلامٌ على أهل الحديث فإنني
نشأتُ على حب الأحاديث من مهدي
هُمْ بذلوا في حفظ سنّة أحمد
وتنقيحها من جُهدهم غاية الجُهد
وأعني بهم أسلاف أمّة أحمد
أولئك في بيت القصيد هم قصدي
أولئك أمثالُ البخاريُّ ومسلم
وأحمدُ أهل الجدّ في العلم والجِدّ
بحورٌ، وحاشاهم عن الجزْر إنّما
لهم مددٌ يأتي من الله بالمدّ

يعد ابن الأمير من أعظم علماء عصره، لقد كان كاتباً كثير العطاء ومؤيداً لحركة الإصلاح إضافة إلى كونه معلماً لكثير من الطلاب الذين نادوا فيما بعد بالإصلاح، ومن هؤلاء الطلاب عبدالقادر بن أحمد الكوكباني (توفي عام 1207هـ/1792م)، الذي درّس بدوره الشوكاني. ويصف الشوكاني ابن الأمير بقوله:

الإمام الكبير المجتهد المطلق.نفر عن التقليد وزيف ما لا دليل عليه من الآراء الفقهية، وجرت له مع أهل عصره من الخطوب والمحن.ومازال في محن أهل عصره وكانت العامة ترميه بالنصب مستدلين على ذلك بكونه عاكفاً على الأمهات وسائر كتب الحديث عاملاً بما فيها.. فبالجملة فهو من الأئمة المجددين لعالم الدين. (البدر الطالع، ج2، ص134، 138).

كتب ابن الأمير بغزارة ومن أشهر مؤلفاته "سبل السلام" وهو شرح لـ"بلوغ المرام" لابن حجر، و "منحة الغفّار" وهو حاشية على كتاب "ضوء النهار" للجلال. كما كتب الكثير من الحواشي على مؤلفات ابن الوزير مثل كتاب "توضيح الأفكار على تنقيح الأنظار" و "فتح الخالق شرح ممادیح رب الخلائق". وكان لابن الأمير، شأنه شأن بقية المصلحين اليمنيين، آراء واختيارات تتعارض مع مبادئ الهادوية. ومنها مثلاً عدم تضمين الأذان عبارة "حي على خير العمل" والرفع وضم اليدين في الصلاة ولم ير الكفاءة في النسب شرطاً للزواج، كما أصرّ على طرد أو إجلاء اليهود من جزيرة العرب بما فيها اليمن.

انتقد ابن الأمير كبار أئمة عصره، ومنهم المتوكل القاسم ابن الحسين (توفي عام 1139هـ/1727م)، وولده المنصور الحسين بن المتوكل (توفي عام 1161هـ/1748م)، وكان من المآخذ التي انتقد بها هذين الإمامين فرضهم المكوس التي تخالف الشريعة وكذلك الإدارة الفاسدة للأوقاف. وقد اخترت هنا عدداً من الأبيات من مجموعة قصائد لابن الأمير تبين اعتراضه على هذين الإمامين:

خراجية صيرتمُ الأرض كلّها
وضمنتم العمال شرّ المعاشر
لذاك الرعايا في البلاد تفرقت
وفارقت الأوطان خوف العساكر
وقد رضيت بالعشر من مالها لها
وتسعة أعشار تصير لعاشر
فلم تقنعوا حتى أخذتم جميع ما
حوته وما قد أحرزت من ذخائر

ومنها:

وجوّزتم أخذ المكوس بأرضنا
وتوفيرها ظلماً على كلّ تاجر

ومنها:

أحللتمُ أخذ الزكاة وأكلها
كإحلال أهل السبت صيد الجزائر
ورثيتمُ نصّ الكتب بمنعكم
فقيراً وإعطاء الغني المكاثر

ويقول في قصيدة أخرى:

إني ومن بيت الإمام عصابة
في العدّ قد زادوا على الالاف
يسترزقون من الرعايا ليتهم
قنعوا بأكل فرائض الأصناف
بل يأخذون من الرعايا كل ما
يحوونه كرها بلا استنكاف

حاول الإمام المتوكل القاسم أن يسترضي ابن الأمير بمنحه العديد من المناصب، ولكن ابن الأمير رفضها، وكان منها منصب القضاء في بندر المخاء ومنصب وزير

ومنصب قاضي القضاة، ومع هذا كله لعب ابن الأمير دوراً كبيراً في فض الخلافات والتوسط لإصلاح النزاعات التي نشأت في زمنه، ومنها مثلاً الخلاف الذي دبّ بين المتوكل والإمام محمد بن إسحاق، والخلاف الآخر بن المنصور وأخيه أحمد أمير تعز.

وقد تسببت صداقته الشديدة لآل إسحاق، وكان معلماً لأبنائهم، بكثير من المتاعب له مع الأئمة القاسميين، وبدأ الخلاف عندما ادعى الإمام الناصر بن إسحاق لنفسه الإمامة، وهذا ما جعل ابن الأمير يستقر في شهارة عام 1140هـ بعد عودته من الحجة الرابعة ورفض العودة إلى صنعاء خوفاً من الإمام المنصور الحسين الذي اعتبره صديقاً ومؤيداً لخصمه ابن إسحاق. بقي ابن الأمير في شهارة وترك فيها عدداً جماً من التلامذة المهتمين في علوم الحديث. وبعد ثلاث سنوات من عودته إلى صنعاء (عام 1151هـ) قبل ابن الأمير من المنصور منصب خطيب الجامع الكبير في صنعاء وظل في هذا المنصب حتى عام 1166هـ.

وتحسنت أوضاع ابن الأمير وبقية المصلحين بصورة عامة بعد مجيء الإمام المهدي عباس إلى السلطة. وقد كان المهدي- خلافاً لأسلافه- مؤيداً للعلماء المصلحين واتجاههم إلى السنة وعلوم الحديث. وقبلَ ابن الأمير لأول مرة منصب والي الأوقاف في صنعاء عام 1161هـ، ثم تخلى عن هذا المنصب بعد عام واحد.

وفي عام 1166هـ تعرض ابن الأمير لحملة جديدة ضده من عدد من الهادويين من آل الإمام القاسم لأنه لم يذكر الإمام القاسم في الخطبة الثانية. وقد وضع المهدي عباس معارضي ابن الأمير في السجن وعاقبهم بقسوة، كما أوقف ابن الأمير لمدة شهرين حتى تهدأ الأمور. وقرار الحكم المتساهل هذا الذي أصدره المهدي على ابن الأمير يدل على أن المهدي أصبح في صف المجددين.

لم تتوقف الأمور عند هذا الحد مع الهادويين، فبعد عقد من الزمن فر السيد عبد الله يوسف بن المتوكل إلى جبل برط مدعياً أنه ترك صنعاء بسبب تغيير مذهب أهل البيت وان ابن الأمير هو الذي سعى إلى هذا التغيير. وقد استغلت قبائل جبل برط- وهي ذو محمد وذو حسين- هذه الحادثة عام 1182هـ، وكان يقودهم قضاة بيت العنسي الذين كتبوا إلى علماء الدين في حوث، ومن ثم إلى العلماء في كوكبان وذمار، يشتكون من ابن الأمير والإمام المهدي عباس لتركهم مذهب أهل البيت وعقيدة الأئمة الأطهار، وطلب قضاة بيت العنسي أن يقفوا معهم ضد الدولة. ولكن جاءهم الرد حاسماً بأن ابن الأمير مجتهد وله الحق في الإدلاء برأيه ما دام مبنياً على الأدلة والبراهين. وحين علم ابن الأمير بهذه التهم الجديدة أعدّ نفسه للدفاع ضد قضاة بيت العنسي، وهذه بعض الأبيات من قصيدة كتبها دفاعاً عن نفسه:

قلتم بأن ابن الأمير محمداً
يخالف أهل البيت من غير مسعد
وليس اختلاف الآل في العلم ضائراً
ولا هو عيبٌ عند كل مُوحد
أجاب عليكم أهل حوثٍ وبيّنوا
لكم كل بحث بالدليل المؤكد
ومن كوكبان قد أتتكم نصائح
وفيها براهين بقول مجود
ومن سفح صنعاء من إمام معارف
ومن باذل نصح العباد ومرشد
كذا من ذمار قد أتتكم رسائل
وليس يرد الحق من كان يهتدي

وصنف أيضاً كتاب "الروضة الندية شرح التحفة العلوية"، لإقناع الذين يتهمونه بأنه ناصبي، بأنه مفرط في حب جده الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

توفي ابن الأمير بعد تلك الأحداث يوم الثلاثاء في الثالث من شعبان عام 1182هـ الموافق 13 كانون الأول 1769م، لكن تأثيره ظل باقياً على العلماء اليمنيين الذين تابعوه في الإصرار على دراسة كتب الحديث وعلومه، وفي مقولته المشجعة للاجتهاد المطلق والنابذة

للتقليد الأعمى. وربما كان من المناسب أن ننهي سيرة حياة ابن الأمير بالاستشهاد ببعض الأبيات من أشهر قصيدتين له تلخصان رسالته الإصلاحية. في القصيدة الأولى يثني على الحركة الوهابية لمحاولاتها الإصلاحية، وفي الثانية يتبرأ من الوهابيين بعد أن علم أنهم يمارسون التكفير، والقتل المتعمد الذي لا مسوغ له، والسرقة.

القصيدة الأولى في مدح الوهابيين كتبها عام 1163هـ

ومطلعها:

سلامٌ على نجدٍ ومن حلّ في نجد
وإن كان تسليمي على البعد لا يُجدي
لقد صدرت من سفح صنعاء سقى الحيا
رُباها وحيّاها بقهقهة الرّعد

ومنها:

وأقبحُ من كلّ ابتداع سمعتُه
وأنكاه للقلب الموفق للرشد
مذاهبُ من رام الخلاف لبعضها
يَعض بأنياب الأساود والأسد

ومنها:

علام جعلتم أيها الناس ديننا
لأربعة لا شك في فضلهم عندي
همُ علماء الدين شرقاً ومغرباً
ونور عيون الفضل والحقّ والزُّهد
ولكنهم كالناس ليس كلامهم
دليلاً ولا تقليدهم في غدٍ يُجدي

وفي القصيدة الثانية يدين الوهابيين لممارستهم التكفير ويقول :

رجعتُ عن النظم الذي قلتُ في النجدي
فقد صحَّ لي عنه خلاف الذي عندي
ظننتُ به خيراً، وقلت: عسى عسى
نجد ناصحاً يهدي الأنام ويستهدي

ومنها

وقد جاء من تأليفه برسائل
يكفر أهل الأرض فيها على عمد
ولفق في تكفيرهم كل حجة
تراها كبيت العنكبوت لمن يهدي

ومنها:

ولا تحسبوا أني رجعت عن الذي
تضمنه نظمي القديم إلى نجد
بلى كل ما فيه هو الحق إنما
تجاريك في سفك الدما ليس من قصدي
وتكفير أهل الأرض لست أقوله
كما قلته لا عن دليل به تهدي

القاضي محمد بن علي الشوكاني (1173-1250هـ/ 1760-1834م):

ولد القاضي محمد بن علي الشوكاني في هجرة شوكان يوم الاثنين 28 ذي القعدة عام 1173هـ، الموافق 12 تموز عام 1760م. كان والده قاضياً في صنعاء في ذلك الوقت فنشأ الشوكاني في بيئة علمية في صنعاء وقضى معظم أوقاته يدرس ويدرّس، وبعدها صار قاضي قضاة الإمامة لقرابة 40 عاماً خلال حكم ثلاثة من الأئمة القاسميين. منهم المنصور علي بن المهدي عباس، والمتوكل أحمد بن المنصور والمهدي عبد الله بن المتوكل.

والشوكاني هو العالم الأكثر شهرة في العالم الإسلامي من بين العلماء المصلحين اليمنيين، وذلك لانتشار مؤلفاته وقراءتها على مدى واسع ولاسيما في حقل التفسير والفقه وعلوم الحديث وأصول الفقه، وكذلك للاهتمام الذي لقيه من مجددي القرن التاسع عشر والقرن العشرين أمثال الصديق حسن خان القنوجي ومحمد رشيد رضا اللذين لعبا دوراً هاماً في نشر أعماله وآرائه الإصلاحية المشجعة للاجتهاد ونبذ التقليد. ويعد الشوكاني الأغزر في التأليف بين العلماء المصلحين الذين تكلمنا عنهم في

هذا المقال، إذ تتعدى رسائله وكتبه المائتين.

وعُدّ الشوكاني من قبل رفاقه وتلامذته، شأنه شأن السيوطي وابن حجر، مجدداً في عصره بل القرن الذي عاش فيه. وهو ينتمي بشكل واضح إلى مدرسة ابن الوزير وابن الأمير، واعتبر نفسه "محدثاً" قبل كل شيء كما سنرى في رواية هذا الحلم الذي اجتمع فيه مع ابن الأمير:

"...ثم سألته عند ذلك عن أهل الحديث ما حالهم في الآخرة؟ فقال بلغوا بحديثهم الجنة أو بلغوا بحديثهم بين يدي الرحمن- الشك مني- ثم بكى بكاءً عالياً وضمني إليه وفارقني فقصصت ذلك على بعض من له يد في التعبير وسألته عن تأويل البكاء والضم فقال لابد أن يجري لك شيء مما جرى له من الامتحان،..."

(البدر الطالع، ج2، ص138).

كان السيد عبدالقادر بن أحمد الكوكباني (توفي عام 1257هـ/1891م) من أشهر أساتذة الشوكاني، اشترك معه في حبه لعلوم الحديث، ويُعد مجتهداً مطلقاً، ويشترك ابن الأمير والشوكاني في زعامة تيار الإصلاح والتجديد في اليمن. وقد بدأ الشوكاني بإصدار فتاوى منذ كان في العشرين من عمره، وكانت تأتيه من عدة أماكن من اليمن ولاسيما من تهامة. وعندما كان في الثلاثين من عمره نظر إليه الكثير على أنه بلغ درجة المجتهد المطلق.

بعد ذلك في عام 1209هـ/1792م طلب منه الإمام المنصور علي حاكم اليمن أن يقبل منصب قاضي قضاة الإمامة بعد وفاة القاضي يحيى السحولي الذي كان يحتل هذا المنصب سابقاً. يقول الشوكاني إنه تردد في قبول المنصب لكنه رضخ للأمر بعد إلحاح زملائه وتلامذته خوفاً من أن يتولاه شخصٌ آخر أقل كفاءةً منه. وأصبح الشوكاني خلال توليه منصب قاضي القضاة لما يقرب من 40 عاماً شخصية رئيسية في الدولة، ولعب دوراً هاماً في تحقيق التبادل السلمي للسلطة. وقد سيطر على القضاء، وكانت فتاويه بمثابة اختيارات شرعية يرجع إليها قضاة الإمامة، كما كان يكتب الرسائل بالنيابة عن الأئمة، وباختصار أصبح المرجع المطلق بأمور الشريعة أثناء حياته.

وأهم مؤلفات الشوكاني التي انتشرت بشكل واسع "نيل الأوطار"، وهو شرح "منتقى الأخبار" لمجد الدين بن تيمية (توفي عام 652هـ/ 1254م)، ويتعاطى فيه الأحاديث المتعلقة بالأحكام، كتبه وهو ما يزال تلميذاً فهو لذلك معبر عن آراء الشوكاني الشاب. وكتب أيضاً تفسيره المشهور بعنوان "الفتح القدير"، وشرحاً لكتاب "الأزهار" بعنوان "السيل الجرار". كما اشتهرت بعض الرسائل التي كتبها ومنها رسالة بعنوان "إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي". هذه الرسالة كتبها الشوكاني رداً على الشيعة الذين قاموا بمظاهرات في صنعاء عام 1210هـ/ 1793م. وفيها يقدم الأدلة على عدم جواز شتم الصحابة، ويستدل بأقوال بعض الأئمة الزيدية ليبرهن أن لديهم إجماعاً على ذلك.

ورداً على كتاب "إرشاد الغبي" كتب السيد إسماعيل بن عز الدين النعمي (توفي عام 1220هـ/ 1805م) رسالة بعنوان "السيف الباتر المضيء لكشف الإيهام والتمويه في إرشاد الغبي". ويحاول النعمي أن يؤكد في "السيف الباتر" أن الأئمة الزيدية يرفضون الأحاديث المروية ممن وقف ضد الإمام علي بن أبي طالب وعائلته، ويرون أن مجموعات الحديث الشريف عند أهل السنة ممتلئة بمثل هؤلاء، ولذا يجب أن لا تُقرأ هذه الكتب من أشخاص غير مؤهلين وعلى غير دراية بالأخطار التي بداخلها. فيقول النعمي في رسالته هذه:

"فمن قرأ فيها- أي الأمهات الست- في جوامع الزيديّة وجب عليه النكير والتعزير كما قيّد إمامنا المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم عليه السلام بعض المدرسين فيها في الجامع الكبير بصنعاء المحمية، علم بذلك الكبير والصغير، وكما جاء عن الأئمة الهادين السابقين فإنهم منعوا قراءة هذه

الكتب في جوامع الزيدية وأمروا الناس أن يعكفوا على كتب أهل البيت الطاهرين ليكون أنزه للجاهل من الدخول في الضلال... فلذلك كره كثيرٌ من أئمتنا عليهم السلام لمن لا يثق من نفسه بالاستقامة وتفرّه مروجات الأقوال، ومزخرفات الضلال، أن يقرأ من الحديث ما فيه تلك الظواهر المشار إليها من نحو الجبر والتشبيه وصرف الفضل عمّن جعله الله سبحانه له إلى غيره...." (السيف الباتر، مخطوط، ص29- 30).

اعتبر الشوكاني النعمي من غلاة الشيعة ووصفه "بالرافضي" وله نزعة إمامية. ولم يكن النعمي هو الوحيد بين الهادويين المعارضين للشوكاني، بل شاركه في ذلك شيخ الشوكاني السيد يحيى بن محمد الحوثي (توفي عام 1247هـ/ 1831م)، وبعده عالم آخر يدعى محمد بن صالح السماوي (توفي عام 1241هـ/ 1825م) الذي يعرف "بابن حريوة". وقد عُرف عنه أنه اعترض على كتاب الشوكاني "السيل الجرار" في كتاب بعنوان "الغطمطم الزخار" الذي حرر ونشر حديثاً. تورط النعمي والحوثي في سلسلة من المتاعب في صنعاء في شهر رمضان عام 1216هـ/ كانون الثاني 1802م مما أدى إلى سجنهما من قبل الإمام. وتوفي النعمي في السجن عام 1220هـ/ 1805م، بينما أطلق سراح الحوثي بعد شهرين من سجنه وظل يعيش على هامش الحياة بقية حياته.

يقول الشوكاني عن أمثال النعمي والحوثي في كتابه "أدب الطلب":

"فإن الناس هم في هذه الديار زيدية وكثير منهم يجاوز ذلك فيصير رافضياً جلداً ولم يكن في هذه الديار على خلاف ذلك إلا الشاذ النادر وهم أكابر العلماء ومن يقتدي بهم، فإنهم يعلمون بمقتضى الدليل ولا ينتمون إلى مذهب ولا يتعصبون لأحد فهؤلاء هم الذي يقصدهم أولئك الرافضة بكل فاقرة ويرمونهم بالحجر والمدر ويسمونهم بميسم النصب" (أدب الطلب، ص75).

يقدم الشوكاني في كتابه "أدب الطلب" منهاجاً دراسياً ليصل به من يود أن يصبح مجتهداً ليصل إلى هدفه المنشود. ويؤكد الشوكاني على ضرورة تطبيق الاجتهاد تطبيقاً مطلقاً وهو السبيل الوحيد لمحاربة التقليد الذي أدى إلى المذهبية. وبعد إعداد المنهج وتحديد الكتب التي يجب أن يدرسها الطالب ليصبح مجتهداً يقول الشوكاني عن صفات المجتهد "..... فالمجتهد على التحقيق هو من يأخذ الأدلة الشرعية من مواطنها على الوجه الذي قدمناه ويفرض نفسه موجوداً في زمن النبوة وعند نزول الوحي وإن كان في آخر الزمان وكأنه لم يسبقه عالم ولا تقدمه مجتهد، فإن الخطابات الشرعية تتناوله كما تناولت الصحابة من غير فرق" (أدب الطلب، ص122).

تحولت اليمن في عهد الإمام المهدي عباس لصالح العلماء المصلحين وقدمت لهم الإمامة الدعم والحماية. ويبدو هذا واضحاً في التساهل في معاملة ابن الأمير كما روينا سابقاً رغم الحملة التي تعرض لها لأنه لم يذكر الإمام القاسم بن محمد. كما أن قيام الشوكاني بمنصب قاضي القضاة أكسبه حماية الأئمة الحكام له من الناس أمثال النعمي وابن حريوة. هذا الجو من التسامح ساعد الشوكاني على المضي في رسالته الإصلاحية دون توقف حتى مماته. وقد جعل الشوكاني من صنعاء مركزاً للنشاطات العلمية، وبالأخص دراسة علوم الاجتهاد، مع التركيز على علوم الحديث. وكان الشوكاني فخوراً بأن يقال عن صنعاء إنها أصبحت في عصره مركزاً للاجتهاد دون غيرها. يقول الشوكاني في "أدب الطلب":

".. فإن قلّ أن يوجد بمدينة من المدائن ما يوجد الآن في صنعاء من رجوع أهل العلم بها إلى ما صح عن الشارع وعدم تعويلهم على الرأي وطرحهم للمذاهب عند قيام الدليل الناهض، فإن هذه مزيّة وفضيلة لا تكاد تعرف في سائر الأقطار إلا في الفرد الشاذ، ...".

(أدب الطلب، ص78).

قصد الطلاب الشوكاني من جميع البلاد

الإسلامية للتلمذة على يديه، ومن تلامذته الشيخ عبد الحق البنارسي الهندي (توفي عام 1276هـ/1859م) الذي كان شيخاً للصديق حسن خان (توفي عام 1307هـ/ 1889م). ويصف الشيخ عبد الحق وصوله إلى صنعاء ليدرس مع الشوكاني بقوله: "إني ارتحلت من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم عازماً إلى مدينة صنعاء المحمية لزيارة العالم الرباني محمد بن علي الشوكاني فتحملت على نفسي مشاق الأسفار وتجرأت عليه بجوب البراري والبحار ومصائب الأمطار حتى وصلت إلى المدينة المذكورة ونزلت في بيت من بيوتها ثم كتبت إليه كتاباً وأرسلته صحبة بعض الناس فطلبني في ساعته وأكرمني غاية الإكرام وسألني عن مدة عمري وما درست فيه ثم أعطاني نسخاً من مؤلفاته وأمرني بمطالعتها حتى طالعت أكثرها وكنت أتشرف بزيارته في يومي درسه الاثنين والخميس وأسمع منه، فكان الشيخ يحل الغوامض والمعضلات حق حلها، .. فتلطف بي وعطف علي فقرأت عليه غالب المسلسلات ثم أجازني بجميع ما له من المرويات وكتب لي كتاب الإجازة بيده الشريفة وأعطاني ثبته "إتحاف الأكابر في أسناد الدفاتر"، وأشار إلي بنقله..".

(نزهة الخواطر، ج7، ص268).

ومقتدياً بشيخه الشوكاني كان السيد عبدالحق لا يتقيد بمذهب ولا يقلد أحداً بل يعمل بنصوص الكتاب والسنة ويجتهد برأيه، ولذلك جرت بينه وبين الأحناف في بلاد الهند مباحثات ومراجعات كثيرة في موضوع الاجتهاد والتقليد.

توفي الشوكاني بعد عام من وفاة الإمام المهدي عبدالله وذلك عام 1250هـ/1834م، وكان عمره 74 عاماً. وقد عاش حياة مليئة بالنشاطات العلمية والسياسية، وترك ذخراً من المؤلفات وعدداً من الطلاب الذين حملوا رسالة الإصلاح، ليس في بلاد اليمن فحسب، وإنما في العالم الإسلامي كله.

الخلاصة

على المدى الطويل كانت هناك نزعة تدريجية في اليمن نحو اعتماد وتبني كتب أهل السنة في الحديث. وقد اعتمد جميع المصلحين الذين ذكرناهم هذه الكتب بوصفها مصدراً للسنة، وللتخفيف من استمرار التقليد للمذاهب الفقهية. وبديهي أن يحمل فقهاء المذهب الهادوي على المصلحين لأنهم شعروا أن المصلحين قللوا من شان مذهبهم. ولأن كتب الحديث هذه بدأت تنتشر وتتوفر على نطاق واسع - ولاسيما بعد أن أجازها أئمة الزيدية- أصبح من الصعب على الهادويين أن يقفوا ضد التغيير الذي أحدثته هذه الكتب من حيث استخدامها كمرجع للسنة وبالتالي للأحكام الشرعية. إن تراث هؤلاء المصلحين اليمنيين ما يزال حياً، وسنظل نلمس تأثيرهم في بلاد اليمن وفي العالم الإسلامي كله.

المراجع

- أحمد بن صالح بن أبي الرجال، مطلع البدور ومجمع البحور، مخطوط.
- أحمد بن يحيى المرتضى، كتاب الأزهار في فقه الأئمة الأطهار، 1402هـ/1982م.
- أحمد بن يحيى المرتضى، كتاب البحر الزّخّار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، صنعاء: دار الحكمة اليمنية، تصوير 1409هـ/1988م.
- إسماعيل بن عز الدين النعمي، السيف الباتر المضيء لكشف الإيهام والتمويه في إرشاد الغبي، مخطوط.
- إسماعيل بن علي الأكوع، هجر العلم ومعاقله في اليمن، بيروت: دار الفكر المعاصر، 1416هـ/1995م.
- الحسن بن أحمد الجلال، ضوء النهار المشرق على صفحات الأزهار، صنعاء: مجلس القضاء الأعلى.
- حسين بن عبدالله العمري، الإمام الشوكاني رائد عصره، بيروت: دار الفكر المعاصر، 1411هـ/ 1990م.
- Husayn 'Abdullah Al-Amri. "The Text of an Unpublished fatwa of the Scholar al- Maqbali (d.1108/ 1728) Concerning the Legal Position of the Batiniyyah (Isma'iliyyah) of the People of Hamdan", in *New Arabian Studies* 2,

University of Exeter Press, 1994.

- رزاق الجحر، ابن الوزير اليمني ومنهجه الكلامي، جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع، 1404هـ/ 1984م.
- صالح بن مهدي المقبلي، الأرواح النوافخ، صنعاء: المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع،1985م.
- صالح بن مهدي المقبلي، العلم الشامخ، صنعاء: المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، 1985م.
- صالح بن مهدي المقبلي، المنار في المختار من جواهر البحر الزخار، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1408هـ/ 1988م.
- عبد الحي بن فخر الدين اللكهنوي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، راني بريلي (الهند): مكتبة دار عرفات، 1413هـ/ 1993م.
- محمد بن إبراهيم الوزير، العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط بيروت: مؤسسة الرسالة، 1412هـ/ 1992م.
- محمد بن إسماعيل الأمير، ديوان الأمير الصنعاني، بيروت: منشورات المدينة، 1407هـ/ 1986م.
- محمد بن إسماعيل الأمير، منحة الغفار على ضوء النهار، صنعاء: مجلس القضاء الأعلى.
- محمد بن علي الشوكاني، أدب الطلب، تحقيق: عبدالله الحبشي، صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمنية، 1979م.
- محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، بيروت: دار المعرفة.
- محمد بن علي الشوكاني، أسلاك الجوهر، تحقيق حسين بن عبد الله العمري، دمشق: دار الفكر، 1406هـ/ 1986م.
- محمد بن علي الشوكاني، السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، بيروت: دار الكتب العلمية، 1405هـ/ 1985م.
- محمد بن محمد زبارة، أئمة اليمن، الجزء الأول، تعز: مطبعة النصر الناصرية، 1372هـ/ 1952م.
- محمد بن محمد زبارة، نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف، صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني.
- محمد بن محمد زبارة، نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر، صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني.
- الإمام الهادي يحيى بن الحسين، كتاب الأحكام في الحلال والحرام، 1410هـ/1990م.

عوامل مقاومة أهل اليمن للحكم العثماني

ليس من المبالغة في شيء إذا قلت جازماً، إن الدولة العثمانية لم تلق محناً شديدة، تحملتها صابرة ولم تصادف مشقات متتالية خلال حكمها الطويل للولايات العثمانية التي كانت تدور في فلكها بعد أن شملتها بنفوذها، وتكونت منها الدولة العلية الواسعة الأرجاء الممتدة شمالاً إلى أواسط أوروبا الشرقية، وجنوباً إلى ثغر عدن، وشرقاً إلى حدود بلاد فارس، وغرباً إلى حدود المغرب الأقصى مثل ما لقيت من المتاعب والمشقات حينما حكمت اليمن فترتين من الزمن أولاهما من سنة 945 إلى سنة 1045هـ (1538-1635م) والأخرى من سنة 1289 إلى سنة 1336هـ (1872-1918م)، وذلك لما كانت تواجهه قواتها المرابطة في اليمن من تحدٍ عنيف، وصراع مسلح شديد من كثير من قبائلها العاتية التي لم تكف عن منازعتها ومحاربة وجودها على أرضها مما جعل القوات العثمانية في حال استنفار دائم.

إذ كانت لا تفرغ من إخضاع قبيلة لطاعتها إلا لتواجه عصيان قبيلة أو قبائل أخرى، ولا تخرج من معركة إلا لتدخل معها في معركة أخرى سواء أكانت منتصرة فيها أم مهزومة، مما تسبب عن ذلك خسائر فادحة في جنود الدولة الذين كانوا يسقطون قتلى في قمم الجبال ومنحدراتها، وعلى تلالها، وفي بطون الأودية السحيقة، ويكفي للتدليل على مقدار ما تكبدته من خسائر فادحة ما رواه مؤرخ الدولة العثمانية قطبُ الدين محمد بن أحمد النهروالي المتوفى سنة 990هـ في كتابه (البرق اليماني في الفتح العثماني) بقوله: ولقد سمعت المرحوم أحمد جلبي المقتول دفتر دار مصر يفاوض المرحوم داود باشا في حدود سنة ثلاث وخمسين وتسع مائة، فقال: "ما رأينا مسبكاً مثل اليمن لعسكرنا، كلما جهزنا إليه عسكراً ذاب ذوبان الملح، ولا يعود منه إلا الفرد النادر، ولقد راجعنا الدفاتر في ديوان مصر من زمن إبراهيم باشا إلى الآن، فرأينا قد جُهِّز من مصر على اليمن في هذه المدة ثمانون ألفاً من العسكر لم يبق منهم في اليمن ما يكملُ سبعة آلاف نفر"، ثم عقب المؤرخ النهروالي على هذا الخبر المفزع بقوله: "وقد تجهز بعد ذلك إلى هذا الزمان- أي زمان تأليف كتابه المذكور- أضعاف ما ذكره محمد بيك رحمه الله، وهلم جرا إلى آخر الزمان"[1] هذا ولأمر ما قيل المثل التركي بما ترجمته إلى العربية (اليمن مقبرة الأناضول).

وإذا أمعنا النظر في معرفة أسباب تحمل الدولة العثمانية هذه الخسائر البشرية الفادحة والأموال التي كانت تنفقها على موظفيها في اليمن، وعلى حملاتها العسكرية التي ترسلها إليها كلما ضاق عليها الخناق، واشتد على مراكزها الحصار لتأكد

---

(1) ا.ص 91-93.

للقارئ أنه لا يوجد ما يحملها على ذلك العناء وتلك الخسائر التي جرّت عليها إحناً ومحناً لا حصر لها- ما كان أغناها عنها- لولا الجهاد في سبيل توحيد الأقطار الإسلامية تحت لواء حكومةٍ واحدة. بعد أن تفرقت بهم السُّبُل، فضاعت مهابتهم، وبلغ بهم الهوان حداً لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم ضراً، ولا يجلبون لها نفعاً، وأصدقُ مثلٍ على ذلك ما جرى للمسلمين في الأندلس، فبعد أن كانت تحكمهم دولة واحدة شديدة الشكيمة مرهوبة الجانب تفرقوا شيعاً وطوائف فكانوا- كما وصفهم الشاعر بقوله:

وتفرقوا شيعا فكل قبيلة
فيها أمير المؤمنين
ومنبرُ

فصاروا حرباً على أنفسهم سلماً على أعدائهم، بل بلغ الأمر ببعض ملوكهم أن استعان بأعدائهم الإفرنج على قتال إخوانه الملوك الآخرين فأعانوهم حتى تمكنوا من القضاء على جميع هؤلاء الملوك واحداً بعد آخر، ثم قام الأسبان بعدئذٍ بمحو الإسلام من الأندلس بإكراه من نجا من المسلمين من القتل بنزع العقيدة الإسلامية من قلوبهم بعد أن ساموهم سوء العذاب في محاكم التفتيش حتى أرغموهم على التنصير إلا من كتب الله له السلامة بالفرار بدينه من الأندلس على شر حال.

وكان البرتغاليون قد أرسلوا حملات بحرية صليبية تبشيرية مزودة بأحدث الأسلحة النارية في ذلك الوقت إلى الشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح للسيطرة على طرق التجارة الدولية وإحكام قبضة أيديهم على مصادرها. ولكنهم كانوا في قرارة أنفسهم يهدفون إلى إعادة الكرَّة لشن حروب صليبية أخرى على ديار المسلمين، فقد أشاعوا أنهم سيهاجمون المدن المقدسة عند المسلمين في الحجاز (مكة والمدينة) وجابت سفنهم البحر الأحمر فنزل بعض جنودهم في جزيرة كمران، ثم تركها بعد دفن آبارها وخراب معاقلها وأبرز معالمها. ثم ذهبت سفنهم إلى عدن، ونزل بعض قواتهم على أرضها فلم يتمكن من البقاء لحصانة المدينة. وما إن علم السلطان قانصوه الغوري حاكم مصر في العصر المملوكي الجركسي بالخطر الداهم من وجود البرتغاليين في البحر الأحمر والبحر العربي حتى أرسل حملة عسكرية بحرية مزودة بأسلحة نارية بقيادة الأمير حسين الكردي، فخرجت من القاهرة في اليوم السادس من جمادى الآخرة سنة 921هـ الموافق (4 تشرين الثاني سنة 1515م) فكان أول أعمالها تحصين مرفأ جدة وإقامة سور ضخم ذي أبراج عالية حولها[1]، وقد تابعت هذه الحملة سير الحملة البرتغالية وجرت بينهما مناوشات هنا وهناك فابتعد الخطر البرتغالي عن الثغور العربية إلى حد ما لانشغالهم بتعزيز مراكزهم التي استولوا عليها في الإمارات الإسلامية الممتدة على السواحل الغربية للهند حتى يضمنوا لأنفسهم الاحتكار التام لمصادر التجارة في الهند.

ولما كانت الحملة المصرية في حاجة إلى التزود بالأطعمة والمياه وسائر ما يحتاج إليه البقاء في عرض البحر لمدد متفاوتة، فقد نزلت قواتهم في جزيرة كمران في ذي القعدة سنة 921هـ (1515م). واتصل قائدهم بالسلطان عامر بن عبد الوهاب ملك اليمن، وطلب منه العون والمساعدة لتستمر قواته مرابطةً حول الثغور العربية لحمايتها من العدو الصائل فاستشار السلطان عامر وزيره الفقيه محمد بن محمد النظاري فأشار عليه بالإسراع بمديد العون لإخوانه المسلمين، بينما أشار عليه وزيره الآخر علي بن محمد البعداني بأن يرفض قبول طلبهم لأنهم سيطلبون بعدئذٍ ما هو أكثر من ذلك، فأخذ السلطان برأيه[2]، لأمرٍ أراده الله، فما كان من قائد الحملة المذكورة إلا أن نزل بقواته في ميناء اللُّحيَّة. وكان السلطان قد أعد لهذا الأمر عدته فأمر جيشه بالتصدي للقوات المصرية فلم

(1) الفتح العثماني، ص45.
(2) روح الروح.

مقابلا أطلقت القوات المصرية نيران بنادقها على جنود السلطان فولّوا الأدبار من وجوهها لأنه لا قبل لهم بتلك الأسلحة النارية الحديثة التي لم تكن معروفة عندهم من قبل، وأخذت القوات المصرية بالتحالف مع قوى المعارضة اليمنية للسلطان في مطاردة قواته ومطاردته، أيضاً من مكان إلى آخر، حتى انتهى الأمر بقتله خارج العاصمة صنعاء، في شهر ربيع الآخر سنة 923هـ (1517م).

ثم أخذت القوات المصرية بعد أن خَلا لها الجوُّ في تثبيت أقدامها في اليمن لحكمها، ولما كان الخطرُ البرتغالي ما يزال ماثلاً للعيان حيث إن أسطوله ما يزال يجوب البحار العربية فقد رأت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الأول أن خير ما يدفع عن المسلمين الأخطار المحدقة بهم من قبل القوى الصليبية التي باتت تهدد كيان الدولة الإسلامية هو توحيدها في دولةٍ واحدة قوية منيعة تستطيع أن تصد قوى الشر المتربصة بها، ودحرها عن ديار الإسلام، وذلك على غرار ما فعله الملك العادل الناصرُ صلاح الدين الأيوبي رحمه الله حينما أسرع بتوحيد بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن في دولة واحدة وتمكن حينذاك من إرغام ملوك الصليبيين على الخروج من ثغور بلاد الشام ومن القدس بعد معركة حطّين المشهورة فقامت قوات السلطان سليم بالاستيلاء على بلاد الشام ومصر بحربٍ، وامتد نفوذها إلى الحجاز بالتبعية، أمّا اليمن فقد أعلن قائد القوات المصرية ولاءه التام للدولة العثمانية بعد أن صارت مصرُ ولايةً عثمانية، واستمر حكم الدولة العثمانية لليمن حتى انحسر الخطرُ البرتغالي الصليبي عن المنطقة كلها، فأمرت قواتها بالانسحاب منها سنة 1045هـ (1635م). ولكنها عادت إليها مرة أخرى بعد أن اشتد تكالبُ الاستعمار على ديار المسلمين في المائة الهجرية الثالثة عشرة "التاسعة عشرة الميلادية"، وذلك حينما قررت بريطانيا أن تجعل لها محطاتٍ في الشواطئ اليمنية تقف عندها سفنُها البحرية والتجارية في غُدُوِّها إلى الهند التي كانت قد استعمرتها وفي رواحها منها لتأمين طرق الملاحة لسفنها وللتزود منها بالفحم فاستولت على جزيرة ميون سنة 1214هـ (1799م)، ثم تخلّت عنها لعدم وجود مياه فيها صالحة للشرب، ثم عادت إليها مرةً أخرى سنة 1274هـ (1857م) بعد أن احتلت عدن سنة 1255هـ (1839م)، وكانت فرنسا قد حذت حذوها، وانزلت قواتها في المخاء لتحمي طرق ملاحة سفنها كما فعلت بريطانيا إلا انها دُحرت، ووجدت في الموانئ الإفريقية المحاذية لمرفأ المخاء، والتي كانت قد استولت، عليها ما يفي بغرضها المقصود فتركت المخاء مكرهةً، فقررت الدولة العثمانية حينئذٍ العودة إلى إرسال قواتها إلى اليمن، لاسيما بعد الاضطرابات التي اجتاحت تهامة خلال حكم الشريف حمود بن محمد صاحب أبي عريش على معظم تهامة وما آل إليه أمر البلاد بعده، فأرسل السلطان عبد المجيد حملة عسكرية بقيادة توفيق باشا والشريف محمد بن عون إلى الحديدة، وكان هذا بداية حكم الدولة العثمانية الأخير لليمن، وقد قبلت هذه المهمة على الرغم من معرفتها بهذه المشقة والصعوبة التي ستلقاها وتواجهها في حكم اليمن فهي على ذُكْرٍ بما جرى لها خلال حكمها السابق وما خسرته من جنودٍ وأموال، وما ضاعت عليها من فرص لتبقى قوية في بلادها، لكن الحمية الدينية والغيرة الإسلامية كانت كافيةً لإقناعها بالتضحية بإرسال جنودها إلى اليمن في مغامرة صعبة تعرف سلفاً أنه سيضاعف عليها الإنفاق والخسائر البشرية رغم أنها كانت تعاني في ذلك الوقت مشقة كبيرة في تدهور اقتصادها، ورغم ما كانت تكابده من ديون جسيمة تحملته راضيةً في سبيل الدفاع عن بلاد الإسلام، وفوق ذلك فإنها كانت هدفاً لمؤامرات ودسائس الدول الاستعمارية الكبرى التي كانت تحيكها لها للقضاء عليها حتى يخلو لها الجو فتمد براثنها لتنهش ما تشاء من الولايات العربية الإسلامية وهو ما حدث.

أما ما يقال عن الدولة العثمانية بأنها كانت

دولة استعمارية متخلفة- كما روج لهذا الزعم مؤرخو النصارى وكتابهم ومن يشايعهم من الأقوام الذين هم على شاكلتهم بقصد النيل من سمعة هذه الدولة، وما كانت تمثله خلال حكمها للبلاد العربية وغيرها من قوة وعزة وغيرة على الإسلام والمسلمين حتى انخدع بهذا الزعم كثيرٌ من الكتاب والمؤرخين العرب الذين وقعوا في أسر هذه الدعاية الماكرة فتلقوها بالقبول، فإنه لا يخرج عن حد قول الشاعر:

وتلك شكاة ظاهرٌ عنك عارها

مع أن الهدف الحقيقي لهذه الحملة الشنيعة المغرضة من دمغ الحكم العثماني بالاستعمار هو صرف نظر المسلمين عن السعي لوحدتهم تحت لواء حكومةٍ واحدة تجمعهم على كلمةٍ سواء فتعود لهم قوتهم ومهابتهم في قلوب أعدائهم فلا يجرؤ أحد على النيل منهم، كما كان ذلك حالهم في العصور الإسلامية الأولى، وكما كان الحال في إبان ازدهار الحكومة العثمانية حينما كان نفوذها شاملاً لأكثر بلاد الإسلام، وما إن بدأ الضعف يدب في أوصالها حتى أخذ أعداء الإسلام ينهشون في جسم كيانها مما يسر لهم تنفيذ مخططاتهم الرامية إلى إزالة هيمنة الإسلام من نفوس أتباعه، وإبعاده عن مجرى حياتهم بعد أن عجزوا- حرباً- في تحطيم رابطة المسلمين ووحدتهم فتَفَشَّوا في معاهدهم ومدارسهم ومؤسساتهم الثقافية على اختلاف مستوياتها كثيراً من شباب المسلمين الذين بهرتهم قشور الحضارة الغربية بأن فرَّغوهم من عقيدتهم الإسلامية فاستجابوا لتوجيه هذه المدارس التي ملأت قلوبهم بعاداتهم وتقاليدهم السيئة التي باعدت بينهم وبين مصدر هدايتهم شيئاً فشيئاً حتى حالت بينهم وبينه، وحينئذ طوعوهم لتنفيذ أغراضهم الخبيثة، وأنابوهم عنهم في محاربة الإسلام، معتقدين أن لن تعود له قوته المؤثرة في نفوس أتباعه بعد أن نزعوا من قلوبهم هويته.

ولهذا فإن أعداء الإسلام لا يفزعهم شيء مثل ما يفزعهم ظهور من يدعو المسلمين إلى الرجوع إلى دينهم الصحيح والتمسك به، وهو ما كان يسعى إليه جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا وغيرهم لأن فيه علاج مشكلاتهم الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وفيه إذا اجتمعوا على كلمة سواء عزُّهم وقوتهم، وقد لقيت هذه الدعوة استجابةً هنا وهناك إلا أن غالبية المسلمين وهم الذين لا حول لهم ولا طول ساروا وراء أئمتهم وزعمائهم في الطرق التي باعدت بينهم وبين دينهم، ولم يمتثلوا لقول الله تعالى:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأنعام: 153.

ثم انجرف شبابهم وراء أفكارٍ ومبادئَ وضعية حملتها إليهم عقول ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب لتقطع صلتهم بدينهم فوقعوا فريسةً لأعدائهم يتحكمون فيهم كما يشاؤون فازدادوا بذلك حيرةً في عقولهم، وإفلاساً في أخلاقهم الحميدة، وضياعاً في تحديد هويتهم، وتردياً في مهاوي التلف والهلاك حتى غدوا يطلبون من أعدائهم أن يساعدوهم على حلِّ مشكلاتهم، مع أنهم هم الذين أوجدوها لهم، وما قضية فلسطين- التي لم تظهر محنتها جليةً إلا بعد سقوط الخلافة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى، وفي عهد الانتداب البريطاني، ثم في عهد الاستقلال الوطني- عنك ببعيد، ومع التسليم جدلاً بأن الحكم العثماني حكمٌ استعماري فلنخضعه للمعايير التي هي أبرز سمات حكم الاستعمار لنرى إذا كانت تنطبق عليه أم لا؟.

لقد حكمت الدولة العثمانية أقطاراً عربية معروفة فلم يُؤثر عن الدولة العثمانية – وأنا أتحدث عن اليمن لمعرفتي بأحوالها معرفة تبلغ درجة اليقين –

ان حكمها لها كان من أجل السيطرة عليها طمعاً في امتلاك ثرواتها، وابتزاز خيراتها، وتسخير رجالها لمنافعها، وسوقهم كقطعان الماشية إلى بلادها لتعميرها، وتشييد قصورها وتطوير زراعتها وصناعتها، وشق طرقها، ومد جسورها وإخراج المعادن من جوف الأرض، ولاسيما الفحم الذي كان مصدر الطاقة المحركة للسفن والقطارات آنذاك، وهو ما كانت تفعله الدول الاستعمارية الغربية التي لم تقم حضارتها المعاصرة، وتزدهر بلدانها، وتنمو تجارتها إلا على خيرات المستعمرات، وعلى أكتاف العمال الذين كانت تأتي بهم منها، ولم تكن تلك الدول الاستعمارية تكتفي بسلب خيرات الشعوب المستَعْمَرة لها فحسب، بل إنها كانت تزرع بذور الشقاق والنزاع بين طوائف تلك الشعوب المغلوبة على أمرها، وتغرس الفُرقة بين طبقاتها التي كانت متآلفة من قبل، ولاسيما إذا كانت الشعوب المستَعْمَرَة شعوباً إسلامية. فإن الاستعمار كان يسعى حثيثاً إلى تمزيق وحدتها مستغلاً ما يوجد فيها من تباين عرقي أو قومي أو ديني أو مذهبي فيثير تلك الخلافات ويرسخها في أذهانهم لتتحول إلى مصدر فتنةٍ ونزاع دائم بين أبناء الشعب الواحد لتظل متأججة حتى يتمكن المستعمر من استمرار هيمنته على تلك الشعوب، وحتى بعد زوال حكمه العسكري عنها، وحصولها على الاستقلال الوهمي.

وهذا ما لم تفعله الدولة العثمانية في الأقطار العربية التي حكمتها، ولا في غيرها من الشعوب الأوروبية التي امتد نفوذها إليها البتة. وإذا اعتبر ظلم ولاة الدولة العثمانية وجورهم وقسوتهم الشديدة على الشعوب التي تولوا حكمها كدليل على استعمارية دولتهم، ولاسيما بعد ظهور النزعة القومية الطورانية التي أخذ بها حزب الاتحاد والترقي فأحفظ عليهم المسلمين ذوي القوميات الأخرى فإن ذلك ليس بدليل على أنها دولة استعمارية، ذلك لأن العسف والجور والقسوة في الحكم موجودة لدى الحكام الوطنيين، ولن اذهب بعيداً لإبراز الشواهد على صدق ذلك، وسأقتصر على أول شاهد، الا وهو الإمام يحيى بن محمد حميد الدين (1286- 1367هـ/ 1869- 1948م)، الذي أكتبُ عنه عن بينة لأني كنت معاصراً للشطر الأخير من حكمه، مع أنه في نظر من لا دراية له بتاريخه بطل استقلال اليمن، فلقد حكم ما حكم من اليمن خمساً وأربعين سنة، وهي المدة نفسها التي حكمت الدولة العثمانية اليمن في الفترة الأخيرة، مع العلم أن اليمن خضعت لحكم الإمام يحيى خضوعاً تاماً، بينما كانت الدولة العثمانية في حال حرب في اليمن- كما سبق وصف ذلك في بداية هذا البحث- فلم تنعم بأي نوع من الاستقرار والراحة، ولم تظفر بشيء من الهدوء والاطمئنان على الإطلاق، ومع هذا فمن المستحسن أن ننظر إلى ما تركه كل من الإمام يحيى والحكم العثماني، من مبرات خيرية ومحاسن خالدة شاهدة لأولها بالعدل والإحسان والخير والصلاح.

لقد حكم الإمام يحيى اليمن حكماً مطلقاً اتسم بالظلم المتناهي في الشدة والقسوة فلم يَبْنِ مدرسة، ولم يعمر مأثرة، ولم يهتم بالتعليم ومكافحة الأمراض وإسعاد المواطنين والرفق بهم، وكان لا يهتم بشيء من أمور الدين، وهو الذي لقّب نفسه أمير المؤمنين، وإمام المسلمين، إلا بالزكاة فقط، أما بقية أركان الإسلام الخمسة فلا شأن له بها، بل إنه قد حصر اهتمامه كله على أخذها أضعافاً مضاعفة حتى أفقر الزراع، وكان إذا استدعى الأمرُ لإرساله بعض جنوده لجباية الزكاة أو لقمع اضطراب أو فتنة أو لأي سبب من الأسباب فإنه يلزم جنوده وعساكره بالنزول في بيوت المواطنين مرحلة بعد مرحلةٍ منذ خروجهم من صنعاء حتى ينتهوا إلى المكان المقصود، وهناك يتفرقون على بيوت الأهالي، وعليهم أن يوفروا لهم جميع لوازم الإقامة من أكل وشرب، ويسمى هذا

الاحتلال في عرف أهل اليمن خطاطاً[1]، ولا ينصرفون من هذه البيوت إلا بعد أن يتحقق لهم تنفيذ المهمة التي كلفوا بتنفيذها، وبعد أن يأخذوا أجور إقامتهم، عن كل يوم مقداراً معلوماً. وقد يقتضي الأمر أحياناً أن يستدعي الإمام رجال إحدى القبائل فيسلطها على قبيلة أخرى لإخضاعها لطاعته أو لتأديبها، وهذه سنة متبعة لدى أئمة اليمن، وقد أفصح عنها الإمام أحمد بن سليمان من أعيان المائة السادسة للهجرة بقوله من قصيدة طويلة:

ولأضربن قبيلة بقبيلة
ولأملأنّ بيوتهن نيلحا

أما حكم الدولة العثمانية فقد كان ينصب لجنودها مخيمات خارج المدن أو القرى التي يمرون بها أو يقصدونها فهذا الوزير بهرام بن مصطفى باشا الذي عُين والياً لليمن فإنه بعد وصوله إليها سنة 977هـ (1569م) أحب البقاء في مدينة ذمار ولكنه لم يسكن فيها، وأقام مخيماً إلى الجنوب منها عرفت فيما بعد بمدينة ملحظ، وابتنى فيها جامعاً كبيراً وبنى أمراء ورجال دولته مساكن لهم، وسكن فيها خمس سنوات وضرب فيها السكة[2]، وحينما قدم الوالي أحمد مختار باشا إلى صنعاء بجيشه سنة 1289هـ (1873م) عسكر في الضاحية الجنوبية بصنعاء[3]، ولم يدخل أحد من جنوده المدينة. ولما اعتدى أهل مدينة ذمار على دار الحكومة فيها سنة 1309هـ (1892م) وأحرقوا أوراق ودفاتر الدولة، ثم أخربوا قصر ذمار الذي بناه علي باشا في المائة الهجرية الحادية عشرة سار الوالي العثماني المشير أحمد فيضي باشا من صنعاء على رأس حملة عسكرية كبيرة لتأديب مرتكبي تلك الجرائم فكان يعسكر خارج المحطات التي ينتهي إليها سيره اليومي حتى بلغ ذمار فأقام مخيماً خارج المدينة في المكان الذي أمر هذا الوالي ببناء قشلة (قشلاق) ثكنة عسكرية لحامية ذمار. ثم استدعى إليه أعيان المدينة فحضروا. وعلى رأسهم الشيخ صالح صنمي فسأله عن سبب إحراق أوراق الدولة وهدم القصر فأجاب عليه بقوله: لقد فعلنا ذلك نكاية بكم. ولن نكفُ عن محاربتكم، وكانت بندقيته، وهي من ذوات الشفط في يده، وفي بطنها رصاصة واحدة، ويحتفظ بأخرى في فمه ثم قال- كما سمعت والدي الذي روى لي الخبر. ولعله كان حاضراً هذا الموقف فقد كان عمره آنذاك (28) سنة. "والله ما ندّي صبح ساعة" أي لن نعطيكم صلحاً أبداً حتى ساعة واحدة فلن نوافق عليها. فلما سمع الوالي إرعاده وإبراقه وتهديده ضحك ساخراً منه. ثم خلاه وشأنه، وأمر على الفور ببناء ثكنة في مشارف المدينة لترابط فيها حامية ذمار فتحول دون تكرار مثل هذه الأعمال الهمجية.

وإلى جانب هذا الرفق فقد قام الحكم العثماني غير المستقر في اليمن ببناء مرافق عظيمة انتفعت بها الدولة آنذاك، وانتفع بها من جاء بعدها- وما تزال حتى اليوم ينتفع بها- وهي شاهدة على مكانة هذه الدولة، فقد بنت الدولة العثمانية في كوكبان قشلة لا نظير لها في اليمن، وكان الباني لها الوالي أحمد رشدي سنة 1312هـ الموافق بالتاريخ العثماني الشمسي 1310(1894م)، كما أعاد الوالي أحمد فيضي باشا بناء باب اليمن سنة 1316هـ (1898م) على ما هو عليه اليوم بعد أن كان ملتوياً لا يرى من الخارج حتى لا يكون هدفاً لقذائف المدافع حينما تتعرض صنعاء لهجوم من يريد بها شراً، وأعيد كذلك بناء باب شعوب، كما أعاد المشير عبد الله باشا الشركسي عمارة باب السبحة سنة 1318هـ (1900م) وجعل له سقيفة رائعة الجمال، فكان تحفة فنية، وقد هدم

---

(1) الخطاط: تفريق الجيش على الأهالي للقيام بنفقتهم أكلا وشربا إما على جهة المعونة للدولة، وإما للتنكيل والعقوبة بهم.
(2) الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان.
(3) المقتطف (96)، وقد بنى في هذا المكان العرضي (الأورطي) الأسفل والعرضي الأعلى.

كلا البابين بعد قيام النظام الجمهوري سنة 1382هـ (1962م)، وشرع المشير عبد الله باشا بشق شارع مستقيم يقسم مدينة صنعاء نصفين يبتدي من ميدان القصر شرقاً إلى باب السبحة غرباً على غرار شوارع حي بير العزب الذي اختطه الولاة العثمانيون في حكمهم الأول لليمن 945- 1045هـ (1538- 1635م) ولكن هذا العمل تعثر بعد أن انجز منه ما يقرب من نصف كيلومتر من كل من الطرفين، أي من طرف الميدان إلى نهاية سوق الملح شرقاً، ومن باب السبح إلى باب النهرين غرباً. كما أكمل بناء العرضي (الأورطي) ثكنات الجيش التي شرع في بنائها الوالي أحمد أيوب باشا، وبنى فيها مسجداً ومنارة لا نظير لهما في اليمن، وبنى فيها حماماً بخارياً، كما بنى أيضاً العرضي الأعلى الخاص بجنود وضباط المدفعية، وبنى الحكم العثماني دار الحكومة[1]، (المقر الرئيسي للوالي العثماني) في ميدان القصر (ميدان اللقية اليوم) وهو المعروف اليوم بكلية الأركان، كما بنى داراً في حي بير العزب لتكون مسكناً للوالي، وبنى بجوارها مدرسة الصنايع التي حولها الأمام يحيى إلى سجن، ثم حولها إلى دار للضيافة، ثم تحولت في العهد الجمهوري إلى وزارة للداخلية، وهي في الوقت الحاضر متحف عسكري، كما بنى مدرسة للبنات بجوار مدرسة الصنائع والتي هي اليوم وزارة التربية والتعليم، وبنى الحكم العثماني مستشفى ضخماً في منتصف العاصمة ليسهل الوصول إليه من جميع أحياء المدينة. وبنى المدرسة الحربية وعدداً من المدارس الرشدية (الثانوية)، ودار المعلمين وأنشأ مطبعة كانت تطبع فيها (جريدة صنعاء) التي كانت تصدر باللغتين العربية والتركية، وبنى ثلاث قلاع في جبل نقم (جبل صنعاء) لحمايتها من هجوم القبائل كما بنى قلاعاً وحصونا على امتداد الطريق التي تربط صنعاء بالحديدة، وشق طرقاً في الجبال لجر المدافع بالبغال، وربط مدن اليمن بعاصمتها بخط السلك (التلغراف)، ودرّب عدداً كثيراً من شباب صنعاء والحديدة وتعز على استخدام السلك، ودرب آخرين على الأنظمة الحسابية والإدارية والشئون العسكرية بعد أن درب عدداً من السرايا من الشباب اليمني لحفظ الأمن ولحماية مداخل العاصمة وضواحيها، وقد سميت هذه السرايا بالحميدية (نسبةً إلى السلطان عبد الحميد).

وقام الحكم العثماني ببناء مثل بعض هذه المرافق في كل من تعز والحديدة ولا تخلو مدينة (من المدن الكبيرة) من وجود ثكنة للجيش ومقر للحكومة ومدرسة ابتدائية ومدرسة رشدية ومستشفى.

هذا هو ما خلفه الحكم العثماني في اليمن في المرحلة الأخيرة على وجه الاختصار، ويستطيع القارئ الكريم من خلال المقارنة بين الحكم الوطني الذي يمثله الإمام يحيى وبين الحكم غير الوطني، وهو الحكم العثماني أن يقرر أي الحكمين أفضل بعد أن أسفر الصبح لذي عينين، على أن الإمام يحيى كان أكثر من استفاد من الآثار الباقية للحكم العثماني، ومع هذا فإنه قد عبث بكثير منها فقد انتزع عدداً من مباني المستشفى العثماني وبنى فوق أحدها عدداً من الطوابق وجعلها مقراً له وسماها (دار السعادة) ثم بنى بجوارها داراً أخرى سماها (دار الشكر) وحول بقية مباني المستشفى إلى دوائر حكومية لتكون تحت سمعه وبصره، وبنى مستشفى في أقصى الركن الجنوبي الغربي من المدينة وهو لا يصلح إلا أن يكون إسطبلاً للحيوانات فهو أشبه ما يكون بدهليز، وكان أصعب شيء على المريض هو الوصول إليه لبعده عن الأحياء السكنية لأنه لا توجد آنذاك وسائل نقل في العاصمة، وكان يوجد فيها عدد من السيارات في عهد الإمام يحيى، ولكنها كانت خاصة به، وحول الإمام مسكن الوالي العثماني إلى

(1) حولها الإمام يحيى إلى مصنع للنسيج ثم كانت لفترة قصيرة وزارة للداخلية في العهد الجمهوري، فمقراً لرئاسة شرطة النجدة وهي في الوقت الحاضر كلية الأركان.

مدرسة علمية سنة 1344هـ (1926م) لحاجة في نفس يعقوب، وهو تعليم أولاده الصغار بعد أن استدعى عدداً من العلماء من خارج صنعاء مع علماء من صنعاء للتدريس فيها، ولم يكن غرضه منها نشر العلم لمن يرغب في طلبه إذ كان لا يسمح لأحد بالالتحاق بها إلا بأمره شخصياً على شرط أن يكون في الغالب من الأسر التي تحتكر العلم والسلطة لنفسها، وبنى بجوار داره مسجداً على غرار (المدرسة البَكَيْرِيَّة)[1]، التي بناها الوزير حسن باشا سنة 1005هـ (1596م)، وسلب منها أحسن فراشها وأخذ منها أيضاً ساعتي حائط لتزيين مسجده المذكور المعروف بقبة المتوكل.

وإذا انتفت عن الحكم العثماني الصفات الراسخة في طبيعة الحكم الاستعماري وهي ما لم يَسِمْها بها أحد من أهل اليمن آنذاك حتى الذين كانوا يناصبونها العداء، ويحاربونها؟؟ فما هي إذاً دوافعهم لمحاربة الحكم العثماني؟ لقد كان الاعتقاد السائد لدى من لم يعرف بواطن الأمور من غير أهل اليمن أن ذلك يعود إلى طبيعة فيهم، وهي كراهية حكم الأجنبي أياً كان، وهذا غير صحيح إذ لو كان هذا هو السبب الحقيقي لما قبلوا أن يحكمهم من يأتي إلى بلادهم من خارجها ويقيموه إماماً عليهم، ويرضخوا لحكمه، وهو بمفهوم العصر الحديث أجنبي.

والصحيح في ذلك أن المذهب الزيدي الهادوي الذي جاء به إلى اليمن مؤسسه الأول الإمام الهادي يحيى بن الحسين الرسي سنة 284هـ (897م) قد حصر الإمامة هو ومن قام بعده من الأئمة في أولاد السبطين الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فقط، واحتكروها لأنفسهم حتى جعلوها أصلاً من أصول الدين. فإذا تولاها أحدٌ من غير أبناء هذين البطنين، وحكم المناطق التي يدين أهلها بالمذهب الزيدي الهادوي فإنه يعتبر غاصباً للحكم، باغياً يجب الخروج عليه لمحاربته والقضاء عليه. ولهذا فإن نشوان بن سعيد الحميري المتوفى سنة 573هـ (1177م) ما كاد يعلن نفسه إماماً حتى ثارت ثائرة من ينتسب إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في اليمن، وأنكروا عليه صنيعه، وظل هدفاً لسهام النقد حتى بعد وفاته وإلى أن انتهى النظام الإمامي في اليمن. وكان على رأس من أنكر عليه بعد وفاته الإمام عبد الله بن حمزة المتوفى سنة 614هـ (1217م) فقد ذكر في أرجوزته التي أورد فيها أصول العقائد عند الزيدية التي مطلعها:

الحمد للمهيمن المنان
ذي الطول والعزة والسلطان

رأيه فيه وحكمه عليه. فقال تحت عنوان (التفضيل):

حمداً لمن أيدنا بعصمته
واختصنا بفضله ورحمته
صرنا بحكم الواحد المنان
نملك أعناق ذوي الإيمان
ومن عصانا كان في النيران
بين يدي فرعون أو هامان
لو أنه صام وصلى واجتهد
ووحد الله تعالى وعبد
وصير الثوب نظيفاً والجسد
وقام بالطاعة بالعزم الأشد
ثم عصى قائمنا المشهورا
وقال: لست تابعاً مأمورا
محتسباً لأمركم مقهورا
لكان ملعوناً بها مثبورا
وكان من أهل الجحيم الحامية
وأمه فيها يقيناً هاوية
وما الذي يدري الجهول ماهيه؟
نارٌ تصليه بها الزبانيه
إن بني أحمد سادات الأمم
بذا لهم رب السماوات حكم
من أنكر الفضل لأذنيه الصمم

(1) سمعت أن أحد أقارب الإمام يحيى كان يريد أن يحولها إلى مخزن لعلف دواب الإمام لأنها لا تصح فيها الصلاة لكونها من عمل كفار التأويل، ولا قربة لكافر.

من عنده السر سواء والعلم
قد قال: من أنكر فضل الأخيار
أعني به بيت النبي المختار
مقالة يغضب منه الجبار
ليس لحكم الله فينا إنكار
أنكر فضل الفاضلين بالنسب
وهو إلى نيل العلا أقوى سبب
نقول هذا إن شكا وإن عتب
لا يستوي الرأس لدينا والذنب

ثم أخذ في وصف نشوان بن سعيد الحميري، وتعريف الناس بمكانته العلمية والدينية والاجتماعية طالباً منهم الحكم عليه لأنه دعا إلى نفسه بالإمامة وهو لا حق له فيها:

ما قولكم في مؤمن صوام
موحد مجتهد قوام؟
حبر بكل غامض علام
وذكره قد شاع في الأنام؟
لم يبق فن من فنون العلم
إلا وقد أمسى له ذا فهم
وهو إلى الدين الحنيف ينتمي
محكم الرأي صحيح الجسم
وماله أصل إلى آل الحسن
ولا إلى آل الحسين المؤتمن
بل هو من أرفع بيت في اليمن
قد استوى السر لديه والعلن
ثم انبرى يدعو إلى الإمامه
لنفسه المؤمنة القوامه
ثمت أجرى بالقضا أقلامه
وأنفذت أسيافه أحكامه
وقطع السارق والمحاربا
واستل للعاصين سيفاً قاضبا
وقاد نحو ضده المقانبا
وبث في أرض العدا الكتائبا
ما حكمه عند ثقاة الفضل
لما تناءى أصله عن أصلي

ولم يكن من معشري وأهلي
أهل الكساء موضع علم الرسل

وبَيَّنَ حكمه عليه بقوله:

أما الذي عند جدودي فيه
فيقطعون لسنه من فيه!!
ويؤتمون ضحوة بنيه
إذ صار حق الغير يدعيه

ثم قال معللا وجود الفرق بين العلويين وغيرهم وهم الذين لا يحق لهم أن تكون فيهم الإمامة:

ليس على ربي اعتراض لأحد
يفعل ما شاء تعالى ومجد
لم يجعل الكلب سواءً والأسد
فاطرحوا ثوب العناد والحسد

وهذا هو السبب الذي جعل أئمة اليمن وأتباعهم يحاربون الحكم العثماني في الفترتين الأولى والأخرى، وهو السبب نفسه الذي حاربوا من قبل الحكم الأيوبي في اليمن 569- 626هـ (1173-1238م) وكذلك حكم الدولة الرسولية 626- 858هـ (1328- 1454م)، ثم الدولة الطاهرية 858- 923هـ (1454- 1517م)، وغيرهم من قبل ومن بعد، فإذا رأيت ثمَّ معارضة لأي حكم، فإن وراء ذلك إماماً يستفز أتباعه، ويثير فيهم حمية الجاهلية للقتال معه حتى ينفرد بالحكم ويستأثر بالسلطة، ولو ترك القطا لنام، وليس أدل على ذلك من أن الإمام يحيى حميد الدين حينما عقد ائتلاف (صلح) دعان في شوال سنة 1329هـ (1911م) مع المشير أحمد عزت باشا الوالي العثماني في اليمن حتى تتفرغ الدولة العثمانية لصد عدوان إيطاليا على طرابلس الغرب أثنى الإمام على الدولة العثمانية، ووصفها بأنها حامية الإسلام وناصرة المسلمين، فاستغرب أتباع الإمام يحيى من سرعة تحوله بين عشية وضحاها من إمام محارب يدعي أن الحق معه وحده إلى رجل يشيد بالدولة العثمانية، ويمجد أعمالها ويثني عليها، لأنه إذا

كانت محاربته للعثمانيين صادرة عن عقيدة دينية صادقة، وليس من أجل دنيا يصيبها فلماذا قبل الصلح معهم؟، وقبل راتباً شهرياً يأخذه منهم حتى صار من المؤلفة قلوبهم، وهم في نظره ونظر أتباعه بغاة، وإن كان من أجل الدنيا فلماذا لم يفصح عن ذلك بوقته، ولا حاجة للقتال وسفك دماء المسلمين من كلا الطرفين، وهذا هو ما عبر عنه الشاعر القبلي زاهر عطشان بقوله:

قالوا: متبر صلّح دعّان
فيه متّوا رجال
عليش متّوا؟ وكيف تمّوا
وكيف المقال
لكن وليش ما يتّوا
قبل بدع القتال

والمعنى لقد اصطلح الرجال المتقاتلون في بلدة دعان، لكن على أي شيء اتفقوا؟ وكيف اتفقوا؟ وكيف نقول ذلك للناس؟ ولكن لماذا لم يتفقوا من البداية قبل بدء القتال؟

أما أتباع غير المذهب الزيدي وهم أكثر سكان اليمن فإنهم كانوا لا يجدون في أنفسهم غضاضة تجاه الحكم العثماني على الرغم من جور وقسوة وظلم بعض الولاة العثمانيين، بل كان بعضهم يفضله على حكم الأئمة؟ ولهذا فإنه ما كادت تعلن الحكومة العثمانية في اليمن على لسان واليها محمود نديم باشا آخر ولاتها في اليمن بأمر من السلطان محمد رشاد أنها تخلت عن حكم اليمن بعد الهزيمة التي حلت بها في الحرب العالمية الأولى، وأنها قد استدعت الإمام يحيى من السودة مقر إقامته إلى صنعاء ليتسلم من الوالي العثماني المذكور ما كانت تحكمه الدولة حتى اشتد بأتباع المذهب الشافعي البلاء وعظم عليهم المصاب، فكتب بعض أعيان لواء تعز برقية إلى القائد العثماني علي سعيد باشا قائد الحملة العثمانية على الاستعمار البريطاني في عدن، وكان في مقر قيادته في لحج بما هذا نصه: "حضرة القائد الكبير للجيوش الإسلامية بلحج سعيد باشا دام نصره.

قد علم العموم أن دولتكم السبب الوحيد لإحياء حفظ هذه النقطة اليمانية عن تعدي الأعداء عليها، وأنها لولا ما أبرزتموه من الثبات والمتانة الدينية، وبذل النفس للجهاد في سبيل الله حتى صرتم مظهراً للتوفيق والنصر الإلهي، والظفر غير المتناهي فقلدتم أعناق ساكن القطعة اليمانية طرق الامتنان الذي لا يقوم بشكر أقلها الشان، وأصبحتم شمساً مشعة على هذه القطعة يهتدى بنوركم في ليل الخطوب فاجتذبتم أزمة القلوب، وحزتم أعظم الأجور من علام الغيوب. وبينما العموم يشكرون فعلكم الجميل إذ شاعت أخبار مفجعة وحركات مدهشة فأظلم ليل الخطب واعتكر، بعد أن كان فجر الإصباح أسفر. وتأيدت تلك الإشاعات بسحب الموجود في المركز من القوة وتعطيل المستشفى، وبيع الأشياء الأميرية. وأخذ الأمراض إلى غير ذلك مما ترى معه الأفكار مضطربة والآراء مشتتة، والعقول مختلفة، والأخبار غير مؤتلفة، والعموم ناظرون إلى رأيكم الصائب ودهائكم العظيم، واليقين العام بديانتكم وشهامتكم عدم الاعتماد على إلقاءات الأعداء مع أنه يتصور خديعتهم بكل خبر مشابه للصدق، وتزويراتهم غير مجهولة، ولو كان ذلك حقاً فلا يخفاكم حبنا للدولة العلية العثمانية قديماً وحديثاً وارتباطنا بعاصمة الخلافة لا نستبدل به غيره، وقد بذلنا- أهالي هذا اللواء (تعز)- النفس والنفيس في المظاهرات والمعاونات بأمر الجهاد، والأمل العمومي بديانتكم أن لا تتركوا التبليغ إلى مقر الخلافة بأننا مرتبطون بها وغير منفكين عن سلطتها. ونسألكم بالله أن لا تتحركوا حتى تعلمونا السبب الباعث لهذه القطعة هملا وبتر عضو من الإسلام، ونرجوكم تسكين روعة العموم بإنبائنا بالنتيجة. وها نحن منتظرون التفاتكم الكلي علينا ببذل مزيد العناية بالمراجعة إن كان لهذه الإشاعة

صحة فرمان 20 صفر 1337هـ، 17 تشرين الثاني سنة 1334 رومي (المصادف للتاريخ الميلادي 1918)[1].

وكتب تحتها أسماء كاتبي هذه الشكاية وعلاماتهم. هذا ما سنح ذكره بحسب علمي والله من وراء القصد.

مراجع البحث:

- أئمة اليمن، محمد بن محمد زبارة، مطبعة النصر، تعز.
- الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان، عبد الصمد بن إسماعيل الموزعي، من أعلام المائة الحادية عشرة للهجرة.
- البرق اليماني في الفتح العثماني، قطب الدين النهروالي، أشرف على طبعه الشيخ حمد الجاسر.
- أنباء الزمن ليحيى بن الحسين.
- روح الروح في ما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، عيسى بن لطف الله بن المطهر بن شرف الدين.
- سيرة الإمام عبد الله بن حمزة
- الفتح العثماني الأول لليمن، دكتور سيد مصطفى سالم، معهد البحوث والدراسات العربية.
- المقتطف من تاريخ اليمن، عبد الله بن عبد الكريم الجرافي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1370هـ/1951م.
- هدية الزمن في أخبار لحج وعدن، أحمد فضل العبدلي، المطبعة السلفية.

(1) هدية الزمن، 249-250.

(نــار ضروان)..
في (نقش مسندي)
وفي (كتب التراث)

قال النقش المسندي
(سي/ 323 / C):

"وجاء "الثيل"[1] مهاجماً من جبل (ذقنم) ومدمراً كل مظاهر الحياة في كل أرض اجتازها، حتى وصل هذا (الثيل) إلى أراضي (مأذن) لهذا يشكر أهل (دمهان- الحقة وما حولها-) إلههم (تألب ريام) لأنه حمى بلدتهم ومعبدها ودورها... الخ".

بقلم: مطهر الارياني

وقال البكري[2]:

"ضروان" بفتح أوله وثانيه، وفتح الواو، هو: الموضع الذي كانت فيه "نار اليمن" قال الهمداني: وهذه النار كانت في بعض قرانات مثلثات الحمل، فأقامت قراناً كاملاً، فبلغت حدود شبام أقيان ومن الشمال بلاد الصيد، إلى ذي بين، ثم راجعاً إلى حُباشة، وأسفل مَحصم، إلى مَدَر، فبيت الجالد راجعة إلى مكانها. وقال العلماء: ضروان هي الجنة التي اقتص الله خبرها في سورة (ن)، وقال: كان يقال لمخرج النار "حزبي الخشاب" جمع خَشب، وهو ما كان من الحزن يأكل الحذاء... الخ".

وقال القرطبي[3]:

1. الثيل: هو سيل الحمم البركانية المنصهرة كما سيأتي، وقد داهم (الثيل) (الحقة – حقة همدان-) وكاد يطمها ولكنه انصرف عنها نحو الجنوب الشرقي، فحق على أهل (دمهان) حمد إلههم على هذه الألطاف.

2. عن (معجم ما استعجم)، ج3، ص895، لعبد الله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي المتوفى (487 هـ/ 940م)، مع تصحيح (بيت الحالك) إلى (بيت الجالد) و (ذي أبين) إلى (ذي بين) من واقع المنطقة وأول من صححها القاضي العلامة محمد بن علي الأكوع- رحمه الله- في الإكليل، ج1، ص33.

3. عن (الجامع لأحكام القرآن) المعروف بـ(تفسير القرطبي) لمؤلفه محمد بن أحمد الخزرجي الأندلسي القرطبي، وصحفت فيه (ضروان) إلى (ضوران) وهو تصحيف من النساخ أو عند الطبع فقد كان أكثر نقل علماء الأندلس عن الهمداني فيما يذكرون من أخبار اليمن، والهمداني، لم يذكر إلا (ضروان)، كما تقدم عند (البكري)، و(القرطبي) إن لم يرجع إلى الهمداني فهو يستشهد في تفسيره بـ(البكري) بما في ذلك

" وكانت الجنة بأرض اليمن، على بعد فراسخ ويقال فرسخين من صنعاء، وهي جنة بضوران- ضروان- ، ابتلى الله أصحابها بأن أحرق جنتهم، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى عليه السلام بيسير".

مدخل:

كان معلوماً أن النقش المسندي (سي/ C/323) الذي استنسخه المستشرق النمساوي الكبير (إدوارد جلازر) في إحدى زياراته الأربع لليمن، ما بين عامي 1882م. و 1889م، يتحدث عن الثورة البركانية الكبيرة التي حدثت في المناطق القريبة من (صنعاء) إلى شمالها وشمالها الشرقي، وذلك في تاريخ اليمن القديم، قبل ظهور الإسلام ببضع مئات من السنين.

وهو حدث رهيب، أحدث في وقته دوياً هائلاً، حتى لقد ظل صداه يتردد في أذهان الأجيال إلى أن أحيا القرآن الكريم رجعه في آيات من سورة (القلم) وبالتالي تكرر ذكره في عدد من كتب التراث بأسماء مختلفة أشهرها (نار ضروان).

ولكن فرصة الإطلاع على النقش كما هو مدون في الـ(كوربوس) لم تتح لكاتب هذه الأسطر إلا منذ مدة ليست بعيدة[1].

وعند إطلاعه عليه، كان منهمكاً في تدوين بعض المفردات اللغوية، بما لها من الدلالات الخاصة في اللهجات اليمنية، وذلك لإنجاز الخطوة الثانية في المشروع اللغوي (المعجم اليمني٢) بإصدار (المعجم اليمني"ب") من هذا المشروع.

ولهذا ولما في النقش من نقص كبير ثبط عزيمة المبادرة أولاً إلى نشره كاملاً، كان الاكتفاء منه مبدئياً، بمفردةٍ لغوية واحدة، ولكنها كلمة ذات قيمة كبيرة، لأنها من الناحية البنائية، وأهم من ذلك من الناحية الدلالية، تسد ثغرة في البنية العامة للغة العربية، وذلك من حيث (المنطوق) و(المفهوم) كما سيتضح.

أما هذه المفردة فهي كلمة (الثيل) التي تكرر استعمالها في النقش المذكور، ثلاث مرات، ببنيتها ذات الخصوصية، وبدلالتها الخاصة، المحصورة والمقصورة على مدلول واحد، لا يلتبس بغيره، بحيث إذا هي نطقت مطلقة لم يعن قائلها بـ(منطوقها) غيرَ مدلول عليه واحد لا سواه، ولم يتبادر إلى ذهن سامعها من المعاني إلا (مفهوم) واحد وهو ذلك المدلول عليه بعينه.

وبعد اختيار الكلمة، وطبقاً لمنهج الكتاب المذكور في مجاله اللغوي خاصة، ثم في شيء من مجاله التراثي اليمني والعربي عامة، تمت الكتابة حول هذه المفردة العربية اليمنية القديمة من منطلق يمني خاص، يتوخى غاية لغوية عربية عامة، وذلك كما يلي:

(ث ي ل)

(الثيل) في اللغة اليمنية القديمة، هو: سيل الحُمم البركانية المنصهرة، ولم تأت هذه الكلمة فيما تم العثور عليه من نقوش المسند، إلا في نقش واحد هو (سي/C/323) المستنسخ من بلدة (الحُقّة) في مخلاف (همدان- حُمْلان[2]).

تفسيره لهذه الأيات، فعند ذكر (الطائف) سرعان ما قال (قال البكري في المعجم... إلخ) كما سترى.

1. أهدى إلي الباحث اليمني المحقق الدكتور، مقبل التام عامر الأحمدي الأسفار الثلاثة لـ "مدونة النقوش اليمانية" المعروفة بالـ (كوربوس) مجلدة باسمي، لأنه سمعني أتحدث عن المحاولة غير الموفقة التي بذلتها للحصول عليها، فبادر إلى تقديم هذا الصنيع الجميل، فله على ذلك مني الشكر الصادق الجزيل والجميل.

2. ناحية (همدان) القريبة من (صنعاء) يطلق عليها المحققون، اليمنيون المحدثون أسماء متعددة مثل (همدان الصغرى) و(همدان صنعاء) و(همدان الدنيا- لدنوها من صنعاء) أما في نقوش المسند فاسمها هو (حُملان) وقد ذكر الهمداني أيضاً هذا الإسم، وكانت في تاريخ اليمن

وفيما تم نسخه من النقش، تكررت الكلمة ثلاث مرات بهذه الصيغة الاسمية الوحيدة، أي صيغة الاسم المعرّف للمفرد المذكر (𐩻𐩺𐩡𐩬 = ثيلن= ثيلان) معرفاً بالألف والنون في آخره- أي (الثَّيْل) كقوله: (واتو/ ها/ ثيلن/ عدى/ أرض/ مأذنم/) أي "واتى هذه الثَّيْلُ حتى أرض مأذن" النقش سطر2، وسطر3.

وقد جُهل الجذر (ث ي ل) كمادة لغوية متصرفة إلى أفعال وأسماء، دائرة على ألسنة الناس، بهذه الدلالة المحددة نفسها.

ولكن اللهجات اليمنية، احتفظت بعدد من الصيغ الاسمية، المشتقة من هذا الجذر اللغوي، وأطلقتها في أزمنة مختلفة، أسماءً لعدد من البلدان والأماكن، التي تجسد بطبيعة تكوينها هذا المعنى، مما يبرهن على استمرار (المفهوم) لهذا (المنطوق) بحكم العلاقة الدلالية للأسماء بمسمياتها، ولكن الناس مع مرور الأيام جهلوا الدلالة، والعلاقة معاً، إلا أن الخبراء الجيولوجيين والدارسين اللغويين لا يزالون يجدون أن العلاقة بين هذه الأسماء وبين مدلولاتها على الصعيد الموضوعي، مستمرة ومجسدة تجسيداً مادياً واضحاً.

فمن أسماء البلدان اليمنية المشتقة من الجذر (ث ي ل) بما كان لمشتقاته من دلالات ما يلي:

أولاً: الثيل: اسم قرية في منطقة (قطابر) من أراضي (جماعة) شمال مدينة (صعدة).

ثانياً: الثيلة: اسم قرية من قرى (الشعيب) في منطقة (الضالع).

ثالثاً: الثيلة: اسم قرية، في وادي (خب) في (الجوف).

رابعاً: الثيلة: اسم قرية تابعة لقبيلة (مراد) في مديرية (الرحبة- رحبة- مأرب).

خامساً: الثويلة- تصغير ثيلة- بلدة في بلاد (وادعة النجد).

سادساً: المثيل: اسم مركز إداري في منطقة (دمت) سمي باسم قرية (خربة المثيل).

سابعاً: يثيل: اسم مدينة يمنية قديمة بالجوف، وهي من أهم المواقع الأثرية في اليمن، وأكثرها سلامة من الخراب والتخريب، ولا يزال معظم سورها قائماً، وكثير من أساسات بيوتها وأبنيتها ظاهراً، وقد عملت فيها بعض البعثات الأثرية الغربية، وأهمها البعثة الإيطالية برئاسة البروفسور(اليساندرو دي مجريت) التي رممت وأبرزت معبد إلهها الرئيس (نكرح).

ونرى اشتقاق اسمها من (ث ي ل) بدلالتها، رغم اختلاف الدارسين حولها (مفهوما) و(منطوقا).

ومن خلال هذه الأسماء البلدانية، وصيغها المتعددة والتي أطلقت على مسمياتها منذ أزمنة منها ما هو قديم بالتأكيد مثل (يثيل المعروفة في نقوش المسند، نستنتج أن مادة (ث ي ل) كانت مصرفة، فيقال فيها: ثال يثيل ثيلاً وثيلاناً، ... إلخ. كما يقال في سال يسيل سيلاً... الخ.

ولا شك أن التشابه بين مادتي (ث ي ل) و (س ي ل) وكلمتي (الثيل) و(السيل) واضح لما بينهما من تماثل في البناء الصوتي وفي الدلالة الذهنية والموضوعية، أي في (المنطوق) و(المفهوم) وذلك رغم بعض التفاوت من حيث الشكل والكيفية لا من حيث الجوهر والماهية.

فكلا الجذرين – س ي ل، ث ي ل – ثلاثي، أجوف، يائي، على وزن (فَعْل): وحرفاهما الأخيران متطابقان، والفارق بين حرفيهما الأولين فارق باهت أو رمادي إن صح التعبير لا يفصل بينهما فصلاً تاماً وذلك لتقارب المخرجين، ولأنهما- أي السين والثاء- يتبادلان الأماكن منذ القديم.

أما المصدران الاسميان- (السيل) و(الثيل)- فينطبق عليهما من حيث البناء ما سبق، وبرغم أن اختلاف حرفيهما الأولين بين (السين) و(الثاء) قد يبدو أمراً عرضياً، مما يحدث في اللغات دون حاجة إلى

القديم، كيانا اجتماعيا سياسيا هاما يحكمه الأقيال (بنو بتع) القاطنون في (حاز) وظهر منهم ملوك تسنموا عرش (سبا) في (مأرب).

تعليل، وذلك عند النظر إلى الدلالتين المتماثلتين نظرة عامة مجملة، فإنه عند التدقيق في الخصوصيات اللطيفة، التي تجعل من مثل هذا الاختلاف بين حرفين في (منطوق) كلمتين متشابهتين من حيث (المفهوم) أو الدلالة، قضية لغوية جديرة بالتنويه بها والتنبيه إليها، لأنها تلقي بشيء من الضوء على ما تتصف به الآلية اللغوية من تقنية رفيعة تنوع إنتاجها الدلالي حتى بواسطة تغيير جزئيّ في (المباني) كما أنها تضيء ما تتسم به الحاسة اللغوية الجمعية للناس من الرهافة والدقة، في تحميل الحروف أدقّ الدلالات والإيحاءات، وهذا موضوع واسع وعميق للدراسة، ويكفي هنا الإشارة إلى ما في حرف (السين) في كلمة (السيل) من إيحاء بالسلامة والانسياب والسرعة وهي الخصائص الذهنية والموضوعية لحركة الكثير الجاري من الماء أي (السيل) ثم الإشارة إلى ما في حرف (الثاء) في (الثيل) من الإيحاء بالكثافة والثقل والتثاقل المتريث، وهي من خصائص تحرك (ثيل) الحمم البركانية.

وبالعودة إلى مادة (ث ي ل) موضوع هذه الكلمة، نجد أن الصيغة المصدرية الاسمية (الثيل) قد أطلقت في النقش المسندي اسماً لسيل الحمم البركانية الحي، كما أطلقت في اللهجات اليمنية اسماً لقرية في (قطابر)، لأنها تقع في أرض غطتها الحمم البركانية المنطفئة، فهي بهذه الدلالة الثانية، مرادفة لما يطلق من أسماء في اللغة العربية على الأراضي البركانية كـ(الحرة) و(اللابة) و (الخَشَب) ونحوها، وكذلك كلمة (المَثيل) في هذه الدلالة الثانية كاسم لقرية فيما سبق ذكره، فهي على وزن (المَسيل) أي المكان الذي يجري فيه السيل.

ولكن كلمة (الثيلة) التي تكررت اسما لثلاث قرى فيما تقدم، تبدو هي الاسم الأحرى بأن يطلق على ما في اليمن من أراضٍ بركانية، بحيث يصبح الاسم (الثيلة) اسما خاصاً لا يدل إلاّ على هذا المعنى نفسه[1]، فيكون مرادفاً لأسماء (الحرة) و(اللابة) و(اللافا) مع زيادة في تخصصه الدلالي.

أما الاسم القديم (𐩺𐩻𐩡 = يثهل) فهو يكتب في نقوش المسند دائماً بدون (𐩺 = ياء) بعد الـ(𐩻 = ثاء) كما هي قاعدة الكتابة المسندية التي لا تثبت الصوتيات أي حروف اللين الساكنة، ولا يعلم أحد يقيناً كيف كانوا ينطقونه، وللدارسين آراء في نطقه واشتقاقه، أما كاتب هذه السطور فيرى أن نطقها هو (يَثِيْل) وأن اشتقاقها هو من مادة (ث ي ل) وبالدلالة نفسها، وهي اسم بصيغة الفعل المضارع للمذكر المفرد الغائب، والتسمية للأماكن والأعلام بهذه الصيغة المضارعية للمذكر وبصيغة المؤنثة الغائبة، كانت ظاهرة شائعة في اللغة اليمنية القديمة، ولا تزال عليها أدلة كثيرة من أسماء المدن والقرى اليمنية اليوم، مثل (يريم) و(يريس) و(يشبع)و..الخ، ومثل (تريم) و(تريس) و (تفيش)، ... إلخ.

❖ ❖ ❖

استطراد

في هذا النقش- كما سيأتي- نقص كبير في أوله، مما أدى إلى فوات فرصة محتملة وواردة، وهي أن يكون النقش قد ذكر الكلمة التي كانت تطلق في اللغة العربية اليمنية، كاسم خاص لـ"البركان"

---

1. وكذلك كلمة (المثيل) ولكن هذا أمر متروك للدارسين اليمنيين المتخصصين في هذا المجال، والذي دعا إلى التطرق إليه هو ما صرح به الدكتور محمد عبد الباري القدسي الأكاديمي المتخصص في الدراسات البركانية، عندما اطلع على المسودة الأولى لما كتب حول هذه المادة اللغوية، حيث قال بحاسة لغوية يقظة وذكية: إن هذه المادة اللغوية هي ما يحتاج إليه الدارسون الجيولوجيون وهي حائزة على كل ما يؤهلها لأن تشتق منها المصطلحات العلمية الدقيقة في هذا المجال، ولهذا قال بأنه سيعمل على إدخالها في مجال الدراسات الجيولوجية اليمنية بمختلف

لأن أول فعل في المتاح من النقش، هو (برر) بمعنى: هاجم، أو أقبل مهاجماً، وهو فعل كان يستعمل للهجوم في الحرب، واستعمل هنا لهجوم (ثيل) البركان، وفي هذا الفعل ضمير مستتر يعود على اسم سابق له فما هو إذاً هذا الاسم؟ هل هو (الثيل) أم (البركان)، إن هذا السؤال لا جواب عليه اليوم، ما دام اسم البركان لم يرد هنا ولا في أي نقش آخر، ويظل الاحتمال الوارد مجرد احتمال لا أكثر.

أما في اللغة العربية، فإنه لا يطلق على البركان إلا اسم (النار) مضافاً إليها اسم يخصصها، فيقال (جبل النار) و (حرة النار) أو يقال: "ظهرت النار، وثارت النار..إلخ".

أما كلمة البركان فهي طارئة على اللغة العربية، ويبدو أنه كان لعلماء الأندلس اليد الأولى أو الطولى في إدخالها إلى القاموس العربي، أو على الأقل لكثرة استعمالها عندهم حتى أصبحت في أدبياتهم كلمة بلاغية تأتي في شعرهم ونثرهم، فهذا ابن حزم الأندلسي (ت: 456هـ) يستشهد خلال نثره الفني ببيت يقول: - (رسائل ابن حزم صـ166)

كمهدٍ إلى البركان نار الحباحب

ويأتي صوىً في مهيع القصد لاحب

كما يستشهد بالبيت (ابن المُقْري) في كتابه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، صـ156) أما (لسان الدين الخطيب) في (الإحاطة في أخبار غرناطة، صـ69) فيقول معبراً عن حر الشوق ولهيبه:"هذا شوقي يستعيره البركان لناره، ووجدي لا يجري قيس في مضماره، ...إلخ"، وجاء ذكر البركان ووصفه في رحلة ابن جبير الأندلسي، هذا بينما لا نجد الأمر كذلك عند علماء المشرق، وأول ذكر عابر له عندهم لم نجده فيما بين أيدينا من المراجع إلا عند المسعودي في (مروج الذهب صـ45) وهو فيه يبدو متفرداً ومقتدياً بعلماء الأندلس.

ولعل علماء الأندلس أخذوا كلمة البركان من اللاتينية، ومبعث اهتمامهم هو كثرة مشاهداتهم للبراكين وسماعهم عنها. وعلى الأخص بركان (صقلية) الشهير- بركان أتنا-.

◆ ◆ ◆

ذلك هو ما تمت كتابته حول مادة (ث ي ل) لغوياً، وما تلا من استطراد. ولما قرئت هذه الكلمة في مجلس ضم عدداً من المهتمين بكل ما له علاقة باليمن والتراث اليمني، بينهم عدد من المتخصصين في الدراسات اليمنية القديمة، والدراسات العلمية الحديثة، تطابقت آراء جميع الحاضرين على أن النقش المسندي (سي/C/323) يعد من نوادر النقوش وأكثرها أهمية نظراً لفرادة موضوعه، ولكونه لا يهم الدارسين في المجالات التاريخية واللغوية فحسب، بل ويهم المتخصصين في الدراسات الطبيعية وعلوم (الإراضة- الجيولوجيا-) بمختلف تخصصاتهم ولهذا فإن الكتابة حول بعض مفردات النقش اللغوية، لا تحول دون المبادرة أولاً إلى نشره وشرحه ووضعه كاملاً- كما عثر عليه- أمام الدارسين.

كما تطابقت آراؤهم وأطبقت على كاتب هذه الأسطر للقيام بالمهمة، ورغم أنه كان بالمجلس من هو أجدر منه وأقدر على الاضطلاع بها. إلا أنه قبلها. فقد سوغوا تكليفهم له بما سبق أن حدثهم به عن معرفة سابقة له بالمنطقة، ورأى بعض الحاضرين أنه لا مانع أن يستهلّ نشر النقش بما تمت كتابته. من مادة لغوية حول كلمة (الثيل) فيكون في ذلك نوع من التجديد في نشر النقوش.

ولما وجدتُ أنه لابد مما ليس منه بُد، عادت إلى نفسي ذكرياتٌ احتفظتُ بها عن الزيارة الأولى للمنطقة التي يتحدث عنها هذا النقش وما تبعتها من زيارات، ففي الأعوام الأولى من سبعينيات القرن الماضي. قمت بعدد من الجولات على المناطق الأثرية المحيطة بمدينة (صنعاء) وكانت بلدة (الحقة) من أولاها، فقد زرتها للمرة الأولى عام 1970م. ثم شملت زيارات (ضروان)

للمرة الأولى عام 1970م. ثم شملت زيارات (ضروان) و(جريان) ومنطقة بجانبها تسمى (حومل) وانقاض (مرمل الأثرية)، وبلدة (بني الزبير) التي في بيوتها كثير من الحجارة والكتابات المأخوذة من أنقاض (مرمل) للهمة، وجبل (ضين) يُطلق عليه أيضاً اسم (جبل مرمل).

وبعد ان تجولت في إحدى هذه الزيارات بين (الحرات) أو(اللابات) أو الأراضي التي طمّها (الثيل) تحت طبقات خشنة غليظة حالكة السواد، وجدت أن المشاهدة الشاملة لهذا المنظر المريع لن تتم إلا من قمة جبل (ضين) أعلى جبال المنطقة، فَخَصَصْتُهُ برحلة وتسلقته من جانبه الغربي قبل أن تشق فيه طريق للسيارات، وإن أنسَ فلن انسى ما شاهدته من المناظر المروعة من على هذه القمة.

كل هذه الخواطر ومالي فيها من أحاديث وحوادث وذكريات، جالت بخاطري في ذلك المجلس، ولكني وجدت الأمر مختلفاً على نحو ما هذه المرة، فقلت للحاضرين: "لقد كان لزياراتي السابقة للمنطقة غاية أولى أتوخاها، وهي غاية أثرية وبالأخص غاية (ابيوجرافية) تتبع الكتابات المسندية لاستنساخها وتصويرها، وقد قدمت عن أهم هذه الزيارات بعض التقارير إلى الجهات المسئولة عن الآثار آنذاك. أما هذه المرة فارى أنه من المستحسن أن يضاف إلى المهمة (الابيوجرافية) التاريخية مهمات علمية طبيعية يقوم بها أهل الاختصاص، لإيجاد نوع من التنسيق، والتناغم بين الدراسات الإنسانية النظرية والدراسات العلمية العملية لما في ذلك من الفوائد المشتركة.

وَبَلْوَرَ الحاضرون الفكرة وكان من الحاضرين الأخ الدكتور إسماعيل الجند رئيس (الهيئة العامة للثروات المعدنية) فقال: سوف أخرج معكم لأخذ عينات للتحليل، وساحضر معي خارطة جوية تشمل المنطقة البركانية كلها، وكذلك كان من الحاضرين الابن العزيز المتخصص في مجال التصوير الفوتوغرافي عبدالكريم حسين الإرياني، فقال سوف أكون معكم لأخذ الصور اللازمة، ورأى الأخ الدكتور عبد الكريم علي الإرياني أن ينضم إلى المجموعة الأخ الدكتور محمد عبدالباري القدسي ممثل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والمتخصص في مجال الدراسات البركانية، وتم الاتصال الهاتفي به فوافق مرحباً بالانضمام إلى المجموعة، ثم راى الأخ الدكتور عبد الكريم الاتصال بمحافظ (صنعاء) الأخ العزيز الأستاذ الشيخ عبد الواحد البخيتي ليسأل ممن يعمل معه أو يتردد عليه من أبناء هذه المنطقة، عما إذا كان هنالك جبل يعرف باسم (جبل ذقن- بالذال المعجمة كما جاء اسمه في النقش) باعتباره المنبع الأساسي لـ(الثيل) وجاء رد الأخ المحافظ بعد ساعة من الزمن بأن في (وادعة همدان) بالقرب من (الحقة) إلى شمالها جبل يعرف باسم (جبل دقن- بفتحتين ودال مهملة) ثم عبر بما عرف عنه من الثقافة والحماس الوطني، عن عزمه الانضمام إلى المجموعة ومعه الأخ عبد الوهاب محسن سريع من شبان المنطقة، والأخ المؤرخ الأستاذ علي جار الله الذيب المهتم بتاريخ اليمن عامة وبتاريخ (همدان الكبرى) وأخبارها وأشعارها بصفة خاصة.

كان ذلك يوم الثلاثاء 21/2/ 2006م. وتم تحديد يوم الخميس 23/ 2 لخروج هذه المجموعة التي أصبحت بعثة علمية حقيقية، وستصدر عنها دراسات من كلٌ حسب اختصاصه، منها هذه المحاولة التي أصر جميع الإخوان على أنها الأنسب للنشر.

وفي يوم الأربعاء المتوسط بين يومي الإعداد، ويوم التنفيذ، رأيتُ أن أُجدد معلوماتي وذكرياتي عن المنطقة، فخرجت مع سائق السيارة الأخ عبد الله محمد الشرافي، وفي بلدة (المعمر) التي تطورت كثيراً عما كنت أعهدها، رأيت رجلاً حدست أنه من أبناء

البلدة وتوسمت فيه النباهة، فدعوته وعرضت عليه أن يرافقنا، فرحب دون تردد وتعرفنا عليه فإذا هو من مشائخ منطقة (المعمر) وهو الشيخ محمد محسن الذيب، وبلدة (المعمر) تحمل هذا الاسم فيقال لها (معمر الذيب).

أما الآن فأمهد لنشر النقش بتمهيدين، الأول: عرض سريع حول ما جاء في كتب التراث عن (نار ضروان)، والثاني حول النقش وما فيه من نقص، ثم يأتي نشر النقش وشرحه.

عرض عام

قال ياقوت بن عبد الله الحموي(*):

"ضروان: بالتحريك وآخره نون: بليد قرب (صنعاء) سمي باسم واد وهو على طرفه، وذلك الوادي مستطيل وهذه المدينة على طرفه من جهة (صنعاء)[1].

وطول الوادي مسيرة يومين أو ثلاثة، وعلى طرفه الآخر مدينة يقال لها (شوابة).

وهذا الوادي المسمى (ضروان) هو بين هاتين البلدتين- قريتي (ضروان) و(شوابة)- وهو واد ملعون جرج[1]، مشلوم، حجارته تشبه أنياب الكلاب، لا يقدر أحد أن يطأه بوجه ولا سبب، ولا ينبت شيئا[2]، ولا يستطيع طائر أن يمر به فإذا قاربه مال عنه.

وقيل: هي الأرض التي ذكرها الله في كتابه العزيز ؛ وقيل: "إنها كانت أحسن بقاع الله في الأرض، وأكثرها نخلا وفاكهة وأهلها غدوا إليها. وتواصوا ألا يدخلها عليهم مسكين، فأصبحوا فوجدوا نارا تأجج، فمكثت النار تتقد منها ثلاثمائة سنة...إلخ".

(*) كتاب معجم البلدان، ج3 / صـ 456.

1. كلمة جرج في وصف أرض الحرات ذات الحجارة القلقة المضطربة كلمة اهتدى إليها ياقوت في وصف هذه الحالة.

2. بغض النظر عن الكلمات الغيبية مثل ملعون "ومشئوم، فإن بقية التشبيه والوصف صحيح ولكنه ينطبق على الحرار المحاذية لضروان إلى الشرق والجنوب الشرقي.

وقال القاضي محمد بن علي الأكوع(**):

"ضروان: بلدة من همدان الدنيا، من ملحقات "صنعاء"، واقعة في شمالها بمسافة ست ساعات- سيرا- وكان بها الجنة التي حكى الله عنها في سورة (ن والقلم)، والناس يعرفون ذلك إلى يوم الناس هذا.

وهي أرض محترقة سوداء جرداء شوهاء المنظر، ذات ضروع وتضاريس، تحفي الأقدام وتدميها، ويرجع البصر عنها خاسئا وهو حسير، وآية العذاب عليها بادية، والعصريون يرون أن ما كان مثل هذا، فإنه من قبيل البركان، وعلى كل فهو يدل على وقوع النار، وعلى حادث تاريخي مهول، مصداقا لآي القرآن الكريم".

وقال الدكتور جواد علي:

"ولعل قوة نيران "حرة ضروان"، وشدة قذفها للحمم وارتفاع لهيبها..هي التي دفعت أهل اليمن إلى التعبد لها، والتحاكم إليها، فقد كانوا يذهبون إليها ليتحاكموا عندها فيما يحدث عندهم من خلاف، والرأي عندهم، أن النار تخرج فتأكل الظالم وتنصف المظلوم، وقد كانت "حرة" نشطة عاشت أمدا طويلا، كما يظهر من وصف الهمداني، ووصلت حممها إلى مسافات بعيدة عن الحرة".

• • •

من يزور (الحرات) (اللابات) في هذه المنطقة من (وداعة همدان)(*)، فإنه إن ينس شيئا فلن ينسى أبدا، ما يتركه في نفسه منظر هذه الأراضي المحترقة أو التي غمرتها البراكين بـ(سيولها) التي كانت تنطفي

(**) الإكليل ج1، صـ33 حاشية.

(*) آثار البراكين ومخلفاتها من الأراضي المحترقة، تشمل منطقة أوسع من هذه المنطقة التي يقتصر عليها الحديث هنا، واقرأ الحواشي على ما جاء عن الهمداني من ذلك البلدان والمناطق التي شملتها البراكين.

وتتجمد فتتراكم عليها طبقات تعلوها طبقات، ولكن ولم أكن قد قرأت كلام ياقوت أن تكوين هذه (الحرار) كان يعيد إلى ذهني هذه الصورة الخيالية لـ(رؤوس الشياطين) ويذكرني بـ(أشداق التماسيح) ويستطيع الناظر إليها، حتى ولو لم يكن خبيراً في هذا المجال، أن يلاحظ أن المنطقة شهدت في الفترة التي يتحدث عنها النقش، ثورة بركانية، عارمة ذات فوهات كثيرة، ومخارج أو منابع متعددة فقد تدفقت الحمم من قمم التلال والأكام، ومن جوانبها وسفوحها، بل ومن المساحات المنبسطة والمستوية الممتدة فيما بين الجبال والتلال(**)، ولهذا فإن (الثيل) في الواقع كان (ثيولاً) متعددة، ولكن أكبرها وأعتاها هو الذي جاء من قبل جبل (نقن) ومن الفوهة الكبيرة في الأرض المستوية الملاصقة له من شرقه وشماله الشرقي، ومن هنا جاء ذكر النقش له بقوله: "وجاء- الثيل- مهلجما من قبل جبل (نقم) مكتسحاً كل شيء أمامه في كل أرض مر بها..إلخ". وأيضا لأن هذا (الثيل) كانت وجهته نحو بلدة (ذمهان= الحقة) مباشرة، ثم غير وجهته بعد أن ركبها وكاد يدهمها، ومال منصرفاً عنها نحو الجنوب الشرقي، واستمر تدفقه حتى وصل إلى بعض منعطفات وادي (صرف) في أرض (ملأن).

إن المشاهدة، والتجربة، تعطي كلام (ياقوت) و (الأكوع) و (جواد علي) مصداقية فليس في كلامهم أي مبالغة، وذلك بغض النظر عن بعض الأخطاء في كلام الأول من الناحية الجغرافية ومن حيث مدة بقاء الثورة البركانية، أما قوله: "وهو واد جرجٌ حجارته تشبه أنياب الكلاب، ولا يقدر أحد أن يطأه بوجهه ولا سبب، ولا ينبت شيئاً." فهو وصف صادق، وفي زيارتي له عام 1970م كنت قوياً وذا دربة على السير في الأوعار، ومع ذلك لم أسر في أدنى حراره وأهونها إلا نحو عشرين متراً مفضلاً عدم الاستمرار، كما أنه من الملاحظ أن المرء لا يشاهد على مدى النظر عبر ذلك المواد أي شجرة ولا أي شجيرة، بل ولا أي نبتة عليها غضارة أو شيء من نضارة(*).

وخلاصة القول: أن الثورة البركانية التي شهدتها المنطقة وتحدث عنها النقش، كانت ثورة رهيبة، وكان لها دوي هائل ظلت أصداؤه تتردد قروناً عديدة حتى ظهور الإسلام، أي من القرن الأول الميلادي وحتى القرن السابع، ثم فيما بعد ذلك.

ومصداق ذلك، تجديد القرآن الكريم لذكراها بالإشارة الضمنية إليها في الآيات من (17-32) في سورة (القلم) كما يرى أكثر المفسرين.

وكذلك استمرار الروايات والأخبار حولها على ألسنة الرواة والإخباريين، في صدر الإسلام، ثم تسلسلها حتى دخل منها شيء في كتب التفسير، وشيء في السير وكتب التاريخ، ثم في مؤلفات الجغرافيين والبلدانيين، وفي غير ذلك من كتب التراث العربي الإسلامي.

وبالعودة السريعة إلى مؤلفات التراث العربي الإسلامي، وبطريقة تتوخى الاختصار والإيجاز، وتتجنب التطويل بترك الخوض في التفاصيل، فإنه يمكن الإشارة إلى ثلاثة فروع من علوم التراث تناولت هذا الموضوع، أو كان لما جاء فيها علاقة به على نحو من الأنحاء، وهذه الفروع هي:

- كتب التفسير، المطول منها بصفة خاصة.
- كتب التاريخ، ابتداءً بأخبار الإخباريين، ثم مؤلفي السير النبوية، ثم كتب التاريخ المرجعية.
- كتب الجغرافيين البلدانيين وأصحاب معاجم البلدان.

(**) تقع هذه الأخيرة اليوم في وسط الحرار الممتدة، والمواطنون يسمونها الأبار، وهي في الواقع فوهات بركانية في الأراضي المستوية، فارت فيها الحمم فاضت أو انطلقت منها ضخاً مثل النوافير.

(*) بدأ (القات) يزرع في أطراف (الحرار) فهو إذن نبتة شيطانية بحق.

المفسرون

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

لقد كان اعتماد المفسرين أولاً وقبل كل شيء، على هذه الآيات البينات، ولما كان القرآن الكريم، كتاب تهذيب وتعليم، وهداية وتقويم، يستصفي من أحداث التاريخ ما فيها من العظة والاعتبار، وليس مجرد كتاب "علم وخبر" وسرد للأحداث، وتقييد لأماكنها وأزمنتها؛ فإن المفسرين قد التزموا بالمنهج القرآني الرفيع وتوافقت مقاصدهم مع مقاصده السامية، فاستخلصوا من الآيات، ما فيها من التقريع والتبكيت لمشركي مكة، وتذكيرهم بأن ما نالهم من القحط والجوع، إنما هو عقاب لهم لكفرهم وعنادهم، شأنهم في ذلك شأن من نالهم العقاب من القرون الغابرة، لخروجهم على المعهود من القيم الكريمة، والأخلاق القويمة؛ وعلى هذه الغاية السامية للآيات، كان إجماع آراء المفسرين ذوي الاعتبار والمرجعية.

ولما كانت الآيات الكريمة، لم تحدد مكان (الجنة) ولم تعين نسبة وهوية (أصحاب الجنة)، فإن المفسرين الذين حاولوا التحديد للمكان والتعيين للأقوام، كان اعتمادهم في هذا أولاً على المأثور من الروايات عن الصحابة والتابعين، وبخاصة على روايتين متباينتين رغم أن كليهما منسوب إلى عبد الله بن عباس (رضي الله عنه)، والأولى تقول: إن مكان الجنة هو (اليمن) دون (صنعاء) بفرسخين، ولم يذكر مكانها تحديداً، وإن أصحابها هم قوم أو أسرة من أهل اليمن: أما الثانية فتقول إن مكانها كان في الحبشة، وأصحابها من الأحباش – ومع أن أكثر المفسرين أخذوا بالقول الأول، إلا أن بعضهم أخذ بالقول الثاني ومنهم (ابن كثير) في كتابه (تفسير القرآن الكريم) كما أنه كان لعدد قليل من المفسرين آراء مختلفة اعتمدوا فيها على مأثورات أخرى.

ولم تحدد الآيات أيضاً تاريخياً زمنياً لهذا الحديث، فتجنب معظم المفسرين هذا التحديد تحرجاً، ولهذا اكتسب ما جاء عن (القرطبي) في (تفسيره) كثيراً من الجدة والأهمية والفرادة مما يدل على سعة الأفق وحرية الفكر في هذا المجال المقيد بقيود صارمة، إذ أنه يعد أن تفرد- بحسب ما نعلم- بتحديد بلد بعينه من بلدان اليمن مكاناً للجنة، وهو (ضوران = ضروان)، تفرد- فيما نعلم أيضاً- بتحديد زمن تاريخي لا يختلف عن الزمن الذي قد يراه بعض الدارسين في هذا العصر- وذلك ما سيأتي توضيحه.

كما أن المفسرين اختلفوا في تفسير بعض المفردات اللغوية، مثل الـ "طائف" و "الصريم" وغيرهما من المفردات التي يختلف فيها المفسرون، وهو خلاف يعد من الأمور المعهودة في هذا المجال اللغوي في سائر

كتب التراث

وفي هذا الصدد، ومن أجل إعطاء صورة مختصرة كل الاختصار، نعيد تلخيص بعض النقاط، المختارة من أحسن ما قيل في الموضوع وأقربه إلى الصواب، وذلك من أقوال المفسرين، ونقدم كلام الإمام "القرطبي" في تفسيره، لأنه حدد المكان، وعين القوم، وأبدى رأياً في التاريخ الزمني، وذلك كما يلي:

1) **الجنة: قال "القرطبي" في تحديد مكانها العام والخاص والمسافة إليه:**

".. كانت- الجنة- بأرض اليمن.. على فراسخ(*) من (صنعاء). وقيل: هي جنة بـ"ضوران"، وضوران على فراسخ من "صنعاء".."

فهذا تحديد موجز وواضح، فإلى جانب ذكر "اليمن" أضاف أوضح معلم من معالم "اليمن" وهو العاصمة "صنعاء"، ثم زاد الأمر تحديداً بذكر البلدة "ضروان" التي كانت الجنة في واديها المسمى "ضروان" أيضاً. وذلك رغم أن الاسم جاء مصحفاً إلى "ضوران"(**): وهذا التحديد الأخير، لم يسبقه إليه أحد من أصحاب الكتب المرجعية في التفسير التي عدنا إليها، ولعل من تطرق إلى هذا الموضوع بعده إنما كان محتذياً به، وناقلاً عنه، بما فيهم شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني الذي يبدو أخذه عن القرطبي واضحاً في تفسيره، مع زيادة في تحريف "ضوران" بالضاء المعجمة إلى "صوران" بالصاد المهملة(*).

2) **(أصحاب الجنة) عينهم بأنهم من أهل اليمن، فقال عن بعض الرواة:**

"وكانوا من أهل اليمن، وكان أبوهم صالحاً.. قال الكلبي: كان بينهم وبين "صنعاء" فرسخان..إلخ"

وهذا على إيجازه تعيين واضح لهم.

3) **وفي (التاريخ الزمني) قال "القرطبي"-متفرّداً- :**

"وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى عليه السلام بيسير..إلخ"، وهذا والله قول عجيب، ورأيٌ له من الصحة الافتراضية نصيب، ولا يستطيع أي مؤرخ حديث أو دارس معاصر، أن يهمله أو يخرجه من حساباته وتقديراته، إن هو حاول أن يحدد لهذا الحدث الطبيعي الكبير تاريخاً، بناء على التحليلات العلمية، أو على الافتراضات المنطقية طبقاً للمناهج العلمية الحديثة، القائمة على التحليل والربط والتعليل والاستنتاج والحكم.

ومن المعروف أن رفع عيسى عليه السلام، كان بعد ميلاده بثلاثة وثلاثين عاماً هي مدة عمره الذي عاشه، فإذا ما جعل "اليسير" في العبارة ما بين خمسة إلى خمسة عشر عاماً، وهو تقدير منطقي، فإن هذا

(*) الفرسخ = خمسة كيلومترات، والمسافة من صنعاء- القديمة- إلى "ضروان" نحو خمسة وعشرين كيلو متراً أي نحو خمسة فراسخ.

(**) لدينا ما يشبه اليقين أن القرطبي لم يذكر إلا "ضروان" البلدة المعروفة اليوم في المنطقة التي يدور الحديث حولها، ولا نكاد نشك في أن التحريف جاء من قبل النساخ أو عند الطباعة لأن لـ"ضوران" وهي بلدة يمنية معروفة ذكراً واسعاً في تاريخ اليمن الإسلامي بينما خمل ذكر "ضروان" خمولاً كبيراً ومن القرائن القوية على أن "القرطبي" لم يذكر إلا "ضروان" أنه في تفسيره يستشهد بـ"البكري" في كتابه "معجم ما استعجم" وهذا لم يذكر هذه البلدة ونارها إلا باسم "ضروان" بالراء المتقدمة على الواو لا العكس، ومن استشهادات "القرطبي" بـ"البكري" في معجمه، ما جاء في تفسيره لهذه الآيات من سورة "القلم" نفسها، عند إيراده للرواية العقيمة عن علاقة كلمة "طائف" في الآية (19) بمدينة "الطائف" المعروفة، ولتضعيف هذه الرواية سارع فأتبعها قائلا: "قال البكري في المعجم: سميت بالطائف لأن رجلا من الصدف بنى عليها حائطا، وقال: قد بنيت لكم طائفا حول بلدكم"، كما أن مؤلفات الهمداني كانت معروفة عند علماء الأندلس أكثر منها عند علماء المشرق، والهمداني لم يذكر إلا (ضروان).

(*) فتح القدير ج5/ صـ271.

الحدث البركاني - الأخير - وقع في أواخر النصف الأول من القرن الميلادي الأول أيضاً، وهذا التقدير الذي جاء عند "القرطبي"، وارد جداً في التقديرات التي يمكن للدارسين اليوم أن يقدروها، لأن الأدلة الأخرى - أو على الأقل القرائن - من خطية ولغوية ودينية وتاريخية والمستنتجة من النقش (مسي/C.323) ترفده وتمده بالدعم والمساندة، ناهيك عما قد يتوصل إليه العلماء الجيولوجيون من الأدلة القاطعة التي نظن أنها قد تأتي مؤيدة لهذا التقدير وشاهدة له بالصحة بمقاييسها في هذا المجال، وبالتحديد هذه الثورة البركانية الأخيرة التي يتحدث عنها النقش[1].

ولوضع القضية في إطارها الصحيح للقارئ المتأمل، لابد من إيراد عبارة "القرطبي" في سياقها الكامل الذي يقول فيه: "وقيل هي جنة بـ(ضوران - ضروان) و"ضوران - ضروان" على فراسخ من صنعاء، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى عليه السلام بيسير...".

وحول هذه العبارة بتمامها، يمكن إيراد الملاحظات التالية:

أنها جاءت بعد كلمة "قيل"، وهذا يعني أنه ينسب ما بعد "قيل" إلى مؤلف أو كتاب اقتبس منه، أو إلى راوٍ روى عنه، ولكنه لم يذكر كتاباً ولا مؤلفاً ولا راوياً، إلا أنه ذكر بعد ذلك اسم البلد "ضروان" الذي تصحف إلى "ضوران"، وذكر اسم البلد لم يأتِ إلا عند الهمداني أولاً، ثم عند البكري، ثم من جاء بعدهما من المؤلفين، وعلماء الأندلس أكثر معرفة بالهمداني وأكثر استشهاداً بكلامه، من علماء المشرق، ثم إنه جاء بعد ذكر اسم بلد أصحاب الجنة بهذه العبارة المدهشة واللافتة للأنظار "وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى عليه السلام بيسير" والدارس المتأمل لن يغيب عنه شخص الهمداني وشخصيته في هذه العبارة، ولا يتبادر إلى ذهنه أحد أحرى منه بأن يكون قائلها، وهذا موضوع يحتاج إلى مزيد من التوضيح وليس مجال ذلك هنا، ولكن هذا الأمر لا يتعارض مع الإقرار للعلامة القرطبي بالفضل والريادة في مجال الاستشهاد بكلام المؤرخين في مجال من مجالات التفسير لم يسبقه إليه أحد، ويكفي أن كبار المفسرين بعده اقتدوا به فالإمام الشوكاني أورد في تفسيره - فتح القدير/ 5 ص271 - عبارة القرطبي بنصها، رغم تحريف (ضروان - بالمعجمة -) إلى (صوران - بالمهملة -)

ومما يحسن ذكره مما جاء عند مفسرين آخرين قول الزمخشري في "الكشاف ج4 ص143 وما بعدها عن أصحاب الجنة: "وهم قوم من أهل الصلاة، كانت لأبيهم هذه الجنة، فكان يأخذ منها قوت سنته ويتصدق بالباقي، وكان يترك للمساكين - عند الحصاد والجني - ما أخطأه المنجل، وما في أسفل الأكداس، وما أخطأه القطاف من العنب، وما يتبقى تحت النخلة إذا صرمت، فكان يجتمع لهم شيء كثير".

وهذا القول يخرج صدقة أهل الجنة عن النطاق الضيق المحدود الذي جاء عند أكثر المفسرين.

وكذلك إشارته إلى قضية طريفة حول مصير أصحاب الجنة حيث قال: "سئل قتادة عن أصحاب الجنة أهم من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فقال: لقد كلفتني تعباً" وكذا ميله إلى رأي من يرى أنهم من أهل الجنة حيث قال: "وعن مجاهد أنه قال: تابوا فأبدلوا خيراً منها. وعن ابن مسعود أنهم أخلصوا، وعرف الله منهم الصدق، فأبدلهم جنة يقال لها "الخيوان"(*) - خيوان" فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً...إلخ".

وهذا هو ما يقتضيه العقل والعدل وجوهر الشرع، فالقوم قد عوقبوا لا لشر فعلوه بل لخيرٍ كانوا

1. التاريخ البركاني للمنطقة علمه أقدم من ذلك.

(*) جاءت "الخيوان" والمراد "خيوان"، قال الهمداني في بلد خيوان، هو أرض خيوان بن مالك، من غرر بلدهم همدان، وأكرمه تربة، وأطيبه ثمرة.. إلخ- الصفة، ص115، ولعل المراد أن من فقدوا مساكنهم وأموالهم انتقلوا إلى خيوان وهي كما وصفها الهمداني.

يعملونه ثم تركوه، ولهذا فإن المعنيين بالآية (33) بعد الآيات السالفة وهي: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ هم مشركوا مكة الذين قارفوا المعصية وعاندوا فيها، أما أصحاب الجنة فقد نصت الآيات على أنهم ندموا وتابوا توبة نصوحاً صادقة.

هذا وقد اختلف المفسرون حول فهم العقاب الإلهي الذي حل بأصحاب الجنة، في قوله تعالى: (فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)، ففسروه بالإحراق وهو الأقرب للأمر الواقع، ولكنهم فسروه أيضاً بالإيباس، كما فسروه بالاقتلاع من الأصول، والغريب أن معظم كبار المفسرين رددوا هذا التفسير الأخير بل وقدموه على غيره.

ولا شك أن التفسير بالاقتلاع والنقل إلى مكان آخر، هو أسقم ما جاء في كتب التفسير، لأنه لم يخطر على بال أول من قال به، إلا بتداعيات ذهنية شكلية وساذجة، وذلك من وحي تشابه لفظي بحت لا علاقة له بالدلالة وكأنه حينما قرأ "فطاف عليها طائف.." تذكر من كلمة "طائف" مدينة " الطائف" فقال: إن أصحاب الجنة غدوا عليها صباحاً فوجدوها قد اقتلعت من أصلها وكان مقتلعها هو جبريل طاف عليها فاقتلعها وطاف بها حول البيت العتيق ثم وضعها حيث مدينة الطائف اليوم- وهذا هو خلاصة ما جاء في معظم كتب التفسير المرجعية المطولة- وما مصدر هذا التفسير المتكلف إلا التشابه اللفظي بين كلمة "طائف" في الآية، وبين اسم مدينة "الطائف"، ورغم أن بعض المفسرين حاول أن يجد للأمر سبباً فعلله بقوله: "لأنه ليس في أرض الحجاز بلدة فيها الشجر والأعناب غير الطائف.."[*]، إلا انه يظل تفسيراً متكلفاً وقد تجنب الشوكاني في فتح القدير هذا التفسير، وتجنبه الزمخشري في الكشاف لتنافيه مع العقل، كما يشفع للقرطبي أنه أورد هذه الرواية وقال بعد قولهم "ولهذا سميت الطائف بالطائف" قوله: "قال البكري في المعجم: سميت الطائف لأن رجلاً من الصدف يقال له الدموني بنى عليها حائطاً وقال: قد بنيت لكم طائفاً حول بلدكم فسميت الطائف.." وهو الوحيد الذي استشهد بما جاء في "معجم ما استعجم" لترجيح تسمية الطائف بما نطق به ذلك الحضرمي لا بكلمة "طائف" التي جاءت في الآية ضمن سياق بلاغي رفيع من المجاز والكناية قصر عنه المفسرون.

المؤرخون

ما جاء في كتب التاريخ عن "نار ضروان" مختلف كثيراً عما جاء عند المفسرين كما سبق، أو عند البلدانيين كما سيأتي؛ وذلك لأنه لم يأت في كلامهم ما يفيد حصول البركان و (الثيل) والإحراق للجنة عقاباً لأصحابها، بل إن كلامهم يدور حول "النار التي كان أهل اليمن يحتكمون إليها"، وهي كما يبدو (نار) تخلفت عن الثورة البركانية، بالقرب من بلدة "ضروان" واستمرت إلى القرن الخامس الميلادي ونسجت حولها روايات الإخباريين أسطورة من الضرب الذي يندرج تحت مسمى "الإسرائيليات" في التراث العربي، والمصدر الأول لهذه الرواية هو "عبيد بن شريه الجرهمي المتوفى سنة 67هـ"، ثم "وهب بن منبه المتوفى سنة 114هـ" ولكنها تبلورت ولبست حلتها كاملة عند "محمد بن إسحاق المتوفى سنة 151هـ" وبالتالي عند "ابن هشام المتوفى سنة 213هـ"، وعلى هذه الرواية كان كل اعتماد جل المؤرخين من "التيجان" و"سيرة ابن هشام" إلى "تاريخ ابن خلدون".

البلدانيون

حينما يكون الأمر متعلقاً بالحديث عن اليمن جغرافياً وبلدانياً، فإن الباحثين لابد أن يضعوا أبا محمد الحسن بن أحمد الهمداني، في مقدمة من يرجعون إليه بالعودة إلى كتبه ومؤلفاته وبخاصة إلى كتابه الفريد المتميز (صفة جزيرة العرب)، وهم غالباً ما يجدون عنده بغيتهم، وبخاصة في إيضاح ما غمض، وتصحيح ما حُرِّف واستكمال ما نقص عند

---

[*] تفسير القرطبي، صـــ

البلدانيين الآخرين لبعدهم عن اليمن.

ولكن اختفاء الكثير من مؤلفات الهمداني، والنقص الذي نرى أنه اعتور النسخ التي اعتمدت للنشر (صفة جزيرة العرب) والأدلة على ذلك كثيرة.. هذا وذاك أديا إلى أن تبدو بعض القضايا البلدانية وكأنها لم تحظ منه بما تستحقه من العناية والاهتمام، ولكن هذا هو ما يبدو وغالباً ما يتضح أنه وهم وظن خاطئ، يكذبه ما يظهر هنا أو هنالك من الأدلة القاطعة والقرائن القوية الدالة على بطلانه.

ولو أخذنا قضية(الجنة) و (أصحاب الجنة) و(ضروان) و (نار ضروان) كمثال، من خلال ما هو معروف لنا من مؤلفاته، لبدا الأمر كما لو كان (الهمداني) لم يولها حقها من الاهتمام والتوضيح، ولكن هذا الظن يأتي ما يبطله بالدليل القطعي كما سنرى.

ذلك أنه من خلال كتابه (البلداني) الأول (الصفة) لا نجد لـ(ضروان)[1] ولا لـ(الحقة)[2] ولا لـ(المعمر) ولا لـ(الحطاب) ولا لـ(الحمراء) ولـ(الراقي)، وهي القرى والبلدات الواقعة في المحيط الذي نتحدث عنه،- ذكرا- أي ذكر ولو في السياق السردي الذي يكتفي بالتعداد وذكر الأسماء، وهذا أمر غير معقول ولا مقبول عند الباحثين الذين يعرفون الهمداني حق المعرفة، وهو يدل على صحة رأي من يرى أن كتاب الصفة الذي بين أيدينا ليس كاملاً. وهنالك أدلة أخرى على صحة ذلك.

وتتيح مصداقية رأي الباحثين، وذلك من خلال قضية (ضروان) خاصة، فرصة تأكيد ذلك، فرغم أنها لم تذكر البتة في (الصفة). ورغم أن ذكرها جاء عرضياً في مؤلفات الهمداني الأخرى مما تم العثور عليه، إلا أن ما سبق- وسنعود إليه- من كلام (أبي عبيد البكري الأندلسي) يثبت هذا لا في قضية (ضروان) فحسب، بل وفي أمور أخرى سنشير إلى بعضها

ففي الجزء الأول من (الإكليل) نجد ذكراً عابراً لـ(ضروان) في الصفحة الثالثة والثلاثين[3]، يقول عن قرباني (هابيل) و(قابيل): (فبعث الله ناراً بيضاء أكلت قربان هابيل وتركت قربان قاتل- قابيل- .... إلخ) ثم يقول: (وكذلك يقول بعض العلماء، في نار ضروان باليمن. وسنذكر صحة خبرها في موضع تحاكم حمير إلى النار إن شاء الله تعالى)[4].

وفي الجزء الثاني لا نجد لضروان إلا ذكراً عابراً في سياق سردي في الصفحة /230. أما في الجزء الثامن[5] فجاء ذكر ضروان في عبارة قصيرة خارجة عن سياقها، ففي حديثه عن منسك (ريام) وليس فيه ذكر للنار ختم الفقرة بقوله: (ومخرج النار من آخر ضروان، على ما يقول علماء اليمن. والجنة اقتص الله خبرها في سورة "ن")، وهذه عبارة منفصلة عن سابقتها وليست من سياق الكلام في شيء، وهذا الأمر يزيد الفقرة التي جاءت عن منسك (ريام) في هذا الجزء- الثامن- من الإكليل اضطراباً على اضطرابها كما جاءت في النسخ التي اعتمد عليها المحققان – الأكوع وفارس- ، وهو اضطراب شكا منه العلامة الأكوع وبذل جهده لتصحيح مفرداته

---

1. لم تذكر هذه البلدة في (الصفة) رغم ذكر (الهمداني) لها في مؤلفاته الأخرى، ورغم ذكر كتب التراث لها.
2. لم تذكر هذه البلدة الأثرية المهمة، لا باسمها الحالي- (الحقة)-، ولا باسمها الذي كان لها في بعض العصور الإسلامية- (المنصورة)- كما يذكر الأخ علي جار الله النيب، ولا باسمها القديم المذكور في عدد من نقوش المسند- (يمهان).
3. الإكليل ج1، ص 33، تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوع رحمه الله، ط1986، وعلق العلامة الأكوع قائلا: (ولعل ذلك- أي صحة خبر نار ضروان- في الجزء الرابع أو الخامس) وكلاهما من كتب الهمداني التي لا تزال مفقودة.
4. تحقيق الأكوع، ط 1979م.
5. ص 131، تحقيق الأكوع، وص 67، تحقيق نبيه أمين فارس، ط دار الكلمة – دار العودة.

وتقويم سياقه وترابط عباراته، بينما تركه نبيه فارس على علاته - وهذا ما سنعود إليه بعد قليل - .

وأخيراً في الجزء العاشر من الإكليل، لا نجد لضروان ولا لنارها ذكراً، رغم ذكره لمناطق (الخشب) عدة مرات، والهمداني يعني بـ(الخشب) الحرار واللابات التي خلفتها (الثيول) البركانية على وجه الأرض، ومنها خشب (همدان - حملان -) مدار الحديث هنا.

أما ما تم العثور عليه ونشره من مؤلفات الهمداني الأخرى غير (الصفة) و (الإكليل) مثل (شرح الدامغة) و (كتاب الجوهرتين) والرسالة العاشرة من (سرائر الحكمة)، فإنها ليست مظنة لذكر (ضروان) وبالرجوع إليها تم التأكد من ذلك.

وبناءً على هذا تكون صورة ما جاء عن (الهمداني) في المعروف من مؤلفاته، حول (ضروان) و(نار ضروان).. صورة باهتة، لا تتناسب مع ما عرف عن (الهمداني) من إيفاء القضايا حقها من البيان، وحتى حينما يأتي كلامه مختصراً على مجاري الإيجاز العلمي البليغ، فإنه لابد أن يكون مشتملاً على قدر من الحقائق واللمحات البارعة المفيدة، مما لا يجده الباحثون إلا عنده، أو عند من أخذ عنه فيكون له من الأمر نصيب بقدر نصيبه مما أخذ عنه، وذلك على وجه التحديد فيما يخص أخبار اليمن وتاريخه وليس على وجه التعميم.

وفيما يتعلق بموضوع الحديث البلداني هنا، والمتعلق حصراً بـ(ضروان) ونارها، وما حفظه المؤلفون عنها من الأنباء، وما نسجه الإخباريون حولها من الأساطير.. فإن الباحثين، - لجميل صنع الأقدار وحسن تصرفاتها - ، يجدون في بعض كتب التراث، ومن كلام أبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني نفسه، ما يصحح هذه الصورة ويزيل عنها الشحوب الباهت، رغم غلبة الظن بأنه لا يزال في كتب الهمداني المفقودة ما هو أكثر مما اقتبسه عنه المؤلفون.

وعند قصر الكلام على (معاجم البلدان) ومؤلفيها، نجد أن أشهر ما يعتمد عليه الباحثون في مجال التراث العربي من المعجمات البلدانية العامة[1] معجمان هما، أولاً: (معجم ما استعجم) لأبي عبيد البكري، وثانياً: (معجم البلدان) لياقوت الحموي، والمعجمان يعتمدان على (الهمداني) كثيراً في معظم ما يذكرانه من البلدان والمواضع اليمنية خاصة، وكذلك في عدد مما يذكران من الأسماء في الجزيرة العربية بصفة عامة.

فأما المعجم الأول لعبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي المتوفى سنة 487هـ، فإنه استشهد بكلام (الهمداني) في أكثر من مائة موضع من كتابه، وهو شيء كثير نسبياً على أن المدهش والمشوق والمفيد، أنه في عدد من هذه الاستشهادات يأتي بكلام للهمداني، لا يجد له الدارسون فيما هو معروف ومنشور من مؤلفات الهمداني أثراً، مما يشهد لعلماء الأندلس بسعة اطلاعهم على مؤلفات الهمداني، وربما باطلاعهم على ما لم يطلع عليه غيرهم من مؤلفات الهمداني المفقودة، وبالتأكيد اعتمادهم على نسخ أصح من مؤلفاته المعروفة.

فمن شواهد تميزهم في هذا المجال، وتفوقهم فيه على علماء المشرق[2]، يمكن الاكتفاء هنا بإعادة إيراد ما جاء في (معجم البكري الأندلسي) نقلاً عن الهمداني في موضوع الحديث هنا وهو

---

1. هنالك بالطبع معجمات بلدانية خاصة بهذا القطر أو ذاك وليس للموضوع هنا علاقة بها، وهناك معجمات عامة ولكنها أقل شهرة بين الدارسين وإن كانوا يرجعون إليها في حالات خاصة على الأغلب.
2. هذا موضوع جدير بدراسة خاصة، مع العلم بأن ترجمة (صاعد الأندلسي) لـ(الهمداني) هي أوفى ما كتبه مؤلفو التراث من تراجمه.

(ضروان)[1]، كشاهد على هذا التفرد.

فأما (البكري الأندلسي) فقد جاء في معجمه (ج3/ صـ 859) تحقيق مصطفى السقا- ما يلي- مع تصحيح ما حرفه النساخ:

"ضروان: بفتح أوله وثانيه، وفتح الواو بعده. هو: الموضع الذي كانت فيه (نار اليمن) التي يعبدونها ويتحاكمون إليها، فإذا اختصم الخصمان، خرج إليهما لسان، فإن ثبتا[2] أكلت الظالم"[3].

قال الهمداني: كان يقال لمخرج النار(حزبى الخشاب)[4] جمع: خشب، وهو: ما كان من الحزن يأكل الحذاء، ومن هذا قيل: جبل خشب.

قال: وهذه النار ظهرت في بعض قرانات مثلثات الحمل[5]، فأقامت قراناً كاملاً، وبلغت حدود (شبام أقيان)[6]، ومن الشمال بلاد (الصيد)[7]، إلى (ذي بين)[8]، ثم راجعاً إلى (حباشة)[9]، وأسفل (محصم)[10]، إلى (مدر)[11] فـ(بيت الجالد)[12] راجعاً إلى مكانها.

قال: قال العلماء: (ضروان) هي الجنة التي اقتص الله خبرها في سورة (ن)".

هذا هو ما قاله أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني، وهو خير ما يُختم به هذا العرض السريع لما جاء في كتب التراث العربي عن (نار ضروان)، وأظن أن كلام الهمداني على إيجازه يمكن أن يدرج ضمن أول توصيف علمي للثورة البركانية الكبيرة التي

---

1. نعيده هنا لا من أجل تأكيد هذه الحقيقة فحسب، بل ومن أجل ما كتبه مؤلفوا التراث من تراجمه.
2. في الأصل: فإن ثبت، وفي (الروض المعطار) صـ 358 لـ(محمد عبد المنعم الحميري) ثبتا بالتثنية وهو الصواب فأثبتناه.
3. العبارات إلى هنا غير منسوبة إلى (الهمداني)، وأغلب الظن أن البكري أخذها عن رواية (ابن إسحاق) التي أصبحت رواية تأسيسية في كتب التراث، أما الهمداني فمن خلال المعروف من مؤلفاته فنلاحظ أنه لم يعط رواية ابن إسحاق حول أسعد والحبرين والاحتكام إلى النار...إلخ كبير الاهتمام.
4. جاء في لسان العرب (الحزب والحزباء: الأرض الغليظة الشديدة الحزنة، والجمع حزباء وحزابى) أما الحزبى بألف مقصورة فصيغة غريبة وجاء في تاج العروس في باب الحاء مع الراء المهملة).
5. قران الحمل، هو: القران بين القمر والثريا الذي يتم في منزلة برج الحمل ويستمر شهراً ولا يزال الشهر يسمى قراناً حتى يومنا، وجاء في الأمثال قولهم "بشاشة وجه، ولا ضيفة قران" أي أن حسن الاستقبال وبشاشة وجه المضيف أفضل من أي ضيافة حتى ولو دامت شهراً كاملاً. وقوله فأقامت- أي النار- قراناً كاملاً، أي: شهراً كاملاً تحرفت كلمة (قران) في بعض كتب التراث إلى (قرن) فقيل أن النار استمرت قرناً كاملاً وقال بعضهم استمرت ثلاثة قرون.
6. شبام أقيان معروفة وهي شبام كوكبان، وكانت قاعدة (أقوانية) مجنورة (ألأنوانية) همدان – حملان- ولهذا قد تعني العبارة وصول النار إلى أراضي (أقوانية شبام أقيان) وليس إلى المدينة نفسها.
7. الصيد- بفتحتين- من حاشد من ولد عمرو بن جشم بن حاشد كما في (الصفة صـ221) وهم في مديرية خرف إلى الشرق من ريدة في ناعط وغيرها.
8. ذيبين جاءت في الأصل ذي أبين وهو تحريف، وصححها القاضي محمد الأكوع في الإكليل ج1، صـ33، وذيبين معروفة إلى الشرق من مدينة خمر.
9. حبشة بالقرب من وادي مخصم الآتي ذكره، وهي من بلدان أرحب مما يلي الجوف.
10. محصم – بفتح فسكون فكسر – واد في أرحب ومن ملقيه منطقة مدر وأتوه والخشب وبلد نيبان.
11. مدر: من أشهر المناطق الأثرية وهي في أرحب، وكانت قديماً تسمى صرواح، نوه الهمداني بذكرها في الجزء الثامن من الإكليل صـ164-165. تحقيق الأكوع.
12. قرية بيت الجالد: ذكرها الهمداني بهذا السياق المفيد هنا، قال: الخشب: قراه تكثر – منها – يناعة وذوبين والأخياب، وأكانط ومدر، وبيت الجالد، (صفة صـ221)، وجاء في معجم بلدان اليمن للمقحفي، صـ274: إلى الجالد من حاشد ينسب وطن (بيت الجالد) في أرحب، وهي قرية عامرة إلى اليوم.

تحدث عنها النقش (سي/C/323)، - (وفيما يلي تمهيد لنشره، ثم نشره مع شرحه)- .

تمهيد:

وقبل تقديم النقش لابد من إيجازه لنعرف مدى النقص الذي أصيب به، وبخاصة في جزئه الأول أي الديباجة، ثم في جزئه الأخير أي الخاتمة، ولهذا فإن القسم الواضح منه يقول على لسان سكان بلدة (الحقة- حقة همدان): "ولقد اندفع الثيل مهاجماً بعنف آتياً من جبل "دقن"، ومدمراً لكل مظاهر الحياة، في كل أرض اجتازها، حتى وصل إلى أرض "مأذن"، ولكن الإله نجى وانقذ وانتشل بلدتهم- دَمْهان- الحقة)- ومعبدها من هذا "الثيل"، ولهذا فإنهم- أهل الحقة- إذ يحمدون إلههم "تألب ريام" ويشكرونه، يضرعون إليه أن يديم الحماية والإنقاذ لقومهم وأراضيهم وقراهم من كل شر أو سوء يحيق بهم. ولقد كان تاريخ هذه الكارثة وتاريخ النجاة منها في شهر "القياظ" من سنة "يسمعئيل بن شــ" ثم فراغ بعد ابن شــ....

وإذا أعدنا النظر إلى النقش بعد هذا الإيجاز، فسنجده ناقصاً من أوله نقصاً كبيراً يزيد على بضعة أسطر، وناقصاً من آخره نقصاً يسيراً ولكنه النقص الذي تخشى أن يكون فيكون لأنه قد ذهب ببقية اسم الشخص المؤرخ به، أي بلقبه ونسبته العائلية، ولو بقي ما ذهب منه لكان من الممكن تخمين تاريخ النقش بطريقة أفضل، وذلك بإجراء مقارنة بينه وبين نقوش أخرى مؤرخة بالأسلوب نفسه.

فأما النقص في أوله، فإنه يحول بين الدارسين وفهم السياق الذي جاء فيه ذكر بلدتي (دورم) و(صرف)، وهما بلدتان تقع أولاهما على مبعدة نسبية من بلدة (الحقة) ومن جبل (دقن) الذي جاء منه (الثيل)، وبعيدة من حيث التضاريس عن المجرى الطبيعي لهذا (الثيل)، وإن كانت واقعة في (أرض مأذن) التي جاء ذكرها في النقش- وهي من همدان- ، وتقع ثانيتهما في المجرى الطبيعي لهذا (الثيل) القادم من جبل (دقن) ولكن دون (الحقة) وأبعد عنها إلى الجنوب الشرقي، ببضعة كيلومترات، ولعل ذكرها جاء باعتبار أن (وادي صرف) هو آخر منطقة وصل إليها (الثيل)، وليس قرية (صرف) نفسها، فالوادي ينحدر متجهاً نحو الشمال الشرقي حتى يدنو من المجرى الذي جاء منه (الثيل).

كما أن هذا النقص حال ويحول بين الدارسين وبين معرفة أسماء المقدمين للقربان والنقش، ومعرفة انتمائهم العائلي والاجتماعي، ونرجح أن النقش كان جماعياً، وأن مقدميه هم كبار (بني سُمَيع) الذي كانوا أصحاب الشأن في (الحقة) وما حولها من (وادعة همدان) وأنهم كانوا من المنضوين تحت سلطان (بني بتع) أقيال (همدان- حملان) الكبار والذين كان منهم ملوك تسنموا عرش مملكة سبأ في (مأرب).

وأيضاً فإنه حرمهم من معرفة الاسم الكامل للإله (تألب ريام) المذكور في النقش بهذا الاسم فقط، ونرجح أن اسمه الكامل هو (تألب ريام بعل قدمان رب مدينة دمهان)- ودمهان هو الاسم القديم للحقة.

وأخيراً فإن هذا النقص في أوله ذهب بالسياق.. السياق الذي لا يمكن فهم النقش كاملاً إلا به، كما أنه فوت احتمالاً قوياً وهو أن يكون أصحاب النقش، قد ذكروا الكلمة التي كانت تطلق اسماً للبركان، إذ لا يسمى في العربية إلاّ (جبل النار)، أو (النار)؛ فكلمة (البركان) طارئة عليها كما سبق.

والذي أراه من خلال ما بقي من النقش، ومن خلال المشاهدة للمنطقة بصفة عامة، هو أن النقش يتحدث عن بركانين لا بركان واحد، أولهما ذكراً في النقش- ولسبب لا نعرفه الآن إلا تخميناً- هو (بركان جبل عُرام)؛ وثانيهما ذكراً في النقش وإن كان أهمها عند مقدميه، هو (بركان جبل دقن)، الذي كان له عدد من الفوهات الطافحة بـ(الثيل) بحسب المشاهدة.

فأما القرينة النظرية من خلال النص المسندي،

على ذكر بركان جبل (عرام)، فهي ذكر بلدة (دورم) بل هي أول كلمة يقرؤها القارئ في النقش، وبلدة (دورم) تقع في السفح الجنوبي الغربي لجبل (عرام) مما يلي وادي (ضهر)، وأما القرينة الثانية، فهي دليل عملي على وجود بركان جبل (عرام) يتمثل في (الثيل) الظاهر فيه، وكأنه لا يزال يسيل نحو الجانب الداخلي من قاع (المعمر)، بل إن السائر على الطريق المعبد قبل (المعمر) لا يلفت نظره شيء كما يلفته منظر (ثيل) جبل (عرام) على مقربة منه إلى اليسار، ومنظر (الثيول) في أرض (وادعة همدان)، ولكن السؤال الذي يبقى هو: لماذا ذكر أهل (الحقة) (بركان عرام) قبل حديثهم عن (بركان دقن) الذي اكتسح أراضيهم بـ(ثيله) وكاد أن يطمّ بلدتهم الحقة لولا أن الإله كتب لهم النجاة؟؟ والذي يغلب على الظن هو أن مدوني النقش- وهو افتراض لا يأباه المنطق- قالوا: "إنه بعد ثورة بركان جبل (عرام- سماه النقش ما سماه) الذي هدد مزارع (دورم) وهدّد (دورم) المدينة نفسها التي ذكرها النقش باسمها، جاءت ثورة بركان جبل (دقن) الذي داهمهم (ثيله) واكتسح من أراضيهم ومنازلهم ما اكتسح ولكن إلهم نجى مدينتهم (دمهان) ومعبدهم و معظم بلدتهم...إلخ".

نص النقش بحروف المسند

C. 323

1. [illegible]
2. [illegible]
3. [illegible]
4. [illegible]
5. [illegible]
6. [illegible]
7. [illegible]
8. [illegible]
9. [illegible]

وهذا هو نصه المستنسخ بالحروف العربية:

1. ....../ لوا درم / لهجرنا/ اعم..............
2. اصرف/ برر/ بن/ عر/ ذقتم/ وهنسل/ عروراما/ لمسـ
3. ـقتم/ بكل/ أبرث/ بهمو/جز/ وأتو/ هأ / ثيلن/ عـ
4. ـدى/ أرض/ مأذنم/ وحمدو/ شمبن/ مقم/ تألب/ بـ
5. ـذت / متع / محرمتهمو/ وهجر همو/ بن / هوت / ثيلـ
6. ـن / ول / وزأ / تألب/ متعن/ شمبهمو/ وأرضهمو/
7. بن / نكيم/ وياستم/ ول/ سعدهمو/ رضي/ أمر
8. أهمو/ بني / بتع/ وكون/ هأ/ متعتن/ متع / بن/
9. هوت/ ثيلن/ بورخ / قيظ/ ذخرف/ يسمعئل/ بن/ شـ
10. ....

أما شرح ما هو مقروء منه فإنه يقول:

1. .... و(دورم)..... مدينة (عَمــ)..................لبلدة
2. صرف، لحينما ثار البركان، وشق (الثيل) طريقه مهاجماً من جبل (ذقتم) وخرب أمامه عدداً
3. من القرى والمزارع في كل الأماكن التي اجتازها حتى وصل هذا (الثيل) إلى
4. أراضي (مأذن)، ولقد حمد الناس قوة الإله (تألب) لأنه
5. منّ بالحماية والنجاة لهم لمزارعهم وأملاكهم وقراهم من هذا (الثيل)
6. ضارعين إليه أن يديم عليهم وعلى أراضيهم الحماية والخلاص
7. من كل نكاية وبأساء تحل بهم. وليمن عليهم بأن ينالوا رضا أقيالهم وكبارهم
8. من بني (بتع). ولقد كان هذا المنجا والخلاص من
9. هذا (الثيل) في شهر (القيظ) من عام (يسمعئيل بن شــ.......
10. ....

نكتفي هنا بنشر نص النقش- بالمسند والحرف العربي- وشرحه، وفيما سبقه من التعليقات، ما يعين الدارسين على إعادة نشره، نشراً منهجياً مستقلاً، ومن الله التوفيق.

العلاقات اليمنية المصرية خلال حكم محمد علي باشا*

1818-1841م.

جميلة هادي الرجوي

المقدمة:

مما لا شك فيه أن المكتبة العربية في حاجة مطردة إلى المزيد من الكتب العالمية التي تعالج تاريخ العلاقات في العالم العربي، وتطورها في العصر الحديث وإذا كانت بعض العلاقات العالم العربي، وتطورها في العصر الحديث، وإذا كانت بعض العلاقات العربية قد لقيت اهتماما أكبر من المفكرين والباحثين، فأن اليمن وعلاقاته بالعالم العربي في العصر الحديث لم يكن أحدهم، لذا ظلت الحاجة إلى الدراسات العلمية الجادة التي تكشف جوانب من تاريخ اليمن الحديث ولا سيما في النصف الأول من القرن التاسع عشر، تلك الفترة التي شهدت ازدياد الاضطرابات والفتن الداخلية بعد استقلال اليمن عن الدولة العثمانية، وظهور القوى الأجنبية الطامعة في خيرات البلاد وموقعها الإستراتيجي، وعلى رأسها بريطانيا

أوضاع اليمن في مطلع القرن التاسع عشر:

وتقع أهمية الفترة التاريخية التي تناولها البحث في أنها تعد مرحلة تحول خطير في تاريخ اليمن الحديث، حيث أدى ضعف الدولة القاسمية في اليمن إلى وقوع البلاد فريسة للأطماع الخارجية، وكانت البدايات الأولى لهذا التحول، هي نهاية حكم المنصور علي، الذي شهدت اليمن في عهده اضطرابات داخلية، نتج عنها أزمات اقتصادية خطيرة.

وقد اجمع كثير من المؤرخين على أن عصر الإمام المنصور (1189- 1224هـ/ 1775- 1809م.) هو عصر ضعف وتدهور سياسي، فالواسعي، يصف الإمام بأنه "لم يشغل من أمور مملكته إلا بالعمائر والإصلاحات في صنعاء، وما حولها من المحلات المشهورة"[1].

ويصفه "الكبسي (صاحب اللطائف المنية) فيقول: "واستمرت إمارته على سعادة وإقبال من أولها وأوسطها، وبقي على تلك الحالة باذلاً للأموال، وشيد الدور، وعمر القصور، وكان في زي عظيم، وملك عقيم"[2].

إن حكومة الإمام المنصور الضعيفة افتقدت

* دراسة شاركت بها الباحثة في المؤتمر الثاني للباحثين اليمنيين (القاهرة: 24-25 مايو 2006م).

1- عبد الواسع الواسعي، تاريخ اليمن، ص 233.

2- محمد بن إسماعيل الكبسي: اللطائف السنية، مخطوط مطبوع، ص 298.

البلاد التماسك والوئام، وأصبح يعاني بشكل مستمر من مشاكل رجال القبائل الذين هددوا العاصمة، وأن كثيراً من المشايخ أصبحوا شبه مستقلين، كل ذلك جعل سلطة الإمام في حالة عدم استقرار أو ثبات، كما أدت هذه الحالة إلى إحداث أزمات اقتصادية وسياسية، تفاقمت كثيراً في السنوات الأخيرة من حكمه، كما شهدت اليمن في أواخر عهده، تدخل قوى خارجية، وأطماعاً تجسدت في زحف الحركة الوهابية على تهامة، وزيادة اهتمام الإنجليز بمنطقة البحر الأحمر من منظور تجاري واستراتيجي- خاصة عقب الحملة الفرنسية على مصر- مما دفع بالإنجليز إلى الضغط على حكام اليمن، لتوقيع معاهدات سياسية واقتصادية، وذلك بهدف إقامة علاقات منفردة تجيز للإنجليز التدخل في شئون المنطقة وعلاقاتها التجارية[1].

وكان لظهور الدعوة الوهابية التي دعا صاحبها (محمد بن عبد الوهاب) (1115- 1206هـ/ 1703-1791م)، إلى مبدأ التوحيد، وترك عادة التقرب إلى الأولياء الصالحين، التي كانت منتشرة بين القبائل البدوية في نجد، صدى واسعاً، ونتائج خطيرة أثرت في سير الأحداث بشكل مباشر، خاصة مع التقاء مبادئ الدعوة بأهداف آل سعود السياسية التوسعية، حتى أصبحت الحركة والوهابية مع بداية القرن التاسع عشر تسيطر على أجزاء كبيرة من الجزيرة العربية[2].

كما أدى ضعف الدولة العثمانية إلى تنامي الحركة الوهابية، وزحفها على "المخلاف السليماني" وتهامة اليمن، وحرمان البلاد من موارد وعائدات كانت تأتي من تهامة إلى صنعاء، وبالتالي أدى هذا الضعف إلى تفاقم الأزمة الاقتصادية، وتزايد الاضطرابات السياسية، واستغلال القوى الخارجية الطامعة لهذه الظروف لفرض سيطرتها على اليمن. وكانت الدعوة الوهابية قد تسللت إلى قبائل عسير عن طريق الشيخ (احمد بن حسين الفلقي) من اهل صبيا، والذي بهرته مبادئ الدعوة، فذهب إلى الدرعية، واتصل بآل سعود، وطلب من الأمير أن يندبه لنشر مبادئ الدعوة في المخلاف، وقد صادفت هذه الدعوة هوى في نفوس كثير من الرؤساء والمشايخ في إقليم (عسير) والذي كان يحكم حكماً محلياً، نظراً لو عورة جباله، فكان يحكمه مجلس قبلي يضم قبائل الإقليم، وعرف عن هذا المجلس ارتباطه اسمياً بالسلطة الحاكمة بأي من (زبيد أو تعز، او صنعاء، أو صعدة).

وقد قام بعد ذلك أمير عسير (محمد بن عامر) الملقب بأبي نقطة، بنشر المبادئ الوهابية في الإقليم، بعد أن كافأه الأمير (عبدالعزيز آل سعود) بتعيينه أميراً على عسير وأخذ عهداً على نفسه بالتوسع جنوباً في الأراضي اليمنية باسم آل سعود[3].

وعلى الرغم من أن مناطق شبه الجزيرة العربية لم تكن من المناطق الغنية التي تحرص الدولة العثمانية على المحافظة عليها، فإن بقاءها في يد الخليفة العثماني كان أمراً لا بد منه، حتى تتم المظاهر الشكلية لخلافته، وحتى لا يقع الشك في مقدرته على حمايتا لحرمين الشريفين، لذلك قام السلطان (محمود الثاني) (1808- 1839م) بتكليف (محمد علي باشا) والي مصر رسمياً في ديسمبر (1222هـ/1807م.) باستخلاص الحرمين الشريفين من أيدي آل سعود[4].

1- بلايفير: العربية السعيدة أو اليمن، ترجمة: سعيد عبد الخير نوبان، وعلي محمد باحشوان، ص 126، صادق الصفواني: الأوضاع السياسية الداخلية لليمن، ص 246.

2- عثمان بن بشر: عنوان المجد في تاريخ نجد، ج 1، ص 11-12.

3- سيد مصطفى سالم: مراحل العلاقات اليمنية السعودية، ص77.

4- حسين مؤنس: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، ص 192.

- سيد رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، ص 238.

الأسباب التي دفعت (محمد علي) للقيام بحملة الحجاز

لم يكن شن هجوم على الدرعية بالأمر السهل، إلا أن (محمد علي) رأى في ذلك فرصة للتخلص من المتاعب التي كان يعاني منها في مصر، إلا أن الأوضاع المالية كانت في منتهى السوء، وكان الجيش الذي يتكون معظمه من العناصر التركية والجركسية والألبانية، تسوده روح التذمر والثورة على الأوضاع.

ورأى (محمد علي) أنه إذا نجح حيث أخفقت الدولة العثمانية في القضاء على آل سعود واستخلاص الأراضي المقدسة منهم، والإسراع في نجدة إمام اليمن، ومحاربة فلول قوات الدرعية، فإن ذلك سيؤدي حتماً إلى توطيد مركزه أمام السلطان، ويسمو بمكانته لدى الشعوب الإسلامية، خاصة أن فكرة استقلاله عن الدولة العثمانية قد بدأت تملك عليه مشاعره منذ ذلك العهد، فلا شك لو قدر له أن ينتصر على الدرعية في تلك المهمة، فإن ذلك سوف يمهد له السبيل لتحقيق طموحه وآماله التوسعية في المنطقة[1].

عقد (محمد علي) لواء حملة الحجاز، لنجله (أحمد طوسون باشا) وكان في السابعة عشرة من عمره، وأخذت الحكومة تجهز الحملة بالرجال والعتاد، وأصبح (السويس) معسكراً حربياً ضخماً، وجهز الوالي أسطولاً بحرياً مكوناً من خمسة عشر سفينة، نقلت على ظهور الإبل إلى السويس، واستغرق إعداد الحملة حوالي ستة أشهر إلى أن أصبحت جاهزة، وعلى أهبة الرحيل، حيث انطلقت في 12 رمضان سنة 1226هـ/ 30 سبتمبر 1811م[2].

وبذلك كانت جزيرة العرب، هي أول ميدان لحروب مصر الخارجية في عهد (محمد علي)؛ وقد أخذت المعارك بين القوات المصرية وآل سعود تتخذ أسلوب الكر والفر، ولا يعنينا أن نستعرض تفصيلات المعارك هنا، ولكن يهمنا أن نتعرف على الأسباب التي دفعت (محمد علي) إلى التقدم بقواته نحو الجنوب في منطقة عسير اليمنية لمحاربة الثوار هناك، ولتكون بداية لتدخل الجيش المصري في شمال اليمن، ومحاولة إخضاعه للسيطرة المصرية، والحد من نفوذ آل سعود في المنطقة.

لقد رأى (محمد علي) أن أهل عسير يناصرون قوات الدرعية، ويناوشون وحدات جيشه في الحجاز، فأنفذ حملة إلى ميناء (قنفذة) على البحر الأحمر، فاحتلها وأمر بتحصينها، وترك حامية من الجنود بها، لتكون منطلقاً للزحف داخل البلاد، إلا أن قوات عسير بقيادة (طامي بن شعيب) قامت باحتلال عين الماء التي تزود الحامية بمياه الشرب، فحاول قائد الحامية استخلاص العين، غير أنه فشل وهزم من قبل قوات عسير، لذلك لم يجد جنود الحامية مفراً من إخلاء المدينة و الرجوع إلى جدة، بعد تكبدها خسائر فادحة في الأرواح. وهنا رأى (محمد علي) أن يتوجه بنفسه لتأديب قبائل عسير، وإخضاعها لسلطانه. بعد أن تمكن من فرض سيطرته على معظم مناطق الحجاز، ما عدا الدرعية مركز آل سعود[3].

ورغم المتاعب والصعوبات المضنية التي واجهها (محمد علي) وقواته من المقاومة في عسير، إلا أنه في نهاية المطاف تمكن من هزيمة القبائل العسيرية، وأسر قائدها (طامي ابن شعيب) الذي أرسل إلى مصر، ومنها إلى استنبول حيث أعدم هناك[4].

وبعد أن اطمأن (محمد علي) على تطهير الميدان الجنوبي من قبائل عسير المعادية له، عاد إلى جدة، ثم مكة، ومن هناك غادر إلى مصر، تاركاً أمر الحملة لأبنه (طوسون) ثم من بعده أبنه الأكبر (إبراهيم باشا) الذي قاد عملية حصار الدرعية، وخاض حرباً

1- فاروق عثمان أباظة: الحكم العثماني في اليمن، ص31.
2- عبد الرحمن الرافعي: عصر (محمد علي)، ص 125.
3- الرافعي: نفسه، ص 133.
4- سيد مصطفى سالم: مرجع سابق، ص 165.

ضروساً ضد آل سعود، انتهت بسقوط الدرعية وتخريبها في (8 ذي القعدة 1233هـ/ 9 سبتمبر 1818م.) بعد أن سلم ابن سعود نفسه للقوات المصرية التي منحته الأمان على حياته وجنوده وسكان الدرعية، إلا أن (محمد علي) سلمه للسلطات في استنبول، حيث أعدم هناك، واخلف (محمد علي) وعده لابن سعود وامر بتدمير الدرعية وتركها أثراً بعد عين[1].

وبذلك دخل القسم الأكبر من الجزيرة العربية ضمن الإمبراطورية العثمانية رسمياً، وتحول الحجاز إلى إقليم مصري يحكمه الوالي المصري المعين من قبل (محمد علي) وحسب أهوائه أصبح شرفاء مكة يعينون ويبدلون مما جعل سلطاتهم خاضعة لولاة (محمد علي) على الحجاز[2].

وهكذا حقق (محمد علي) اغراض حملته في تحطيم قوة آل سعود، والسيطرة على نجد والحجاز، فاستمال الباب العالي إليه، ومد نفوذه شرقاً إلى الخليج العربي، غير أن اتساع نفوذه على هذا النحو جعله يصطدم بالمصالح البريطانية، التي كانت تسعى من جانبها إلى بسط نفوذها عل شبه الجزيرة العربية والخليج العربي، بهدف التحكم في الطريقين البحرين الرئيسيين المؤدين إلى الهند.

- طريق البحر الأحمر. - طريق الخليج العربي.

وهو ما كان يمثل محور السياسة البريطانية في المنطقة منذ القرن الثامن عشر.

كان الحجاز المنطقة الأولى التي استولت عليها قوات (محمد علي) وضمتها إلى حوزة الدولة العثمانية، وأعادت الحرمين الشريفين إلى سلطة الإشراف ثم استولت بعد ذلك على الدرعية مركز آل سعود ودمرتها في عام 1818م.

أما منطقة عسير فظلت مصدر قلق دائم "لمحمد علي" منذ نزول قواته على أرض شبه الجزيرة العربية. لخضوع هذه المنطقة لنفوذ آل سعود، واعتناق الكثير من قبائلها لمبادئ الدعوة السلفية، وكانت هذه الثورات لا تهدأ حتى تبدأ من جديد، طوال فترة تواجد قوات (محمد علي) في شبه الجزيرة العربية، وحتى انسحابه منها عام 1841م، على إثر عقد معاهدة لندن الشهيرة[3].

حملة (خليل باشا) على عسير:

في هذه الأثناء عاد (إبراهيم باشا) إلى الحجاز، ووصلته الأوامر من القاهرة بأن يعمل على إنهاء مسألة عسير، فقرر إرسال حملة ضخمة على رأسها (خليل باشا) في صفر 1334هـ/ ديسمبر 1818م، وقد خاضت القوات المصرية مواجهات صعبة وعنيفة ضد قوات عسير من ناحية، وأشراف (أبي عريش) من ناحية أخرى، أدت- هذه المواجهات- في نهاية الأمر إلى فرار قادة عسير، واستسلام الشريف (أحمد بن حمود) شريف أبي عريش للقوات المصرية، وحينئذ قام (خليل باشا) بتاديب قبائل عسير، وتسليم مدينة (أبي عريش) للشريف (علي بن حيدر)، أحد أهم الشخصيات الموالية للقوات المصرية والمؤتمرين بأمر الباشا في مصر، طيلة فترة حكمه، وحتى آخر أيام حياته[4].

وكان الإمام (المتوكل أحمد) قد استفاد من حرب (محمد علي) ضد آل سعود، فتبادل معه الرسائل والهدايا، في سعيه لاستعادة سيطرته على منطقة تهامة، والتي سيطر عليها الشريف (حمود) أمير أبي عريش، باسم آل سعود، وضمها إلى حكمه في صنعاء، واستمر المتوكل في جهوده الدبلوماسية والحربية لاستعادة تهامة من يدي الشريف (حمود) وقد أثمرت هذه الجهود، وعادت تهامة لحكم

1- عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي "لمحمد علي الكبير"، ص 56، الرافعي: مرجع سابق، ص 241.

2- لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص 107.

3- عبدالرحيم عبدالرحمن: محمد علي وشبة الجزيرة العربية، ص 45.

4- علي الصميلي: العلاقة بين أمراء أبي عريش وأمراء عسير، 159.

الإمام، ولكن بعد ثلاث سنوات من وفاة المتوكل وفي عهد ابنه المهدي (عبدالله) حين باتت المنطقة كلها من عسير شمالاً إلى زبيد جنوباً، تحت إمرة (خليل باشا)[1].

وقد أرسل (محمد علي) كتاباً إلى المهدي عبدالله، يزف له بشرى انتصاره على ثوار عسير، ويعترف له بأن مراسلاته مع والده المتوكل، تؤيد حق صنعاء في تهامة، إلا أنه من الضروري أن يقوم الإمام مقابل ذلك بدفع مقدار ثلاثة آلاف قنطار من البن سنوياً، ودفع مائتي ألف ريال فرانسة نقداً لمرة واحدة، وقد فوض الإمام المهدي قاضي قضاته (الإمام الشوكاني) للتفاوض مع (يوسف آغا الرومي) ممثل (خليل باشا) في صنعاء[2].

وفي الواقع، لم يكن من أهداف الحملة في هذه المرحلة السيطرة على اليمن، لأن (محمد علي) لم يجد الوقت ملائماً للتوسع في اليمن، فهو لا يزال يأتمر بأمر السلطان، وهو يدخر اليمن لمستقبل قريب، عندما يستطيع تحقيق أهدافه في الاستقلال عن الدولة العثمانية، وبما أن الحملة قد حققت أهدافها في القضاء على الحركة الوهابية، وإعادة هيبة السلطنة العثمانية في السيطرة والإشراف على الحرمين الشريفين، فعودة تهامة إلى حكم صنعاء يخفف العبء على قوات (محمد علي) ويجعل الإمام ممتناً وداعياً للسلطان، وفوق ذلك تم ضمان تصدير مقدار ثلاثة آلاف قنطار من البن اليمني ذائع الشهرة إلى مطبخ السلطان سنوياً مجاناً، وذلك أفضل، أو ربما الشيء الأساسي والوحيد الذي تملكه اليمن آنذاك وله قيمته العالمية[3].

ومما يجدر ذكره هنا، أن الحكومة البريطانية، التي بدأ اهتمامها بعدن والجنوب العربي في ذلك الحين يتزايد. أخذت ترقب بعين الحذر والريبة تلك الاتصالات التي جرت بين (محمد علي) وإمام اليمن. فكلفت قنصلها في مصر (سونت Sooh) أن يستشف الموقف عند (محمد علي) نفسه. وعندما قابله أخبره أنه ليس في نيته شيء وأنه أعاد إلى إمام اليمن أملاكه التي تم الاستيلاء عليها في عام 1819م[4].

وهنا تظهر لنا حنكة (محمد علي) في التعامل مع بريطانيا بأسلوب سياسي رفيع، ليتلافى الاصطدام بها في تلك الفترة المبكرة، وحتى يتمكن من بناء استراتيجيته العسكرية، ويحقق استقلاله السياسي عن الدولة العثمانية أولاً.

ومما لا شك فيه، أنه منذ أن وطئت القوات المصرية أرض الجزيرة العربية و (محمد علي) يتطلع إلى فتح اليمن، والذي كان هذا الأمر يشغل جانباً كبيراً من تفكيره. فموانئ اليمن التجارية المهمة، وموقعها على البحر الأحمر. وما يمكن أن تدره جماركها من المال الوفير، وتجارة البن العظيمة التي يتطلع إلى احتكارها، ورغبته في فتح أسواق جديدة لتصريف البضائع المصرية التي كان يحتكرها في مصر، كل ذلك جعله يفكر جدياً في الاستيلاء على اليمن.

ولم يكن (محمد علي) يطيق أن يسمع عن تدخل قوة أخرى في شئون اليمن، أو في أي عدوان يقع على أراضيه، حتى لو كان العدوان داخلياً[5].

إلا أنه عندما نشبت حرب الشام الأولى عام (1831-1833م) التي خاضها (محمد علي) باشا ضد الدولة العثمانية، بدأت عنايته بالجزيرة العربية وما بها من جنود وحاميات عسكرية تقل عن ذي قبل، إذ أصبح جل اهتمامه منصباً على إعداد الجيوش المدربة وفق النظم الحديثة، وتزويدها بالمال والعتاد لكسب المعركة التي يخوضها ضد الدولة العثمانية في الشام حينذاك، تاركاً

1- حسين العمري: مائة عام من تاريخ اليمن الحديث، ص 177، 221.

2- العمري: نفسه، ص 221، 224.

3- عبد الحميد البطريق: من تاريخ اليمن الحديث، ص 50-51.

4- البطريق، نفسه، ص 51.

5- عبدا لحميد البطريق، مرجع سابق، ص 62-63.

الأمور في الجزيرة العربية وبالذات في الحجاز للوالي المعين من قبله فيها، للسيطرة على مجريات الأمور هناك[1].

ومن هنالك فإن انشغال جيوش (محمد علي) بحروب الشام، مدعاة لفتح باب جديد على الباشا في الحجاز، تمثل في ثورة الجند غير النظاميين ضد حكومة الحجاز، بقيادة أحد المماليك الذي يدعى (محمد آغا) والملقب (تركجه بيلمز[2]) وهو من خيالة الجيش المصري العثماني المرابط في الحجاز، وتعاون معه فرقة من الجند غير النظاميين، وقام بثورته المشهورة في الحجاز واليمن، بدعم مباشر من الدولة العثمانية، نكاية بـ(محمد علي) الذي كان يقود الحرب ضدها في الشام، ودعم خفي من بريطانيا التي رات في شخصية (محمد علي) الطموحة خطراً بدأ يهدد مصالحها في المنطقة وقد واجه (محمد علي) ثورة بيلمز بحزم شديد، وأرسل قوة كبيرة من الجنود بقيادة (أحمد باشا يكن) لمواجهة التمرد في الحجاز، وقد أضطر بيلمز بعد أن هزم في الحجاز إلى الفرار جنوباً باتجاه اليمن، وعقد تحالفاً عسكرياً مع ثوار عسير، بقيادة الأمير (علي بن مجثل) إلا أن هذا التحالف سرعان ما فشل، وأنقلب (علي بن مجثل) وزحفت القوات المصرية بقيادة (أحمد باشا) حيث هزم وتشتت قواته، إلا أنه استطاع الهرب عن طريق اتصاله بالإنجليز بحراً على ظهر السفن الإنجليزية التي نقلته مع من تبقى من جنوده من ميناء (المخا) إلى بومباي ثم إلى البصرة بعد ذلك[3].

حملة (محمد علي) على اليمن:

تسببت ثورة الجند غير النظاميين بزعامة (محمد آغا) عام (1248هـ/ 1832م.) ووقوف (محمد علي) على الثورة الذي لعبته الدولة العثمانية عن طريق والي بغداد، في خلق جو مضاد له في شبه الجزيرة العربية، سواءً في نجد، أو في تحريك ثورة (تركجه بيلمز) في الحجاز، وكذلك تعرض المناطق اليمنية في منتصف الثلاثينيات من القرن التاسع عشر للأعمال العدوانية من جانب قادة عسير، في أن يفكر والي مصر جدياً في الاستيلاء على اليمن[4].

كما أن سيطرة (محمد علي) على الموانئ اليمنية، ذات الموقع الممتاز على ساحل البحر الأحمر من شأنها ان تعود عليه بالأموال الوفيرة، من خلال فتح أسواق جديدة لتصريف البضائع المصرية، وتطلعه إلى احتكار تجارة البن اليمني، يعد من الأسباب الهامة التي دفعت (محمد علي) إلى مد سيطرته ونفوذه على الموانئ اليمنية وخاصة ميناء (المخا) للسيطرة بالتالي على هذه التجارة واحتكارها[5].

وفي هذا لوقت كان التنافس الدولي بين أمريكا وبريطانيا، قد أصبح على أشده، فالتجار الأمريكيون منذ أوائل القرن التاسع عشر، قد بذلوا جهوداً كبيرة للمشاركة في تجارة البن اليمني، وبين (1832- 1834م.) وفي خلال ثمانية عشر شهراً، وصلت إلى ميناء زنجبار على الساحل الشرقي لأفريقيا (32) سفينة أمريكية عرج الكثير منها على ميناء (المخا)، وقامت بنقل كميات من البن اليمني، الذي كان يلاقي ترحيباً بالغاً، وسوقاً رائجة في الولايات المتحدة حينذاك، بالإضافة إلى ضعف السلطة في اليمن، والمتمثلة في وجود الإمام الضعيف وغير القادر على حماية المدن والموانئ اليمنية من أي طامع[6].

ويرى بالمرستون Palmerston وزير خارجية

1- عائض خزام الروقي، حروب محمد علي في الشام وأثرها في شبة الجزيرة العربية، ص 129.

2- أي الذي لا يحسن التحدث بالتركية.

3- أحمد فضل العبدلي: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، ص 142.

4- عائض بن خزام الروقي: حروب (محمد علي) في الشام، ص243-244.

5- Marston, Thomas: Britain's Imperial Red Sea Area (1800-1878). P.56.

6- فاروق عثمان أباظه: دراسات في تاريخ العالم العربي والإسلامي، ص 88.

بريطانيا حينذاك، أن (محمد علي) بعد أن وصلت فتوحاته، لتشمل مصر والسودان والحجاز وسوريا لم يبق له ليكون الإمبراطورية العربية إلا فتح الخليج العربي، وجنوب الجزيرة العربية، والعراق، وقال في إحدى رسالته إلى الوزير البريطاني في (نابلي) في مارس (1833م) أن خطة محمد علي الحقيقية، ترمي إلى تأسيس دولة عربية تضم جميع البلدان التي يتكلم أهلها العربية[1].

ويتفق مع هذا الرأي فريق من المؤرخين القدامى والمحدثين، ويختلف معه بعضهم الآخر، ولكن الثابت تاريخياً أن (محمد علي) كان واسع الطموح ويمتلك شخصية فذة، قادرة على استغلال أية فرصة متاحة أمامه لتحقيق طموحاته وتوسعاته.

وعندما أخذ (محمد علي) يرتب لإرسال حملته إلى اليمن لم يكن يخشى سوى معارضة الحكومة البريطانية، وقيامها بالدسائس ضده في الجنوب العربي، بعد أن ساءت علاقاته بالدولة العثمانية، وكشف الغطاء عن تطلعاته السياسية، وسياسته التوسعية، في أعقاب الحرب السورية الأولى، والتي انهزمت فيها الدولة العثمانية أمام قوات محمد علي، ومساندة الدولة العثمانية لحركة التمرد التي قادها الجند غير النظاميين في الحجاز[2].

لذلك استدعى القنصل الإنجليزي في مصر (الكولونيل كامبل Colonel Campbell) في (صفر 1249هـ/ يونيو 1833م)، وأخبره أن تفاقم أمر الثورة بقيادة (تركجة بيلمز) في سواحل اليمن وأراضيه، وكذلك الفوضى التي تسود اليمن بعد وفاة الإمام المهدي عبد الله في أواخر عام (1248هـ/ 1832م) وقيام خلافات بين المرشحين للإمامة، كل ذلك سوف يؤدي إلى إثارة القلاقل في البحر الأحمر، وتعريض أمن السفن التجارية وسلامتها أيا كانت جنسيتها للخطر، وأن من شأن الوجود المصري في تلك المنطقة تأمين التجارة الإنجليزية التي تتخذ ميناء (المخا) مركزاً لها، وقد أيد كامبل حكومته في إرسال هذه الحملة مؤكداً لوزير الخارجية بلمرستون أن من مصلحة بريطانيا في الوقت الراهن أن يسود الأمن في اليمن خصوصاً أن (محمد علي) قد عرض صداقته على إنجلترا[3].

ولم ينتظر الباشا وصول رد الحكومة البريطانية، وتحركت الحملة التي أعدها (محمد علي) للسيطرة على اليمن، وعندما حمل إليه كامبل الرد الذي كلف بتسليمه، أعتذر الباشا مبرراً أنه اضطر للقيام بعمل عسكري سريع إزاء أعمال العدوان التي أرتكبها المتمردون في الحجاز، ونتيجة لهجماتهم على تجارته في البحر الأحمر، وأنه سيحرص على ألا يعد استيلاؤه على (المخا) عملاً حربياً ضد المصالح البريطانية، أو ضد أي اتفاق قائم بين حكومة الهند، وإمام صنعاء الراحل[4]. وهكذا أعلن (محمد علي) نيته في السيطرة على اليمن.

خط سير الحملة المصرية على اليمن:

أرسل (أحمد باشا) حاكم الحجاز بناءً على أوامر (محمد علي) قوة مصرية بقيادة (محمد أمين) إلى الشريف (علي بن حيدر) بالمخلاف السليماني، وقد وصلت هذه القوة إلى المخلاف في مطلع عام (1250هـ/1834م)، ومعها تعليمات بأن يصحب الشريف حسين هذه الحملة في مهمتها لبسط السيادة المصرية على الموانئ اليمنية.

1- حسن أحمد إبراهيم: محمد علي في السودان: ص36-37.

2- البطريق: من تاريخ اليمن الحديث، ص 71. لوتسكي، مرجع سابق، ص 131.

3- الوثيقة البريطانية المحفوظة بوزارة الهند البريطانية بلندن:

I.O.L. B. 209/2147 (1). Abstract of Correspondence and Memorandum, Respecting the Yemen confidential, 1837.

المترجمة في كتاب د. فاروق أباظة: دراسات في تاريخ العالم العربي والإسلامي الحديث والمعاصر ص 178.

4 - نفس الوثيقة السابقة، نقلا عن أباظة، ص 178.

وقد انطلقت الحملة من أبي عريش براً، وواصلت تقدمها دون مقاومة تذكر حتى وصلت مدينة (الحديدة) وفرضت حصاراً استسلمت على إثره الحامية العسيرية فيها للقوات المصرية، وبالتنسيق بين القوة المصرية بقيادة (محمد أمين) والقوة العربية بزعامة الأمير (حسين بن حيدر) فتحت (المخا)، ومدن يمنية أخرى أبوابها للقوات المصرية فدخلتها سلماً[1].

وبعد أن نجح (محمد أمين) في مهمته سارع (محمد علي باشا) باستبداله بالقائد (إبراهيم باشا يكن) وهو ابن أخت (محمد علي) وأحد القادة البارزين الذين أبلوا بلاء حسناً في حروب الشام ضد العثمانيين، وكانت ثقة (محمد علي) به كبيرة، ويرى بعض المؤرخين أنه هدف من وراء هذا التغيير إلى بسط نفوذه على كل المدن والسواحل اليمنية بما فيها عدن، وصنعاء[2].

سافر (إبراهيم باشا يكن) إلى مهمته في 2 جمادى الآخر سنة (1250هـ/ أوائل عام 1835م.) بعد أن زوده (محمد علي) بنصائحه وتعليماته وبين له أنه ذاهب إلى اليمن بصفته قائد القوات المصرية، وقد انطلقت الحملة من (حصوة) منطقة العباسية حالياً بالقاهرة، وسارت نحو اليمن بطريقين:

الطريق البحري:

حيث أخذ الأسطول المصري تحت قيادة حافظ بك يستولي على موانئ اليمن الواحدة تلو الأخرى، دون مقاومة تذكر، ويترك بكل ميناء حامية مصرية[3].

بينما كانت القوات الرئيسية تحت قيادة " إبراهيم يكن" قد بدأت زحفها البري، ووصلت إلى ميناء (القنفدة) في (10 شوال 1250هـ/1835م.) واتخذها قاعدة حربية للتخطيط لعملياته العسكرية داخل الأراضي اليمنية من ناحية، والقضاء على الثورة العسيرية من ناحية أخرى[4].

إلا أن القوات المصرية بقيادة (إبراهيم يكن) المتقدمة براً لاقت صعوبات شديدة وتكبدت خسائر فادحة نتيجة هجوم القبائل العسيرية على معسكرات الجيش بشكل مباغت اضطر معه الجيش إلى ترك مواقعه المتقدمة والانسحاب إلى (القنفدة) في حالة سيئة، مما دفع بالقائد (إبراهيم باشا يكن) بالتحول بقواته عبر البحر، مرة أخرى والتقدم من خلال الموانئ اليمنية المؤمنة بالحاميات المصرية إلى أن وصل إلى الحديدة، حيث أتخذها مقراً لإدارة عملياته، وقام بإجراء عدة تحركات نجحت من خلالها قواته في الاستيلاء على مدن (بيت الفقيه، وزبيد، والمخا، واللحية) دون مقاومة تذكر، وعين (إبراهيم باشا) لكل مدينة محافظاً، وموظفين لإدارة شئونها وجماركها[5].

كان سرور (محمد علي) بالغاً عندما علم بأن ساحل البحر الأحمر من السويس إلى (باب المندب)، أصبح تحت سيادته، ولم يبق من الموانئ المهمة سوى ميناء عدن.

أوضاع اليمن أثناء الحملة:

كانت اليمن في هذه الفترة من تاريخها يسودها الصراع والفوضى الداخلية، وكان الحكام من الأئمة ضعفاء متصارعين، بلغ بهم الطمع والاستهانة بمسئولية الإمامة وحقوق المواطنين، بل وسيادة الوطن مبلغاً عظيماً.

وكانت دولة (صنعاء) في نهاية حكم (المهدي عبد الله) قد ضعفت وخرجت من سيطرته معظم البلاد، وتنفذ فيها زعماء القبائل، فاستولت (برط)

1 - العقيلي: تاريخ المخلاف السليماني، ص 509.

2- العقيلي: نفسه، ص 177.

3- دار الوثائق القومية: محفظة عابدين (251)، رقم الوثيقة (133) حمراء بتاريخ 25 صفر 1251هـ/22 يونيو 1835م) من "إبراهيم يكن" إلى (محمد علي).

4- نفس الوثيقة السابقة، رقم 133.

5- عبد الحميد البطريق: مرجع سابق، ص 76.

على مناطق اليمن الأسفل[1]. وامتنع الأهالي عن دفع ما عليهم من حقوق، وخرجت مناطق تهامة اليمن بموانئها مرة أخرى، واستولت عليها القوات المصرية بالكامل[2].

ساهمت هذه الظروف الصعبة التي مرت بها اليمن في تسهيل تقدم قوات حملة (إبراهيم باشا يكن) والتوغل نحو الداخل، حتى وصلت (تعز) و(العدين)، وهددت بدخول (صنعاء) ذاتها، كما سهلت كذلك للإنجليز احتلال (عدن).

وقد ساعدت بعض الظروف المحلية (إبراهيم يكن) في التوغل نحو منطقتي (تعز، والعدين)، وهو خروج كل من السيد (قاسم بن المنصور) الملقب بـ(الهادي) من (صنعاء) والدعوة لنفسه في (تعز)، وكذلك خروج (الشيخ حسن بن يحيى) حاكم (حيس) والمسيطر على معظم مناطق جنوبي تهامة، وغربي اليمن الأسفل، وقيامه بالسيطرة على (تعز) حيث دخل في صراع مع زعماء (ذو محمد) المتنفذين في اليمن الأسفل، وغيرهم من المشائخ المحليين للسيطرة على مدينة (تعز) مما جعل السكان يهجرون المدينة في تلك الأثناء نتيجة الدمار الذي لحق بها[3].

وقد تمكن (إبراهيم يكن) بحنكة ودهاء، من استقطاب أعيان القوم الخارجين على الإمام والطامعين في العطايا إلى صفه، لتسهيل مهمته في الاستيلاء على مناطق الداخل وضمها إلى السيادة المصرية، فهو يقول في رسالة بعث بها إلى (محمد علي) لقد رأينا أن نتألف قاسماً، ومن معه من نقباء القبائل المذكورة وعقلائها كي نضمهم إلينا، وتنضم (تعز) وتوابعها في سلك طاعة الحضرة الخديوية، ولهذا نشطنا إلى تدبير ذلك، طوراً بمغريات الوعود، وطوراً بوسائل الإخافة والتهديد[4].

أستعد (إبراهيم باشا يكن) بعد أن سيطرت قواته على الموانئ اليمنية الرئيسية لإتمام مهمته في الداخل، وفي هذه الأثناء حدث في صنعاء، أن قام الإمام (الناصر) عبد الله بن الحسن، بانقلاب ضد المهدي (علي بن عبد الله) وقبض عليه مع عمه (محمد المتوكل) وأودعهما السجن، وأعلن إمامته، وبايعته القبائل، والعلماء والأعيان والحكام، وذلك في (3 ذي القعدة 1252هـ/ فبراير 1837م.) واستبشر الناس خيراً، وفرحوا بقيام الناصر، خلفاً لـ(علي بن المهدي) لما عانوا من الشدة والجوع، والمرض والخوف، وظنوا أنه المجدد[5].

لم يكن أمام الإمام الناصر- وقد تسلم الحكم- من خيار إلا أن يعد نفسه للحرب، ومواجهة القوات المصرية التي أصبحت متمركزة في (تعز) لتتخذ منها قاعدة انطلاق صوب (اليمن الأسفل) في طريقها لتصل إلى صنعاء، وقد حشد معه مشايخ القبائل الموالية وضمها إلى جيشه، وتقدم بالجيش إلى ذمار، ثم إب، حيث مكث فيها بضعة أسابيع استعداداً للمعركة وقد اشتبكت قوات الناصر مع القوات المصرية في (القصيبة) بالقرب من تعز، واشتدت المعركة بين الفريقين، وكان يوماً عسيراً

1- اليمن الأسفل: هي كل المناطق التي تقع جنوب سمارة الواقعة جنوب صنعاء بحوالي 130كم، وغربي قعطبة والقبيطة وشرقي حيس، وهي مناطق الإقليم الأخضر، ويبدو أنه تمييز إداري ومناطقي عما كان يطلق عليه مناطق اليمن الأعلى (صنعاء، وذمار) وهذه التسميات تلاشت أثناء الحكم العثماني الثاني لليمن (1842-1918م).

2- صادق الصفواني: الأوضاع الداخلية لليمن خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير، منشورة، ص 207.

3 - حسين العمري: مائة عام من تاريخ اليمن الحديث، ص 246-247، الصفواني: نفسه، ص 209.

4 - دار الوثائق القومية: محفظة عابدين رقم "261" وثيقة رقم "316" حمراء، من "إبراهيم باشا يكن" إلى (محمد علي) بتاريخ 22 ربيع الآخر 1253هـ/1837م.

5 - العمري: تاريخ اليمن الحديث والمعاصر، نص غير منشور ضمن مخطوط صغير، ص 184.

على الجميع، قتل فيه عدد كبير من جنود الباشا (إبراهيم يكن) إلا أن الدائرة دارت على قوات الإمام فانهزمت، وقتل معظم قادة ورؤساء الجيش، واضطر الإمام إلى التقهقر ناجياً بنفسه ومرافقيه بعد أن أيقن كل فرد من مرافقيه بالهلاك، بسبب انقطاع جميع المسالك، مخلفاً وراءه الكثير من المعدات والأثقال، حتى وصل إلى صنعاء سالماً[1].

أصبح الطريق أمام قوات (إبراهيم باشا يكن) إلى صنعاء مفتوحاً، وبدأ يعد العدة لاتخاذ هذه الخطوة فعلاً، وأدرك أن تحقيق هذا الهدف، يحتاج إلى قوة أخرى من الجند، حيث كان يعاني من أزمة مستعصية بسبب حاجته الشديدة إلى الإمدادات البشرية والمادية، بعد أن أصبح معظم جيشه موزعاً بين الأقاليم اليمنية التي تم فتحها والموانئ الساحلية، التي وضع فيها حاميات قوية تدافع ضد أي هجوم بحري أو بري يقع عليها[2].

الإمام الناصر يطالب بعقد الصلح مع (محمد علي):

بعد عام من عودة الإمام الناصر عبدالله إلى صنعاء مهزوماً، أي في جمادى الأول 1254هـ/ أغسطس 1838م)، وبعد أن شعر أن (إبراهيم يكن) سوف يمد نظره للسيطرة على صنعاء، قام بمراسلة (أحمد باشا) طلباً للصلح، والذي كان وقتئذ مقيماً في عسير، وقد بادر الإمام وأرسل مندوباً من قبله هو السيد (عبد الرب بن إسماعيل) وحمله رسالة إليه ممهورة بتوقيع الناصر وختمه، وطلب منه فيها تسهيل سفر مندوبه إلى القاهرة لعرض الصلح على (محمد علي) نفسه[3].

وقد عرض السيد (عبد الرب) أهداف بعثته إلى القاهرة على مسامع (أحمد باشا) وطلب منه أن يعمل وسيطاً بين إمام اليمن والباشا في مصر، وقد بعث (أحمد باشا) بآراء الإمام التي استخلصها من حديث رسوله إلى (محمد علي) وكان أهمها:

- إن الإمام يقر بأن تظل جميع المناطق التي تسيطر عليها القوات المصرية تحت الحكم الجديد، على شرط أن تظل صنعاء تحت حكم الإمام، على أ، لا يعتدي طرف على آخر.
- وإما أن يتسلم المناطق اليمنية المستولي عليها، مقابل تقديم المال والبن سنوياً، كما حدث من قبل مع المهدي (عبد الله).
- كما أبدى الإمام استعداده للتعاون مع قوات (محمد علي) في إصلاح القبائل اليمنية المتمردة على الطرفين كقبائل (عسير، ويام) وغيرها من القبائل اليمنية الثائرة على الحكم المصري في اليمن.

إلا أن أحمد باشا أجاب على مندوب الإمام بأنه بالإمكان قبول اتفاق يتناول الإمام بموجبه من مصر مرتباً محترماً، يوازي المرتب المعين لشريف مكة، وأن مثل هذا الاتفاق فقط يمكن أن يوافق عليه (محمد علي)[4]. على أن بعثة السيد (عبد الرب) رسول الإمام لم تعد حاسمة في موضوع اليمن، وبدلاً من أن يتقرر مستقبل اليمن بين الإمام الناصر، و (محمد علي) تدخلت السياسة البريطانية، لكي تسيطر على الموقف ويصبح الصراع في اليمن قائماً بين بريطانيا ومصر، وقد باءت عروض الصلح التي وقعت من قبل الطرفين بالفشل، ولم يخرج هذا الصلح إلى عالم النور[5].

بريطانيا ترصد تحركات (محمد علي) في اليمن، وتبادر باحتلال (عدن):

---

1 - مؤلف مجهول: حوليات يمانية، تحقيق: عبد الله الحبشي، ص 76، 79.

2- حوليات يمانية، ص 85، حسين العمري: مائة عام من تاريخ اليمن الحديث، ص 267.

3- دار الوثائق القومية: محفظة رقم (63) عابدين، برقم (179) من الإمام الناصر إلى احمد باشا يكن، بتاريخ 1254هـ/ 1838م.

4- البطريق: مرجع سابق، ص 86-87.

5- عبدا لرحيم عبد الرحمن: (محمد علي) وشبه الجزيرة العربية، ص 218.

كان الإنجليز على يقين من أن كفاح إمام اليمن ضد القوات المصرية سينتهي بالفشل، ثم أن سلطان لحج الذي تقع (عدن) في دائرة حكمه يعتبر تابعاً لإمام اليمن رغم ادعائه الاستقلال، ولن يستطيع بدوره أن يقاوم المصريين، وبعد أن نجحت القوات المصرية في احتلال معظم الأراضي وإقامة حكومة مصرية، كان مركزها، (تعز) وأوشك إمام اليمن أن يعترف بسيادة (محمد علي) وفتح أبواب صنعاء للقوات المصرية بشروط يرتضيها الإمام، كل ذلك صعد مخاوف بريطانيا تجاه مخططات (محمد علي) التوسعية"[1].

والذي زاد من شكوك بريطانيا في نية (محمد علي) التقرير الذي رفعه وزير خارجية بريطانيا (النقيب ماكنزي Captain Mackenizy) بعد أن زار (جدة، والحديدة، والمخا)، أواخر عام 1252هـ/ 1836م في طريق عودته إلى إنجلترا من الهند، وقد وصف فيه القوات المصرية المدربة على النظام الجديد، ووصف سفن الأسطول المصري المرابط في البحر الأحمر والتي جعلت (محمد علي) يسيطر على ساحل البحر الأحمر، من السويس والعقبة شمالاً إلى مضيق باب المندب جنوباً، ويتحكم في تجارة اليمن، كما رسم خريطة بين فيها مواقع القوات المصرية في اليمن، وأكد فيها أن معظم اليمن أصبح تحت الحكم المصري، وأن القوات المصرية قد اقتربت من (عدن) وحتى (صنعاء) لم تعد هدفاً عصياً، مما دفع (ماكنزي) أن يؤكد في تقريره على ضرورة استيلاء بريطانيا على عدن بسرعة، ليس فقط لإحباط خطط (محمد علي) بل أيضاً لتثبت وجود بريطانيا في عدن كمركز تجاري ومحطة لتزويد السفن التجارية الجديدة التي تسافر بين السويس والهند بالوقود[2].

ولم تكن بريطانيا في حاجة إلى ذريعة تحتل بها (عدن) فقد كانت تدبر لذلك منذ زمن. ومع ذلك فقد استغلت حادثة السفينة الهندية التي كانت تحمل علمها، والتي جنحت إلى (عدن) ونهبت في شوال 1252هـ/ يناير 1837م، تمهيداً لمجيء الكابتن (هينز) في مطلع العام التالي، للتفاوض والاتفاق مع سلطان لحج على التنازل عن (عدن) وعاد الكابتن مرة ثانية في شعبان 1254هـ/ 24 أكتوبر 1838م، لجس النبض في تسليم المدينة دون مقاومة، وعندما جاوبه بالرفض والمقاومة من قبل أبناء لحج وعدن، تراجع لينتظر وصول قطع الأسطول البريطاني، التي تحمل جنود الاحتلال، لتنفيذ قرار الوزارة البريطانية، في أن تتخذ حكومة الهند الإجراءات العسكرية كافة للاستيلاء عنوة على (عدن) وبالفعل وصلت قطع الأسطول في 25 شوال 1254هـ/ 16 يناير 1839م، وطلب منها (هينز) قصف عدن بالمدافع، حيث هدمت الحصون، وفر المدافعون، ثم نزل الجنود لاحتلال الميناء، ورفع العلم الإنجليزي على مقر السلطان، وكتب (هينز) تقريره الذي ضمنه بقوله: "أن جميع الممرات من عدن نحو المناطق كلها أصبحت تحت سيطرة الإنجليز"[3].

موقف (محمد علي) من احتلال بريطانيا (عدن):

شعر (محمد علي) الذي كانت لديه رغبة شديدة في الاستيلاء على عدن أنه قد خدع، حين قطعت عليه بريطانيا طموحاته باحتلالها (عدن) وبالرغم من ذلك، فقد حاول التصدي للإنجليز ومخططاتهم في عدن ومنطقة البحر الأحمر، باتخاذ أساليب غير مباشرة لمواجهتهم، فكما ورد في تقرير النقل البريطاني في مصر (هودجز) الذي أفاد بأن قوات الفرسان التابعة لـ(محمد علي) آخذة في الازدياد في اليمن، وأن العرب القاطنين بجوار عدن يتجمعون ضد الحكم البريطاني

---

1 – Marston, Thomas: Imperial Red Sea Area (1800-1878), p.54.

2 – Ingrams: Records of Yemen, p.815.

3- حسين العمري: مائة علم من تاريخ اليمن الحديث، ص 272.

في عدن بتعويض من المصريين[1].

كما قام (محمد علي) بإرسال مبعوث من قبله إلى إمام اليمن (الناصر عبدالله) يعرض عليه المساعدة بالمال والمؤونة، ومده بالرجال والذخيرة إذا أقدم الإمام على مهاجمة الإنجليز وطردهم من (عدن) ويتعهد له أنه بمجرد الانتهاء من الحرب سوف يسلم كل الأراضي المفتوحة في اليمن إلى الإمام، حتى يظل الجنوب العربي في يد عربية، إلا أن الإمام الناصر- الذي ظل مشغولاً بصغائر الأمور- اعتذر عن ذلك لضعف إمكاناته المادية، والصراعات القبلية، التي أدت في النهاية إلى مقتله[2].

لقد أدرك (محمد علي) منذ احتلال الإنجليز لـ(عدن) أن ذلك الاحتلال كان ضربة موجهة إلى مشروعاته وآماله في التوسع في الجنوب العربي، وأنه بداية لإجلاء قواته، لا عن اليمن فحسب، بل عن الجزيرة العربية كلها، وأنه فقد الأمل نهائياً في كسب صداقة الإنجليز مهما أبدى من تنازلات[3].

تزايد الضغط الدولي على (محمد علي) وتضاءلت مسألة وجوده في اليمن إزاء هذا الموقف، وهذا ما كانت تتطلع إليه بريطانيا، وأشتد ضغطها الدولي ضده حتى شعر بعد معاهدة لندن (1256هـ/1840م.)، أنه بحاجة إلى تجميع قواته المتفرقة في الحجاز ونجد واليمن، واضطر إلى إصدار أوامره إلى قادة هذه القوات بالانسحاب، وكان (إبراهيم باشا يكن) قائد القوات المصرية في اليمن، أحد هؤلاء القادة الذين صدرت لهم الأوامر فقام بإجراء الترتيبات اللازمة لسحب قواته من اليمن، وتسليم أمور الحكم في المناطق التي كانت خاضعة لنفوذه إلى الشريف (حسين بن حيدر) شريف (أبي عريش) الذي اعتبر حاكماً شرعياً، للمنطقة الساحلية المطلة على البحر الأحمر، ليحكمها من قبل السلطان العثماني[4].

وبهذه المعاهدة نجحت بريطانيا في إنهاء منافسة (محمد علي) الخطيرة لها في اليمن، وبات نفوذها قوياً في منطقة جنوب اليمن، ومدخل البحر الأحمر والخليج العربي.

ويعقب المؤرخ البريطاني الشهير (مارستون توماس) على الأحداث بقوله: "... ومن ثم انتهت أول محاولة حديثة لتأسيس إمبراطورية عربية في الجزء العربي من الإمبراطورية العثمانية، ويصعب تقدير إلى أي مدى كان سيصل نجاح (محمد علي) إذا لم تتدخل الدول العظمى"[5].

اليمن تحت إدارة (محمد علي):

لقد أقام المصريون إدارة منظمة في اليمن أثناء وجودهم فيها، أتاحت استقراراً نسبياً للبلاد لم تنعم به من قبل في تاريخها الحديث، وخاصة مدن وموانئ تهامة التي سيطر عليها الجيش المصري، وأقيمت بها نظم إدارية حديثة.

وهذا النظام الذي وضعه (محمد علي) لحكم مناطق شبه الجزيرة العربية كأي نظام له إيجابيات وسلبيات، وكانت له نواحي قوة ونواحي ضعف، ولكن مما لا شك فيه أن هذه النظم وتطبيقاتها الإدارية، كان لها أثرها في بعث روح جديدة في تلك المناطق، من خلال تطبيق الأنظمة الحديثة، في الشؤون المالية والإدارية، أوجدت روحاً حضارية جديدة[6].

وقد ورد في تقرير (ماكنزي) الذي أشرنا إليه

1- سيد مصطفى سالم: مراحل العلاقات اليمنية- السعودية، ص 212.

2- حسين العمري: مرجع سابق، ص 276؛ سيد مصطفى سالم: نفسه، ص212.

3- البطريق: مرجع سابق، ص94.

4- محمد فؤاد شكري: مصر والسودان، تاريخ وحدة وادي النيل في القرن التاسع عشر، ص15.

3- Marston, Thomas: Imperial Red Sew Area (1800-1878), P.66. عايض الروقي: مرجع سابق، ص421.

4- عبدالرحيم عبدالرحمن: مرجع سابق، ص97.

من قبل شهادة حق، قال فيها: "... إنني لم أر في حياتي جمارك أكثر تحرراً أو أفضل إدارة من جمارك الباشا في جدة والمخا، فليس هناك ضرورة لدفع رشاوي، أو بحث مزعج عن بضائع مهربة أو حجز متعب للبضائع"[1].

كما إن رسالة حضرموت إلى (محمد علي) لدليل آخر على تأثير الحكم المصري في المنطقة، حيث طالب أصحابها بالانضمام إلى الحكومة المصرية التي أقامها (إبراهيم يكن) في اليمن، وإرسال موظفين وجنود لتنظيم أحوال حضرموت، وإعادة الأمن إليها، وكان على رأس موقعي هذه العريضة، زعامات لها ثقلها في المنطقة وهم: (علي بن عمر السقاف، وسالم بن حماد باعبيد، ومحسن بن علوي)[2].

وتأتي شهادة المؤرخ (النعمي) وهو معاصر لحكم (إبراهيم يكن باشا) لتؤكد أن فترة الحكم المصري في اليمن، ساد فيها الأمن والنظام، حيث تجنب حاكم اليمن استخدام أساليب العنف، والقسوة وما وسعه ذلك مع أهالي البلاد، حتى المتمردين منهم، ويقول النعمي: "وقد أمن الناس في عهد إبراهيم باشا يكن"، واشتهر عنه الحكمة والعدل، ووصف بالكرم، والعلم، وخاصة في الأمور الفقهية، وهو ما لم يكن لغيره من قادة (محمد علي)[3].

ولكن بالرغم من ذلك فلكل نظام سلبياته أيضاً، ولعل أكثر ما يؤخذ على نظام (محمد علي) في اليمن في الجانب التجاري، هو فرضه لنظام الاحتكار على البن، مما أثار التجار، ودفع بهم إلى تقديم احتجاجهم الذي عرضه على مجلس جدة[4].

وقد أسفرت هذه السياسة عن تعاظم الشعور بالاستياء بين منتجي البن وبين التجار، وكذلك السماسرة، حيث عمد المزارعون إلى التخلي عن حقولهم، مما تسبب في نقص كميات البن وتصديره، وحدوث ثورة بين زعماء المناطق ضد الحكم المصري، كما حدث مع زعيم قبائل الحجرية (الشرجبي) في منطقة (تعز) الغنية بمحصول البن عندما حاول الاتصال بالحاكم السياسي (بعدن) الكابتن (هينز) وطلب منه عقد اتفاقية تجارية بينهما، بل وطلب منه مساعدته في طرد المصريين من بلاده[5].

وقد استغل (هينز) هذه الظروف، وقام بإغراء التجار ومشايخ المناطق الغنية بالبن، بتحويل تجارة (المخا) إلى (عدن) وذلك لضرب أهم مورد اقتصادي لـ(محمد علي) في اليمن.

كما يؤخذ على النظام الذي أوجده (محمد علي) في شبه الجزيرة العربية أنه اهتم بفرض سطوة الحكومة المركزية وهيبتها بالقوة، مما خلق روح التذمر والتمرد في نفوس العربان، وتلك الروح التي أدت إلى استمرارية الثورة ضد الحكم المصري خاصة بين قبائل عسير[6].

إن حكم (محمد علي) في اليمن كانت له حسناته وسيئاته كأي نظام جدي يطبق في منطقة غير معتادة عليه، وغير تابع من عاداتها وتقاليدها، تتنازعها قوتان، قوة الأئمة الزيديين من ناحية، وسطوة القبائل المتنفذة من ناحية أخرى، ومهما قيل عن أهداف (محمد علي) التوسعية، فإن هذا الحكم على أية حال إذا وضع في ميزان التقويم، فإن آثاره الحضارية تبرز بصورة لا يمكن إنكارها.

الخاتمة

بعد هذا الاستعراض الموجز لشكل العلاقة التي

1- Ingrams: Records of Yemen P. 815.

2- صلاح البكري: في جنوب الجزيرة العربية، ص18.

3- النعمي: حوليات النعمي التهامية، ص 112.

4- عبدالحميد البطريق: مرجع سابق، ص100.

5- محمد فؤاد شكري وآخرون: بناء دولة محمد علي، ص520.

- محمد آل زلفى: الأوضاع السياسية في جنوب غرب الجزيرة العربية، ص33.

6- عبدالرحيم عبدالرحمن: مرجع سابق، ص98.

وبطمت محمد علي باليمن خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، يمكننا أن نلمح الحقائق التالية:

أولاً: إن اليمن في السنوات الأخيرة لحكم المنصور علي اعتراها الضعف العام والتمزق نتيجة الاضطرابات والانقسامات، سبب تمرد القبائل، والحركات الانفصالية أو الاستقلالية التي كان يقوم بها حكام الأقاليم البعيدة عن العاصمة مما تسبب في زحف الحركة الوهابية على (المخلاف السليماني) وتهامة اليمن، وقيام (الشريف حمود)، شريف (أبي عريش) بالاستيلاء والسيطرة على تهامة باسم (آل سعود)، نتج عن ذلك انقطاع الموارد، وعائدات تهامة عن صنعاء، وهي التي تشكل أحد روافد الخزينة اليمنية المهمة، مما ساهم بدوره في حدوث الأزمات الاقتصادية، وزيادة الاضطرابات والانقسامات، التي أضرت كثيراً بالبلاد وجعلتها لا تقوى على الوقوف في وجه أي تهديد خارجي.

ثانياً: إن السلطات العثمانية في استنبول، رأت أن انتصار الدعوى السلفية بقيادة الأمراء من آل سعود، يعد خروجاً على طاعة الخليفة وانفصالاً عن الدولة العثمانية، وبالتالي فقدت أهم دعائم مركزها في العالم الإسلامي، وهو فقدان شرف حماية (الحرمين الشريفين) في مكة والمدينة المنورة، لذلك سعت الدولة العثمانية جاهدة لتحطيم هذه القوة وتحجيمها، وكان لها ما أرادت محققة انتصارات كبيرة على الجيش السعودي، وختم (ابراهيم باشا) انتصارات الجيش المصري، بتدمير الدولة السعودية الأولى (الدرعية).

ثالثاً: إن منطقة عسير اليمنية، ظلت مصدر قلق دائم لـ(محمد علي) منذ نزول قواته على أرض شبه الجزيرة العربية، وحتى انسحابه منها، نظراً لخضوع هذه المنطقة لنفوذ آل سعود، واعتناق الكثير من قبائلها مبادئ الدعوة السلفية، وقد أخذت عمليات إخضاع المنطقة جهداً كبيراً من قوات (محمد علي) وكانت خسائر فادحة في الأموال والأرواح، وما كانت هذه الثورات لتهدأ حتى تثور من جديد، طيلة فترة الحكم المصري.

رابعاً: وقد رأينا إن (محمد علي) بعد أن نجحت قواته بقيادة (خليل باشا) عام (1818م.) في منطقة (أبي عريش) ومناطق تهامة اليمن الأخرى التي ضمها (الشريف حمود) إلى نفوذه باسم (آل سعود)، قد أعادها إلى سلطة إمام صنعاء (المهدي عبدالله) نظير مقدار من البن يرسل إليه سنوياً، لأنه لم يكن في هذه الفترة، التي يعمل بها باسم السلطان العثماني، يريد الإفصاح عن مخططه التوسعي في فتح اليمن، ولانشغال قواته بحرب السودان، ثم المورة، ولأنه كان يدرك بوضوح أن أي تقدم لقواته صوب الجنوب على الأراضي اليمنية سوف يقابل بالتصدي من جانب بريطانيا ويزيد من حنقها عليه، ولذلك قرر ترك موضوع اليمن إلى وقته المناسب.

خامساً: إن (محمد علي) لم يكن يطيق أن يسمع تدخل قوة أخرى في شئون اليمن، أو أي عدوان يقع على أراضيه، حتى ولو كان العدوان داخلياً، فعندما حدث تمرد الجند غير النظامين في الحجاز، مستغلين انشغال (محمد علي) وقواته في الشام وقاموا بثورتهم في الحجاز بدعم من بريطانيا والدولة العثمانية، أدرك (محمد علي) دوافع هذه الثورة ومدى تأثيرها على أماله وطموحاته، لذلك جهز حملة كبيرة بقيادة (أحمد باشا) أنهت هذا التمرد، وقضت على ثورة (بيلمز)، الذي فر هارباً عن طريق السفن البريطانية الراسية في (المخا)، إلى بومباي، ثم البصرة.

سادساً: كانت ثورة الجند غير النظاميين بقيادة (تركجة بيلمز)، هي الذريعة التي جعلت (محمد علي) يقدم على الخطوة التي ظل يرجئها طويلاً وهي التوسع نحو الجنوب والسيطرة على اليمن، كما أنها الذريعة نفسها التي برر بها لبريطانيا صاحبة السيادة البحرية، والمصالح الاستعمارية في المنطقة أسباب تدخله في اليمن.

أيضاً ساعدت الأوضاع السياسية المضطربة التي يعيشها اليمن في هذه الفترة وضعف حكامها في تسهيل مهمة (محمد علي) للسيطرة على اليمن.

سابعا، وجدنا أن الناحية الاقتصادية هي الأساس الذي بنيت عليه آمال (محمد علي) في الاستيلاء على اليمن، فسيطرته على الموانئ اليمنية، ذات الموقع الممتاز على ساحل البحر الأحمر، واحتكاره لتجارة البن اليمني العالمية آنذاك من شأنها أن تعود عليه بالأموال الوفيرة، ولذلك فقد وجه القائد (إبراهيم يكن باشا) قائد القوات المصرية في اليمن أكبر اهتمامه للسيطرة على المناطق التي تجود فيها زراعة البن، وقام بفرض ضرائب باهظة على التجار.

ثامنا، رأت بريطانيا أن سيطرة (محمد علي) على مدن وموانئ اليمن، واحتكاره تجارة البن فيها، والتهديد بفتح عدن، أخطاراً يجب أن يتم التصدي لها قبل أن تستفحل، ولذلك سارعت باحتلال عدن، لقطع الطريق على قوات (محمد علي) ووضعه أمام الأمر الواقع، ثم محاربته اقتصادياً عن طريق تحويل تجارة البن من ميناء (المخا) إلى ميناء (عدن) وحرمانه بالتالي من أهم موارده الاقتصادية في اليمن.

وقد مثل احتلال الإنجليز لعدن ضربة موجعة لمشروعات (محمد علي) وآماله التوسعية في الجنوب العربي، وكان بداية حاسمة لإجلاء قواته لا عن اليمن فحسب، بل عن الجزيرة العربية بأكملها.

تاسعاً، رأت الحكومة البريطانية، أنه من الأجدى إيقاف تحركات (محمد علي) التي يقوم بها في الجزيرة العربية واليمن، وطلبت منه بشدة وحزم، عن طريق ممثلها في القاهرة (هودجز) في أكتوبر سنة 1839م. سحب قواته من جميع الأراضي اليمنية، ثم اتبعت ذلك الطلب، بتزعم التحالف الدولي ضده، وعقد معاهدة لندن في عام (1841م.)، والتي بموجبها انسحبت جميع القوات المصرية من اليمن، وبهذه المعاهدة نجحت بريطانيا في إنهاء منافسة (محمد علي) الخطيرة لها في اليمن، وبسطت نفوذها في منطقة جنوب اليمن، ومدخل البحر الأحمر، والخليج العربي.

عاشراً، رأينا أن اليمن، فترة الحكم المصري، قد نعمت بشيء من الأمن والاستقرار، وخاصة مدن وموانئ، تهامة التي سيطر عليها الجيش المصري، واقيمت بها نظم إدارية حديثة جعلت مناطق يمنية أخرى مثل (حضرموت) تطالب بإقامة هذه الأنظمة في مناطقها، إلا أن النظام المركزي الشديد في الحكم الذي كان يحرص (محمد علي) على إقامته في المناطق التي فتحها، جعل الكثير من اليمنيين وعلى رأسهم ثوار عسير، يرفضون هذا الحكم ويتصدون له بكل قوة، كما أدى نظام الاحتكار في مناطق أخرى مثل (تعز) إلى حدوث ثورة بين مزارعي البن ورفض هذا النظام إلى الحد الذي أبدوا استعدادهم للتعاون مع السلطات البريطانية في (عدن) ضد الحكم المصري.

المراجع:

1- أحمد بن أحمد النعمي: حوليات النعمي التهامية، تحقيق: حسين العمري، صنعاء، دار الحكمة، 1987م.

2- أحمد فضل العبدلي: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، القاهرة، المطبعة السلفية، 1351هـ.

3- ف.ل.بلاتير: تاريخ العربية السعيدة أو اليمن، ترجمة: سعيد عبدالخير النوبان، علي محمد بلطشون، عدن، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، 1999م.

4- حسين مؤنس: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، القاهرة، مطبعة حجازي، د.ت.

5- حسين العمري: مائة عام من تاريخ اليمن الحديث (1161-1264هـ/1748-1848م) دمشق دار الفكر، ط2، 1988م.

6- تاريخ اليمن الحديث والمعاصر، (1516-1918) دمشق، دار الفكر، 1997م.

7- سيد مصطفى سالم: مراحل العلاقات اليمنية السعودية (خلفية وحوارات) (1158-1253هـ/1754-1934م)، القاهرة، عربية للطباعة والنشر، 2003م.

8- سيد رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، من الفتح العثماني إلى الاحتلال البريطاني (1517-1882م)، القاهرة، دار النهضة العربية، 1970م.

9- صلاح البكري: في جنوب الجزيرة العربية: القاهرة، معهد الدراسات والبحوث العربية، 1969م.

10- صادق الصفواني: الأوضاع السياسية الداخلية اليمن، في النصف الأول من القرن 19 الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة صنعاء، كلية الآداب، 2002م.

11- عائض خزام الروقي: حروب محمد علي في الشام وأثرها في شبه الجزيرة العربية (1247-1255هـ/1831-1839م) مكة المكرمة، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، 1414هـ.

12- عبدالواسع الواسعي: تاريخ اليمن، المسمى فرجة الهموم والحزن، في حوادث تاريخ اليمن، صنعاء، مكتبة اليمن الكبرى، ط2، 1991م.

13- عبدالرحمن الرافعي: عصر محمد علي، القاهرة، دار المعارف، ط6، ج3، 2001م.

14- عبدالرحيم عبدالرحمن: محمد علي وشبه الجزيرة العربية (1819-1840م) ج2، القاهرة، دار الكتاب الجامعي، 1981م.

15- عبد الحميد البطريق: من تاريخ اليمن الحديث (1517-1840م) القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، 1969م.

16- عثمان بن بشر: عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق، عبدالرحمن بن عبداللطيف الشيخ، الرياض، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، ط4، 1982م.

17- علي حسين الصميلي: العلاقة بين أمراء أبي عريش وأمراء عسير (1217-1264هـ/1802-1848م) جازان، كلية المعلمين، 1419هـ.

18- فاروق عثمان أباظة: الحكم العثماني في اليمن (1872-1918م) بيروت، دار السعادة، ط2، 1979م.

19- دراسات في تاريخ العالم العربي والإسلامي الحديث والمعاصر، القاهرة، دار المعرفة الجامعية، 1998م.

20- لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية، ترجمة: عفيفة البستاني، مراجعة: يوري روستين، موسكو، دار التقدم، 1971م.

21- محمد بن اسماعيل الكبسي: اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، مخطوط مطبوع، القاهرة، مطبعة السعادة، 1984م.

22- محمد عيسى العقيلي: تاريخ المخلاف السليماني، جزءان، الجزء الأول طبع بمطابع الرياض عام 1958م، والجزء الثاني طبع بمطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة، عام 1961م.

23- محمد فؤاد شكري: مصر والسودان، تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر (1820-1899م) القاهرة، دار المعارف، 1957م.

24- محمد فؤاد شكري وآخرون: بناء دولة (محمد علي) القاهرة، دار الفكر العربي، 1948م.

25- محمد آل زلفى: تطور الأوضاع السياسية في جنوب الجزيرة العربية، إمارة أبي عريش وعلاقتها بالدولة العثمانية (1838-1849م) دراسة وثائقية، الرياض، مركز خدمة المؤلف 1417هـ.

مسار حركة الوحدة اليمنية

الشروط والضرورات الموضوعية لقيام دولة الوحدة

مرت الوحدة اليمنية بمسارات مختلفة تشابك فيها التاريخي الثقافي الأصيل بالفكري والسياسي الوافد، وأفرزت الأوضاع القاسية لنظامي الإمامة والاستعمار في الشمال والجنوب ظروفا هيأت المجتمع للانتقال إلى مرحلة جديدة ساعدت القوى الوطنية على صياغة منهج سياسي جديد بعد قيام الثورة 62 /1963م. وكان للأحزاب والتنظيمات السياسية الناشئة، التي ظهرت في الساحة، والتي استفادت من حركة القوى الثورية القومية والاشتراكية في العالم العربي- كان لها دور في بلورة الرؤى السياسية والاقتصادية، التي حددت مسار الحركة نحو الوحدة. وما لبثت هذه الرؤى بعد قيام الدولتين الشطريتين حتى تحولت إلى عوائق مخيفة في الطريق نحو الوحدة نتيجة للتناقضات التي حملتها معها، وتباين الطرق والآليات المؤدية إلى تحقيقها، الأمر الذي أسهم في تجسيد مفهوم التشطير، الذي حاول العثمانيون والبريطانيون جعله حقيقة قائمة في اليمن اثر إبرام ما سمي باتفاقية الحدود الموقعة بينهما عام 1914م.

د. عبد الوهاب محمد الروحاني*



ولان الوحدة مثلت قضية القضايا بالنسبة للقوى السياسية وللاعبين السياسيين بالذات، فقد كانت هي المادة الفنية المستخدمة في الخطاب السياسي، ومحور اللقاءات السياسية والقمم اليمنية. وبغض النظر عن تفاوت ماهية المقاصد لهذه القوة أو تلك، إلا أن الوحدة ظلت حقيقة ماثلة أمام الجميع، إذ كان يصعب على أي قوة سياسية تجاهلها. فالتوترات والحروب، التي كانت تنشب على طول الحدود بين الشطرين كانت الوحدة مشجبها، وكانت الوحدة أيضا سبب الأزمات السياسية، وقتل الزعماء من الشطرين والملاسنات الإعلامية بين النظامين، وكانت الوحدة مبررا لتشكيل الجبهة الوطنية وعمليات التخريب، التي قادتها في المناطق الوسطي لفترة استمرت اكثر من عقد من الزمان.

فالوحدة عند اليمنيين نخبة وعامة، شكلت حضورا طاغيا عبر مختلف المراحل، وشكلت مجمل التناقضات السياسية والاقتصادية شروطا، كانت هي المدخل في نهاية المطاف إلى تحقيقها في 22 مايو 1990م. وجدير بنا هنا، قبل أن نستعرض الضرورات والشروط الموضوعية لقيام دولة الوحدة المعاصرة، أن نتناول- باقتضاب- هذه التناقضات، ولكن بعد

---

* سفير الجمهورية اليمنية في روسيا، وزير الثقافة الأسبق.

لمامة قصيرة- نعتقد أنها ضرورية- عن وحدة الجذور الثقافية التي تعتبر أبرز وأهم مقومات الوحدة.

أولاً: وحدة الجذور الثقافية

تشكل وحدة الثقافة أحد أهم المقومات الأساسية لترابط المجتمعات وتوحدها. والثقافة، التي نعني بها الفكر واللسان وترابط علاقات الإنتاج بعلاقات المجتمع وعاداته وتقاليده، كانت ولا تزال هي المكون الأساس لمجمل عوامل التوحد. والثقافة في مفهومها العلمي هي "الحضارة في مرحلتها المتقدمة، حيث الحضارة من الحضر والتحضّر، والثقافة تعني التمدن أو التخلق بأخلاق أهل المدن واللبس مثلهم، والسلوك كدأبهم والتحدث بلغتهم. أما الثقافة عند العرب فهي الأخذ بالأرفع والأحسن"[1].

ومن هنا فقد شكلت الثقافة عند اليمنيين *بمفهومها الحضاري* عامل توحد، ذلك لأنهم كانوا عبر العصور يعيشون تاريخاً واحداً ويتحدثون بلغة واحدة، وهم متجانسون في عاداتهم وتقاليدهم إلى جانب أنهم ينحدرون من أصل واحد، *وقد ساعدهم هذا التجانس على صنع حضارتهم في العصور القديمة*. فليس بين اليمنيين إثنيات أو طوائف أو أعراق أو ثقافات أو أديان متصارعة، فكلها ذات منشأ وأصل واحد. والدين الإسلامي (منذ فجر الإسلام) هو دين الدولة ودين الشعب، (رغم وجود يهود ولكنهم من أصول عربية يمنية قديمة، ولم يتبق منهم بعد نزوح 1948 *إلى فلسطين* في أغلب الإحصائيات سوى بضع مئات يسكنون في الجزء الشمالي- صعدة وعمران)، ورغم تباين منهج النظامين السياسيين في الشطرين اليمنيين بعد الثورة إلا أن دستوريهما نصا على أن "الإسلام دين الدولة"*.

1- أصل اليمنيين وموطنهم

تذكر كتب التاريخ أن اليمنيين هم "العرب العاربة، وهم الذين ينتمون إلى يعرب بن قحطان، المذكور في التوراة باسم يارح ابن يقطان، ويزعم العرب أنه أصل لسانهم، ومصدر بيانهم.. واليمنيون القحطانيون هم أولاد سام بن نوح، وكانوا أكثر حضارة، ويقطنون القسم الجنوبي من الجزيرة العربية. ويرى مؤرخون عرب أن بني قحطان لما نزلوا اليمن كانت فيها بقية من العرب العاربة وكانت الدولة فيهم، ويعنون بهم قوم عاد والعمالقة[2]. ومن العمالقة من استقر باليمن، ومنهم من نزح عن اليمن إلى افريقيا، وإيران والشام والعراق، وأنهم والعاديين أسلاف السومريين والكلدانيين وغيرهم[3].

2- اللغة والعادات

يتحدث اليمنيون في جنوب الجزيرة العربية (اليمن) باللغة العربية المعاصرة، التي هي امتداد ممتزج منسجم للغات شبة الجزيرة العربية، كان يعود أصلها إلى لغة أهل اليمن، وهي لغة المسند أو اللغة الصيهدية"[4]. ولا تزال بعض المناطق اليمنية محتفظة باللغة العربية اليمنية القديمة (اللغة المهرية)

---

1. د. عبد المنعم الحفني. "المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة"، مكتبة مدبولي، القاهرة 2000م، ص 233، 234، 301، 302.

* راجع دستور الجمهورية العربية اليمنية ودستور جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية قبل 22 مايو 1990م.

1. عبد الله أحمد الثور. "مختصر من تاريخ اليمن"، ص9، 13، صنعاء 1983م.

3. القاضي عبد الله الشماحي. "اليمن- الإنسان والحضارة"، منشورات المدينة، بيروت، 1985، ط2، ص 32.

4. زيد النقيه. "لغة حمير واللغة العربية". مصدر سابق.

كما هي الحال في محافظة المهرة، وسقطرة، وشرق حضرموت، وجزر كوريا موريا وأيضاً في ظفار وساحل عمان. "ويعتقد المهري أنها اللغة القديمة المعروفة بالحميرية أو إحدى لهجاتها، التي ظلوا محتفظين بها على الرغم من انقراضها في جنوب الجزيرة العربية"[1].

ويوضح حمزة علي لقمان في كتابه "تاريخ القبائل اليمنية" أن اللغتين السقطرية والمهرية هما في الواقع فرعان للغة سبأ ومعين القديمة[2]. ويؤكد د. يوسف محمد عبد الله أن "اللغة المهرية بلهجاتها الثلاث تعتبر إحدى اللغات القديمة الباقية من لغات عرب جنوب جزيرة العرب، وهي دون شك تنتمي إلى عائلة اللغات العربية الأصل (اللغات السامية)[3].

لقد ارتبط اليمنيون بروابط مختلفة على مدى التاريخ، وهذه الروابط هي:

- اللغة العربية.
- الأصل العربي الواحد.
- الدين الإسلامي والعقيدة الإسلامية الواحدة.
- التاريخ والأرض المشتركة.
- الأهداف القومية والإسلامية في مواجهة التجزئة وتحقيق الوحدة العربية المنشودة.
- العادات والتقاليد المشتركة.- المصالح الوطنية والقومية[4].

أما العادات والتقاليد، فاليمنيون لا يزالون محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم في كثير من علاقات العمل والإنتاج القديمة بحكم التضاريس وتركيبة البلد الجغرافية الجبلية، والارتباط بالأرض والبحر والزراعة والرعي والصيد والبناء والتشييد، وما يرتبط بهذا النشاط من تراث ثقافي وفلكلور شعبي. وقد توجد اختلافات في بعض التفاصيل من منطقة لأخرى لكنه لا يتباين في مضمونه. ويبدو محتفظا بهويته الثقافية اليمنية الموحدة.

ثانياً: تناقضات مسار الحركة إلى الوحدة

لم تتعرض الوحدة اليمنية للانقسام إلا بفعل أحد عاملين: إما التدخلات الخارجية، أو الاقتتال الداخلي من أجل السيطرة والاستحواذ على السلطة أو الانفراد بها.

وبفعل تعرض الوحدة اليمنية إلى الانقسام في فترات مختلفة من التاريخ، وخاصة في ظل نظامي الإمامة في الشمال والاستعمار البريطاني في الجنوب، أو بعد قيام الثورة اليمنية 1963/62، ظهرت رؤى وأفكار سياسية متفقة ومختلفة حول الوحدة اليمنية وكيفية إعادة تحقيقها. وظهرت في إطار الحركة الوطنية، اتجاهات سياسية محددة تجاه إعادة تحقيقها. ومثلت هذه الاتجاهات تناقضات في المناهج الفكرية والسياسية والتوجهات الاقتصادية. ونعتقد أن التناقضات في مسار الحركة إلى الوحدة تحددت في التالي:

1. التناقضات الفكرية والسياسية

قديما كانت الوحدة الدينية (أو الروحية) عند اليمنيين أحد أهم عوامل التوحد إلى جانب الجغرافيا والتاريخ. "فدياناتهم كانت أكثر رقيا كحياتهم وأقرب إلى الديانات السماوية. فقد جعلتهم حياتهم المستقرة وارتباطهم بالأرض والأمطار والمواسم الزراعية يتطلعون إلى السماء دائما، يرصدون النجوم، ويحسبون الفصول. ومن هنا وجدت عندهم

---

1. حمزة علي لقمان. "تاريخ القبائل اليمنية". دار الكلمة، صنعاء، 1985، ص 372.
2. المصدر السابق.
3. د. يوسف محمد عبد الله. "اللغة المهرية". الموسوعة اليمنية، مؤسسة العفيف الثقافية، ج2، 2003م، ص 293.
4. راجع د.علي عبد القوي الغفاري. "الوحدة اليمنية- الواقع والمستقبل"، كتاب الثوابت، اكتوبر 1997، صنعاء، ص193.

آلهة تحلق في السماء، وتشكلت دياناتهم من ثالوث، أركانه الإله الرب- وهو القمر، والإله الأم – وهو الشمس، والإله الابن- وهو نجم الزهرة. وأطلقت على هذا الثالوث أسماء "المقه" و"ذات حميم"[1].

"ومحرم بلقيس واحد من معابد عدة شيدت من اجل تقديس إله القمر "المقه". وربما كان هذا المحرم هو المكان الرئيسي للعبادة"[2].

وظلت الوحدة عند اليمانيين القدامى- أحد أهم عوامل وحدة الأرض والإنسان حتى القرن السادس الميلادي، حيث "بلغ التصدع والاضطراب في اليمن الذروة، فقد شهدت انقساما واضطرابا لم يسبق أن عرفت لهما نظيرا.. لأن الرومان في أوائل القرن الرابع الميلادي حملوا إلى اليمن الدعوة المسيحية مع حملتهم العسكرية، التي قام بها الأحباش، حيث تقاطعت الديانة الجديدة مع الديانة اليهودية، التي شجعها الملوك الحميريون، والتي هي الأخرى كانت قد جلبت إلى اليمن على يد ملكة سبأ في إثر زيارتها للنبي سليمان في القرن العاشر ق.م. وانقسم اليمن على نفسه في عصبية عقائدية قضت على الوحدة اليمنية، التي كان التسامح الفكري عنصرها الأساسي. وسلبت من اليمن السيطرة على الطريق بين الشرق والغرب تدريجيا إلى أن سلبها هذا الانقسام العرش على أثر سقوط التبع ذي نواس والتبع سيف بن ذي يزن، وجلب إليها مذهبا ثالثا هو المذهب الزرادشتي مع الفارسيين"[1].

وجاء الإسلام فدخله اليمنيون زرافات وفرادى في وقت كان فيه اليمن مثخن بجراحات عميقة لأنه كان يرزح تحت الاحتلال الحبشي ثم الفارسي. وكان الإسلام عامل توحد وقوة، قضى على التناقضات العقائدية الثلاث السابقة لعهد الإسلام (اليهودية والمسيحية والزرادشتية) رغم أن الاختلافات المذهبية، التي سادت فيما بعد- أي بعد تفكك الدولة العباسية وتأسيس الدولة الزيدية بقيادة الهادي يحيى بن الحسين. وتفاقمت الخلافات وتعددت بالتالي الدويلات، وظلت التناقضات العقائدية والمذهبية إحدى عوامل التفكك والاحتراب في اليمن، خاصة في ظل حكم الأئمة، الذي اتسم بعدم الاستقرار، لارتباط تلك الفترة بالصراع على السلطة. غير أن الإسلام ظل عند اليمنيين عقيدة ساعدت في القضاء على كثير من التناقضات.

أما في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، وفي عهد الثورة (العقد السادس من القرن العشرين)، فقد ظهرت عوامل فكرية وسياسية جديدة أثرت في الحركة نحو الوحدة، تمثلت في *ظهور أحزاب واتجاهات سياسية تحمل أفكارا* جديدة، أفرزت وجهات نظر مختلفة حول كيفية الوصول إلى الوحدة، نذكر من هذه الأحزاب:

أ- حزب "الأحرار اليمنيين":

تأسس على يد عناصر نشطة في حركة المعارضة لنظام الإمام يحيى حميد الدين، الذين نزحوا من الشمال إلى الجنوب، وأنشأوا في عدن سنة 1944 حزب "الأحرار". وفي الاجتماع التأسيسي للحزب "جرى تشكيل قيادة الحزب، فانتخب الأستاذ أحمد محمد نعمان رئيسا للحزب، والسيد زيد الوشكي

---

1. أحمد قائد الصايدي، "اليمن: الشعب والأرض والحضارة". دراسات يمنية، عدد 42، 1990، ص 53. مركز الدراسات والبحوث.

2. د. أحمد فخري. "رحلة أثرية إلى اليمن"، ص 120. وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، 1988.

1. راجع القاضي عبد الله الشماحي. "اليمن: الإنسان والحضارة"، ص 86-87. مصدر سابق.

نائبا للرئيس، والزبيري مديرا للحزب.."[1]. وأسهم في تأسيس الحزب ودعمه نخبة من التجار، وشخصيات اجتماعية من مدينة عدن. وينسب للحزب ولمناصريه حملاته القوية والضارية ضد نظام الإمامة في الشمال، ومن ثم إعداد قيادته لمجموعة من الرؤى الإصلاحية في نظام حكم الإمامة، ومنها إعداد "الميثاق الوطني المقدس" الدستور، ولكن في ظل "الجمعية اليمنية الكبرى"، التي حلت محل الحزب لأسباب قانونية معروفة في عدن.

ب- "تنظيم الضباط الأحرار":

شكل "الضباط الأحرار" اليمنيون تنظيما سياسيا سريا، سمي في بداية الأمر باسم "منظمة الضباط الأحرار" ثم "تنظيم الضباط الأحرار". وهو تنظيم تأسس بإرادة ومبادرة من الضباط اليمنيين المنتسبين للجيش والأمن في ظل المملكة المتوكلية اليمنية. وصيغت أهدافه بدون أي تدخل خارجي، كما يؤكد كتاب "أسرار ووثائق الثورة اليمنية"، الذي أعدته لجنة من تنظيم الضباط الأحرار. لكنه بالتأكيد جاء بفعل تأثر بما كان يجري في المحيط العربي، ومنها ثورة 23 يوليو 1952 في مصر.

وبرغم الاتصالات والمشاورات، التي هيأت لقيام التنظيم، إلا أن أول اجتماع للأعضاء المؤسسين عقد في ديسمبر 1961 في منزل الملازم عبد الله المؤيد بحضور خمسة عشر عضوا.

وحدد التنظيم له نظام عمل وآلية اتصال داخلية وخارجية، وعملوا على تشكيل خلايا وفروع للتنظيم. وبدأ التنظيم بنسج علاقات مع الأحزاب والتنظيمات السياسية في الساحة اليمنية، والتي من ضمنها حزب "البعث العربي الاشتراكي"، "حركة القوميين العرب"، "طلائع الماركسيين" و"حزب الأحرار اليمنيين".

وقد حدد التنظيم أهداف الثورة في الأهداف الستة التالية:

1. التحرر من الاستبداد والاستعمار ومخلفاتهما، وإقامة حكم جمهوري عادل وإزالة الفوارق والامتيازات بين الطبقات.
2. بناء جيش وطني قوي لحماية البلاد وحراسة الثورة ومكاسبها.
3. رفع مستوى الشعب اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وثقافيا.
4. إنشاء مجتمع ديموقراطي تعاوني عادل مستمدا أنظمته من روح الإسلام الحنيف.
5. العمل على تحقيق الوحدة الوطنية في نطاق الوحدة العربية الشاملة.
6. الحياد الإيجابي وتدعيم مبدأ التعايش السلمي بين الأمم[2].

وتنظيم الضباط الأحرار هو التنظيم، الذي تحقق على يديه قيام الثورة اليمنية في سبتمبر 1962م، وأصبحت الأهداف السالفة الذكر، التي حددها التنظيم لمسار نضاله هي أهداف الثورة اليمنية بعد انتصارها. واعتمادا على خلفية الهدف الخامس، الذي ينص على" تحقيق الوحدة الوطنية في نطاق الوحدة العربية الشاملة"، تواصل نضال اليمنين شمالا وجنوبا من أجل تحقيق الوحدة حتى تم لها ذلك في 22 مايو 1990. ولا يزال النضال من اجل تحقيق وترسيخ أهداف الثورة وقيمها مستمرا حتى وقتنا الراهن.

ج- تنظيم "الإخوان المسلمين"

1. أحمد بن محمد الشامي، رياح التغيير في اليمن، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، ط2، صنعاء 1985م، ص135.

2. راجع كتاب "أسرار ووثائق الثورة اليمنية"، إعداد لجنة من تنظيم الضباط الأحرار، مطابع الرياضي، الكويت، ص 53-107.

كان له تأثير واضح من خلال الفضيل الورتلاني (جزائري الجنسية) في ثورة 1948، والتي فشلت بعد دخول الإمام أحمد صنعاء وإخماد الثورة فيها بعد نهبها واستباحتها وإعدام ابرز رموز الثورة من العلماء والمثقفين المستنيرين والضباط الكبار، الذين دبروا للثورة وأيدوا أفكارها وساندوا إعلانها.

كما دخلت إلى اليمن، في هذه الفترة بالذات، معتقدات فكرية وسياسية لم يعهدها اليمنيون من قبل، وهي المرتبطة بعد حركة التحرر العالمي (القومي، والاشتراكي). وقد تسلحت بها القوى السياسية الجديدة، التي ظهرت في الساحة الوطنية. وكانت كل القوى السياسية تقريبا مجمعة على وحدة الوطن أرضا وإنسانا، باستثناء "رابطة أبناء الجنوب العربي" و"الجمعية العدنية"، اللتين وقعتا في شرك مفاهيم تشطيرية شجع عليها الاستعمار البريطاني في الجنوب.

د - حركة القوميين العرب

تسلحت حركة القوميين العرب بالفكر القومي، واعتبرت *"الوحدة العربية هي الطريق إلى التحرر"* وتأسست الحركة في اليمن عام 1959م كامتداد لحركة القوميين العرب التي تأسست في بيروت في مطلع الخمسينيات، واعتمدت على الاستقطاب في الأوساط الطلابية (في الخارج) كما كان حال معظم الأحزاب والتنظيمات السياسية، وتشكلت قيادتها في آن على مستوى الساحة اليمنية علي يد فيصل عبد اللطيف الشعبي، وصاغت لها برنامجا سياسيا، تضمن النضال من أجل توحيد اليمن بشطريه في جمهورية موحدة بعد التخلص من الإمامة في الشمال والاستعمار في الجنوب. وانصهرت الحركة فيما بعد في الحزب الاشتراكي اليمني، الذي أعلن عنه رسميا في عام 1978[1].

هـ - حزب البعث العربي الاشتراكي

تأسس الحزب في اليمن في منتصف الخمسينات، وهو الآخر تأسس على أساس وحدوي، وقد توسعت دائرة البعثيين بعد عودة الخريجين من الطلاب، الذين درسوا في دمشق وبغداد، وتسنى لهم في عدن تأسيس ناد ثقافي رياضي تحت مسمى نادي "البعث"، وظهرت جريدة "البعث"، التي أصدرها محمد سالم علي عبده عام 1955. وتشير الوثائق إلى أن البعث لعب دورا كبيرا في تشكيل الفعاليات السياسية والحزبية على مستوى الساحة اليمنية. وشهدت الحركة البعثية تفرعات وانقسامات مختلفة، كان أبرزها ظهور الحزب الموالي لدمشق، والآخر الموالي لبغداد، إثر حركة فبراير في منتصف الستينات من القرن الماضي. *وكان البعث من الداعين، لا بل من المحرضين على إعادة تحقيق الوحدة اليمنية، وكان يعتبرها مقدمة لإعادة تحقيق الوحدة العربية، التي تجسد شعار(أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة)، الذي كان يرفعه البعثيون العرب.*

و- الحركة الناصرية

انشئت كتنظيم موحد (شمالا وجنوبا) في منتصف الستينات. وكانت فرعا لتنظيم الحركة الناصرية القومية، الذي أسس في مصر باسم "الطليعة العربية" على يد الزعيم الراحل جمال عبد الناصر. وحملت الحركة مفهوم إيقاظ الوعي القومي عند أبناء الأمة العربية ودعوتهم نحو الحرية والوحدة العربية. وكان النضال من أجل التحرر من الاستعمار في اليمن وإعادة تحقيق الوحدة اليمنية جزءا من برنامجها السياسي[2].

ز- الحزب الاشتراكي اليمني

سيطر الاشتراكيون على السلطة في الجنوب في منتصف 1969، ولكن في ظل مسمى التنظيم السياسي

---

1. راجع الموسوعة اليمنية، ج3، ص 2428. خالد عبد الجليل شاهر. "القوميون العرب في اليمن".

2. راجع "بيان عن التاريخي"، الصادر بتاريخ 22 فبراير 1990.

"الجبهة القومية"، الذي ضم إليه بعض الأحزاب القومية. وكانت قد جلبت الاشتراكية العلمية إلى اليمن كما جلبت إلى عموم الوطن العربي، وذلك بالتزامن مع نشوء حركات التحرر الوطني العربية، التي أيدها الاتحاد السوفييتي وساعدها وقدم لها الدعم، بعد أن أصبح قوة رئيسية لاعبة في المسرح السياسي العالمي بعد الانتصار في الحرب العالمية الثانية (1941- 1945). "وقد انتعش التيار الفكري الاشتراكي في الوطن العربي، خاصة بعد وقوف الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية في أوروبا الشرقية إلى جانب الأمة العربية ضد العدوان الثلاثي على مصر عام 1956"*.

وكان الحزب الاشتراكي اليمني، الذي حكم الجنوب منذ مطلع السبعينات، وعزز علاقاته بالمعسكر الاشتراكي على الصعيد الحزبي والرسمي، وتسلح بالفكر الماركسي، ورفع شعاراته، ومن ضمن هذه الشعارات النضال الثوري من أجل تطبيق الفكر الاشتراكي العلمي، والنضال لإسقاط الأنظمة العربية الرجعية المرتبطة بالاستعمار. وظل الحزب ينظر إلى الوحدة اليمنية في إطار مفهوم التغيير الثوري في الشمال، حتى مجيء "بيريسترويكا" ميخائيل غورباتشوف. وكان الرهان هنا يقوم على القوة والمواجهة المسلحة.

وكانت قد "تحددت استراتيجية الحزب الاشتراكي اليمني لتجاه إعادة تحقيق الوحدة في نقطتين أساسيتين: الأولى- بناء وتقوية النظام الوطني الديموقراطي في الجنوب. والثانية- تهيئة شروط التغيير الثوري في الشمال.. وكان هذا التوجه يرمي إلى خلق شروط التغيير في الشمال وصولا إلى إيجاد نظام مماثل بتوجهات مماثلة، لا تبقى بعده أية موانع تحول دون تحقيق الوحدة اليمنية في كيان دولة واحدة"[1]. غير أن الحزب الاشتراكي اليمني عدل فيما بعد عن فرض نموذجه في التغيير الثوري وفرض النموذج الاشتراكي للوصول إلى الوحدة وفقا لبرنامج الإصلاح السياسي والاقتصادي الشامل، الذي أقرته اللجنة المركزية للحزب في ديسمبر 1989.

ح- المؤتمر الشعبي العام

تأسس المؤتمر الشعبي العام في الشمال (الجمهورية العربية اليمنية) في أغسطس 1982 كمظلة سياسية ضمت كل الأحزاب والتنظيمات السياسية (إسلامية وقومية واشتراكية)، التي كانت تمارس أنشطتها في الساحة سرا. وجاء المؤتمر ليقف تنظيميا وسياسيا بموازاة الحزب الاشتراكي اليمني في الجنوب (جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية). وعلى نقيض الحزب الاشتراكي اليمني، الذي تبنى نهج الاشتراكية العلمية، اختط المؤتمر الشعبي العام منهجا فكريا، اعتمد على مبدأ أن "الإسلام هو عقيدة وشريعة". وهو أساس توجهه ومنهجه. وجاء في الميثاق الوطني، الذي شاركت في صياغته كل أطياف العمل السياسي في الساحة اليمنية: "إننا نرفض أية نظرية، في الحكم أو الاقتصاد أو السياسة أو الاجتماع، تتناقض مع عقيدتنا وشريعتنا الإسلامية. ولكننا نعتقد أن من حق أي فرد أو جماعة امتلاك الحرية في إعلان الآراء والأفكار وانتهاج العمل الديموقراطي، بشرط أن لا يخرج عن الإطار الإسلامي، فالاجتهاد في هذا الإطار قاعدة من قواعد الإسلام"[2].

وكان المؤتمر الشعبي العام قد حدد الطريق نحو الوحدة في صيغة صريحة وواضحة، تضمنها برنامج العمل السياسي المقدم للدورة الثامنة للجنة الدائمة (1983)، أكدت على "أن إعادة تحقيق الوحدة لن يتم

---

* "الثورة الوطنية الديموقراطية في اليمن"، الجبهة القومية، دار ابن خلدون، بيروت 1972م. ص63-104.

1. علي محمد الصراري. "الحزب الاشتراكي والوحدة اليمنية"، ص 75، دار الكنوز الأدبية، بيروت 1999.
2. الميثاق الوطني، ص 21. طبعة قديمة، صنعاء.

إلا طبقا لإرادة اليمنيين وتطلعاتهم، التي عبر عنها الميثاق الوطني من خلال الرجوع إلى السلطتين التشريعيتين وإلى الجماهير في الشطرين، لكي تعطي الصيغة الشرعية النهائية لكيفية الوحدة ومنطلقاتها في مختلف المجالات"[1].

وفي ظل حظر حرية العمل الحزبي وسريته في الشمال والجنوب باستثناء المؤتمر الشعبي العام كحزب حاكم، وسيطرة الحزب الاشتراكي اليمني في الجنوب على مقاليد السلطة، تعددت طرق وخيارات إعادة تحقيق الوحدة، فكان لكل حزب وتنظيم رأيه ووجهة نظره وفقا لتحالفاته. غير أن القول الفصل كان بيد من يمسك بزمام السلطة، سواء في الشمال أو في الجنوب. وقد كان لكل سلطة ارتباطاتها ومصالحها الاقتصادية والسياسية الخارجية، التي كانت بالتالي تسهم في تحديد المواقف بشكل أو بآخر.

ومما سلف يتضح أن التناقض الفكري والسياسي، الذي كان يحكم تفكير قيادتي الشطرين في صنعاء وعدن، خلق رؤى متباينة في التفكير نحو الوصول إلى هدف تحقيق الوحدة. وهذا التباين فرض شروطه في كل الميادين وفرض على الحدود بين الشطرين حالة من التوتر الدائم خاصة خلال عقدي السبعينات والثمانينات من القرن العشرين، ووجهت جل إمكانيات الشطرين المالية والاقتصادية للدفاع والمواجهة.

2. التناقضات الاقتصادية:

كان لكل شطر طريقته في الإدارة الاقتصادية وتنميتها تبعا للمنهج السياسي، الذي يحكمه، رغم أن الاقتصاد في الجمهوريتين (العربية اليمنية والديموقراطية الشعبية) كان يعتمد في الأساس على الزراعة. ومثلت "خريطة الاستخدام الزراعي وحرفتها أهمية لا منافسة في الاقتصاد اليماني وفي الاستراتيجية اليمنية حتى 1990 على الرغم من ظهور النفط على الساحة الاقتصادية للبلاد منذ نحو 1986"[2].

ورغم هذا، ظلت الزراعة، كإحدى أهم مقومات الاقتصاد اليمني (شمالا وجنوبا)، تعاني من تخلف أدوات ووسائل الإنتاج. وكان من "أبرز العوامل المعيقة لتطور الزراعة، وهي المسألة، التي نعني بها إجمالا، تخلف القوى المنتجة مع مستوى تطور المنجزات العلمية الحديثة في المجال الزراعي"[3].

وقد حاول كل شطر من شطري البلاد أن يضع لنفسه خططا للتنمية الاقتصادية، وكان واضحا أن الشمال منذ إقرار البرنامج الإنمائي الثلاثي الأول (1973- 1976) قد اتجه نحو "الانفتاح على الاقتصاد الرأسمالي العالمي، وإرساء بنيان الاقتصاد اليمني على أسس الاقتصاد الحر"[4]. لكنه لم يتمكن نتيجة لعدم القدرة على إيجاد بنية تحتية (اقتصادية) تساعد على الانطلاق بسبب غياب الإمكانيات المادية وغياب الإدارة الاقتصادية الكفوءة.

أما التوجه، الذي اختطه الجنوب (جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية)، فقد كان مخالفا

---

1. برنامج العمل السياسي المقدم للدورة الثامنة للمؤتمر الشعبي العام، الجزء الأول ص 37، صنعاء.

2. د. أحمد رمضان شقلية. "الخريطة الزراعية المعاصرة للبلاد اليمنية". دراسات يمنية، ع 44، ص 395. مركز الدراسات والبحوث، صنعاء 1992.

3. د. محمد محسن المسعودي، ص 186. مستوى آفاق تطور التعليم الجامعي والعالي في التنمية الزراعية في شطري اليمن"، ص 202. دراسات يمنية، ع 19. مركز الدراسات والبحوث.

4. د. أحمد سلطان. "التطور الاقتصادي والاجتماعي في الجمهورية العربية اليمنية: المسار، السياسات، الأفاق"، ص 32. دراسات يمنية، ع 29، 1987، مركز الدراسات والبحوث اليمني.

للتوجه الاقتصادي في الشمال. إذ إن الفلسفة الاقتصادية هنا تقوم على مبدأ سيطرة الدولة على الاقتصاد من خلال سيطرتها على علاقات الإنتاج، وتوجيهها للآلة الاقتصادية الداخلية واحتكارها للتجارة الخارجية. وكانت المسألة المركزية في التنمية الاقتصادية "ترتبط بسيطرة الدولة على مختلف مجالات الحياة الاقتصادية الأساسية. وصولا إلى قطاع الدولة المرتبطة بسلطة الديموقراطية الشعبية"[1]، التي كانت هي الأخرى مرتبطة بمفهوم "أن التغيير الجذري للواقع الاقتصادي لا يمكن أن يتم دون التصفية الضرورية الكاملة للقوى المعيقة لهذا التغيير، تلك القوى الطفيلية المتمثلة بالكمبرادورية، المرتبطة بالأساليب الأجنبية والإقطاع وشبه الإقطاع"[2].. وهو ما دفع إلى حركة تاميم واسعة، تمت بموجبها مصادرة كل شيء تقريبا، وشلت حركة المجتمع الاقتصادية لتتولى الدولة القيام بالمهمة، التي لم تحقق النجاح المطلوب في العملية الاقتصادية.

وقد جاءت الوحدة عام 1990 والوضع الاقتصادي في الشطرين متقارب مع فارق إيجابي لصالح الشمال، وذلك لأن الأخير كان لا يزال محتفظا بعلاقاته الاقتصادية مع الدول الرأسمالية، بينما فقد الجنوب هذه العلاقة مع الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية.

ثالثاً: الضرورات والشروط الموضوعية لقيام الوحدة اليمنية:

لم تكن العوامل التاريخية، التي مررنا على ذكرها في مباحث سابقة، كافية وحدها للإقدام على خطوة جبارة نحو الوحدة؛ وإنما توافرت أيضا عدد من العوامل والشروط الموضوعية، المرتبطة بإيقاع وحركة الحياة المعاصرة، التي حتمت على قيادتي الشطرين اليمنيين، اتخاذ قرار بإعادة تحقيقها في مايو ١٩٩٠م ويمكن تلخيص هذه العوامل والشروط في التالي

1- العوامل الاقتصادية:

برزت في مقدمة شروط التحول نحو العمل باتجاه الوحدة عوامل سياسية واقتصادية، فرضت نفسها بتأثير مجريات الأحداث المحيطة؛ ومنها المرتبطة بالنظام العالمي الجديد. "فبانهيار الاتحاد السوفييتي ونظريته الاقتصادية الاشتراكية في مطلع عقد التسعينات، وأحادية النظام الاقتصادي الرأسمالي في تشكيل العلاقات الاقتصادية الدولية والمؤسسات الموجهة لها والمؤثرة فيها، برزت من جديد ظاهرة العولمة أو الكوكبة الاقتصادية كجزء لا يتجزأ من ظاهرة العولمة الحضارية والثقافية، والفكرية والسياسية، التي أخذت تغزو مختلف بلدان العالم، لتصبح السمة الرئيسية لعالم القرن الواحد والعشرين"[3].

ولم تكن اليمن بمعزل عن هذه التطورات، فقد وجد الشطران نفسيهما في مواجهة مع نظام اقتصادي جديد يتقدم بسرعة هائلة؛ ولم يعد لدى الاتحاد السوفييتي بعد "بيريسترويكا" غورباتشوف ما يمكن أن يقدمه من دعم للدول الاشتراكية المحسوبة عليه، وهو ما هدد بتدهور اقتصادي كبير في الأعوام التالية في الشطر الجنوبي (جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية)، الذي كانت المؤشرات الاقتصادية في ميزانيته للعام 1989م (وهو العام الذي سبق مباشرة عام الوحدة) تدل على ذلك؛ فقد بلغ العجز في ميزانية الدولة 78 مليون و315 ألف دينار- أي ما يزيد على 223 مليون دولار من إجمالي الموازنة العامة، المقدرة بـ

1. "الثورة الوطنية الديموقراطية في اليمن". التقرير السياسي ص 86. دار ابن خلدون، بيروت 1972.
2. نفس المصدر السابق، ص 82.
3. المؤتمر الاقتصادي الثاني- "العولمة واتجاهات الإصلاح الاقتصادي في اليمن". د. عبد الكريم أحمد عامر، ص 630. وثائق غير منشورة، صنعاء، أبريل 1998م.

347 مليون دينار، والتي تقدر بحوالي 988 مليون دولار. وهي أرقام لا تنقص كثيرا عما هي في ميزانية الشطر الشمالي (الجمهورية العربية اليمنية)، التي بلغ عجز الموازنة فيها لنفس العام 1989م حوالي مليارين اثنين و 274 مليون ريال- أي ما يعادل 182 مليون دولار من إجمالي الموازنة العامة، المقدرة بـ 19 مليارا و 311 مليون ريال- أي ما يعادل مليارا واحدا و544 مليون دولار. ويظهر هنا فارق العجز في الموازنتين لصالح الأخيرة بمبلغ 41 مليون دولار[1].

وبرغم أنه ليس فارقا كبيرا، إلا أن مؤشرات النمو في الشطر الشمالي كانت هي الأخرى تبدو مطمئنة، وذلك:

- لأن التقديرات، التي تضمنتها الخطة الخمسية الثالثة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية 1987- 1991)، تشير إلى معدل نمو اقتصادي قدره 6.6 %، وإلى ارتفاع في إجمالي الموارد المادية المتاحة بمعدل سنوي قدره 7.2 %.
- وكان ارتفاع إجمالي الصادرات بما فيها النفط الخام بمعدل 37.8% بين عامي 1986 و 1991م[2].

ورغم التباين الجزئي في بعض الأرقام، إلا أن "التنمية في الشطرين كانت تعتمد بصورة رئيسية على الموارد الخارجية سواء في صورة تحويلات من المهاجرين، أو في صورة قروض وإعانات من الحكومات والمنظمات العربية والدولية"[3].

وكان النظام الاقتصادي في الجنوب يقوم على مبدأ السيطرة التامة للدولة على العملية الاقتصادية؛ في حين لا وجود فعليا لقاعدة اقتصادية إنتاجية تمول المشاريع التنموية. وفي الشمال، كان النظام الاقتصادي لا يقوم على فلسفة النظام الرأسمالي او الاقتصاد الحر، وإنما كان يقوم على تجربة "خليط"، وزعت بين قطاعات ثلاثة: عام، مختلط وخاص. وكانت المشاريع التنموية في الشطرين تعتمد، كما أسلفنا، على القروض والمساعدات الخارجية إذا ما استثنينا تحويلات المغتربين والقروض المحلية إلى جانب دخول النفط في العملية التنموية في الشمال منذ عام 1986م. وكانت ظروف المواجهة وآلة الحرب، التي يحركها الشطران ضد بعضهما البعض تلتهم النسبة الأكبر من موازنتي الدولتين.

ومما سبق، يتضح أن شروطا اقتصادية جديدة بدأت تفرض نفسها بقوة على الوضع في الشطرين، يمكن تلخيصها في بروز نظام اقتصادي عالمي جديد وفشل تجربة النظام الاقتصادي الاشتراكي؛ الأمر، الذي فرض على الشطرين البحث عن آلية جديدة تتلاءم مع المستجدات، وتضمن للأوضاع الاقتصادية الاستمرار والحياة، لأن المشكلات الاقتصادية تفاقمت، وتنامت الضغوط الشعبية تجاهها إلى جانب تراجع المعونات الاقتصادية والمالية، التي كانت تقدمها بعض دول المنطقة للشطرين.

وينقل أوليغ بيريسيبكين في كتابه "اليمن واليمنيون- في ذكريات دبلوماسي روسي" عن حيدر أبو بكر العطاس رئيس هيئة مجلس الرئاسة عشية إعلان الوحدة 21 مايو 1990م قوله: "إن اليمن الجنوبي

1. الوثائق المالية للموازنات العامة للجمهورية اليمنية. وزارة المالية (وثائق غير منشورة). [احتسب الأرقام بسعر صرف الدولار في نفس الفترة: 2.85 دولار للدينار الواحد، و12.5 ريالا للدولار الواحد].
2. الخطة الخمسية الثالثة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية (1987-1991)، الجمهورية العربية اليمنية، الجهاز المركزي للتخطيط ص 63.
3. البرنامج الوطني للإصلاح السياسي والاقتصادي والمالي والإداري، الجمهورية اليمنية، صنعاء 1991، ص 28.

سيختفي من الوجود غدا كدولة لصعوبة الظروف الاقتصادية في اليمن الجنوبي، فحتى المساعدات، التي تلقاها من الاتحاد السوفييتي لم تتمكن من لعب دور حاسم في تطوير هذه الدولة... برغم أننا حاولنا، عملنا، استمعنا إلى نصائح موسكو، ولكن للأسف لم نحصل على أي شيء محدد، لقد فشلنا".. وقد بدا اليمن الجنوبي في وضع اقتصادي صعب وعزلة سياسية خانقة، وأن المخرج من ذلك يمكن العثور عليه فقط عن طريق الوحدة مع اليمن الشمالي"[1].

2- العوامل السياسية

كان التفسخ المتسارع للاتحاد السوفييتي ودول المنظومة الاشتراكية في النصف الثاني من عقد الثمانينات يدق ناقوس الخطر عند البلدان الصغيرة، الملحقة بركب النظام الاشتراكي. وجاء زحف الألمان نحو الوحدة وسقوط سور برلين في نوفمبر 1989م وتحطم أسطورته، التي قسمت ألمانيا إلى ألمانيتين والعالم إلى عالمين، جاء ليضع العالم كله أمام حقيقة تاريخية جديدة، تمثلت في نهاية حقيقية للحرب الباردة، وظهور نظام عالمي جديد ذي قطب واحد، تقوده الولايات المتحدة، ويسيطر عليه اقتصاد السوق.

ولما كانت اليمن بشطريها غير بعيدة عن تطور هذه الأحداث وتأثرها به، بحكم تركيبة وطبيعة نظاميهما المتناقضين فكان هذا التغير المتسارع يلامس الواقع اليمني بكل تناقضاته، ويشكل حقبة جديدة بالنسبة لليمن وقضيتها. وقد لخص الرئيس علي عبدالله صالح في محاضرة له في جامعة سيؤل في كوريا الجنوبية بقوله: "تحققت الوحدة بفضل انهيار ما كان يسمى بالاتحاد السوفييتي، الذي ما كنا نريد أن يتفكك لأنه لتفككه؛ غير في الموازين الدولية"[2].

غير أن هناك عوامل سياسية أخرى منها ما جاء على خلفية انهيار الاتحاد السوفييتي، وأخرى فرضت نفسها بشكل صريح وواضح على قيادتي الشطرين بالسير سريعا باتجاه الوحدة، كان من أبرزها:

أ. عامل العنف والمواجهة

كان لاندلاع الحرب الأولى في أكتوبر 1972 والثانية في فبراير 1979م بين الشطرين بالغ الأثر في تعكير النفوس وتوتير الأجواء السياسية، ومن ثم بذر نوازع الانتقام بين السلطتين في صنعاء وعدن، وخلفت جراحات عميقة عند أبناء المناطق اليمنية على طول الحدود الشطرية. وزاد من تعميق هذه الجراحات أعمال العنف والصدامات المسلحة، التي استعرت في المناطق الوسطى إثر تشكيل الجبهة الوطنية، التي تشكلت كحركة سياسية مسلحة لمقاومة النظام في الشمال، وتوسعت المواجهة المسلحة بين الجبهة والقوات النظامية في الشمال، فطالت مناطق من محافظات تعز، وإب، وذمار كـ(شرعب و العدين ووصاب و عتمة)... إلخ. وتسببت هذه المواجهات، التي كان يطلق عليها "الأعمال التخريبية"، في إثارة قلق كبير لدى الدولة والمجتمع؛ ذلك لأن العمليات، التي تقوم بها الجبهة كانت تتم على شكل حرب العصابات، وكانت تستعين بمنتمين حزبيا وسياسيا من أبناء المناطق الشمالية نفسها؛ وهو نفس الأسلوب، الذي اتبعته جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية في حدودها المتاخمة لسلطنة عمان والمملكة العربية السعودية في الجبهة الشرقية؛ فالاتحاد السوفييتي كان لا يبخل في تقديم الأسلحة، التي يطلبها قادة الشطر الجنوبي الاشتراكي منه. وهو ما كان

---

1. د. أوليغ بيريسيبكين. "اليمن واليمنيون في ذكريات دبلوماسي روسي". دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى 2005 ص 410-411.

2. صحيفة "26 سبتمبر"، 30 أبريل 2005م. نص محاضرة رئيس الجمهورية في جامعة سيؤل في كوريا الجنوبية.

الوطن اليمني، ولمسنا موقفا مؤيدا منهم، ويعتبرون ذلك شأنا داخليا من شئون اليمن"[1].

أما الاتحاد السوفييتي فكان منشغلا بما يجري داخل معسكره وجمهورياته، التي بدأت تشتعل. غير أن انشغاله بوضعه الداخلي لم يمنعه من أن يكون على صلة بما يجري من خطوات باتجاه الوحدة اليمنية من خلال سفيريه في صنعاء وعدن. وحسب السفير السوفييتي في صنعاء السيد فنيامين بوبوف، "كانت هناك آراء متناقضة تجاه الوحدة بين شطري اليمن، وكان هذا التناقض ملموسا في أداء البعثتين الدبلوماسيتين في صنعاء وعدن، وانعكس هذا التباين في تشكل رايين داخل قيادة الخارجية السوفييتية، التي كان يقودها السيد إدوارد شيفارنادزه. غير أن الموقف حسم أخيرا لصالح دعم خطوات الوحدة"[2]. ومن هنا فقد بارك الجميع وأيد الخطوات الوحدوية، وكان في مقدمة هذا التأييد "التأييد السوفييتي- الأميركي"[3].

ولا شك بأن موقف الدولتين الأعظم تجاه الوحدة قد انعكس إيجابا على بقية المواقف، فلم تظهر مواقف معارضة، كما لم تظهر مصالح دولية حقيقية في ظل سنوات التشطير تحتم المحافظة عليها.

الموقف العربي:

الموقف العربي من الوحدة اليمنية كان يبدو مهيئاً، فقد ظهرت حينها تحالفات إقليمية جديدة، كان أبرزها إنشاء مجلس التعاون العربي في فبراير 1989م، والذي ضم إلى جانب "العراق ومصر والأردن الجمهورية العربية اليمنية، الذي فهم من تشكيله في نفس الوقت بأنه ردا على قيام مجلس التعاون الخليجي، الذي انحصرت عضويته في دول المجلس الغنية الست (السعودية، الكويت، قطر، البحرين، الإمارات العربية وعمان)، واستبعدت الدول المجاورة كاليمن والعراق من عضوية المجلس لأسباب سياسية واقتصادية (ربما موضوعية) ومنها أشكال ومناهج هذه الأنظمة، التي كانت تتناقض مع طبيعة واشكال ومناهج دول الخليج الست.

كما كان تشكل مجلس التعاون العربي قد اعتبر في ذات الوقت بأنه تحالف الفقراء- إذا ما استثنينا العراق- ضد الأغنياء، وتحالف الجمهوريات- إذا ما استثنينا الأردن- ضد الأنظمة الملكية الوراثية في المشرق العربي. وبخلاف العضوية المغلقة في مجلس التعاون الخليجي فقد كان الباب مفتوحا أمام الدول العربية الأخرى الراغبة في الانضمام. غير أن المجلس لم يكتب له البقاء، وتعرض للاختفاء دون أن يضم إليه أعضاء جددا لكنه أقر في آخر قمة استثنائية في بغداد في أواخر مايو 1990م "اعتبار الجمهورية اليمنية ذات عضوية واحدة في المجلس الرباعي استمرارا لعضوية الجمهورية العربية اليمنية"[4].

ولكن بمحصلة كل هذا، جاء مجلس التعاون العربي في ذلك الوقت ليشكل نقطة توازن في المنطقة والإقليم بصورة خاصة؛ وقد استفادت الوحدة اليمنية من هذا التوازن بصورة مباشرة أو غير مباشرة، فقد

---

1. كلمات وتصريحات ومقابلات فخامة الرئيس علي عبد الله صالح رئيس الجمهورية عن الوحدة اليمنية (1978-2003). إصدارات مركز المعلومات بدائرة التوجيه المعنوي للقوات المسلحة، ج4، يناير 2003م، ص 125.
2. مقابلة للباحث مع السيد فنيامين بوبوف في موسكو في 17 مايو 2005م.
3. كلمات وتصريحات ومقابلات الرئيس. المصدر السابق، ص 126.
4. صحيفة الثورة العدد (9326) 30 مايو 1990م.

ولكن، ووفقا للقاء القمة بين قيادتي الشطرين، في صنعاء في 4 مايو 1988م، تم التوقيع على اتفاق مشترك، وتم بفضله تجاوز الأزمة، حيث تضمن الاتفاق نقطتين هامتين:

النقطة الأولى: تحويل منطقة الخلاف النفطي إلى نقطة اتفاق، يتم فيها:

- "إقامة مشروع استثماري مشترك بين محافظة مارب وشبوة بمساحة قدرها 1200 كم.
- تتولى لجنة طوبوغرافية مشتركة القيام بتحديد وتوضيح منطقة المشروع.
- تخلي منطقة الاستثمار المشترك من المواقع العسكرية للشطرين.."[1].

النقطة الثانية: الاتفاق على تسهيل حركة تنقل المواطنين بين الشطرين، الموقّع من قبل رئيسي مجلسي الوزراء في القمة نفسها، والذي نص على:

- "إلغاء النقاط القائمة في كلا الشطرين والمثبتة في الأطراف، واستبدال ذلك بنقاط مشتركة من الشطرين.
- يسمح للمواطنين بالتنقل والمرور عبر النقاط المشتركة بالبطاقة الشخصية، وعدم فرض القيود على المواطنين من قبل الأجهزة من الشطرين.."[2]. والباحث كان واحدا ممن وقف على هده التنقلات الحرة ، وشهد حركتها في عاصمتي الشطرين صنعاء وعدن ، وكتب عن تفاعلاتها في عدد من الاصدارات الصحفية اليمنية حينها، ومنها صحيفة الثورة.

ج- عامل الضغط الشعبي

كان لاتفاق مايو 1988م تأثير بالغ عند عامة الناس من الشطرين، وخاصة فيما يتعلق بالسماح للمواطنين بالتنقل بالبطاقة الشخصية بين مدن وعواصم الشطرين. وتدفق الباعة والمنتجات من المناطق الشمالية، واستفادة المواطنين إجمالا من أسواق سميت بأسواق "الوحدة"، أقيمت تلقائيا في مدن ومناطق حدودية مختلفة، إلى جانب تنامي حركة السياحة الداخلية بين الشطرين. وكشفت هذه الخطوة عن آفاق ومجالات تفكير بحياة جديدة عند المواطنين، مما ساعد على تنامي الشعور بالمصلحة عندهم. وبدأت تختفي مظاهر الخوف من الأجهزة، خاصة عند أبناء مناطق التماس، وانعكس كل ذلك على الواقع في شكل ضغوط سياسية حزبية وشعبية عامة، فرض شرطا آخر من شروط التسريع بإقامة دولة الوحدة. وكانت لدى قيادتي الشطرين أجهزة قياس للرأي بينت- إلى جانب الخوف من انفجار الحالة الشعبية في الجنوب وتأثيره على كل اليمن- بينت أهمية الوحدة بالنسبة لأمن البلاد السياسي والاقتصادي ولأمن السلطتين في الشطرين أيضا.

د- الحزب الاشتراكي- نمط جديد في التفكير

كانت الأحداث في الدول الاشتراكية محط متابعة واهتمام من قبل قيادة الحزب والدولة في الجنوب، وكان مسار الأحداث في معظم الدول الاشتراكية، التي يجري فيها الغليان، وتتهاوى تدريجيا، كان يقدم أمثلة مخيفة لملامح هذا التهاوي والانفجار، الذي بدأ في أثيوبيا، ورومانيا وجمهوريات جنوب الاتحاد السوفييتي السابق: طاجكستان، أرمينيا وأذربيجان... إلخ.

ولم يكن أمام قيادة الحزب سوى التفكير بخطوات جادة تساعد على إيجاد حلول لإشكالية قادمة حتما؛ وكان من أهم وأبرز هذه الحلول- الوحدة.

وقد ظهرت أفكار وآراء إصلاحية جديدة لدى قيادة الحزب الاشتراكي اليمني، وبدأ التفكير علنا بالديموقراطية والتعددية السياسية: وكانت الوثيقة، التي تقدم بها جار الله عمر إلى المكتب السياسي في

---

1. كتاب اليمن الواحد. الجمهورية اليمنية، ص 237 مايو 1990م.
2. نفس المصدر السابق.

أبريل 1988م تحت عنوان: "أهمية التعددية الحزبية في تعزيز تجربة التوجه الاشتراكي"، إلى جانب نقاشات أخرى كانت مقدمة للإصلاح ولإعلان "برنامج الإصلاح السياسي والاقتصادي الشامل"، الذي أقرته اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي اليمني الحاكم في الشطر الجنوبي في ديسمبر 1989م، والذي تضمن إقرار العمل بمفاهيم جديدة غيرت من منهجية الحزب في قضايا هامة ومصيرية، نلخصها في الآتي:

- الانفتاح السياسي والاقتصادي على الأنظمة ذات التوجه الحر.
- التراجع عن خيار تحقيق الوحدة بفرض نموذج النظام الاشتراكي في الجنوب على الشطر الشمالي، وإعادة ترتيب العلاقة مع النظام في الشمال وفقا لما ينسجم مع المستجدات.
- إدخال التعددية السياسية في آلية العمل السياسي، والسماح بظهور أحزاب سياسية معارضة[1].

هـ- عامل الإرادة السياسية

مع توافر العوامل الخارجية، التي هيأت لقيام الوحدة وتنامي الضغط الشعبي من أجل الوحدة، توفر بالتالي عامل الإرادة السياسية. ولعل هذا العامل لعب دورا كبيرا وهاما في السير باتجاه الوحدة؛ فكلا الزعيمين (علي عبد الله صالح وعلي سالم البيض) معروفان بالجرأة وقوة الإرادة في نشاطهما السياسي، علاوة على أن كليهما كان يرغب في ركوب الصعب واختطاف الأضواء، ولم يكن هناك أجمل مركبا من مركب الوحدة ولا أسطع ضوءا من ضوئها؛ فهي تمثل الحلم التاريخي للشعب، وتحقيقها يعني صناعة تاريخ جديد لشعب يؤمن بالتاريخ ويؤمن بالوحدة أيضا.

1. راجع "برنامج الإصلاح السياسي والاقتصادي الشامل للحزب الاشتراكي اليمني". ديسمبر 1989م.

ولهذا كان علي عبد الله صالح وعلي سالم البيض، بعد لقاء عدن التاريخي في 30 نوفمبر 1989م، الذي تم الاتفاق فيه على إحالة "مشروع دستور دولة الوحدة" إلى مجلس الشورى والشعب في الشطرين للموافقة عليه وفقا للأنظمة الدستورية لكل منهما خلال مدة زمنية أقصاها ستة أشهر[2]. وبعد الاتفاق على "نص إعلان الجمهورية اليمنية وتنظيم الفترة الانتقالية" في قمة صنعاء، المنعقدة بتاريخ 22 أبريل 1990م[3]، كان الاثنان يسابقان الريح باتجاه الوحدة، خاصة وأن سلسلة الاتفاقات والقمم واجتماعات اللجان المشتركة وفتح الحدود وتنقل المواطنين قد هيأت الشعب للوحدة، وأصبح الغليان الوحدوي قائما؛ فما إن جاء الموعد المحدد في نص اتفاق صنعاء حتى كانت القيادات في الشطرين في كامل تهيؤها، فبينما كانت قيادة الحزب والدولة في الجنوب بانتظار القادم من الشمال، كان علي عبد الله صالح قد انتهى من لقاء حاسم في مجلس الشورى في صنعاء، الذي خطب في أعضائه قائلا: "أتيت.. لأؤكد على إحالة الحكومة لمشروعين هامين: "مشروع دستور الوحدة" و"اتفاق صنعاء" التاريخي بين القيادة اليمنية الموحدة إلى المجلس الموقر... والذي بإقرار هاتين الاتفاقيتين، يتم إعلان الجمهورية اليمنية يوم غد الساعة الثانية عشرة ظهرا برفع الأعلام، علم الدولة اليمنية على كل المؤسسات والهيئات والمصالح الحكومية في بلادنا... وسأغادر المجلس متوجها إلى عدن، ومعي كل المسئولين، وأدعو مجلس الشورى، (والطائرات جاهزة) لمن يرغب أن يشارك في هذا

2. راجع نص اللقاء في "المحطات الرئيسية لمسار العمل الوحدوي 1972، 1990". دائرة التوجيه المعنوي، صنعاء، ص 213-216.
3. "اتفاق إعلان الجمهورية اليمنية"، المصدر السابق، ص 233-237.

الحدث التاريخي..."[1]. وكان مجلسا الشورى في صنعاء والشعب الأعلى في عدن قد وافقا في نفس اليوم 22 مايو 1990م على الاتفاقيات الوحدوية.

وكانت هناك أصوات سياسية معارضة وبداخل مجلس شورى الشمال نفسه، ومنهم أعضاء في كتلة الحركة الإسلامية (غير المعلنة حينها)، الذين كانوا يعارضون المادة الثالثة من دستور دولة الوحدة، التي تنص على أن "الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع"[2]، وليس مصدر التشريعات جميعا، ولم يكن أحد من هؤلاء يعارض الوحدة، برغم وجود من يقول بعدم جواز الاتحاد مع دولة كفر وحزب ماركسي ملحد.

كما كانت هناك أصوات قوية معارضة في قيادة الحزب في الجنوب، وصلت إلى حد إدانة علي سالم البيض الأمين العام للحزب الاشتراكي، الذي أقدم على التوقيع على اتفاق عدن التاريخي سنة 1989م، الذي قرر زمن وخطوات إعلان دولة الوحدة دون الرجوع إلى قيادة الحزب وإقرارها للاتفاق. وكان من أبرز هؤلاء المعارضين: العميد صالح منصّر السييلي عضو المكتب السياسي وزير الداخلية حينذاك، الذي أعلن في اجتماع حزبي اعتراضه (تحفظه) على قرار الوحدة الاندماجية مع الشمال[3]، "لأنها (الاتفاقية) لم تأت وفقا للمضامين، التي نص عليها برنامج الحزب السياسي"[4]. وكانت الخلافات في قيادة الحزب الاشتراكي وقيادة الدولة في الجنوب على أشدها. كما كانت الأوضاع بالتالي على وشك أن تنفجر فعلا، حيث كانت التوقعات تنذر بأحداث دموية ثانية تكرر ما حدث في 13 يناير 1986م. ولكن، رغم الاختلاف والتباين عند بعض القيادات، إلا أن الشارع اليمني من أقصاه إلى أقصاه كان في أوج حماسه وطموحه نحو الوحدة. وكانت المظاهرات الشعبية (منظمة وعفوية) تعم معظم المدن اليمنية، وهي التي خرجت تهتف بالوحدة. وكان الشارع السياسي مليئا بالحيوية ونشاط المنظمات الجماهيرية والمهنية والإبداعية، ما أعطى زخما قويا، وعزز من توفر الإرادة السياسية لدى قيادتي الشطرين.

و- الموقف الدولي

كان واضحا بعد التحام الألمانيتين على أنقاض سور برلين أن الموقف الدولي تجاه وحدة الدول المشطرة، اعتمادا على قواعد إيديولوجية وصراع القطبين الدوليين الأعظم، لم يعد متصلبا، بل كانت إشارات اقتناص الفرصة مواتية جدا، وهو ما أدركته القيادة اليمنية. فبعد اتفاقية إعلان عدن (نوفمبر 1989م) الشهيرة بـ"التاريخية"، شهدت الأشهر الأولى من عام 1990م تحركا سياسيا واسعا واتصالات خارجية مكثفة، استهدفت حماية التحركات الوحدوية من أي اعتراضات إقليمية أو دولية محتملة: ففي فبراير من نفس العام، قال الرئيس علي عبد الله صالح إثر زيارة للرئيس بوش (الأب) في واشنطن: "أطلعنا الأصدقاء الأميركان على الخطوات الجارية لإعادة تحقيق وحدة

1. صحيفة "الثورة"، 22 مايو 1990م. من نص لخطاب الرئيس في مجلس الشورى. الجمهورية العربية اليمنية.
2. راجع "مشروع دستور الوحدة"- المحطات الرئيسية لمسار العمل الوحدوي. مصدر سابق ص 119.
3. راجع وثائق اجتماعات المكتب السياسي واللجنة المركزية للحزب الاشتراكي، المنعقدة في ديسمبر 1989م.
4. علي محمد الصراري، "الحزب الاشتراكي اليمني والوحدة اليمنية"، دار الكنوز الأدبية، بيروت 1999م. ص130.

الوطن اليمني، ولمسنا موقفا مؤيدا منهم، ويعتبرون ذلك شأنا داخليا من شئون اليمن"[1].

أما الاتحاد السوفييتي فكان منشغلا بما يجري داخل معسكره وجمهورياته، التي بدأت تشتعل. غير أن انشغاله بوضعه الداخلي لم يمنعه من أن يكون على صلة بما يجري من خطوات باتجاه الوحدة اليمنية من خلال سفيريه في صنعاء وعدن. وحسب السفير السوفييتي في صنعاء السيد فنيامين بوبوف، "كانت هناك آراء متناقضة تجاه الوحدة بين شطري اليمن، وكان هذا التناقض ملموسا في أداء البعثتين الدبلوماسيتين في صنعاء وعدن، وانعكس هذا التباين في تشكل رأيين داخل قيادة الخارجية السوفييتية، التي كان يقودها السيد إدوارد شيفارنادزه. غير أن الموقف حسم أخيرا لصالح دعم خطوات الوحدة"[2]. ومن هنا فقد بارك الجميع وأيد الخطوات الوحدوية، وكان في مقدمة هذا التأييد "التأييد السوفييتي- الأميركي"[3].

ولا شك بأن موقف الدولتين الأعظم تجاه الوحدة قد انعكس إيجابا على بقية المواقف، فلم تظهر مواقف معارضة، كما لم تظهر مصالح دولية حقيقية في ظل سنوات التشطير تحتم المحافظة عليها.

الموقف العربي:

الموقف العربي من الوحدة اليمنية كان يبدو مهيئاً، فقد ظهرت حينها تحالفات إقليمية جديدة، كان أبرزها إنشاء مجلس التعاون العربي في فبراير 1989م، والذي ضم إلى جانب "العراق ومصر والأردن الجمهورية العربية اليمنية، الذي فهم من تشكيله في نفس الوقت بأنه ردا على قيام مجلس التعاون الخليجي، الذي انحصرت عضويته في دول المجلس الفنية الست (السعودية، الكويت، قطر، البحرين، الإمارات العربية وعمان)، واستبعدت الدول المجاورة كاليمن والعراق من عضوية المجلس لأسباب سياسية واقتصادية (ربما موضوعية) ومنها أشكال ومناهج هذه الأنظمة، التي كانت تتناقض مع طبيعة واشكال ومناهج دول الخليج الست.

كما كان تشكل مجلس التعاون العربي قد اعتبر في ذات الوقت بأنه تحالف الفقراء- إذا ما استثنينا العراق- ضد الأغنياء، وتحالف الجمهوريات- إذا ما استثنينا الأردن- ضد الأنظمة الملكية الوراثية في المشرق العربي. وبخلاف العضوية المغلقة في مجلس التعاون الخليجي فقد كان الباب مفتوحا أمام الدول العربية الأخرى الراغبة في الانضمام. غير أن المجلس لم يكتب له البقاء، وتعرض للاختفاء دون أن يضم إليه أعضاء جددا لكنه أقر في آخر قمة استثنائية في بغداد في أواخر مايو 1990م "اعتبار الجمهورية اليمنية ذات عضوية واحدة في المجلس الرباعي استمرارا لعضوية الجمهورية العربية اليمنية"[4].

ولكن بمحصلة كل هذا، جاء مجلس التعاون العربي في ذلك الوقت ليشكل نقطة توازن في المنطقة والإقليم بصورة خاصة؛ وقد استفادت الوحدة اليمنية من هذا التوازن بصورة مباشرة أو غير مباشرة، فقد

---

1. كلمات وتصريحات ومقابلات فخامة الرئيس علي عبد الله صالح رئيس الجمهورية عن الوحدة اليمنية (1978-2003). إصدارات مركز المعلومات بدائرة التوجيه المعنوي للقوات المسلحة، ج4، يناير 2003م، ص 125.
2. مقابلة للباحث مع السيد فنيامين بوبوف في موسكو في 17 مايو 2005م.
3. كلمات وتصريحات ومقابلات الرئيس. المصدر السابق، ص 126.
4. صحيفة الثورة العدد (9326) 30 مايو 1990م.

أيدت دول التعاون العربي الوحدة اليمنية، وشجع الرئيس صدام حسين عليها، غير أن الوحدة اليمنية عمل يمني خالص جاء بإرادة شعبية وقرار سياسي يمني، و لم يتدخل فيه أحد.

ويؤكد الأستاذ يحيى حسين العرشي، أحد أبرز رموز العمل الوحدوي، أن "الوحدة اليمنية لم يكن لأي طرف خارجي أي دور في فرضها أو طرحها لا من قريب ولا من بعيد. وأقولها للتاريخ: إنني وراشد محمد ثابت نظيري من عدن لكانا وزيرين مختصين بشئون الوحدة، حيثما كانت تتم الخطوات الوحدوية اليمنية، كنا نقوم بجولات مشتركة إلى الدول الشقيقة لنضع الأشقاء في الصورة، ونقول لهم: إننا نسير نحو الوحدة، وذهبنا إلى العواصم جميعا.. إلى واشنطن، وذهبنا إلى موسكو، وقلنا لهم: إن الوحدة اليمنية ستخلق مناخا لتعاون حقيقي بيننا وبينكم في إطار المصالح المشتركة، ولن تكون الوحدة اليمنية إلا مصدر أمن واستقرار للمنطقة"[1].

وفي ضوء هذا، لم تكن دول الخليج الست ببعيدة عن الحدث. فها هو الملك فهد بن عبد العزيز، ومن منطقة حفر الباطن إثر لقائه برئيس الجمهورية العربية اليمنية في نهاية فبراير 1990م، يعلن عن تأييده للوحدة اليمنية و "بلا حدود". وإذا كان هناك عدم رضاء تجاه تحقيق الوحدة من قبل بعض دول مجلس التعاون الخليجي بمبرر الخوف من أن توجه هذه الوحدة ضد أمن واستقرار دول المجلس، إلا أن أحدا لم يعلن معارضة صريحة ضدها*. ففي مقابلة بثتها إذاعة "صوت أميركا"، جاء على لسان علي عبد الله صالح أن "كل الدول العربية المجاورة وغير المجاورة باركت، وساندت إعادة تحقيق الوحدة اليمنية"[2].

وبعد الوحدة تشكلت منهجية سياسية جديدة، وظهرت مؤسسات ديموقراطية، شكلت النظام الجديد للدولة الوليدة.

---

1. جريدة "الشرق الأوسط"، العدد 9672، تاريخ 22 مايو 2005م.

*. تشير بعض الكتابات إلى أن وزير الخارجية السعودي قام خلال زيارته إلى عدن بعد توقيع اتفاق عدن في 30 نوفمبر 1990م بتسليم شيك مفتوح في محاولة لمنع الوحدة.. لكنه كلام لم يثبت بالوثائق بعد.

2. كلمات وتصريحات ومقابلات الرئيس. مصدر سابق، ص 139.

الشيخ عبدالله علي الحكيمي والوحدة اليمنية 1936-1954م.

د. خالد عبدالجليل شاهر

مقدمة

ما تزال بعض جوانب تاريخنا المعاصر في اليمن مجهولة، ومن بينها مسألة إسهام حركة المعارضة اليمنية (حركة الأحرار اليمنيين) في وضع مداميك الوحدة اليمنية التي تحققت في الثاني والعشرين من مايو 1990م. وإذا كانت تصورات أو جهود قادة الأحرار المشهورين، كأحمد محمد نعمان ومحمد محمود الزبيري قد نالت حظاً وافراً من الدراسة[1]، فإن جهود الشيخ عبد الله علي الحكيمي وتصوراته لم تنل نفس الحظ من الدراسة ويعود ذلك إلى سببين :

الأول: إن الشيخ الحكيمي قضى شطراً كبيراً من حياته في المهجر، ولم يرتبط اسمه بحركة 1948م التي استأثرت باهتمام الناس والباحثين، والثاني وفاته في أغسطس 1954م قبل أن تظهر مسألة الوحدة إلى سطح الأحداث السياسية في اليمن[2]. والباعث الثاني لدراسة هذا الموضوع يتمثل في إثبات خطل تلك الآراء التي زعمت أن حركة الأحرار قد أهملت قضية الوحدة اليمنية[3]، وأن اهتمام الحركة السياسية بها لم يبدأ إلا مع ظهور الحركة العمالية (مارس 1956م.)، وصدور بيان (مؤتمر الطلبة اليمنيين) في القاهرة في 23 يوليو 1956م[4].

ويعود خطل هذا الرأي إلى عدم توفر كل مصادر الموضوع عند البعض ممن قالوا بهذا الرأي والى تغلب الهوى السياسي على مقتضيات البحث العلمي عند البعض، ثم إلى خطأ منهجي عند الجميع، يجب التوقف عنده.

من المعلوم أن زعامات حركة الأحرار اتخذت من عدن مركزاً لها، كما نشط الشيخ الحكيمي في مدينة كارديف البريطانية، ولم يكن بمقدور هذه الزعامات أن تجهر بآرائها حول الوحدة اليمنية في هذه المراكز نظراً لاتصال قضية الوحدة آنذاك بمسالة تحرير جنوب اليمن الذي كان يخضع للسيطرة البريطانية، وهذه الخاصية تفرض- من حيث المنهج- البحث عن آراء ومواقف زعماء الأحرار في الأفعال، وفي المواقف السياسية المحددة، وليس فقط في الأدبيات الوثائقية(تصريحات، كتابات، برامج ...الخ)كما تقتضي تلك الخاصية العودة إلى ما سجله أولئك الزعماء لأنفسهم وليس للنشر (الرسائل والمذكرات واليوميات). والعودة إلى ما نشروه بأسماء مستعارة، أومانشروابأسماء غيرهم من الشخصيات المعروفة.

لا يدعي صاحب هذا البحث أنه قد أحاط بكل جوانب الموضوع، أو استنفذ كل مصادره، فلم يتسنَّ له الحصول على النص الكامل ليوميات الشيخ الحكيمي، وعلى كل رسائله كما لم يتمكن من الحصول على أعداد جريدة (الفضول) التي صدرت في عدن(1948/12/25- 1953م.) وجريدة(صوت اليمن) التي صدرت في القاهرة (1955/8/15- 1955/10/24م.)، كما لم يتسن له الإطلاع على مذكرات أحمد محمد نعمان.

ينطلق هذا البحث من المسلمات التالية:

1- إن مفهوم "حركة الأحرار" يتطابق مع مفهوم "المعارضة اليمنية" حتى أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، عندما ظهرت قوى سياسية جديدة في المعارضة إلى جانب حركة الأحرار (الأحزاب القومية والاشتراكية).

2- إن حركة الأحرار هي امتداد لحركة الإصلاح في العصر الحديث التي حمل لواءها جمال الدين الأفغاني (1838- 1897م) ومحمد عبده (1849- 1905) وعبد الرحمن الكواكبي (1854- 1902) ومحمد رشيد رضا (1865- 1935) وشكيب أرسلان (1869- 1946).

3- إن الشيخ الحكيمي هو من قياديي حركة الأحرار ومن مؤسسيها، وإن تميز في إطارها بنزعة تصوفية قوية وظاهرة، جعلت منه مصلحاً أكثر مما هو رجل سياسة.

واستخدمنا في البحث المصطلحات التالية بالدلالة المعنية أمامها:

- **الموقف:** هو انحياز إلى خيار معين في مسألة يختلف عليها.
- **الرؤية أو التصور:** يتضمن المبادئ العامة.. الملامح العامة لأسباب الموقف وتقدير آفاقه.
- **المشروع:** هو الذي يبلور الرؤية في منظومة إجراءات عملية تقود إلى تطبيقها.

أولاً: موقف حركة الأحرار من الوحدة اليمنية 1934-1948م.

نشأت حركة الأحرار كحركة معارضة لنظام الإمام في شمال اليمن ابتداءً من عام 1934م، وكان هذا النظام منذ أن ورث السيادة العثمانية في شمال اليمن في أواخر 1918م، قد استطاع أن يقيم دولة مركزية في حدود ولاية اليمن العثمانية (عدا عسير)، وقد تم تثبيت هذه الدولة عبر استرداد جزء من أراضي تهامة التي كانت بحوزة الإمارة الإدريسية وعبر مواجهة وقمع التمردات المحلية التي ظهرت في أنحاء متفرقة من البلاد (في الشمال والشرق والغرب والجنوب)[5]، وفي نفس الوقت حاول النظام الإمامي ضم جنوب اليمن إلى الدولة اليمنية المستقلة. إذ لم يعترف الإمام يحيى بسيطرة بريطانيا على هذا الجزء من اليمن، فدخل في مواجهات عسكرية وسياسية مع الإدارة الاستعمارية، وتعرضت مدن شمال اليمن لغارات جوية في 1928م، وتعرض لشتى الضغوط الاقتصادية والسياسية للاعتراف بهذه السيطرة. ولكن ميزان القوى فرض على الإمام يحيى في النهاية القبول بهذه السيطرة بصفة مؤقتة ولمدة أربعين عاماً عندما تم التوقيع على معاهدة الصداقة والتعاون المتبادل مع بريطانيا في 11 فبراير 1934م. وحتى بعد هذا التاريخ ظل الحكم الإمامي ينتظر الفرصة لمد سيطرته على جنوب اليمن، وهناك مؤشرات لسعي النظام الإمامي إلى تنظيم حملة عسكرية لتحرير جنوب اليمن بمساعدة من إيطاليا خلال السنوات الأولى للحرب العالمية الثانية[6].

عند تقديم الجهود التي بذلها الإمام يحيى لتوحيد الدولة اليمنية تبرز أمامنا الظواهر التالية:

1- إن تلك الجهود كانت تنجح طالما لم تصطدم بطرف خارجي، ولا تنجح عندما تصطدم بطرف خارجي، ويعود ذلك إلى اختلال ميزان القوى بين الدولة اليمنية وبريطانيا (في حالتنا هذه) لصالح الأخيرة. وقد حاول الإمام يحيى أن يعوض عن هذا الخلل عبر إبرام معاهدات مع الدول العربية والأجنبية (إيطاليا، الاتحاد السوفيتي، العراق، هولندا، السعودية، إثيوبيا، فرنسا، بلجيكا، مصر، الولايات المتحدة الأمريكية). والتحق في 29 أبريل 1937م بمعاهدة الأخوة العربية والتحالف المعقودة بين السعودية والعراق، في 2 مارس 1937م. وقد ساعدت المعاهدات المعقودة مع هذه الدول في الاعتراف باستقلال الدولة اليمنية، وحفظ استقلالها، ولكنها لم تساعد في الاعتراف بسلطانها على جنوب اليمن.

2- إن جهود النظام الإمامي تلك لم تحظ بتأييد شعبي في جنوب اليمن، فمع أن الإمام يحيى وبعده الإمام أحمد احتفظا بصلات مع زعماء الكيانات الواقعة تحت حماية بريطانيا، ومع أن الإمام يحيى وابنه أحمد احتضنا بعض هؤلاء الزعماء الذين فروا من ملاحقة بريطانيا لهم عندما كان يتم استبدالهم بآخرين، إلا أن هؤلاء لم يحبذوا يوما ان يكونوا من رعايا النظام الإمامي، وقد عبروا عن ذلك في أحاديثهم للرحالة أو الموظفين العرب في الإدارة البريطانية[7]، ويعود السبب في ذلك إلى أساليب الإمام يحيى في توحيد المملكة المتوكلية اليمنية التي اتسمت بالمذهبية والمركزية الشديدة اللتين حصرتا وظائف الدولة العليا في المخلصين للمذهب الزيدي، وأفراد الأسرة الحاكمة والمقربين منها، وهو ما أدى إلى استبعاد أبناء المناطق وأعيانها من المشاركة في الحكم.

3- كما أن الحكم الإمامي لم يشكل لأبناء الجنوب اليمني نموذجاً يسعون إلى الانضواء تحت لوائه، وذلك بسبب الطبيعة الاستبدادية لهذا الحكم، وتشدده في جمع الضرائب المختلفة، وإهماله الخدمات العامة، ومنافسة كبار رجاله للتجار، ولطابعه المذهبي، وعدم اتخاذ خطوات جادة لتطوير الزراعة أو الصناعة مما جعل عشرات الآلاف من أبناء الشمال يتركون بلادهم إلى مختلف المهاجر. وبسبب سياسة العزلة التي اتبعها، وهكذا فإن النظام الإمامي لم يستطع أن يجذب إلى صفه في مواجهة بريطانيا لا حكام الجنوب ولا سكانه، فخسر قوة كان يمكن أن توظف في صالح مساعيه لدمج الجنوب بشماله، وتعوض فقدانه للدعم الخارجي.

حظيت جهود الإمام يحيى الوحدوية حتى عام 1944م بعطف الشعوب العربية وتأييد قادة الرأي العام فيها، ومنهم رجال النهضة والإصلاح، فقد كانت تلك الجهود تتفق مع دعوتهم العامة إلى توحيد الشعوب الإسلامية، بل إن بعضهم تقدم بمشاريع لذلك ومنها مشروع محمد رشيد في 9 يناير 1921م. والذي دعا فيه عرب الجزيرة العربية إلى الوحدة والتضامن، ووجه هذا المشروع باسم "عقلاء العرب والمسلمين" واقترح فيه على رؤساء اليمن ونجد والحجاز إبطال الحرب والمنازعات على النفوذ فيما بينهم، وإلى الاعتراف المتبادل وحرية المذاهب الدينية وحرية التجارة وتسهيل طرق المواصلات ثم إلى إنشاء (مجلس حلفي) للحكومات الثلاث ليكون مرجعاً في حل مسائل الخلاف ووضع الحدود وحفظ استقلال تلك الكيانات وترقية شؤونها[8].

كما تقدم أمين سعيد[9] (1890- 1967) بمشروع في 10 فبراير 1938م. لإنشاء "الدولة العربية المتحدة" وهي عبارة عن دولة فيدرالية على غرار ألمانيا، تضم الدول العربية المستقلة آنذاك (اليمن والسعودية والعراق) على أن تنظم إليها الأقطار الأخرى التي تنال استقلالها. وقد اقترح في مشروعه جملة من الخطوات العملية الهادفة إلى إنشاء الدولة العربية المتحدة، وحرص خلال ذلك على أن تلعب الشعوب العربية دوراً أساسياً في إنجازها[10]. وذكر الدكتور يوسف خوري أن الأمير شكيب أرسلان صاغ مشروعاً وحدوياً، ولكنه لم يعثر عليه[11].

تميز ذلكما المشروعان بالواقعية، والأخذ بمبدأ التدرج، والاعتماد على الشعوب إلى جانب الحكومات في تنفيذها، والربط ما بين الوحدة والتنمية. ولكن ليس فيهما ما يشير إلى الإصلاح السياسي الداخلي. وسنجد لاحقاً أن رؤية حركة الأحرار ومشاريعها للوحدة قد اتسمت ببعض هذه السمات.

أكد عدد من رجال حركة الأحرار اليمنيين أن بداية معارضتهم لحكم الإمام يحيى تعود إلى عام 1934[12]، وهو العام الذي توقفت فيه حركة التوحيد، وتشكلت فيه حدود (المملكة المتوكلية اليمنية). وهذا التأكيد يسمح لنا بالقول إن عجز النظام الإمامي عن تحرير جنوب اليمن من السيطرة الاستعمارية، وضمه إلى الجزء المستقل كان أحد أهم أسباب ظهور حركة المعارضة اليمنية. كما يسمح لنا بالبحث عن بدائل المعارضة لهذا العجز.

في الفترة الواقعة بين عامي 1934- 1944م كانت المعارضة في طور التشكل ولم تظهر بعد كحزب سياسي في اليمن غير أنه برز في هذا الطور مركز للمعارضة في القاهرة (أواخر الثلاثينيات)، ضم عدداً من الدارسين فيها من أبناء الشمال والجنوب ومنهم محمد محمود الزبيري واحمد محمد نعمان ومحمد صالح المسمري ومحمد علي الجفري واحمد عبد الرحمن الجفري ومحمد علي لقمان.[13] ونشط هذا المركز، الذي ظهر في أواخر الثلاثينيات تحت اسم "الكتيبة اليمنية الأولى" وفي عام 1941م عاد محمد محمود الزبير إلى صنعاء حاملاً معه برنامج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " الذي أشار إلى خطر وقوع اليمن بيد الاستعمار، واحتمال فقدانه لاستقلاله إذا ما ظلت البلاد على حالها من عزلة وتخلف اقتصادي وأمية، ولكنه لم يشر إلى الوحدة اليمنية. كما أن البرنامج قد التزم بعدم الخوض في السياسة، واقتصر على طرح الأهداف الدينية التي يسعى إليها "شباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، إضافة إلى أهداف عامة أخرى (تشجيع إنشاء شركات تجارية، وإرسال بعثات دراسية إلى الخارج والخروج من نطاق العزلة وتوثيق الصلات مع الشعوب الإسلامية).

ويمكن القول أن أصحاب البرنامج انشغلوا آنذاك بقضية الحفاظ على استقلال شمال اليمن في ظروف الحرب العالمية الثانية وتقلباتها، أكثر مما انشغلوا بقضية الوحدة اليمنية. ولكن ما إن تحدد مآل تلك الحرب وعرفت هوية الفريق المنتصر فيها (دول الحلف المعادي لهتلر بما فيها بريطانيا) حتى ظهر (حزب الأحرار اليمنيين) في يوليو 1944 في مدينة عدن (وكان عدد من رجال المعارضة قد نزح إليها ابتداءً من أواخر إبريل من نفس العام). وفي نفس شهر يوليو بدأ عبد الغني الرافعي بنشر مشروع لتحقيق الوحدة على صفحات مجلة (الرابطة العربية) القاهرية، وانتهى منه في 5 أغسطس 1944م[14].

ويقضي هذا المشروع بتخلي الدولة اليمنية عن مدينة عدن لصالح الإنجليز وبقائها مستعمرة بريطانية مقابل إنهاء حماية بريطانيا لبقية جنوب اليمن وضمها إلى الدولة اليمنية المستقلة. على أن المشروع تدارك النواقص التي رافقت جهود الإمام يحيى لضم جنوب اليمن، فاشترط المشروع أن ينفذ الحكم الإمامي جملة من الإصلاحات السياسية، وأهمها تكوين مجلس شورى يتولى الحكم، وبناء إدارة مدنية عصرية. وتكوين مجلس اتحادي تمثل فيه المقاطعات اليمنية كلها بما فيها النواحي التسع وحضرموت العليا وحضرموت السفلى، وإنشاء حزب سياسي شعبي يوجه الحكومة وينهض الشعب والانفتاح على العالم العربي والمساهمة في جهود إنشاء الاتحاد العربي (فيما بعد الجامعة العرب). كما شدد المشروع على ضرورة إحداث نهضة اقتصادية (التوجه إلى الاستفادة من الثروات المعدنية، وسك عملة وطنية. وربط أجزاء البلاد بشبكة من الطرق المعبدة) ونشر التلفون السلكي واللاسلكي، وإنشاء محطة إذاعية. وعموماً فإن المشروع قد ربط عضوياً ما بين هدف تحقيق الوحدة اليمنية وما بين الإصلاح السياسي والنهضة الاقتصادية، وهو أمر كان من شأنه أن يجعل الوحدة قريبة إلى نفوس أبناء جنوب اليمن وحكامه، كما اتسم المشروع بالواقعية عندما ترك أمر مدينة عدن، فعدن مثلت بالنسبة لبريطانيا الهدف الأول في جنوب اليمن آنذاك ولن تتخلى عنها.

يمكن الافتراض أن مشروع الرافعي هذا هو مشروع الأحرار اليمنيين للوحدة. فالرافعي كان من مواليد اليمن وظل على صلة وثيقة بحكامها وبعناصر الأحرار وكرس جريدة (الصداقة) لنشر آراء حركة الأحرار الذين أسهموا بدورهم في تحمل نفقات إصدارها قبل أن يصدروا جريدتهم الخاصة (صوت اليمن) في 31 أكتوبر 1946م[15].

راهن الرافعي، ومعه الأحرار، على سيف الإسلام وأمير لواء تعز / أحمد بن الإمام يحيى في تنفيذ هذا المشروع، وكتب له بهذا الخصوص رسالة في غرة ذي الحجة 1363هـ/ 17 نوفمبر 1944م.، وأرفقها

بنص المشروع، وطالبه بالانتقال إلى صنعاء (وتولي شئون الدولة العليا)، ولكن بعد سنة من ذلك التاريخ لم يشر الرافعي في كتاباته إلى ما يفيد أنه تلقى رداً عليها من سيف الإسلام أحمد، بينما أشار إلى أنه تلقى ثناءً من "كثير من رجالات العرب والشباب اليمني، وشباب حضرموت وعدن وأبناء المحميات الذين يتلقون العلم خارج ديارهم" وهكذا أهمل مشروعه من قبل النظام الإمامي.

في الفترة الواقعة بين تأسيس حزب الأحرار (يوليو 1944) وظهور "الجمعية اليمانية الكبرى" في عدن (يناير 1946) ليس بين أيدينا ما يفيد أن الأحرار كجهة (وليس كأشخاص) قد تناولوا قضية الوحدة اليمنية وهو أمر مفهوم باعتبار أن مركزهم قد أصبح في عدن الخاضعة للسيطرة البريطانية، ولالتزامهم للسلطات فيها بعدم النشاط السياسي. ولكن الأحرار كأفراد عبروا عن موقفهم من الوحدة من خلال جريدة (فتاة الجزيرة) التي نشرت عدة موضوعات لأحمد البراق، دخل فيها في جدال مع شخص من حضرموت (كتب موضوعاً باسم مستعار)، وأكد فيها البراق على مفهوم اليمن الطبيعية، الذي يشمل شمال اليمن وجنوبه بما في ذلك حضرموت. كما كتب محمد علي لقمان صاحب الجريدة وأحد مؤسسي حزب الأحرار سلسلة مقالات بعنوان "وسائل النهوض بجنوب الجزيرة" و "مستقبل اليمن" نشر فيها مشكلات المنطقة ككل. وعنده فإن مصطلحي "جنوب الجزيرة" و "اليمن" يحملان نفس الدلالة.[16]

في أواخر 1947م. تم صياغة (الميثاق الوطني المقدس) كبرنامج مشترك بين الأحرار وممثلي الجناح المعارض في السلطة بزعامة آل الوزير، وكدستور لحكومة ائتلافية بينهما يتم تشكيلها بعد وفاة الإمام. ولم ترد فيه إشارة إلى الوحدة اليمنية، ولكنه احتوى على مواد كان من شأنها لو نفذت أن تقيم في شمال اليمن دولة دستورية شوروية، ومثل هذه الدولة كان سيكون بمقدورها أن تجمع حولها كتلة اجتماعية واسعة، مما يجعلها في وضع أفضل في مواجهة الإنجليز في جنوب اليمن، وبالتالي تنفيذ مشروع الرافعي أو أي مشروع آخر لتوحيد الجنوب بالشمال. ولكن، وعلى خلاف ما اتفق عليه، تم اغتيال الإمام يحيى في صنعاء في 17 فبراير 1948م. بأمر من عبد الله الوزير، الذي أعلن إماماً دستورياً في 18 فبراير 1948م، وكانت عملية الاغتيال من أهم أسباب فشل هذه الحركة. واستطاع أكبر أبناء الإمام يحيى أن يقضي عليها في 13 مارس ويصبح إماماً جديداً لشمال اليمن.

غير أن ما يلفت النظر في هذه الحركة هو مشاركة مجاميع من أبناء الشمال المستقرين في عدن في الدفاع عنها، إذ تم سفرهم دون أية عراقيل من السلطات البريطانية، وهو ما جعل البعض يطرح فكرة تواطؤ الإنجليز مع أنصار حركة 1948[17]. وفي نفس الوقت حظيت هذه الحركة بدعم وعطف بعض الشخصيات العدنية مثل محمد علي لقمان صاحب جريدة (فتاة الجزيرة). وكان لقمان قد تبنى وساعد حركة الأحرار منذ نزوح زعامتها إلى عدن في إبريل 1944. وهذا ما جعل البعض الآخر يرى في ذلك دليلاً على الاتجاه الوحدوي في ممارسة حركة الأحرار[18]. وهذه المسألة شغلت الأوساط الثقافية في اليمن لفترة من الوقت، ومن الصعب الجزم فيها طالما أن الحجج التي يطرحها كل فريق هي حجج استدلالية وليست وثائقية، ولكننا نستطيع أن نجزم بأن حركة 1948 كان لها نتائج إيجابية بالنسبة لمسيرة الوحدة اليمنية. وتجلى ذلك في التالي:

1- على إثر فشل حركة 1948 بدأت السلطات الإمامية بملاحقة من شارك فيها أو ناصرها، فاضطر عدد كبير منهم إلى اللجوء إلى عدن ولحج وأبين ويافع، والعواذل وبيحان وحضرموت، وعملوا بالتدريس والقضاء، وتخرج على أيديهم كثير من أبناء هذه المناطق منهم الأديب والمثقف والشاعر والكاتب والصحفي والنقابي[19]، ونشأت هذه العناصر وهي تحمل في وجدانها هموم اليمن الكبير، ويصح ذلك

على المدرسين وعلى التلاميذ.

2- خلقت الحركة جدلاً فكرياً وسياسياً على مستوى اليمن ككل وفي المهاجر وتأثر الكثيرون في الجنوب بما طرحه الأحرار من مطالب كالدستور والحكم النيابي (الشعبي)، مما أدى إلى تقارب الرؤى عند النخب المثقفة والسياسية في الشمال والجنوب[20].

ثانياً: جهود الشيخ عبد الله الحكيمي من أجل الوحدة اليمنية وتصوره لها حتى مايو 1952م.

استقر الشيخ عبد الله علي الحكيمي في عام 1936م في مدينة كارديف البريطانية، وأسس في 22 يوليو من نفس العام "الجمعية العلوية الشاذلية" كجمعية صوفية، إلا أنها قدمت خدماتها لكل المسلمين، واهتمت بشكل خاص بالعرب واليمنيين، فحافظت على هويتهم العربية والإسلامية، وكانت أداة وصل بينهم وبين المؤسسات والحكومات العربية[21].

وتدل الوثائق التي بين أيدينا أن الحكيمي كان مؤمناً بالوحدة العربية والوحدة الإسلامية، ففي رسالته إلى الشيخ علي عبد القادر رئيس المركز الثقافي الإسلامي في لندن في غرة محرم 1366هـ/ 25 نوفمبر 1946م عبر الشيخ الحكيمي عن اعتزازه بقومه العرب" الذين كانوا سادة العالم وقادة الأمم"، وعن أمله في أن يتمكن العرب من الوصول إلى وحدتهم عبر (التعاون والتضامن والتساند) وأكد أنه "إذا اتحدنا نحن "العرب" وأصبحنا كتلة واحدة استطعنا أن نجمع إخواننا المسلمين ونضمهم إلينا على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وأوطانهم"[22]. وهكذا اعتبر الحكيمي أن الوحدة العربية هي نواة الوحدة الإسلامية، وشرطاً لها. ولتأكيد إيمانه بالوحدة العربية كتب الحكيمي على شعار الجمعية العلوية الشاذلية (هلال وثلاث نجمات) المرسوم على قانونها في 11 مايو 1947م، كتب عبارة "فلتحي جامعة العرب". وكان الأحرار ومنهم الشيخ الحكيمي، كانوا قد أيدوا إنشاء الجامعة العربية في 22 مارس 1945، وعلقوا عليها آمالاً عريضة في تحقيق الوحدة العربية وطالبوا بانضمام اليمن إليها، لاعتقادهم أن ذلك سيعزز استقلالها وسيهيئ مناخاً ملائماً لإحداث الإصلاحات الداخلية في شمال اليمن.

في 6 ديسمبر أصدر الحكيمي من كارديف جريدة (السلام) الأسبوعية، واستمرت بالظهور حتى 25 مايو 1952، وصدر منها مائة وسبعة أعداد، تتوفر كلها ماعدا الأعداد 101، 102، 103، الصادرة في فبراير- مارس 1952، ومادتها تسمح برسم تصور الشيخ الحكيمي للوحدة اليمنية، وبيان جهوده من أجلها. وقد عرض الحكيمي تصوره من خلال مواقفه إزاء الأحداث الجارية التالية:

1- في أوائل مارس 1949 أذاع راديو القاهرة أن هناك محادثات جارية لإنشاء ولاية متحدة بين عدن والمحميات مع إقامة برلمان اشتراكي (مشترك) دستوري لها ومجلس تشريعي. فعقب الحكيمي بعد إعادة نشر هذا النبأ قائلاً: "إننا نهيب بأبناء جنوب الجزيرة أن يجتمعوا ويتكتلوا" ودعاهم إلى عدم التشاؤم من الفكرة قائلاً: "فإنكم ستجدون عواقبها طال الزمان أم قصر"[23]. ولم تنشر(السلام) أية تفاصيل عن هذه المحادثات، ولكننا نفهم أن الحكيمي رحب بتجميع 23 كياناً في كيان واحد، ربما لاعتقاده أن الوحدة بين طرفين ستكون أسهل من الوحدة بين 24 طرفاً.

2- وعندما ثارت مشكلة الحدود بين إمارة بيحان وبريطانيا من جهة والمملكة المتوكلية اليمنية من جهة أخرى في أوائل سبتمبر 1949 عندما قصفت الطائرات البريطانية حصن جعدر على قمة جبل سلعان المسمى الخريبة بالقرب من بلدة حريب، تابعت (السلام) تفاصيل هذه الحادثة وعلقت عليها[24]. ومما يلفت النظر في المادة المنشورة ما يلي:

أ- قولها أن الإمام أحمد يحلم بمد سيطرته ومعها الشقاء والبؤس إلى عدن ومحمياتها.

ويمكن تفسير ذلك أن الوحدة تحت مظلة الحكم الإمامي آنذاك لن تكون سوى نقل لعيوب هذا النظام إلى الجنوب.

ب- وعندما نشرت نص رسالة الإمام أحمد إلى سلاطين ومشائخ يافع والعوالق والضالع والواحدي والفضلي وبيحان في 17 شوال 1368هـ (12 أغسطس1949)، والتي يدعوهم فيها إلى

ت- نصح شريف بيحان ومنعه من الاعتداء وتفريق الكلمة بين جنوب اليمن وشماله، خاطب محرر (السلام) الإمام أحمد قائلاً بأن الممالك لا تبنى إلا بالسلاح والقوة والعلم، وأن الشعب لن يستطيع إغاثته (بوجه العدوان البريطاني) لأنه جاهل وجائع، وذكره أن بريطانيا لم تصبح على ما هي عليه من القوة إلا لأن الشعب فيها تحرر من الاستبداد والطغيان فرفع عرش ملكه عالياً، لأن ملكه (اعترف بحقوق الشعب وسلم شعبه مقاليد الحكم والسلطة والتشريع)، ثم طالب الإمام بالتنازل عن الحكم الفردي المطلق الهدام[25]. وفي هذا التعليق نبه الحكيمي إلى شرطين يجب أن يحوزهما النظام الإمامي إذا أراد فعلاً تحقيق الوحدة، وهما:

1. امتلاك القوة اللازمة لذلك كدولة.
2. أن هذه القوة لن يتحصل عليها إلا إذا غير طبيعته الاستبدادية وسلم مقاليد الحكم إلى الشعب عبر نظام تمثيلي نيابي، وحكومة مسئولة أمام مجلس النواب.

ج- تبنى الشيخ الحكيمي مبادرة للصلح بين الإمام أحمد والوصي على إمارة بيحان تقدم بها منصور عبد العزيز الحميري القحطاني بصفته مرشداً دينياً في غرب الجنوب العربي في 17 سبتمبر 1949. وفيها- أعلن ما يشبه الفتوى- حرم الاقتتال بين المسلمين، وطالبهما بعدم اللجوء إلى بريطانيا للتحكيم، والتسامح في مسألة الحدود عملاً بالقول المأثور (إنما هي يد غرفت إلى أختها)[26].

3- وفي خط موازٍ لمطالبة الشيخ الحكيمي النظام الإمامي بإصلاح نفسه وتنمية موارده وقدراته، طالب الشيخ الحكيمي من رؤساء كيانات جنوب اليمن الشيء ذاته، وتجلى ذلك في تبنيه لحركة الإصلاح في سلطنة لحج. فقد وجه في 26 فبراير 1950 رسالة إلى سلطان لحج فضل عبد الكريم عرض فيها المطالب التي وردت في رسائل شباب إليه[27]. وأجملها في:

1) إقرار دستور للسلطنة وإشراك أبناء السلطنة في الحكم.
2) إطلاق حرية القول والرأي.
3) إصلاح الإدارة الحكومية وتطهيرها من الفساد.
4) إصلاح الجيش.
5) إطلاق حرية التجارة ومنع الاحتكار.
6) إصلاح وتطوير الصناعة والتجارة.
7) منح الناس قروضاً زراعية، وتسهيل ري الأراضي.
8) فتح المدارس والمستشفيات وإرسال البعثات إلى الخارج.
9) فتح المنتديات وتطوير الصحافة.

وقد تابع الشيخ الحكيمي هذه الحركة حتى أتت بعض ثمارها في إصدار (قانون المجلس الزراعي والمحكمة الزراعية) في 27 سبتمبر 1950 وإقرار الدستور في 21 مايو 1951 من قبل المجلس التشريعي، وخلال ذلك كان الحكيمي ينصح السلطان وينصح شباب لحج باعتماد مبدأ التدرج في الحصول على مطالبهم مع المحافظة على استقلال بلادهم (من أي تدخل بريطاني)[28]. لقد كان الحكيمي يرى في أي إصلاح يتم تحقيقه في الشمال أو الجنوب خطوة في طريق الوحدة الشاق والطويل.

4- في 19 يناير 1950 ألقى حاكم عدن ريجنالد شامبيون خطاباً وداعياً أمام المجلس التشريعي، تطرق فيه إلى مطلب الحكم الذاتي لعدن الذي كانت تطرحه الصحف في عدن، وأكد فيه أن

هذا لن يتأتى، إلا إذا ارتفع مستوى الغالبية من السكان (وهم العرب) ثقافياً ومهنياً وفنياً. وقد علق الحكيمي على هذا الخطاب (بعد أن نشر مقتطفات منه) قائلاً: إن هذا الشرط يصب في مصلحة أبناء عدن، وإنه يجب ترقية مستواهم بحيث يؤول حكم عدن إلى أبنائها من الشعب العدني لا نصيب فيه لأحد غيرهم (من غير العرب)[29]. وفي إبريل من نفس العام كرر الحكيمي (وكتب تحت اسم مستعار هو أبو الحقائق) تأييده لمطلب الحكم الذاتي لعدن بوجه معارضة بعض المهاجرين له[30]. وفي التاريخ نفسه كتب الحكيمي (تحت اسم مستعار هو يمني عربي) رافضاً فكرة إلحاق عدن بحكومة اليمن[31] التي قدمها أحدهم في إحدى الصحف. وهنا كما في فكرة إلحاق المحميات قدم الحكيمي الإصلاح والنماء على الوحدة.

وفي أوائل أغسطس 1951 زار محمد علي لقمان المحامي كارديف قادماً إليها من لندن، والتقى الحكيمي، ويستدل مما كتب في السلام عن الزيارة أن الحكيمي أيد مطلب الحكم الذاتي لعدن الذي كان يروج له لقمان، وأعربت السلام عن تقديرها أن عدن ستحوز الحكم الذاتي خلال عشر سنوات (أي في عام 1961)، وأن هذا المشروع هو الآن موضع درس واهتمام (من جانب المسئولين في لندن)[32].

5- في 23 مارس 1950 دعا محرر جريدة "النصر" الحكومية التعزية دعا المحميات التسع[33] إلى الانضمام إلى أمها الكبرى- اليمن- . وقد علق (الخير ابن الوطن) (وهو من الأسماء المستعارة للحكيمي) على هذه الدعوة فأشار إلى ضرورة أن تقوم حكومة اليمن، بإصلاح حالها عن طريق تأليف حكومة شعبية تتولى الحكم ومقيدة بدستور، ثم بعد ذلك تتجه إلى زعماء المحميات فتتفاهم معهم تفاهماً عادلاً مرضياً على حسن الجوار وتبادل المصالح المشتركة بطريقة القانون والعدالة والمساواة فيصادف ذلك النداء محله ويقابل بالرضاء والقبول"[34]. ثم قال: إن النداء للوحدة الآن سابق لأوانه، وذكر أسباب ذلك:

1- الإمام الحالي هو إمام مغتصب غير شرعي في عرف المذهب الزيدي والمذهب الشافعي.
2- أمور الحكم في شمال اليمن غير مستقرة بسبب خلاف الإمام أحمد مع إخوته.
3- لا يمكن لحكام المحميات قبول هذه الدعوة لشعورهم أنهم سوف يساقون للذبح والسجون.
4- وهذا سبب خاص بالمعارضة يجعلها ترفض تلك الدعوة. ويتمثل في أن الجنوب الآن هو موئل الهاربين من حكم الإمام أحمد وليس لديهم موئل آخر. إن الحكيمي كان يقدم شعار الإصلاح على شعار الوحدة ويعتبر الإصلاح من شروط الوحدة.

6- في 31 أغسطس 1950 التقى الشيخ الحكيمي الوفد الذي وصل إلى لندن للتفاوض بشأن الحدود وإنشاء علاقات دبلوماسية بين بريطانيا واليمن، وكان من أعضائه حسن بن إبراهيم بن علي، الذي سأل الحكيمي "هل نحدد الحدود أم نوحد الجنوب مع الشمال؟". فأجابه الحكيمي (أرى مبدئياً تحديد الحدود وهو الأمر الواقع، حيث يتعذر توحيد الجنوب وضمها إلى اليمن، ولن تسمح بريطانيا بذلك، ولو كان في الإمكان توحيد الجنوب لما كان هناك من حاجة للمفاوضة في شأن الحدود، ولكن إذا قامت سياسة في اليمن تضمن لسكان المحميات السلامة والسعادة والهناء فلا مانع من الدعوة إلى توحيد الجنوب والتفاهم مع الحكومة التي تقوم الآن بحماية التسع المحميات على توحيد الجنوب، وهذا يحتاج إلى زمن طويل، والذي يضمن الآن استقلال اليمن والمحافظة عليه من التوسع هو

تحديد الحدود)[35]. في هذا الرد رتب الحكيمي أولوياته على النحو التالي:

أ- الحفاظ على استقلال الشمال، وذلك بتعيين الحدود المتنازع عليها بين حكومة اليمن المستقل والمحميات.

ب- إصلاح سياسة النظام الإمامي بحيث تكون مقبولة من حكام جنوب اليمن ومن سكانه.

ج- التفاهم مع حكام الجنوب ومع الدولة الحامية لهم (بريطانيا) حول الوحدة.

ولكنه قدر أن بريطانيا لن تقبل بأي عرض يقدم لها آنذاك وفي نفس الوقت قدر أن النظام الإمامي هو أعجز من تحقيق الوحدة بالقوة وأعجز حتى على الحفاظ على استقلال شمال اليمن، وكانت المحادثات المشار إليها قد بدأت في 30 اغسطس وانتهت في 12 أكتوبر وتمخضت عن إعداد مسودة (لنظام مؤقت) بين الطرفين ثم التصديق عليه في 20 يناير 1951م. ونصت الاتفاقية، فيما نصت عليه، على تشكيل لجنة لتحدد على الطبيعة الحدود الفاصلة بين المحميات وشمال اليمن، وعلى تبادل التمثيل الدبلوماسي، وعلى منع أية دعاية مضادة من كل طرف (المادة الثامنة)، ودراسة إمكانية الوصول إلى اتفاق حول تبادل المجرمين (المادة التاسعة)[36]، أدت هذه الاتفاقية إلى امتناع الحكومة اليمنية لفترة من الوقت عن المطالبة رسمياً بجنوب اليمن، وحصلت بالمقابل على تعهد بإسكات صحف المعارضة التي كانت تصدر من كارديف وعدن. ولهذا السبب وجهت (السلام) نقداً قاسياً لها، واعتبرت أن بريطانيا قد فضلت بهذه الاتفاقية صداقة الإمام أحمد على صداقة الشعب اليمني[37]. والواقع أن هذه الاتفاقية أكدت إلى جانب معاهدة 1934- عجز النظام الإمامي عن تحرير جنوب اليمن وتوحيده مع شماله.

يمكننا الآن عرض تصور الشيخ الحكيمي للوحدة في 1949-1952 اعتماداً على ما سبق، على النحو التالي:

1- لا يمكن الآن (1949- 1952) طرح شعار الوحدة، فالدولة التي يتوقع منها تحقيق هذا الشعار (النظام الإمامي) هي في وضع ضعيف بسبب التخلف العام لشمال اليمن وبسبب طبيعتها الاستبدادية التي ضيقت قاعدتها الشعبية في الشمال والتي جعلت حكام الجنوب يتوجسون منها.

2- لا يمكن تحقيق الوحدة إلاّ بالتفاهم والحوار مع حكام وزعامات جنوب اليمن، وجعل الدولة في شمال اليمن مركزاً لجذب قلوب أبناء الجنوب.

3- إن الخطوة الأولى لجعل شعار الوحدة شعاراً قابلاً للتنفيذ تكمن في الإصلاح الداخلي في شمال اليمن، وتحديداً تحويل النظام الإمامي إلى ملكية نيابية، بمجلس نيابي وحكومة مسئولة أمامه ومقيدة بدستور فهذا كفيل بخلق آلية تؤدي إلى نهوض اقتصادي وثقافي يرفع قدرات الدولة عسكرياً وسياساً، ويحسن موقعها التفاوضي مع بريطانيا أو يجعلها قادرة في ظل ظروف دولية ملائمة على تحرير جنوب اليمن من سيطرتها.

4- وحتى ذلك الحين يجب على الأحرار دعم أي خطوة تؤدي إلى توحيد محميات الجنوب، ودعم كل خطوة للإصلاح السياسي والاقتصادي وللتنمية الثقافية فيها، ودعم حصول عدن على الاستقلال الذاتي.

5- كما يجب العمل على تعزيز الصلات بين أبناء اليمن، وتجاوز الحواجز التي خلقتها السياسة، وخلق الرؤى المتقاربة عند النخب السياسية لمشكلات اليمن.

وقد أعطى الشيخ الحكيمي مثالاً على كيفية التوصل إلى ذلك من خلال نشاطه في كارديف ومن

خلال جريدة (السلام). فقد كرس الشيخ الحكيمي جريدة (السلام) للعناية بقضايا اليمن شمالاً وجنوباً، ومن ذلك ما نشرته من نقد لقانون 23 يوليو 1949 الذي منع المواكب والاجتماعات السياسية في عدن، ومطالبتها بتحديد الهجرة الأجنبية إلى عدن[38]. والمقصود هنا هو الهجرة الأجنبية وبالذات من الهند التي هددت عروبة عدن. واهتمت الجريدة بنشر الأخبار التي تتصل بالحياة في عدن مثل أخبار التعليم، حيث حثت على الاستزادة منه، وعلى مواصلة التعليم العالي في البلاد الأخرى، وذكرت من وصل من الطلاب للدراسة في بريطانيا. ومن أكمل دراستهم منهم[39]، وعرفت بمن تفوق منهم دراسياً، وقد احتضن الحكيمي هؤلاء الطلاب الذين كانوا يزورونه إلى كارديف[40]، ونشر للبعض منهم مقالات، كعلي محمد شاذلي الذي طالب بجعل أول السنة الهجرية إجازة رسمية في عدن أسوة برأس السنة الهندوكية. ونشرت أخبار مجاعة حضرموت التي بدأت في يناير 1949م، واستنكرت عدم قيام الدول العربية بتقديم المساعدة لأهالي حضرموت. كما نشرت عدة مواد تعرف القارئ ببعض مناطق الجنوب كسلطنة الفضلي وإمارة بيحان، والتي كتب بعضها منصور عبد العزيز بن نصر وهو أحد عناصر الأحرار[41] الذين نزحوا بعد فشل حركة 1948م من الشمال واستقروا في الجنوب، وتعود أصوله إلى يافع، كما نشرت الجريدة مقالات لشخصيات عدنية ومنهم محمود إبراهيم لقمان ومحمد علي لقمان[42].

اتسم تصور الحكيمي السابق للوحدة بنفس خصائص تصورات رجال النهضة والإصلاح العربي والإسلامي للوحدة العربية وبنفس خصائص مشروع عبد الغني الرافعي للوحدة اليمنية، وهي: الواقعية والتدرج والربط على نحو وثيق بين الوحدة والإصلاح وإفساح مكان في إنجازها للشعب.

ثالثاً: رؤية الشيخ عبد الله الحكيمي للوحدة 1952-1954م.

في 2 سبتمبر 1952 غادر الشيخ الحكيمي كارديف متجهاً إلى عدن التي وصلها في 15 يناير 1953، ومر خلال رحلته بعدد من مهاجر اليمنيين وعدد من البلدان الأخرى (بلجيكا، فرنسا، بيروت، دمشق، عمان، القدس، القاهرة، السودان، كينيا، الصومال). وفي مصر التقى الشيخ الحكيمي بالرئيس المصري اللواء محمد نجيب في 20 أكتوبر 1952م. وقدم له (مذكرة عن محنة الشعب اليمني الحاضرة)[43] عبر فيها عن ابتهاجه بثورة 23 يوليو، وعن أمله في أن تمد مصر بصحافتها الحرة وهيئاتها الوطنية وحكومتها يد العون للشعب اليمني، وخاصة في نيل حرية الصحافة وإطلاق المسجونين وإرسال بعثة إلى اليمن لتقصي أحوالها ووضع توصيات للخروج مما تمر به اليمن من محنة، ويبدو من مؤشرات عديدة أن محمد نجيب وعد الحكيمي بتقديم العون لحركة المعارضة، وكان الأحرار، ومنهم الحكيمي قد لمسوا بوادر ذلك العون عندما سمحت السلطة الجديدة في مصر لمحمد محمود الزبيري والفضيل الورتلاني بالاستقرار في مصر بعد أن كان ذلك محظوراً عليهما منذ حركة 1948.

ومن الواضح أن الثورة المصرية قد أنعشت آمال العرب جميعاً بالاستقلال والإصلاح، ورفعت سقف تطلعات الحكيمي الذي كتب في يومياته (15 يناير 1953م.) يصف انطباعاته عن جولته السابقة الذكر ما يلي:

(هذه الانطباعات ستجعلنا نسير بكل ثقة وسعي حثيث لتحقيق الأهداف الوطنية التي رسمناها في مسيرتنا مع إخواننا داخل الوطن وخارجه إن شاء الله، ستكون مبنية على ضوء المستجدات على الساحة العربية والدولية، التي تبشر بدور الشعوب للأخذ بأسباب حقها في الحرية والاستقلال والخلاص من

قيود العبودية وما ذلك على الله بعزيز)[44].

وكان الحكيمي قد عبر- في نفس المكان- عن اعتقاده أن المرحلة الوطنية قد دخلت طوراً جديداً يختلف كثيراً عما سبقه، وهو ما يجعلنا نعتقد أن تصور الحكيمي للوحدة قد تعدل بعد ثورة يوليو 1952، وبعد عودته إلى اليمن في 2 إبريل 1953 قُدِّمَ الشيخ الحكيمي في عدن إلى المحاكمة بتهمة كاذبة هي إدخال مسدس غير مرخص به إلى عدن، وظل في السجن حتى 17 يوليو 1953 عندما أبرأته محكمة الاستئناف في نيروبي. وخلال إقامته في السجن كتب الحكيمي مسودات كتابه "دعوة الأحرار، أو الأحرار في الميزان"[45]. في هذا الكتاب لم يتناول الحكيمي قضية الوحدة اليمنية تحت عنوان مستقل، ولكننا نستطيع أن نلمس رؤيته لها من خلال مادة الكتاب ككل.

في مقدمة الكتاب التي جاءت تحت عنوان "براعة استهلال" عبر الحكيمي عن ضيقه بالحدود التي اصطنعها الاستعمار بين الشمال والجنوب، والتي كان يسفر إليها الشماليون من عدن، عندما يصلون إليها للبحث عن الرزق[46].

ونفهم من مادة الكتاب أن الحكيمي لم يضع الوحدة اليمنية ضمن قائمة أولوياته آنذاك للأسباب التالية:

1- أن الجيش اليمني غير قادر، لا من حيث مستوى تسليحه ولا من حيث عقيدته العسكرية، لا على حماية البلاد ولا استقلالها، فهو قد أُعد ليُرسَلَ إلى أكواخ العجزة من النساء والرجال والأطفال من مواطنيه[47]، أوبعبارة أخرى فإن ذلك الجيش ماكان يصلح ليكون من أدوات الوحدة أومن حماتها.

2- لم يكن الحكيمي يثق في أسرة حميد الدين في الحفاظ على استقلال شمال اليمن[48]، بل اعتبرها (نكبة على جنوب الجزيرة العربية بجميع أقسامه وحدوده)[49]، وفي هذا تعبير عن فقدان الحكيمي الثقة في قدرة هذه الأسرة على تحقيق مشروع عظيم كمشروع الوحدة اليمنية.

3- وأكثر من ذلك فقد رأى الحكيمي في طبيعة الحكم والأساليب التي يتبعها من إثارة للنزعات السلالية والمذهبية والقبلية خطراً على الوحدة الوطنية في شمال اليمن، وهي صمام الأمان بإزاء كل المخاطر والاحتمالات التي يمكن أن تحدث[50]. وهنا يمكن تفهم مخاوف الحكيمي، فكيف يمكن الدعوة إلى الوحدة اليمنية ما لم تضمن أولاً الوحدة الوطنية في شمال اليمن.

4- وقد شملت مخاوفه حتى الوحدة السياسية لشمال اليمن، أو بالأصح تماسك أسرة بيت حميد الدين. فقد أشار إلى توقعه تفاقم الخلاف حول ولاية العهد بين الإمام أحمد وابنه البدر من جهة وبقية سيوف الإسلام من جهة أخرى[51] ومما زاد من مخاوفه هو أن يستقل كل سيف من سيوف الإسلام بمقاطعة من مقاطعات البلاد، وهو ما عناه عندما وصف حكم بيت حميد الدين بـ(الحكم الإقطاعي)[52]. فالإقطاع كما فهمه الحكيمي هو استقرار كل سيف بحكم مقاطعة في شمال اليمن[53]. ويبدو أن الحكيمي قد قرأ تاريخ الدولة القاسمية واستخلص العبرة من ذلك.

5- ومما عزز هذا التوقع هو تقديره أن البلاد قد أصبحت عرضة للتدخلات الأجنبية[54]. ولعل قراءة الحكيمي للأحداث الدولية، وبالذات متابعته للحرب الكورية في (السلام) جعلته يحس بقوة الاستقطاب الدولي آنذاك، كما أن سعي سيف الإسلام عبد الله بن الإمام يحيى للحصول على عرش سوريا، وهو ما تابعته (السلام) في أعداد عامي 1949 و 1950، قد عزز هذه القناعة لديه كل تلك الأسباب جعلت الحكيمي يرتب الأولويات أمام الأحرار على النحو التالي:

1. إزالة هذه الإقطاعية البغيضة.
2. قيام حكومة تستند إلى نظام شوروي، ومن الشعب إلى الشعب.
3. ضمان حرية واستقلال وسيادة ووحدة الشعب.
4. الحيلولة دون أي تدخل خارجي من أي شكل كان.
5. الحرص على سلامة الوحدة الوطنية[55].

ولا يختلف اثنان في أن هذه المهام توفر الشروط اللازمة للوحدة اليمنية. والحكيمي لم يكن من النوع الذي يصنع الشعارات قبل توافر شروط تحقيقها، وهو بذلك كان يتبع حكمة للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أوردها في نفس الكتاب (ص208) تقول: (العاقل هو الذي يضع الشيء في مواضعه)، ويصح ذلك على توقيت الشعارات والأهداف.

بعد إطلاق سراحه انتخب الشيخ الحكيمي في 25 أكتوبر 1953 رئيساً للاتحاد اليمني في عدن، وفوراً دب النشاط في أوساط الاتحاد، وفي علاقاته بالمنظمات الأهلية الأخرى في عدن، وأضفى الحكيمي على نشاط الاتحاد طابعاً سياسياً.

وفي حوالي 25 نوفمبر 1953 أصدر الحكيمي بياناً سياسياً هاماً تحت عنوان الاتحاد اليمني وصدر البيان في الوقت الذي اشتعلت فيه ثورة قبائل الربيزي والدماني في العوالق العليا والعواذل. وكانت العوالق العليا قد رفضت التوقيع على معاهدة استشارة[56]، كان الانجليز قد بدؤوا بفرض مثيلاتها على كيانات جنوب اليمن ابتداءً من عام 1937، وتسمح للسلطات البريطانية في إدارة الشئون المحلية، وتلقت قبائل الربيزي والدماني العون من حكومة شمال اليمن، كما صدر البيان في ظل جدل سياسي حول وحدة كيانات جنوب اليمن، وحول الدعوة للحكم الذاتي لعدن، وكان هذا الجدل يدور بين أعضاء رابطة أبناء الجنوب العربي، والجمعية العدنية والاتحاد اليمني، وجاء البيان ليحدد موقف الاتحاد اليمني منها، ومن قضية الوحدة اليمنية. بدأ البيان بالتأكيد على أن عدن والجنوب هي من اليمن الكبير، ثم أكد على وحدة مصالح وأهداف أبنائه، وأشار إلى ضرورة لمّ شمل كيانات جنوب اليمن في كيان واحد ثم العمل على حصوله على (السيادة المطلقة)، وأكد أن نيل ذلك لن يكون إلا إذا تكتلت كل القوى، معرباً عن استعداد الاتحاد اليمني للعمل معها في سبيل ذلك الإصلاح وفي سبيل "درء الأخطار والأضرار" التي تحيط باليمن الكبير، وفيه أن أسلوب بلوغ تلك الأهداف سيكون (بحدود النظام والقانون) وباستخدام (القوة المعنوية والأدبية).

تكمن أهمية هذا البيان في التالي:

1- أكد وحدة التربة اليمنية تحت مفهوم "الوطن اليمني الكبير" وهو تعبير استخدمه عبدالغني الرافعي في 1944، وهذا المفهوم يعادل مفهوم "اليمن الطبيعية" ومفهوم "جنوب الجزيرة العربية" اللذين استخدمهما محمد علي لقمان والأحرار من قبل[57]. كما استخدم الحكيمي "الجنوب العربي" بنفس الدلالة السابقة. ولهذا التأكيد مغزى سياسي واضح: فالنضال الذي دعا إليه البيان لتحقيق السيادة الكاملة للجنوب يجب أن يصب في هدف أكبر هو تحقيق "اليمن الكبير"، أي باتجاه توحيد اليمن، ويصح ذلك أيضاً على النضال من أجل الحصول على الحكم الذاتي لعدن، وبهذا المعنى فإن الشيخ الحكيمي قد طرح فكرة وحدة نضال الشعب اليمني.

2- وجه البيان أول دعوة في تاريخ اليمن لإنشاء ائتلاف وطني "أو جبهة متحدة" تتكون من الهيئات التي تمثل الأقسام الثلاثة لليمن الكبير (شمال اليمن والمحميات ومستعمرة عدن). وهو وإن لم يسم رابطة الجنوب العربي أو الجمعية العدنية فإنهما المقصودان في الدعوة إلى جانب الاتحاد اليمني. وهذه الدعوة لم تتحقق إلا بعد وفاة الحكيمي عندما ظهرت الجبهة الوطنية المتحدة في أواخر نوفمبر 1955م.[58]

خاتمة:

لم نظفر بوثيقة مستقلة عبر فيها الشيخ الحكيمي عن رؤيته للوحدة، ولكن رؤيته هذه عبر عنها من خلال مواقفه تجاه التطورات الملموسة، وترافقت مع جهوده الأخرى التي كان يبذلها للإصلاح أو لتنظيم حركة الأحرار، وبالذات بعد حركة 1948.

وكان الحكيمي قبل 1952 قد تصور الوحدة تحت مظلة الحكم الإمامي (شأنه في ذلك شأن بقية الأحرار) آملاً أن يصلح هذا الحكم نفسه ليكون مقبولاً من أبناء الجنوب اليمني وحكامه وزعامائه، لكن هذا الأمل أخذ يخبو شيئاً فشيئاً بسبب تحجر النظام الإمامي وبسبب تناقضاته الداخلية وبالذات التنافس بين أفراد بيت حميد الدين. وقد بذل الحكيمي جهوداً مضنية لدفع النظام الإمامي نحو الإصلاح سواءً عن طريق مادة جريدة (السلام) أو عن طريق رسائله إلى الإمام أحمد. وكان هذا جهداً من أجل الوحدة أيضاً. وفي خط موازٍ لهذا، بذل الشيخ الحكيمي جهوداً كبيرة لتأليف قلوب أبناء اليمن وتوحيد رؤاهم السياسية بحيث لا تصطدم بالوحدة المنشودة، ولكن لكي تصب في مجراها.

وبعد 1952 بدأ الحكيمي يفقد ثقته في قدرة النظام الإمامي على التغيير، وعبر عن يأسه من ذلك في كتابه "دعوة الأحرار"، وهذا اليأس ترك الباب مفتوحاً للاستنتاج بأن تحقيق الوحدة رهن بتغيير النظام الإمامي. وهو ما توصلت إليه الجماعات السياسية قبيل ثورة 26 سبتمبر 1962م.

تركت تصورات الحكيمي للوحدة وجهوده من أجلها أثراً قوياً بعد وفاته في 4 أغسطس 1954م، وتجلى ذلك في تشكيل الجبهة الوطنية المتحدة في نوفمبر 1955، وصياغة برنامج مطالب الشعب التي قدمها محمد محمود الزبيري، وأحمد محمد نعمان في 21 فبراير 1956. وفي رؤية حركة القوميين العرب التي صاغها قحطان محمد الشعبي في ديسمبر 1961 في كتابه (الاستعمار البريطاني ومعركتنا العربية في جنوب اليمن).

الهوامش

1- انظر ما كتبه عمر الجاوي وزكي بركات وعبدالرحمن طيب بعكر وعبد العزيز المقالح..الخ.

2- اهتم بهذا الموضوع جزئياً سلطان ناجي (نشوء الدعوة إلى الوحدة اليمنية) في كتاب د.خالد بن محمد القاسمي (الوحدة اليمنية: إرادة شعب بين تحديات الماضي وطموح المستقبل) الشارقة، 1978، ص57-81.

3- د. محمد علي الشهاري. اليمن: الثورة في الجنوب والانتكاسة في الشمال، بيروت، دار ابن خلدون 1972م، مساجلات حول حركة الأحرار اليمنيين، بيروت، دار الفارابي، 1980م.

4- انظر مثلاً سيف علي مقبل. دراسات في التاريخ اليمني المعاصر. صنعاء، مركز عبادي للنشر، 1421هـ/ 2000م، ص114-115.

5- كان آخرها حركة الشريف حسين الدباغ في البيضاء عام 1941م، حسب سلطان ناجي. التاريخ العسكري لليمن 1839-1967، ط2، بيروت، دار العودة صنعاء، المكتبة اليمنية، 1985. ص83-84، وانظر د.سيد مصطفى سالم. تكوين اليمن الحديث، ط2، القاهرة، الدار القومية العربية للطباعة والنشر، 1971م، وحسب أريك ماكرو كان آخرها هو تمرد قبائل الرصاص في 1949م، انظر كتابه اليمن والغرب، ترجمة: حسين العمري، ط1، ص178.

6- شفيقة عبد الله العراسي. السياسة البريطانية في مستعمرة عدن ومحمياتها 1937-1945، عدن، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، 2004م، ص184-186، 210.

7- انظر نزيه مؤيد العظم. رحلة في البلاد العربية السعيدة. ط2، بيروت، منشورات المدينة، 1407/1986م، ص313-314، نجيب أبو عز الدين. الإمارات اليمنية الجنوبية 1937-1947، بيروت، دار الباحث، 1489هـ/ 1989م، ص 161-162.

8- انظر نصه عند د. يوسف خوري. المشاريع الوحدوية العربية 1913-1983، بيروت، مركز الوحدة العربية 1988م، ص73-76.

9- هو صحفي ومؤرخ سوري ولد باللاذقية وتوفي في لبنان، وبقي شطراً كبيراً من حياته في مصر. انظر عمر رضا كحالة. المستدرك على معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية. بيروت، مؤسسة الرسالة، 1406هـ/1985م.

10- انظر نصه في د. يوسف خوري، مرجع سابق، ص 102-105، عن كتاب أمين سعيد. الدول العربية المتحدة، القاهرة، 1939م.

11- د. يوسف خوري. في المقدمة.

12- انظر د. خالد عبد الجليل شاهر، اصطفاف القوى الاجتماعية والصراع السياسي في شمال اليمن 1934-1962م. رسالة دكتوراه (بالروسية) مقدمة لمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية. موسكو، في إبريل، 1989.

13- المرجع السابق.

14- انظر تفاصيل المشروع في د.خالد عبد الجليل، المشاريع المبكرة لتحقيق الوحدة اليمنية: مشروع عبدالغني الرافعي، الحكمة (عدن) عدد 164، سبتمبر 1989، ص 6-22.

15- علي محمد عبده (من الجداول الرقمية لمصادر دخل حركة الأحرار وأوجه صرفها) الإكليل (صنعاء) عدد 23، شتاء 1995، رجب 1416هـ، ص45-63.

16- سلطان ناجي (نشوء الدعوة......) مرجع سابق، ص63-66.

17- د. محمد علي الشهاري (اليمن.. الثورة....) مرجع سابق، ص78-80.

18- عبده حسين سليمان أدهل. الاستقلال الضائع، الملف المنسي لأحداث اليمن الجنوبية، ط2، القاهرة، دار المعهد للطباعة والنشر، 1993م.

19- عبد الرحمن عبد الله الحكيمي. المناضل عبدالله علي الحكيمي صاحب صحيفة (السلام): حياته وجهاده. مخطوط مصور على ورق A4، ص 87.

20- محمد عمر الحبشي. اليمن الجنوبي سياسيا واقتصاديا واجتماعياً منذ 1937 وحتى قيام جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية، ترجمة د. إلياس فرح ود. خليل حمد خليل، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1968، ص 86-87، وعبد الرحمن الحكيمي. مرجع سابق، ص87.

21- انظر نص قانون جمعية التذكير والإرشاد الإسلامية العلوية الشاذلية الصوفية، 11 مايو1947، في عبدالرحمن الحكيمي (المناضل.......) ص16، 20-23.

22- انظر نص الرسالة في عبد الرحمن الحكيمي (المناضل.......) مرجع سابق، ص111-112.

23- السلام عدد 14، 10 مارس 1949.

24- السلام الأعداد 39، 40، 43، 44، في18 سبتمبر، 23 أكتوبر، 25 أكتوبر 1949، وانظر عنها أريك ماكرو. اليمن والغرب 1571-1962، ترجمة: حسين عبدالله العمري (1978)، ص178 فما بعد.

25- السلام عدد 40، 25 سبتمبر 1949.

26- السلام عدد 43، 23 أكتوبر 1949.

27- السلام عدد 58، 26 فبراير 1950.

28- السلام عدد 72، 27 أغسطس 1950.

29- السلام عدد 59، 12 مارس 1950.

30- أبو الحقائق (اسم مستعار للحكيمي) السلام عدد 61، 19 إبريل 1950.

31- السلام عدد 61، 19 إبريل 1950.

32- السلام عدد 95، 19 أغسطس 1951.

33- هي: 1. لحج 2. أبين 3. الحواشب 4. الصبيحة 5. القطيب 6. الضالع 7. يافع العليا والسفلى 8. العوالق 9. حضرموت. عبد الواسع بن يحيى الواسعي. تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث تاريخ اليمن. ط3. الدار اليمنية للنشر والتوزيع (د.ت) ص 68.

34- السلام عدد 63، 7 مايو 1950.

35- السلام عدد 73، 10 سبتمبر 1950.

36- انظر نصها في عدنان ترسيسي. اليمن وحضارة العرب. بيروت، دار مكتبة الحياة. (د.ت)، ص 272-275.

37- السلام، عدد 92، 8 يوليو 1951 في تعليقها على مقال علي حمود الجائفي (خطاب مفتوح إلى وزارة الخارجية البريطانية).

38- السلام عدد 2، 16 ديسمبر 1948.

39- السلام عدد 4، 30 ديسمبر 1948.

40- السلام عدد8، 27 يناير1948، عدد13، 24 فبراير 1949.

41- انظر مثلا السلام، عدد 27، 12 يونيو 1949، وعدد 30، 10 يونيو 1949.

42- انظر أعداد 1949 من السلام.

43- يوميات الشيخ الحكيمي في عبد الرحمن عبد الله الحكيمي (المناضل.....) مرجع سابق، ص127، وانظر نص المذكرة في نفس المرجع ص127-129.

44- المرجع السابق، ص135-136.

45- صدرت منه طبعتان، الأولى في 1981م، عن دار المختار في دمشق والثانية في 2000 عن مؤسسة الثورة للصحافة والنشر في صنعاء، وسوف تستعمل في هذا البحث الطبعة الثانية.

46- الحكيمي. دعوة الأحرار، ص48.

47- المرجع السابق، ص 164.

48- المرجع السابق، ص 174.

49- المرجع السابق، ص 210.

50- المرجع السابق، ص 212.

51- المرجع السابق، ص 42.

52- المرجع السابق، ص 211-213.

53- انظر (مذكراته لأمين علم الجامعة العربية وزعماء الجامعة العربية عموما) في السلام عدد61، 19 أبريل 1950م. وفي ملاحق (دعوة الأحرار)، ص248-251.

54- الحكيمي، دعوة الأحرار، ص 212-213.

55- المرجع السابق، ص 212 - 213.

56- نشر البيان في جريدة (منبر الشرق) القاهرية في عدد 25 ربيع الثاني 1373هـ/ 10يناير 1954م. وفي الحكمة (عدن) عدد 94، أغسطس 1981، وفي عدد 109.

57- سلطان ناجي ، التاريخ العسكري، مرجع سابق، ص 189 فما بعد .

58- انظر سلطان ناجي (نشوء الدعوة ..) مرجع سابق ص62-65.

الوحدة اليمنية والألمانية: دراسة مقارنة

د. محمود قاسم الشعبي

تمهيد:

نتيجة لهزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى [1914-1918م.] وانسحاب قواتها من شمال اليمن، وتولي الإمام يحيى حميد الدين أمور الحكم فيها وأسس عليها مملكة وراثية مطلقة، ومن ثم تبلورت أهداف الحركة الوطنية اليمنية، وأصبحت تعمل في عدة اتجاهات وفي مقدمتها ما يلي:

1- تحرير الشطر الجنوبي من الاستعمار البريطاني.
2- تغيير نظام الحكم الملكي في الشطر الشمالي بنظام حكم معاصر.
3- تحقيق الوحدة الوطنية الشاملة.

ورث الإمام يحيى من العثمانيين كل أمور الحكم في اليمن، وحاول إغلاقها عن العالم الخارجي، واتخذ سياسة رجعية متخلفة لم تعد مقبولة عند الناس ولا مواكبة للعصر، وكان همه الأول هو الحصول على اعتراف دولي بنظام حكمه، وأهمل البلاد ولم يقم بعمل الإصلاحات الضرورية، وحرص على إسكات جميع مطالب الإصلاح إلى غير ذلك من العيوب والمآخذ التي أعطت الحركة الوطنية المبررات الضرورية لمعارضة نظام حكمه، واستمر الصراع بين الطرفين حتى انتهى بمقتله خلال ثورة عام 1948م. التي أفشلها ولي عهده الإمام أحمد واستمر في قمع المعارضة الوطنية حتى وفاته عام 1962 ولم يستطع ولي عهده "محمد البدر" من الجلوس على كرسي الحكم بعد موت أبيه أكثر من سبعة أيام ثم ثار عليه الشعب فولى هاربا.

الجدير بالذكر أن أبناء الشعب اليمني كانوا يعرفون أنفسهم دوماً في كتاباتهم وفعالياتهم وتنظيماتهم واتحاداتهم المختلفة في الداخل والخارج على أنهم أبناء شعب واحد، وقد استمر ذلك الحال في زمن الاستعمار وبعد الاستقلال.

بعد قيام ثورة 26 سبتمبر 1962م. في الشمال، وثورة 14 أكتوبر 1963م. في الجنوب، أصبح موضوع الوحدة اليمنية على رأس جداول أعمال رموز التيار الوطني الوحدوي في الشطرين، وساد بين الناس شبه إجماع أن الوحدة سوف تعلن فور جلاء الاستعمار البريطاني من عدن، وفي جميع وسائل الإعلام تعالت الأصوات المطالبة بالتعجيل في تحقيقها سواء في شمال اليمن أو جنوبها دون استثناء.

من وجهة نظر معاصرة فإن الوحدة اليمنية كانت قبل جلاء الإنجليز من عدن بشهر واحد قاب قوسين أو أدنى من التحقيق، - لكن التنافس الدولي والإقليمي في اليمن، المتمثل في الحرب الباردة والصراعات الأيدلوجية بين الأحزاب والحركات القومية واليسارية والدينية، والمصالح الجيوسياسية في اليمن لبعض دول المشرق العربي" الموالية للغرب، والتي كانت سياستها تتعارض مع سياسة الحكومة اليمنية بقيادة الرئيس عبد الله السلال، المرتبطة

بالسياسة المصرية في عهد جمال عبد الناصر، ذات التوجه القومي والوحدوي، والقريبة أيضاً من دول المعسكر الاشتراكي وغيرها من الأسباب، شجعت بعض التيارات السياسية اليمنية الموالية للغرب على القيام بانقلاب عسكري وعزل الرئيس عبد الله السلال من الحكم في 5 نوفمبر عام 1967م وتشكيل كيان سياسي جديد غربي التوجه، أدى إلى خلق مشاكل وعوائق كثيرة جداً أضرت- بقصد وبغير قصد- بمسيرة الوحدة اليمنية، وأثرت بشدة على سير الأحداث في الجنوب بوجه عام، ففي الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر عام 1967 اقتتلت حركات التحرير الوطنية التي كانت تقاتل الوجود الاستعماري فيما بينها وخسرت جبهة التحرير ناصرية التوجه والتي كانت تحصل على الدعم الكامل من حكومة السلال والحكومة المصرية، ولأن سياسة حكومة الانقلاب الجديدة في شمال اليمن تجاه مصر قد تغيرت سلباً 180 درجة نتيجة لحداثة عهدها في الحكم، ولم يكن لديها بعد نظر سياسي، وكانت تحارب التيارات الناصرية والقومية والوحدوية، ومن ثم تركت جبهة التحرير تواجه مصيرها المحتوم ولم تقدم لها العون المطلوب وخسرت الصراع تماما أمام الجبهة القومية والحركات المتحالفة معها، لجأت فلول جبهة التحرير مع الكثير من أنصارها وبعض مؤيدي الحكم السابق وغيرهم من المعارضين إلى شمال الوطن الذي رحب بهم، وصار وجودهم فيه يشكل خطرا على نظام الحكم الجديد في عدن، والى الجنوب فر الكثير من أبناء الشمال نتيجة لسياسة البطش والظلم والتصفيات السياسية وغيرها من الإجراءات التي سادت تلك المرحلة. وهكذا توفرت كل عوامل وظروف استمرار التشطير والتي لم تكن في الحسبان.

استلمت الجبهة القومية "يسارية التوجه" زمام الحكم بعد جلاء الاستعمار البريطاني منه في 30 نوفمبر عام 1967م، وأعلنت الشطر الجنوبي من الوطن "دولة مستقلة ذات سيادة"، ولم يحرك النظام في الشمال ساكناً، وحصلت الدولة الجديدة على اعتراف دولي، وأصبح التقسيم حتى بعد جلاء الاستعمار حقيقة واقعة، وقادت هذه "الردة السياسية" إلى إضعاف التيار الوحدوي في الشطرين وتصفية بعض رموزه وتخوين البعض الآخر، وبرزت من جديد الكثير من العوائق والصعوبات في طريق الوحدة، وعانت اليمن كثيراً في تلك المرحلة من التدخلات الأجنبية والصراعات الداخلية والتأثيرات الأيدلوجية والفكرية والدينية الدولية والإقليمية والداخلية، والتي كان لها أكبر الأثر في تعميق الخلافات وزرع الكراهية بين النظامين المتناقضين أيدلوجياً، وساعدت الأوضاع الداخلية غير المستقرة في الشطرين على قيام أول حرب "أهلية حدودية" عام 1972، والتي انتهت بتوقيع الطرفين على أول اتفاقية يمنية يمنية، تلزم الموقعين عليها بالعمل على تحقيق الوحدة الوطنية. وفي مرحلة السبعينيات ساعدت التدخلات الخارجية والأوضاع الداخلية غير المستقرة في قيام عدد كبير من الانقلابات العسكرية الدموية في الشطرين، والتي أسهمت في توتر الأوضاع بينهما وقادتهما إلى صدام عسكري ثاني مطلع عام 1979م. والذي انتهى بالتوقيع على اتفاقية جديدة أكدت ما جاءت به الاتفاقية الأولى، وأضافت إليها بنوداً أخرى.

من عام 1967- 1989 تأرجحت مفاوضات الوحدة اليمنية بين مد وجزر وصلت في بعض الأحيان إلى عنق الزجاجة، لكنها لم تتقطع أبدا ولم تصل إلى نقطة الخطر، وفي عام 1989 وصلت مفاوضات الوحدة اليمنية إلى مراحلها النهائية.

وفي بداية العقد الأخير من الألفية الثانية، اختتم التاريخ المعاصر أهم صفحاته، التي شهد فيها العالم أحداثاً ومتغيرات عظيمة غيرت مجرى التاريخ، وفتح سجلات جديدة، لتاريخ عصر جديد، والإنسان هو الذي

صنع تلك المتغيرات من خلال الأحداث التي كان يقوم بها، وقبل دخول الألفية الثالثة، أنهى الإنسان المعاصر في زمان محدد، ومكان محدد، كتابة الفصل الأخير من تاريخ الألفية الثانية، حيث احتلت قضية الوحدة اليمنية والألمانية، حيزا كبيرا في صفحات ذلك الفصل.

على الرغم من أن أحداث العقد الأخير من القرن الماضي، قد قامت بتصحيح أخطاء العقود الماضية، التي ارتكبت في اليمن وألمانيا، فإنها خلقت مآسي كثيرة في أماكن مختلفة من العالم، وأصبح ينظر إلى تلك الأحداث نظرة سلبية عند بعض الشعوب، ونظرة إيجابية عند بعضها الآخر. ونحن نرى أن الجميع محقون في أحكامهم؛ ففي الوقت الذي نجحت فيه اليمن وألمانيا - تحت تلك الظروف- في استغلال تلك الأحداث بشكل إيجابي لصالحهما وتوحيد شعبيهما، وترابهما الوطني، أدى الجانب السلبي من تلك الأحداث إلى تفكك سريع ودراماتيكي لمنظومة الكتلة الشرقية، وحلف وارسو والاتحاد السوفيتي، كما تلاشت أو تراجعت أغلب الأنظمة الاشتراكية والشيوعية في العالم بشكل سريع؛ خاصة أن تلك الأحداث لم تكن متوقعة، ولم يرد في الحسبان أن تحدث بهذه الصورة،[1] وإذا أردنا عرض تفاصيل الأحداث التي قادت إلى إعادة توحيد اليمن الواقعة في أقصى جنوب غرب آسيا وألمانيا الواقعة في وسط أوروبا الغربية، ينبغي التمهيد لذلك بخلفية تاريخية نقارن ونوضح من خلالها أسباب التقسيم، وظروف إعادة التوحيد في البلدين.

خلفية تاريخية

إن الأحداث والمتغيرات التي أذهل حدوثها العالم نهاية عقد الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن الماضي، والتي أدت إلى تفكك وتلاشي "الاتحاد السوفيتي" أهم أقطاب التوازن الدولي في مرحلة الحرب الباردة، والذي وقف قرابة نصف قرن من الزمن، ضد مطامع القطب الآخر ممثلاً "بالولايات المتحدة الأمريكية" ومنعها من السيطرة بمفردها على العالم.

تلك المتغيرات الكبرى تسببت في خلق خلل سياسي كبير في العالم وقضت على التوازن الدولي تماما، وفتحت الباب على مصراعيه لأمريكا، لكي تمد سيطرتها كما تشاء وحينما تشاء، بدأت ذلك بإرهاب الكثير من شعوب العالم وتهديد أمن واستقلال شعوب أخرى؛ وغزو واحتلال وإسقاط بعض الدول والحكام وتعريض شعوبهم للتقسيم، واتخذت من شعار "من لم يكن معنا فهو مع الإرهاب" ذريعة لإلزام حكومات العالم بالوقوف معها وإلا عدتها دولاً إرهابية.

وتحسن الإشارة إلى أن التنافس الاستعماري الدولي من أجل السيطرة على الشعوب الضعيفة في العالم، قد بدأ في القرن السادس عشر، ولكن حدته وقوته تزايدت تدريجيا، إلى أن وصل ذروته نهاية القرن التاسع عشر، - في الفترة المعروفة تاريخيا بالحقبة الإمبريالية- التي تنافست فيها القوى العظمى، وقادت العالم إلى كارثة الحرب العالمية الأولى- 1914- 1918- التي أدت إلى سقوط الكثير من الشعوب الحرة ضحية لها، كما فقدت الكثير من الشعوب استقلالها، حيث تقاسمتها القوى المنتصرة كليا، أو جزئيا، أضف إلى ذلك أن بعض الشعوب محيت هويتها من الخارطة، حيث تم نقل أو تهجير، أقوام من الدول الغازية، إلى مناطق أخرى، وتوطينها على حساب الشعوب المستعمرة، كما حدث في فلسطين، وجنوب أفريقيا، وزمبابوي.

الجدير بالذكر أن حركة الكشوف الجغرافية الأوروبية، للعالم الجديد، أدت إلى فقدان السكان الأصليين- الهنود الحمر- استقلالهم، وتدمير حضاراتهم، ونهب كنوزهم، وآثارهم، وفوق ذلك كله، شنت الدول الاستعمارية ضدهم، حروب إبادة بشعة، لا مثيل لها في التاريخ، وما يحدث للشعب

1. Schulze, H.: Kleine Deutsche. S. 221-259.

العراقي في وقتنا الحاضر خير دليل.[1]

وماسي الحرب العالمية الأولى، لم تردع الدول الاستعمارية، وتجعلها تتوقف عن مواصلة الحروب، ولكنها استمرت في صراعاتها، أكثر من السابق: وادخلت العالم في حرب عالمية ثانية- 1939-1945- كان ضحيتها أكثر من ستين مليون نسمة، معظمهم أبرياء، وبعدها بدأت فترة جديدة من التنافس الدولي المتوازن، وخلال هذه الفترة، حصلت أغلب شعوب العالم على الاستقلال، واستعادت بعض الشعوب المقسمة وحدتها، وبعضها الأخر يحاول حتى اليوم، وفي هذا السياق، تم اختيار بعض الأمثلة لتلك الأحداث والمتغيرات، التي تمت في التاريخ الحديث.

ففي مطلع التاريخ الحديث، توسعت الدولة العثمانية غربا، إلى مشارف فيينا، وشرقا إلى فارس، وجنوبا إلى عدن، لكن تلك الدولة، وصلت إلى أدنى مراحل الضعف، في مطلع القرن العشرين؛ حيث تقطعت أوصالها، وانتهى كيانها الدولي، من الخارطة السياسة العالمية، عام 1924، بعد هزيمتها في الحرب الأولى؛ ونتج عن زوالها تقسيم الكثير من البلدان، التي كانت تحكمها، إلى قوميات، ودويلات عديدة، تم توزيعها على الدول الاستعمارية المنتصرة، التي قامت بتفتيتها كما تشاء، زد على ذلك أنها جلبت إليها أقليات أجنبية [في فلسطين وجنوب أفريقيا وزمبابوي]، وانشأت فيها كيانات، لم تكن موجودة من قبل [إمارة شرق الأردن]، ورسمت حدودا ليس لها أساس تاريخي، زرعت الكثير من مشاكل البلدان العربية الحدودية، التي كانت قانونا ضمن أملاك الدولة العثمانية.

وإذا يممنا أبصارنا تجاه الشرق الأقصى، نجد الدول الكبرى قد تقاسمت بلاد الصين، وقسمت كوريا نصفين. وأما في أقصى الغرب. [العالم الجديد] فالولايات المتحدة تتوسع على حساب جيرانها. أصحاب الأرض الأصليين [الهنود الحمر]. وعلى حساب المستعمرين الجدد. وقد اغتصبت الكثير من الأملاك حتى أصبحت ولاياتها التي كان عددها لا يتجاوز 13 ولاية عشية استقلالها عام 1776م،- أصبحت- أكثر من 50 ولاية. وكما أنها عمدت بشكل متواصل. ومتعمد إلى طمس هوية الشعوب الأصلية هناك، وأبادت عشرات الملايين من الهنود الحمر أصحاب الأرض الأصليين. وفي أوراسيا- أوروبا وآسيا- توسعت القيصرية الروسية،- مستغلة ضعف الدولة العثمانية- على حساب جيرانها. وهكذا فقدت الكثير من الشعوب استقلالها. وإن كانت توحدها أحيانا القومية.

لم تدم الإمبراطورية الروسية طويلا. فقد دارت عليها الدوائر عام 1917. وفي بداية تسعينيات القرن العشرين، تفكك الاتحاد السوفيتي- الوريث الشرعي لتلك القيصرية- وتولد عنه الدولة الروسية الحالية، وعدد كبير من الكيانات المتوسطة والصغيرة. وما تزال روسيا الحالية، مرشحة للمزيد من الانقسامات.

وفي وسط أوروبا الغربية، قُسمَت تشيكوسلوفاكيا نصفين، بعد حركة التغيير مباشرة، وطوال فترة التسعينيات، شاهد العالم المتحضر، جرائم حرب بشعة ومتواصلة في البلقان، نتج عنها تفتيت يوغوسلافيا إلى دويلات كثيرة.

وفي شبه القارة الهندية، انفصلت باكستان عن الهند بعد الحرب العالمية الثانية، ثم انفصلت بنجلادش عن باكستان في سبعينيات ذلك القرن، والبقية تأتي، وأما في بحيرة المتوسط، فقد قاد التنافس التركي- اليوناني إلى تقسيم جزيرة قبرص.

---

1. متابعات أخبارية في وسائل الإعلام، حول ما يجري في العراق والصومال والسودان وأفغانستان ودول البلقان الخ.

وإن كانت بعض الدول الكبرى، التي قامت بتقسيم شعوب وبلدان أخرى كما اتضح سابقاً، يتم تقسيمها الآن، أو أنها مرشحة للانقسام؛ ومثال ذلك المملكة المتحدة، وكندا، وإيطاليا، وأسبانيا، وتركيا وغيرها، والصراع بين الخير والشر لم ينته بعد.

وعلى الرغم من هذه الظروف الدولية، المتناقضة والخطيرة، المشار إليها آنفا، والتي عرفنا لها بعض الأمثلة، فقد تمكنت بعض الشعوب من تحقيق وحدتها الوطنية، ولم تفوت الفرص التي أتيحت لها، وفي مقدمة تلك الشعوب فيتنام، التي انتصرت على أمريكا، أقوى دولة عسكرية في العالم، وتوجت ذلك النصر بتحقيق وحدتها الوطنية بالقوة.

وفي تسعينيات القرن الماضي، استعادت الصين الشعبية، - بعد صبر طويل- سيادتها على جزيرة هونج كونج، بعد خروج الإنجليز منها، وجزيرة مكاو، من البرتغاليين، وما تزال تسعى لاستعادة جزيرة تايوان، من أيدي الانفصاليين، المدعومين من أمريكا، وبعد هذا المدخل التاريخي الموجز، ينبغي الولوج إلى الموضوع الرئيسي من هذه الدراسة، ألا وهو الوحدة اليمنية.

لم تتوقف الأحداث التاريخية والمتغيرات الجيوسياسية في فيتنام والصين، الواقعة في شرق آسيا؛ ففي نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن العشرين، قامت ثورات عظيمة، في أوروبا، نتج عنها متغيرات كبيرة وجذرية، خاصة في دول "الكتلة الشرقية".

ومما لا شك فيه، أن سياسة الرئيس السوفيتي ميخائيل غورباتشوف، قد ساعدت إلى حد كبير، في حدوث تلك المتغيرات، وشجعت الشعب اليمني والألماني، على تحقيق وحدتيهما التاريخية عام 1990م، حيث نجحت القيادة السياسية للبلدين، في اختيار الوقت المناسب، واستغلال الظروف، والمتغيرات الدولية، وسخرتها لصالح تقرير مصير الشعب بالطرق السلمية، كما أنها مثلت القدوة الحسنة، لشعوب العالم الأخرى - الصين وكوريا- الراغبتين في تحقيق وحدتيهما الوطنية.

وفي السياق ذاته، تسببت سياسة غورباتشوف، في خروج الاتحاد السوفيتي مهزوما، من ميدان التنافس الدولي، وقضت على توازن القوى الدولية، - الذي منع قيام حرب عالمية ثالثة، أو انفراد قوة عظمى بعينها، بالهيمنة على العالم، طوال مرحلة الحرب الباردة- وقادت تلك السياسة الفاشلة إلى تفكك الاتحاد السوفيتي، وحلف وارسو، وتحول جميع دول الكتلة الشرقية تدريجيا إلى حلف شمال الأطلسي، الذي تقوده أمريكا، والإتحاد الأوروبي، واستبدلت تلك الشعوب كياناتها السياسية المؤيدة لروسيا بكيانات منتخبة ديمقراطياً أمريكية التوجه.

وفي 1990/8/2م بدأت حرب الخليج- "الثانية" والمستمرة حتى يومنا هذا ضد العراق- حينها استسلم غورباتشوف، تماما لكل المطالب الأمريكية، وانتهى دور روسيا تماما كونها قوة عظمى، وخسرت رصيدها كاملا، داخليا وخارجيا، باستثناء ترسانة الأسلحة، التي كانت تمتلكها، وخاصة السلاح النووي منها؛ وقد أصبح الاتحاد السوفيتي، "روسيا" الحالية أفقر دولة اقتصادياً، وأضعف حكومة أوروبية، وتسبب ذلك في خلق ظروف ومتغيرات عالمية كبيرة؛ سياسية واقتصادية وقومية واجتماعية، وعرقية وجغرافية، لم يشهد لها مثيل في التاريخ المعاصر؛ ففي حين تبدد خطر الحرب الباردة، بشكل سريع، وبدون تخطيط، نشأ بنفس السرعة، وضع جديد، أخطر من الوضع السابق، ناتج عن فقدان التوازن الدولي، أشبه بالوضع الذي تَكَوَّن بعد الحرب العالمية الأولى، مع الفارق في تعداد القوى المتنافسة.

ومن الجدير بالذكر، أن تلك المتغيرات، قد أدت إلى حرمان الشعوب الضعيفة، من الحصول على أي عون للدفاع عن نفسها، وحماية استقلالها، أمام السياسة الجديدة، المتمثلة بالحروب الاقتصادية، والحروب العسكرية المدمرة، الموجهة بالريموت كنترول، وهي قليلة التكاليف، كثيرة الضحايا، شديدة الخراب والتأثير، - تشترك في تنفيذها إسرائيل، وإنجلترا، وتقودها الولايات المتحدة- هذه الحروب لا حدود لها، ولا قوانين تحكمها، يُمارس فيها ابشع جرائم العدوان على البشرية، وقد سهل قيام تلك الحروب، فقدان التوازن الدولي، والخلل السياسي والاقتصادي، والتطرف الديني والقومي والعرقي، وفساد بعض الحكومات، وفقدان الديمقراطية، وطغيان الدكتاتورية، إلى غير ذلك من الأوضاع التي كانت وما تزال مسيطرة على الكثير من حكومات وشعوب الدول الهامشية، العالم الثالث العالم العربي خاصة.

لقد كانت أحداث السنوات الأخيرة من القرن العشرين، نتيجة حتمية للخلل الكبير في النظام العالمي، الذي قضى على التوازن الدولي للقوى الكبرى، تحت تلك الظروف، وفي خضم تلك الأحداث، تحققت الوحدة اليمنية والألمانية.

قراءة الأحداث الدولية وفهمها لم يكن سهلا في تلك الفترة، بل كان أشبه بركلات الترجيح، في لعبة كرة القدم؛ فالفريق الذكي والمحترف، المدرك لما يدور حوله، والعارف بإمكانيات الفريق المقابل أو بتعبير آخر، فإن الفريق الذي يتمتع ببعد نظر، هو الذي يكسب السباق، وذلك ما حدث فعلا، حين تمكنت القيادة اليمنية، والألمانية، من فك رموز شفرة السياسة الدولية، وحسبتها بشكل صحيح، وقدرت تفاعلاتها ومتغيراتها المعاصرة، وتطوراتها المستقبلية، كما أنها تعاملت معها بحكمة فتوصلت إلى القرار الحاسم، الذي لا يجوز تأجيله، ألا وهو إعلان الوحدة الوطنية، الذي تم التوصل إليه عام 1990م. ونظراً لأهمية هذا الموضوع رأى الباحث أن هناك ضرورة كبيرة تتطلب أن تشمل هذه الدراسة جميع المحاولات الوحدوية السابقة اليمنية منها والألمانية ومقارنتها.

الوحدة اليمنية عبر التاريخ

في التاريخ القديم:

ليس الهدف من هذه الدراسة تقديم بحث تفصيلي شامل لكل مراحل التاريخ اليمني والألماني، لصعوبة القيام بذلك بهذه البساطة، خاصة وأن الكتابة التاريخية الراقية لا تتم عشوائيا، ولكنها تُبنى على أصول وقواعد ومناهج علمية تقيد الباحث ويجب عليه أن يلتزم بها. وهذه الدراسة لا ينوي صاحبها التعدي على اختصاصات غيره بهذه السهولة، ولكن الهدف الحقيقي من هذه الدراسة- الممتدة تاريخيا- هو البحث عن المحاولات الوحدوية اليمنية والألمانية منذ القدم، والتركيز على توضيح الأمثلة الحاسمة أو المختلف حولها، ودراستها ومن ثم مقارنتها بالوحدة اليمنية والألمانية عام 1990م.

إن رغبة الشعب اليمني في الوحدة، وكفاحه في سبيلها، ونجاحه في تحقيقها، في 22 مايو 1990م ليست وليدة الساعة، ولكن جذورها عميقة، وممتدة على مر العصور: حيث قام بمحاولات وحدوية متكررة، فتحققت له الوحدة كثيرا، ولكنه عاد للتفكك مرارا، بسبب تساهل بعض حكام تلك العصور في الحفاظ عليها، والباحث في تاريخ اليمن القديم، يجد الكثير من الأمثلة، التي تثبت أن مسألة تحقيق الوحدة الوطنية، كانت تهم كل حاكم وطني.

ونظرا لأهمية الوحدة اليمنية، حاول الكثير من زعماء الكيانات السياسية، التي ظهرت في تاريخ اليمن القديم تحقيقها، وشكلوا التحالفات، وأشعلوا

في سبيلها الحروب، وتنافسوا على شرعية امتلاك لقب "مُكَرِّب"، الذي يقابله لقب موحد. وحول هذا الموضوع يسود شبه إجماع، بين المؤرخين والباحثين، - العرب والأجانب- أن لفظة مكرب، - موحد- قد عرفها وتداولها واستعملها سكان جنوب الجزيرة العربية، قبل ظهور مصطلح لفظة يمنات- اليمن- بألف عام تقريبا، وهذا الاستنتاج يثبت اهتمام الناس، ورغبتهم في الوحدة.[1]

مكرب إيل وتر

لم يتوصل الباحثون حتى الآن إلى معلومات كافية، تؤكد لهم ظهور دولة أو كيان سياسي في اليمن، يحمل كل صفات ومفاهيم الدولة المركزية، لكنهم يرجحون أن الكيانات السياسية في الفترة المذكورة، كانت ترتكز بالدرجة الأولى على فرض سيطرتها على المرافق الأساسية المهمة، وحماية الأنشطة التجارية، وطرق المواصلات، الواقعة في نطاق السيطرة الجغرافية لتلك القوى.[2]

ونستعرض في هذا الموجز، العمق التاريخي لمسيرة الوحدة اليمنية، وشرعية الدفاع عنها، والتمسك بها، وعدم التفريط فيها، وفي هذا الصدد تؤكد البحوث الأثرية والدراسات التاريخية، أن الحاكم السبئي، كرب إيل وتر، الذي يرجح أنه حكم ما بين نهاية القرن الثامن وبداية القرن السابع قبل الميلاد، يعد المُوحِّد الأول لليمن في تاريخها القديم، وأول من حمل لقب مُكَرِّب لمُوَحِّدا، وذلك بعد أن نجح في توحيد الكثير من الكيانات، وأدخلها تحت حكمه، وقد انفرد السبئيون بذلك اللقب، حتى منتصف القرن السادس قبل الميلاد، علاوة على ذلك، قام كرب إيل وتر، ببناء الكثير من المشاريع الضرورية للسكان، في المناطق الخاضعة لنفوذه، وقد ساعدته تلك المنجزات، على التغلب على القبائل الخارجة عليه، ونجح في فرض سيطرته عليها، إضافة إلى ذلك، استطاع أن يمد نفوذه إلى منطقة المعافر (الحجرية) جنوبا، وإلى شبوة شرقا، وبمساعدة حلفائه تغلب على دولة أوسان، التي كانت تتمركز في وادي مرخة، الواقع غرب شبوة، وأخضع جميع القوى الأخرى المتحالفة معها، زد على ذلك أنه قام بتوسيع نفوذه حتى نجران شمالا، وخليج عدن جنوبا، وحضرموت شرقا، وأدخلها جميعا تحت سيطرته بكل الوسائل المتاحة لديه.[3] ففي حين يرى بعض الباحثين أن كرب إيل وتر قد تحالف مع الكثير من الكيانات السياسية الأخرى، ولم يقض عليها أو يضمها إلى كيانه، بدليل أنه كان قد سمى نفسه ملكا لكل كيان على حده، من تلك الكيانات، وأعاد لها أملاكها ولم يزلها أو يلغيها من الوجود، ومن بين الباحثين من يؤكد أن لقب مكرب قد استعمله ملوك حكموا اليمن قبل كرب إيل وتر.[4]

الجدير بالذكر أن لقب مكرب لم يبق محصورا على ملوك سبأ وحدهم، ولكن نافسهم عليه حكام من مختلف الدول التي حكمت اليمن، في تاريخه القديم، منذ بداية القرن السابع قبل الميلاد، وتسجل النقوش، أن ذلك التنافس تسبب في وقوع خلافات وصراعات متكررة بين المتنافسين، وفي أغلب الأحيان كانت تحسم بالوسائل العسكرية.

وفي هذا السياق تذكر المصادر أن منافسة كبيرة، على لقب المُكرِّب، جرت بين حاكم أوسان

1 .Robin, Ch. J.: Foundation. 1997a. S. 88-94; Schick, T.: Fragen. S. 19.

2. Schick, T:. Fragen. S.20.

3. Daum, W.: Yemen –3000 Jahre. 1987a. S.14ff; Nebes, N.: Karibil Watar. S. 95-97; Robin, Chr. J.: Foundation. 1997a. S. 88-94; Müller, W.: Skizze. S. 1987. S. 53.

4. مناقشات طويلة ومتكررة بين صاحب الدراسة والباحث على الناشري، من جامعة الحديدة، ومناقشة جماعية دارت بين باحثين من جامعة صنعاء وعدن في منزل الباحث بصنعاء بتاريخ 2007/5/20م.

ذكر إيل لحيان ابن أمي مكرب، الذي كان قد مد نفوذه على الكثير من المناطق المهمة في البلاد بقصد توحيدها، نقول هذه المنافسة بين حاكم أوسان وحاكم الدولة السبئية- وحلفائه- الذي ادعى بدوره أحقيته دون غيره في حمل لقب مكرب، ادى ذلك التنافس إلى قيام حرب مدمرة بين الطرفين، انتهت بزوال دولة أوسان من الخارطة السياسية؛ لأن كرب إيل وتر حارب منافسه حاكم أوسان، وهزمه واستولى على عاصمته في وادي مرخة، شرق شبوة ودمرها، وهدم قصورها، ونهب كنوزها وممتلكاتها، إضافة إلى قيامه بأعمال تخريب وتدمير كثيرة، وقتل 16000 نسمة من سكانها، واسر 40000 آخرين، ودوّن ما قام به من أعمال، على صخور منحوتة، عثر عليها في صرواح، وغيرها. واستمر حكام اليمن يحملون لقب المكرب فترة طويلة من الزمن، وتذكر الدراسات أن ذلك اللقب، ظهر لآخر مرة في النقوش المكتشفة حتى الآن في القرن الأول الميلادي، بعد ذلك حل مكانه لقب ملك.[1]

شمر يهرعش

استمرت عجلة التاريخ في المسير، وتمكنت قبيلة حمير في نهاية القرن الثاني [ق.م]، من تكوين دولة حميرية مستقلة خاصة بها، وجعلت من ظفار القريبة من وادي بنا عاصمة لها، واستطاعت في فترة وجيزة أن تمد سيطرتها على جميع المرتفعات الجبلية اليمنية. ومن الجدير بالذكر أن المصادر تشير إلى أن الحقبة التاريخية، المتزامنة مع صعود الدولة الحميرية، قد شهدت الكثير من الاضطرابات الداخلية، وعدم الاستقرار السياسي، وبدأت مرحلة التفكك والضعف تؤثر في وحدة جنوب الجزيرة العربية؛[2] وبعد حروب وصراعات متواصلة تمكنت الدولة الحميرية عام 270م. تقريبا من القضاء على دولة سبأ نهائيا، والاستيلاء على ممتلكاتها.[3]

على الرغم من الصراعات التي انتشرت خلال حكم الدولة الحميرية في جنوب بلاد العرب، فقد حرص حكام اليمن على الوحدة اليمنية، حيث تسجل النقوش أن الملك شمر يهرعش، مد نفوذه على حضرموت، وأصبح الحاكم الوحيد، وأعطى نفسه عام 295م لقب ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت، ويمنات، (اليمن) ويعتقد الباحثون أن اسم يمنات، ظهر لأول مرة في النقوش في هذه الفترة، وكان يقصد به منطقة أوسان وقتبان.[4]

وقد أشار العالم الألماني فالتر مولر، في كتاباته عن تاريخ شمر يهرعش، ابن نمار علي، أشار إلى أن عدم وجود أدلة كافية، تثبت أن ذلك الملك قد استولى على حضرموت، أو أنه كان يدعي أنها ضمن أملاكه، لا ينفي أن الحميريين في نهاية الأمر قد انتصروا على حضرموت، وكل مناطق الجنوب العربي، بين عامي 380- 440م وأن الملك أبا كرب أسعد قد أدخل بعض الإصلاحات الإدارية على نظام حكمه، أهمها إشراك والده وأخيه وأبنائه الخمسة في الحكم، وتوليتهم مناطق مختلفة، شملت المنطقة الجغرافية التي تمثل اليمن الموحد في عصرنا هذا، إضافة إلى عسير ونجران في الشمال، وصلالة وظفار في الشرق، واستمرت دولة أبي كرب أسعد تتوسع نحو الشمال، بمشاركة ابنه حسن يهمين، حتى تمكن من توسيع نفوذه وضم مناطق البدو الشمالية.[5]

1. Robin, Chr. J.: Foundation.1997a. S. 88-94; Robin, Ch. J.: 1997b S. 180-18; Daum, W.: Die Götter von Saba. 1988b. S.169; Beeston, A.: 1984a. S. 259-269.

2. Schick, T.: Fragen. S. 27-29.

3. Robin, CH. J.: 1984. S. 212; Schick, T.: Fragen. S. 29.

4. Müller, W.: Skizze.1987. S. 53; Gajda, I.: L'Arabie du Sud. 1997. S. 188.

5. Müller, W.: Skizze.1987. S. 53; Gajda, I.: L'Arabie du Sud. 1997. S. 189. مقبل، سيف: وحدة. ص 23 وما بعدها

وقد وسعت دولة حمير نفوذها شمالاً، حتى وصلت إلى نجد، التي عثر فيها على نقش حميري، يؤكد أن ملك حمير، كان أيضا ملك سبأ، وذي ريدان وحضرموت ويمنات وعرب تهامة.[1]

ونستنتج مما سبق، أنّ بلاد العرب الجنوبية (اليمن)، شكلت دوما حيزاً جغرافياً واحداً وموحداً، وأن سكان الكيانات المختلفة، التي ظهرت عليها ممثلة في - سبأ، ذي ريدان وقتبان وأوسان وحضرموت وحمير ويمنات ومعين- وغيرهم كانوا متجانسين عرقياً، ودينياً ولغوياً، كما أن التنافس الداخلي على الأراضي الزراعية والمراعي، والطرق التجارية، في التاريخ القديم، قد أدت إلى ظهور كيانات محلية مختلفة، تتنافس فيما بينها، وهذا أدى إلى أن أصبحت بعض الكيانات أقوى من غيرها، فشجعها ذلك على مواصلة التوسع، على حساب الكيانات الضعيفة، مستخدمة قواها الذاتية، أو متحالفة مع غيرها من الكيانات المجاورة، وبهذه الطريقة، استطاع أكثر من زعيم، أن يمد نفوذه فوق طول البلاد وعرضها، التي كانت مساحتها أكبر، وحدودها أوسع وأبعد من حدودها الحالية، وأما حالات التشرذم والتفكك، التي عاشتها البلاد في بعض مراحل تاريخها القديم، فقد حدثت فقط في فترات حكم الكيانات الكبيرة، "والملوك" الضعاف.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن سياسة اليمن الخارجية، كانت مختلفة تماما عن السياسة الداخلية بين تلك الكيانات، ولم يحدث أن قامت البلاد بأي عدوان على جيرانها. وأخيراً تبقى صحة النقوش مدعاة للتساؤل، ولا يمكن الحكم عليها، بأنها حقائق مسلمة، لا تقبل الشك.

في التاريخ الإسلامي

من عصر النبوة إلى عصر الدويلات:

لم تكن أوضاع اليمن قبل الإسلام مستقرة، وكان يعاني من الشتات والتمزق، الذي سببته الصراعات السياسية والاقتصادية والفكرية والدينية، والاستعمار الفارسي. بعد ذلك جاء الإسلام، وأنهى تلك الصراعات، وجمع شمل أهل اليمن، وأصبحوا تحت راية وعقيدة واحدة. وحول كيفية دخول أهل اليمن في الإسلام، في القرن السابع الميلادي، تباينت روايات المؤرخين، وكون هذا الموضوع بعيداً عن هذه الدراسة؛ لن يتم التطرق إليه، وسوف يبقى البحث محصورا على موضوع الوحدة اليمنية في مراحل التاريخ الإسلامي المتواصلة.[2]

أثبت بعض المؤرخين المرموقين، أن اليمن كان موحدا، في عصر النبوة، وفي عصر الخلافة الراشدة، وفي الفترات التالية، والوحدة اليمنية في عصر النبوة، تتأكد بالمنطق، وتثبت بالبراهين؛ ففي عصر النبوة، تم ترتيب أمورها، وتقسيمها إلى خمسة مخاليف، حيث بقي باذان على صنعاء وما حولها حتى وفاته، وكان معاذ بن جبل آمراً على مخلاف الجند، وآمراً عاما على اليمن. وتقسيم اليمن بهذا النظام يشابه ما نسميه اليوم بالحكم المحلي، وتولية الرسول (ص) أمراء على تلك المخاليف، دليل واضح على حقوقه السيادية فيها؛ كونه رئيس الدولة الإسلامية الواسعة؛ وإن كان ذلك التقسيم الإداري الداخلي لم يمس وحدة اليمن الجغرافية والسياسية،[3] والدولة الإسلامية في عهد الرسول (ص) كانت تشمل اليمن وغيرها، وعاصمة دولته كلها كانت المدينة المنورة، وفي هذه الحال كانت اليمن عبارة عن إقليم

---

1. Gajda, I.: L'Arabie du Sud. 1997. S. 189.
مقبل، سيف: وحدة. ص 23 وما بعدها.

2. Madelung, Wilferd: Islam in Jemen. S. 174-177.; Smith, G. R.: Political history. 1987. S.130.

3. الشجاع، عبدالرحمن: تاريخ اليمن. 6 2006. ص.103-104.

متكامل، مقسم داخليا إلى مخاليف، من ضمن اقاليم دولة الرسول، والرسول وحده هو الذي كان يملك حق تعيين الولاة وعزلهم كيفما يشاء، وحينما يشاء، وينطبق عليه صفات الحاكم المستقل، وصاحب السيادة، والمالك لدولته بأقاليمها المختلفة.[1]

لم يتغير الحال كثيرا في عهد الخلافة الراشدة، ولا حتى في عهد الدولة الأموية، فقد كان أمراء اليمن يجمعون الزكاة المفروضة من الناس، ويقومون بتوزيعها على المستحقين، ويرسلون الفائض منها إلى عاصمة الدولة الإسلامية. علاوة على ذلك، قدمت اليمن مئات الألوف، من خيرة أبنائها، للمشاركة في الفتوحات الإسلامية، التي وصلوا بها شرقا إلى الصين وغربا إلى فرنسا، وفضل أهل اليمن في نشر الإسلام، في مراحل الفتوحات المبكرة والمتأخرة، لا يختلف عليه اثنان.[2] وأما التفكك الذي حصل في البنية السياسية اليمنية، فقد جاء في وقت متأخر من تاريخ اليمن الإسلامي، وهي الفترة التي تقاسمت حكم اليمن فيها دويلات صغيرة ضعيفة متصارعة ومتناثرة وأضرت باليمن كثيرا، ولم تحقق لنفسها أي مكانة تستحق الإشادة بها، ما عدا دولة بني رسول، التي سنتحدث عنها في المكان المناسب لها، من هذه الدراسة.[3]

عصر الدويلات [عصر الشتات]

203-1382هـ/ 818-1962م.

منذ بداية القرن الثالث الهجري، - التاسع الميلادي تقريبا- بدأ "عصر الشتات" في اليمن، الذي ميزته المنافسات والصراعات الداخلية، والخارجية، - على حكم اليمن- بين دويلات عديدة، مستقلة وشبه مستقلة، محلية وإسلامية. وبالإضافة إلى تلك الدويلات، كان أغلب حكام تلك الفترة من خارج اليمن، وغلب علي فترات حكمهم التعصب المذهبي، والعرقي، والاهتمام بالمصالح الشخصية، وكسب الثروات، وقد استمرت الفترة المذكورة قرابة 1150 عاما، من عام 818م. حتى قيام الثورة اليمنية في 26 سبتمبر عام 1962م.

بدأ عصر الشتات في اليمن الإسلامي، بقيام الدولة الزيادية عام [203- 409هـ/ 818- 1018م] واليعفرية [225-397 هـ/847- 997م] والنجاحية [403-555هـ/1021- 1156م] والصليحية عام [439-532 هـ/1047- 1138م] وبني سليمان، وبني زريع، وبني حاتم، وبني مهدي، وبني أيوب [559- 626 هـ]، وبني رسول، [626-858 هـ/1228- 1454م] وبني طاهر[858- 945 هـ]، والدولة العثمانية، ودويلات الأئمة الزيدية، التي نافست الدولة العثمانية على حكم اليمن، من عام [945- 1336هـ/ 1538- 1919م]. وبعد ذلك حكمت شمال اليمن حتى قيام ثورة 26 سبتمبر عام 1962م،[4] وباستثناء فترة حكم الدولة الرسولية، والمحاولة المحدودة، التي قام بها السلطان علي بن محمد الصليحي، وفترة حكم الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم، فإن دويلات الأئمة المختلفة، قد شاركت في تفكك اليمن، والتفريط في وحدته الوطنية، وشكلت أهم أسباب تقسيمه.

الدولة الصليحية [439-532 هـ/1047-1138م]

في بداية عهد الدولة الصليحية- إسماعيلية المذهب- التابعة نسبيا للدولة الفاطمية في مصر، حاول مؤسسها الأول، علي بن محمد الصليحي، توسيع نطاق حكمه، في جنوب شبه الجزيرة العربية، وحقق من خلالها نجاحات نسبية، كادت تؤدي إلى

---

1. الطبري: تاريخ الأمم. حوادث سنة 6+9 هـ؛ ابن الأثير: الكامل. حوادث سنة 6 هـ. الفقي، ع. اليمن. 1982، 45.
2. الشجاع، عبدالرحمن: تاريخ اليمن. 2006. ص.107-114؛ ص.130-135 .
3. ابن الأثير، الكامل. حوادث سنة 11هـ؛ الطبري: تاريخ الأمم. حوادث سنة 11هـ. الحسين، يحيى بن: غاية. ص164؛ الخزرجي: العسجد. ص12.

4. Smith, G. R.: Political history. 1987. S.129-139.

توحيد اليمن، لكن تلك المحاولات، لم يكتب لها النجاح الكامل والدائم؛ لأنه لم يتمكن من إخضاع كل القبائل، والمدن اليمنية، ويدخلها تحت سيطرته، في آن واحد، فقد كانت بعض القبائل تتمرد عليه، بمجرد خروجه لإخضاع قبائل أخرى، أما مدينة صعدة، فقد استعصت عليه تماماً، مع أنه لم يفرض مذهبه الإسماعيلي على الناس.[1] وحول ما قام به ذلك الحاكم، فقد اختلف المؤرخون في الحكم عليه، ولكن الرأي الغالب أنه لا يعد موحداً،[2] وينظر إلى تلك التوسعات على أنها خاوية من أي روح وحدوية، وأن الهدف منها كان الحصول على السلطة، والقضاء على المنافسين، ومسألة الوحدة ذاتها، لم تكن ضمن سياسته التوسعية.

الدولة الرسولية [628-858 هـ/ 1228-1454م]

قليلة هي المصادر والدراسات العربية الحديثة، التي تناولت تاريخ اليمن خلال حكم الدولة الرسولية، على الرغم من عظمتها، وحكمها المميز والمزدهر بوجه عام، إضافة إلى الدور الكبير الذي قامت به تلك الدولة من أجل توحيد اليمن بوجه خاص، وما هو متوفر من الدراسات العربية لم تخصص للدولة المذكورة ما تستحقه من البحث والتقييم، كما أنها لم تبرز ما حققته لليمن، من تقدم حضاري وعلمي، وسياسي، واقتصادي، وسمعة عالمية حسنة، زد على ذلك أن الكثير من آثارها الحضارية قد أهملت ودمرت، ومن أهم أسباب ذلك، حقد الأئمة عليهم، كونهم مخالفين لهم مذهبياً، وفي أيامنا هذه، تقوم القيادة السياسية، بترميم ما خلفته تلك الدولة من آثار، وتحافظ عليها.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن الدولة الرسولية، قد حكمت اليمن أكثر من مائتين وثلاثين عام، من 626- 858هـ/1228- 1454م، وتميز حكمها على غيرها من الدويلات الأخرى، وذلك راجع إلى أن سلاطينها ذوي الأصول التركمانية، قد تمكنوا من إقامة دولتهم في اليمن وتوحيدها وبسط سلطتهم الفعلية عليها[3] من البحر الأحمر غرباً إلى ظفار شرقاً، ومن عدن جنوباً حتى مكة شمالاً، وأقاموا عليها النظام والقانون، وحافظوا على الأمن والاستقرار، وكانت لهم علاقات خارجية مميزة وحسنة.[4] وعلى الرغم من ذلك فإن الدولة الرسولية لم تكن خالية من السلبيات والمآخذ الأخرى مثل الظلم والفساد الخلقي الذي مارسه بعض رجالاتها، ولأن هذا الموضوع غير مرتبط بمسألة الوحدة فلا مجال هنا لمناقشته.

والجدير بالذكر أن ظهور الدولة الرسولية، تزامن مع الحملة الصليبية الخامسة عام 1228، كما أنها عاصرت غزو المغول والتتار على بلاد الشام، - في القرنين الثالث عشر والرابع عشر- والعصور الوسطى الأوروبية المتأخرة، والنهضة الإيطالية الحديثة، وانتهت عام 1454، بعد سقوط القسطنطينية بعام واحد، على يد الدولة الطاهرية،[5] التي قضى عليها العثمانيون عام 1538.[6]

على الرغم من التقصير غير المبرر، من جانب الباحثين العرب، في قلة العناية بدراسة تاريخ الدولة الرسولية، فقد أهتم بها وأنصفها، ونالت ما تستحقه من الدراسة والتقييم، من جانب الباحثين الغربيين، الذين قالوا إن نظام حكمها، ليس له مثيل في تاريخ

---

1. Smith, G. R.: Political history. 1987. S.132.
2. الصين، يحيى بن: غاية. ص 254؛ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن. ص 40.
3. Smith, G. R.: Political history.1987. S.129-139. الفقي، ع. اليمن. ص 242-260ص 371.
4. Smith, G. R.: Politische Geschichte.1987. S.143f. انظر الخزرجي: العقود، ج1. ص 46-54.
5. Müller, H. M.: Schlaglichter. 2003. S. 63. Parker, G.: Atlas. 1998. S. 44f., 56f. 66ff.
6. Smith, G. R.: Political history.1987. S.136f.

اليمن الإسلامي، وأنها أقامت نظام حكم مزدهر، وبنت حضارة عظيمة، في اليمن طوال تلك الفترة، إضافة إلى أن آثارها وعظمة حضارتها ما تزال شاهدة للعيان حتى اليوم، هذا مع أن حكامها ليسوا من أصول يمنية، إلا أنهم حكموا اليمن باسم الإسلام، واندمجوا داخل المجتمع اليمني، وأصبحوا جزءاً منه، وخدموه أكثر من غيرهم من الأسر، التي حكمت اليمن منذ دخول الإسلام حتى قيام ثورة 26 سبتمبر 1962، يمكن أن نشبه عصر هذه الدولة في اليمن بالحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ولأن اليمن قد عاشت أعظم عصور الازدهار والتطور، في جميع المجالات، وخاصة النواحي العلمية والصناعية، والاقتصادية وكثرت العائدات التجارية في ذلك العصر، ولا نكون قد جانبنا الصواب إذا قلنا أن أوضاع اليمن حينها كانت تشبه أوضاع اليمن في التاريخ القديم، حيث كان للدولة الرسولية علاقات دولية واسعة مع أوروبا وأفريقيا، وبلاد فارس والهند وجنوب شرق آسيا، وتمتعت باحترام واعتراف عالمي، كونها دولة يمنية مستقلة من الطراز الأول.[1]

السلطان المظفر يوسف بن عمر الرسولي

الكثير من حكام الدولة الرسولية، ساهموا في مد نفوذ دولتهم، وتطويرها، وتوحيدها، ولكن المؤرخين يعدون فترة حكم السلطان المظفر يوسف بن عمر الرسولي 1294- 1295 أقوى وأزهى عصور تلك الدولة؛ فقد استطاع المظفر مد سيطرته على تهامة، والمرتفعات الوسطى والجنوبية، وعلى طول الشواطئ المطلة على البحر العربي، والمناطق الداخلية لها، بما فيها شبوة وحضرموت والمهرة حتى ظفار شرقا، وبذلك تكون اليمن قد توحدت قولا وفعلا، في ظل حكم الدولة الرسولية، التي لم ينصفها معظم المؤرخين العرب كما ينبغي؛ لأنهم نظروا إليها على أنها واحدة من دويلات اليمن الإسلامية فحسب، دون التفريق، ودون تقييم علمي ومحايد لتاريخ الدولة الرسولية.[2]

في التاريخ الحديث

دخول المذهب الزيدي إلى اليمن

احتل حكم الأئمة حيزا كبيرا من تاريخ اليمن، وهو ينقسم إلى فترات ومراحل متشابكة، وإن كان غلب على فترة وجودهم في اليمن، الصراعات المتواصلة والحروب الكثيرة والمدمرة؛ نتيجة لتنافسهم على منصب الإمام من جهة، وحروبهم ضد العثمانيين من جهة ثانية، وضد الشعب اليمني- من جهة ثالثة- والذي كان الخاسر الأكبر؛ لأنه وحده الذي دفع - غاليا ومن غير اختيار- ثمن التنافس والصراع على السلطة في اليمن حتى قيام الثورة عام 1962م، واستمرت مقاومة الشعب اليمني لهم حتى عام 1970.

أختلف المؤرخون في تحديد السنة التي وصل فيها إلى اليمن، الرعيل الأول من سلالة الأئمة، لكن ذلك الاختلاف، تم حصره بين نهاية القرن التاسع وبداية العاشر الميلاديين [893- 900- 911؟] =298هـ، وعلى الرغم من استقرار دعاة الزيدية في شمال اليمن، وتحقيقهم بعض النجاحات في نشر مذهبهم، فإن نفوذهم السياسي ظل محدودا، حتى بداية الحكم العثماني الأول.

أئمة اليمن ينسبون أنفسهم مذهبياً إلى زيد بن على زين العابدين حفيد الحسين بن على بن أبى طالب،[3] الذي استشهد في كربلاء بالعراق سنة 122هـ [يناير 740 أو 743] في معركة غير متكافئة وغير عادلة، وغير أخلاقية، جرت من طرف واحد، قامت بها قوات الدولة

---

1. Varisco, D.: Tests and Pretexts. S. 15+19; Schick, T.: Fragen. S. 46-49.

2. Chelhod, J.: L'Islam. S. 45; Serjeant; Lewcock: Sana'a .1983 S. 66; Smith, G. R.: Political history.1987. S.136.

3. الشجاع، عبد الرحمن: تاريخ اليمن. 2006. ص.154- 155.

الأموية، وبشكل تأكيد فإن مقتل الحسين بن علي، حفيد الرسول لصرا قد خلق لدى الطائفة الشيعية أسطورة الشهيد، ورمز الصبر والتضحية والقداسة، إلا أن تلك الطائفة احتاجت إلى أكثر من قرن ونصف من الوقت [160 عاما تقريبا] حتى تمكنت من تشكيل حركة دينية وسياسية منظمة خاصة بها،[1] تفرع منها بعد ذلك الكثير من الطوائف والمذاهب والجماعات الشيعية المسالمة منها والمتطرفة.[2]

يذكر المؤرخون أنه عندما قدم الشيخ يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي- مؤسس المذهب الزيدي في اليمن- من الحجاز إلى صعدة[3] كان برفقته حوالي 50 فرداً ذكروا أنهم من آل بيت الرسول لصرا، وفي صعدة الواقعة في شمال اليمن، نزل يحيى بن الحسين مع رفاقه في حمى القبائل اليمنية، التي كانت تتميز بنصرة المظلوم وحماية المستجير، وهناك استقبلتهم قبيلتا خولان وقضاعة، وأسكنتهم في مضاربها وأمنت لهم الحماية وقدمت لهم المساعدة، وبمرور الزمن تمكن يحيى ابن الحسين من توظيف مواهبه وحقق الكثير من النجاحات، التي أظهرت صفاته الحميدة، وجعلته يكتسب احترام تلك القبائل،- بسبب تصديقهم وتعظيمهم لآل البيت التي ينتمي إليها- واستفاد من خبرته الحياتية، ومكانته الأسرية، بتقديم نفسه وسيطاً نزيهاً، وحكماً مقبولاً بين القبائل المتخاصمة.[4] ولأسباب مختلفة لا مجال لتفصيلها هنا، تراجعت حدة العنف، والخلافات بين تلك القبائل، نتيجة لكثرة الأمطار، وخصوبة الأرض، والازدهار الزراعي والاقتصادي في تلك الفترة، وانشغال الناس بالأعمال الزراعية المربحة بدلاً من الصراعات والحروب فيما بينهم، ونشأت حالة من الاستقرار والسلم بين القبائل، وتحت تلك الظروف المناسبة، استغل يحيى بن الحسين الفرصة ومنح نفسه لقب الإمام الهادي إلى الحق.[5]

موقف الأئمة من الوحدة الوطنية

ظل نفوذ الأئمة محصوراً في المناطق الشمالية، حتى القرن السادس عشر،[6] وبعد أن وسع سلاطين الدولة العثمانية نفوذهم في البلاد العربية، وتمكنوا من فرض سيطرتهم على اليمن عام 1538م، وقضوا تماما على الدولة الطاهرية، التي كانت تحكم اليمن قبل قدومهم إليها، وقد تحالف معهم الأئمة، وقدموا لهم دعماً مادياً ومعنوياً، ومعلوماتياً، بقصد الانتقام والتخلص من الدولة الطاهرية، المنافس المشترك للطرفين، وبعد أن تغلب العثمانيون على الدولة الطاهرية، ونكلوا برجالاتها واستخدموا في سبيل ذلك ما أمكنهم من وسائل الغدر، وارتكبوا العديد من الجرائم المنافية لأبسط قواعد الحروب وأخلاقياتها، تغيرت الأمور وأصبح حليف الأمس عدو اليوم وتحول الأئمة من حلفاء إلى أعداء ومنافسين للعثمانيين على حكم اليمن، واستمر ذلك الصراع حوالي مائة عام.

وفي عام 1635م انسحب العثمانيون من اليمن، وخلق انسحابهم فراغاً سياسياً، في طول البلاد وعرضها، وقد استغل الأئمة تلك الظروف، وحاولوا سد الفراغ السياسي الكائن تدريجياً، ولم ينازعهم في بداية الأمر إلا بعض الزعامات المحلية الضعيفة جدا، التي لم تشكل عليهم أي خطر. وظل نفوذ الأئمة ما بين مد وجزر، يحكمه سلوكهم، وخلافاتهم وتنافسهم وصراعاتهم وحروبهم فيما بينهم، على منصب الإمام، وأدخلوا البلاد في حروب أهلية طاحنة، أدت إلى تخلفه في جميع المجالات، وأعادته قروناً كثيرة إلى الوراء، وزرعت الفرقة والكراهية بين سكانه، وأضعفت البلاد، وخلقت الأسباب، التي أغرت الكيانات

1. Chelhod, J.: L'Islam. 1984. S. 13-15.
2. Madelung, Wilferd: Islam in Jemen. S. 174-177.
3. Romano: A: A Historical Atlas. S.17ff.
4. كحالة، ع. معجم. ج1: 1985[2]، ص. 366. Dresch, Paul: Tribes. 1989. S. 167-183; Renaud, H.: Histoire. 1984. S. 57-67

5. Dresch. P.: Tribes.1989. S.167-183; Renaud, H.: Histoire. S. 57-67. الشجاع، ع: تاريخ اليمن. 2006[6]. ص.154-158.
6. Smith. S.136; Blukacz, Francois: Le Yemen. 1993. S. 45.

الإقليمية والدولية، بالسيطرة عليها، ففي عام 1839م احتلت بريطانيا الشطر الجنوبي من اليمن، وبعد سنين قليلة فرض العثمانيون حكمهم من جديد على شطره الشمالي، وأدى ذلك إلى تقسيم اليمن الذي استمر حتى قيام الوحدة عام 1990م، ولو أن الأئمة تحالفوا مع العثمانيين، لتمكنوا من طرد البريطانيين في وقت مبكر؛ لكنهم عادوا لمحاربة العثمانيين، وفرطوا في أقاليم الجنوب، ورسخوا مشاريع التقسيم.

وعندما بدأ الحكم العثماني الثاني لليمن عام 1872م، دخل الأئمة معهم من جديد، في تنافس على حكم اليمن، استمر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى عام 1918م. وعند الخروج الثاني للعثمانيين من اليمن تركوها- كما فعلوا عند خروجهم الأول- يقصد في حالة فراغ سياسي، وتمكن الأئمة للمرة الثانية من فرض حكمهم على شمال اليمن، وعقب ذلك التاريخ بدأت حركة المقاومة الوطنية ضدهم، واستمرت تقاومهم، حتى أسقطت دولتهم في 26 سبتمبر عام 1962م. والانتصار على فلولهم عام 1970.[1]

ولقد دونت تاريخ الأئمة في اليمن، غالبية المصادر- التي صنفها كتاب سير الحكام ومؤرخيهم وقد بدا على هذه المصادر طابع التحيز والوقوف إلى جانب الأئمة حتى أنها، وصفت بعضهم، بالموحد؛ زعمت أن هناك من الأئمة من تمكن من مد نفوذه فوق كافة الأراضي اليمنية، وعند فحص بعض تلك المصادر، يتبين أن تلك المزاعم مبالغ فيها؛ كما أن الأمور لم تتم بالصورة التي رسموها، أضف إلى ذلك أنها لم تستمر طويلاً، وكانت محدودة الزمن؛ وأهم مثال لذلك، ما ينسب إلى إمام الدولة القاسمية، المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم، من أعمال قام بها في القرن السابع عشر الميلادي، بعد الانسحاب العثماني الأول من اليمن، وتركهم البلاد في فراغ سياسي تام[2]

الإمام المتوكل على الله إسماعيل

اعتمد أئمة اليمن، في حروبهم ضد العثمانيين من جهة، وفي توسيع نفوذهم فوق الساحة اليمنية، بعد خروج العثمانيين الأول والثاني منها، على دعم القبائل اليمنية الشمالية، التي عانت من الضرائب، التي كانت تفرضها عليهم الإدارة العثمانية، وعممتها طوال فترة الحكم العثماني الأول والثاني لليمن، وبعد خروج العثمانيين توقف جمع تلك الجبايات لفترة من الوقت، واكتفى الأئمة في بداية الأمر، بتحصيل الزكاة الشرعية منهم.[3]

الجدير بالذكر: أن القبائل اليمنية عامة، وقبائل المناطق الشمالية خاصة، اعتادت دوماً، على تبديل ولائها للحكام، بين الحين والآخر، بحسب قوة وضعف الحاكم: وفي أغلب الأحيان، تقف في صفوف الحكام، الذين يعفونهم من دفع الجبايات نهائيا، أو لا يقومون بتحصيلها منهم، أو يخفضونها إلى أدنى حد؛ وحسب هذه المعطيات، يتغير ولاؤها، بحسب مصالحها الخاصة؛ لذلك دعمت وتضامنت تلك القبائل مع أئمة اليمن، لأنها كانت مستفيدة من صراعهم مع العثمانيين، وليس لقناعتها بحكم الأئمة في حد ذاته.[4]

وبعد خروج العثمانيين من اليمن عام 1635، استغل الإمام المتوكل على الله إسماعيل، الفراغ السياسي في السلطة، وبدأ يمد نفوذه في طول البلاد وعرضها، من نجران شمالاً إلى ظفار شرقاً، وأوكل إلى بعض الزعماء المحليين حكم مناطقهم تارة، وتارة أخرى، عين عليهم بعض أفراد أسرته، "أمراء الحرب" المتعطشين للقتل، والكسب من خلال سفك دماء

1. شجاب محمد: الوحدة اليمنية. ص. 25 وما بعدها.

2. فخري، أحمد: اليمن. ص. 195 وما بعدها؛ الشماحي، ع. الإنسان. ص 91 وما بعدها؛ Chelhod, J.: L'Islam. 1984, S. 13-15

3. Blukacz, Francois: Le Yemen. 1993. S. 45; Schick, T.: Fragen. S. 52.

4. Blukacz, Francois: Le Yemen. 1993. S. 45-47.

غيرهم، وبتلك الوسائل القمعية، امتد نفوذ ذلك الإمام شرقا، حتى وصل عام 1662 إلى المناطق الشرقية للمكلا، بما في ذلك ميناء الشحر،[1] وفي منطقة البيضاء ويافع وعدن ولحج الواقعة في وسط البلاد فرض الأئمة نفوذهم عليها بالقوة،[2] ومارسوا ضد السكان، وزعمائهم الكثير من أساليب القتل والدمار والسلب والنهب، المشابهة لما جرى في ألمانيا، في الفترة من 1618- 1648م، أثناء حروب الثلاثين عاما الدينية.[3]

وتحسن الإشارة إلى أن تلك الممارسات، لم تكن مقتصرة على فترة حكم الإمام المتوكل على الله إسماعيل فقط، بل سار عليها ورثته من بعده، مما أدى إلى إخفاق الأئمة في الحفاظ على تلك المناطق فترة طويلة، ولتلك الأسباب أيضا فشلوا في توحيد اليمن، وهذا راجع إلى أن سيطرتهم عليها كانت اسمية، وفي أغلب المناطق وجدت بشكل نظري فقط، لعدم وجود قوى أخرى تنافسهم عليها.[4]

والباحث المنصف، الذي يحاول قراءة وتقييم ما كتبه المعاصرون أمثال مطهر الجرموزي المؤرخ الخاص لتلك الأسرة، والمتحيز إليها هذا الباحث عندما يقيم ما كتب عن فترة حكم الإمام المتوكل على الله إسماعيل، وخليفته من بعده، فسوف يصاب بالغثيان، ويشعر بالتقزز، من الأعمال التي مارسوها، في المناطق التي توسعوا فيها بعد خروج العثمانيين من اليمن، وقد عرضها مؤرخو كتاب سير أئمة الدولة القاسمية وهنا يصعب على أي باحث، أن يصفهم برجال دولة، أو موحدين لليمن، ولا يمكن تبرير حروبهم المدمرة، التي قاموا بها أساسا، من أجل السلب والنهب، بأنها كانت من أجل وحدة الوطن. وعلى الرغم من عدم توفر صفات المؤرخ، عند مطهر الجرموزي، فإن تغطيته لسيرة سيده المتوكل إسماعيل، قد تحولت إلى دليل إثبات، على أفعال ذلك الإمام وورثته، خاصة حروبهم في البيضاء ويافع وما حولهما، وما رافقها من أعمال قتل وسلب ونهب، مارسها قادته الميدانيون، والقبائل القادمة من المناطق المصابة بالقحط والجوع، والتي كانوا يدفعون بها إلى ميدان القتال، للتخلص من خطرها على حكمهم، وإشباع غريزتها، على حساب المناطق المستقرة والخصبة، وفي مقدمتها الرافضة لحكمهم. وهناك الكثير من الأمثلة، التي وثقها الجرموزي في أكثر من موضع من كتاباته، وأدان من حيث لا يدري، الأعمال المشينة التي قام بها ذلك الإمام وغيره من الأئمة،[5] وأثبت الجرموزي أيضا، أن المتوكل إسماعيل، لم يتمكن من مد نفوذه، على بعض المناطق، إلا بالعنف، ولم يستقل بها، ولم يتقبلهم الناس، في معظم المناطق، التي يدعي أنه حكمها، ولم يتمكن من المحافظة على وحدة اليمن، أضف إلى ذلك أن الأقاليم التي سيطر عليها، كانت تخرج عليه، أو على من جاء بعده، بمجرد أن تعيد ترتيب صفوفها.

بناءً على ما سبق ذكره. ينبغي أن يأخذ الباحث

1. Blukacz, Francois: Le Yemen. 1993. S. 45-47.
2. Dresch, Paul: Tribes. 1989. S. 199f. قارن تلك الأعمال في: مطهر الجرموزي: تحفة الأسماع والأبصار.
3. Schulze, H.: Kleine Deutsche. S. 55-59.
4. Blukacz, Francois: Le Yemen. 1993. S. 45-46; Dresch, Paul: Tribes.1989. S. 199f.

5. قارن أعمال المتوكل إسماعيل في مخطوطة كاتب سيرته والمنحاز إليه: مطهر الجرموزي: تحفة الأسماع والأبصار، ج1+2. تحقيق: عبد الحكيم الهجري. وبخصوص عنوان المخطوطة المذكورة، لوحظ أن محمود علي السالمي، قد دون عنوانا مختلفا، لمدخل عنوان مخطوطة الجرموزي، واستخدمه مرارا وتكرارا في صفحات رسالة الماجستير التي نشرها عام 1998م. وعند مقارنة بعض صفحات المخطوطة، الواردة في هوامش رسالة السالمي، مع صفحات المخطوطة، التي نشرها الهجري، تبين أن أرقام صفحات المخطوطة عند السالمي، غير دقيقة، إضافة إلى ذلك، دون السالمي المقطع الأول من عنوان المخطوطة هكذا "نزهة " الأسماع" !!! بينما عنوان المخطوطة الحقيقي هكذا "تحفة الأسماع". للمقارنة انظر: محمود علي السالمي: محاولة توحيد اليمن. [...] الفصل الثاني والثالث.+ قائمة المصادر ص 196.

في الحسبان شروطاً- لا مجال هنا لشرحها- يجب توافرها؛ من أجل الاعتراف بنظام حكم معين، أو بشرعية استقلاله في حكم منطقة ما، أو بملكيته لها، وأن تكون تلك الشروط مرتبطة دائماً بدفع الضرائب طواعية، وغيرها من الجبايات، من قبل السكان، الذين يحكمهم ذلك الحاكم.[1] وإذا لم تتوفر تلك الشروط، يستحيل اعتبار ذلك الحاكم مستقلا، أو موحداً، وبذلك يمكن القول بأن وقوف بعض القبائل إلى جانب الإمام بدافع اقتصادي، لا يعد دليلا كافيا على سيادته عليها، ويتضح لنا القاعدة المذكورة لا تنطبق على الإمام المتوكل على الله إسماعيل، ولا على من جاء بعده من الأئمة، لعدم توافر تلك الشروط لديهم.

وكما ذكرنا آنفا، فإن القبائل اليمنية، تمنح ولاءها وتبعيتها من حين إلى آخر للحكام، ولكن بما يتفق ومصالحها الخاصة، وفي نفس الوقت، تجعل مواقفها من الأمور مرنة، وقابلة للتغيير والتبديل أو التراجع عنها في أي وقت، وبذلك تكون قادرة على الدفاع عن مصالحها، عند حدوث صراعات أو خلافات بينها وبين من تواليهم، وإذا تصادمت مصالحها مع حاكم معين، تقوم بتغيير ولائها له بسهولة، وتزمر شيخاً آخر، أو تجدد الاعتراف بزعيم سابق من بين صفوفها،[2] والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها ما يلي:

أصيبت الدولة القاسمية بالضعف، في القرن السابع عشر بعد وفاة الإمام المتوكل على الله إسماعيل، الذي أوصل حكم تلك الأسرة إلى قمة المجد، وبعد وفاته خسر ورثته بشكل سريع أغلب المناطق، التي كان قد سيطر عليها، الواحدة تلو الأخرى، فأثناء حكم ابنه الإمام المؤيد بالله محمد بن المتوكل إسماعيل- 1681- 1686- خرجت عليه قبيلة يافع، وطرد واليه عليها،[3] واختارت أحد أبنائها أميرا لها، وخسر الإمام المؤيد، ومن جاء بعده المنطقة المذكورة نهائياً، ومثّل خروج قبيلة يافع، خطراً كبيراً على الدولة القاسمية، وشكّل خروجها تحولا مهمًا، في طريق إضعافها وتفككها، ومن أهم أسباب رفض قبيلة يافع لسلطة الأئمة عليهم، والنتائج المترتبة على ذلك ما يلي:

- سياسة الأئمة الاقتصادية، المتمثلة في فرض الإتاوات، والجبايات المجحفة، وغير الإسلامية، على المناطق الجنوبية السنية، والمختلفة كماً وكيفاً، عما تفرضه على مناطق القبائل الجبلية الشمالية.
- سياسة الأئمة، في فرض مذهبهم الديني بالقوة، على مناطق تخالفهم مذهبيا.

خروج تلك المناطق المهمة عن سلطة الدولة القاسمية، خلق لها مشاكل سياسية واقتصادية وغيرها، للأسباب التالية:

- موقعها الزراعي الخصب جعلها أفضل مناطق اليمن.
- موقعها الجغرافي في وسط اليمن.
- كثرة محاصيلها الزراعية من البن والفواكه والخضروات والحبوب بأنواعها.
- تضاعف خسائر الإمام، بسبب خروج تلك المناطق المهمة.
- فقد الإمام أهم مصادره المالية، من الضرائب، والجمارك وغيرها من عائدات ميناء عدن الكثيرة والمهمة.
- أدى نقص العائدات المالية، إلى إضعاف الإمام

1. Blukacz, Francois: Le Yemen. 1993. S. 45-46; Dresch, Paul: Tribes.1989. S. 199f.
2. Serjeant; Lewcock: Sana'a. 1983. S. 73+82. فخري، أحمد: 1988²، ص. 204.
3. Serjeant; Lewcock: Sana'a. 1983. S. 82+84. فخري، أحمد: 1988²، ص. 204.

اقتصاديا وسياسيا وعسكريا، بشكل كبير:

- تحولت تلك الأموال، إلى خزانة سلطان لحج الجديد وقوت مركزه ضد الأئمة.
- خروج قبيلة العبادلة، شجع القبائل المجاورة لها، بالانضمام إليها، والتحالف معها.
- تكوين إتحاد قوي عام 1732م وانتخاب شيخ العبادلة،[1] سلطاناً لذلك الاتحاد.
- استقلال لحج، تحت قيادة "السلطان الجديد، فضل بن علي بن فضل بن صالح بن سلام العبدلي".[2]
- قيام السلطان فضل العبدلي، بقتل والي الإمام في لحج، بتأييد قوي من يافع والحوا شب، وبني الفضلي وغيرهم.[3]
- طرد والي الإمام من عدن من قبل حكام لحج.
- تمكن سلطان لحج، من كسب وشراء تأييد القبائل المجاورة له، من عائدات ميناء عدن الكثيرة.[4]

بناء على ما سبق؛ يصعب على الباحث، وصف سياسة الإمام المتوكل إسماعيل التوسعية، وورثته بالسياسة الوحدوية، لأن هدفها الأول كان يرمي إلى تحصيل الأموال وفرض الإتاوات، والجبايات، وتكديس الثروات، ولا يمكن مقارنتهم بمكارية اليمن القديم، ولا بسلاطين الدولة الرسولية، ولا بموحد اليمن عام 1990م الرئيس على عبد الله صالح.

مما لا شك فيه، أن سياسة المتوكل إسماعيل التوسعية، كان لها دوافع مادية، ولا يمكن حتى مقارنتها بمحاولة الملك علي بن محمد الصليحي، ونستطيع القول: إن ما حققه المتوكل من توسع، كان تحصيل حاصل، ناتج عن خروج العثمانيين من اليمن، وتركها في فراغ سياسي، كذلك عدم وجود منافسين له في الداخل،[5] وهي بهذا الشكل ليس لها اي دوافع وحدوية.

منذ مطلع النصف الثاني من القرن السابع عشر، بدأ ائمة الدولة القاسمية، يخسرون المناطق المهمة التي كانت باقية تحت سيطرة المتوكل إسماعيل، وفي سبعينيات ذلك القرن، سقطت تلك المناطق الواحدة بعد الأخرى، ورفض زعماء القبائل حكمهم، وامتنعوا عن دفع الجبايات إليهم، واختاروا بدلاً عنهم زعماء محليين، أو من قبائل مجاورة لهم، لتلك الأسباب وغيرها لا يمكن تطبيق القاعدة المذكورة أعلاه على أئمة الدولة القاسمية، او تصنيفهم ضمن من وحدوا اليمن.

ولقد تنافست على أرض اليمن قوى عالمية مختلفة، طيلة القرن التاسع عشر وكثفت وجودها على المناطق الساحلية تحديداً، وخاصة بعد الحملة الفرنسية على مصر- 1798- 1801- وفي عام 1839م. احتلت بريطانيا عدن، ومكثت فيها حوالي 128 عاما، ونتيجة للثورة التي قامت ضدها عام 1963، انسحبت بريطانيا من عدن عام 1967، ولكن التفكك بين شطري اليمن استمر حتى عام 1990، حينها فقط تحققت الوحدة اليمنية. عند هذه النقطة يتوقف القسم الأول من هذه الدراسة التاريخية، ليتم مقارنتها بالمحاولات المختلفة للوحدة الألمانية، قبل تقسيمها نهاية الحرب العالمية الثانية.

---

1. عن قبائل الحواشب، بني الفضلي، يافع والعبادلة: راجع على التوالي: كحالة، عمر: معجم 1985، ج 1، ص. 315، ج3. 923+ 1259؛ ج2: ص. 720؛ المقحفي، إبراهيم: معجم. 1988 ص. 424؛ الثور، عبدالله: الجنوب. ص15.
2. فخري، أحمد: اليمن. 1988، ص. 204؛ الثور، عبد الله: الجنوب. ص. 15.
3. Serjeant; Lewcock: Sana'a, 1983, S. 84-85
   الثور، عبدالله: الجنوب. 1986، ص. 15.
4. Serjeant; Lewcock: Sana'a. 1983, S. 84-85.
5. محمود، حسن: تاريخ اليمن. 1969. ص 281.

الوحدة الألمانية عبر التاريخ

من شارلمان إلى بسمارك 800-1871م.

مما لا شك فيه، أن ظهور ألمانيا كياناً دولياً، وتكوينها الداخلي، وتركيبتها السياسية، والاجتماعية، والتطور التاريخي لها، يختلف كثيرا عن حالة اليمن؛ ففي قرون عديدة، من التاريخ القديم الأوروبي كان الشعب الألماني مقسماً وموزعاً على شكل قبائل كثيرة وبمسميات عديدة؛ وفي القرون الميلادية الأولى، تكونت أكبر الجماعات من تلك القبائل وأهمها: القوط الشرقيين والقوط الغربيين والويندال والانجلو زاكسن والفرانكن [الفرنجة]. وفي عام 476م. تمكن القوط الشرقيون من الإطاحة بالإمبراطورية الرومانية، وحلوا محلها، وفي بداية القرن التاسع استطاع ملك الفرنجة شارلمان العظيم من تكوين إمبراطورية عظيمة، وشمل حكمه معظم أراضي أوروبا الغربية الحالية، وهكذا بدأت القبائل الجرمانية المختلفة، تذوب، داخل الدولة الجديدة، التي بدأ تكوينها في العصور الوسطى، على أيدي ملوكها العظام، أمثال شارلمان [كارل الكبير] الذي حكم من عام [768- 814م].

تفكك دولة شارلمان

بعد وفاة شارلمان، وابنه من بعده، دب الخلاف بين أحفاده، ونتج عنه تقسيم تلك الإمبراطورية الواسعة عام 843م بموجب اتفاقية فردون، ومن ذلك التقسيم تكونت ونمت أكبر دولتين فوق القارة الأوروبية على الإطلاق، هما ألمانيا وفرنسا، في تلك الفترة كان الملوك والأباطرة يحكمون مناطقهم شكليا؛ وكان كبار الأمراء والملوك الصغار، شبه المستقلين، يتقاسمون حكم المقاطعات تحت قيادة قيصرية صورية، ضعيفة جدا.[1] وفي العصر الحديث، خسر ملوك ألمانيا الضعاف الكثير من أراضيهم بسبب الحروب الدينية، وفي وقت مبكر من التاريخ الألماني، حصل بعض كبار أمراء المقاطعات المهمة، وبعض كبار رجال الدين، دون غيرهم، على حقوق انتخاب القيصر؛ وقد أدى ذلك النظام إلى عرقلة إقامة دولة وطنية موحدة في ألمانيا، في وقت مبكر من تاريخها الحديث.[2]

فشل الوحدة الألمانية عام 1848 م.

انتشرت أفكار الثورة الفرنسية وإصلاحات نابليون في طول القارة الأوروبية وبعد هزيمة نابليون عام 1815 تشكلت الرابطة الألمانية وأصبحت الجمعية الوطنية أو برلمان فرنكفورت المرجع الأعلى لكل الإمارات الألمانية، وفي عام 1848 قامت الثورة في جميع الدول الأوروبية بما فيها ألمانيا، وأثناء الثورة عقدت انتخابات برلمانية حرة، وأتفق نواب الجمعية الوطنية المنتخبون على توحيد ألمانيا، وعقدوا اجتماعاً في كنيسة القديس باولوس في فرنكفورت، واختاروا ملك بروسيا، قيصرا لكل ألمانيا، لكن الملك المذكور رفض عرض ممثلي الشعب، وارتكب خطأ كبيرا، وتسبب الملك البروسي في تأجيل الوحدة الألمانية قرابة 23 عاماً. وحينما أصبح السياسي البروسي الكبير "أوتو فون بسمارك" رئيسا لوزراء مملكة بروسيا عام 1862م، عمل في بداية الأمر على إضعاف القوى المعارضة لوحدة بلاده، وتمكن من ذلك؛ من خلال انتصاراته العسكرية الثلاثة، على الدنمارك عام 1864م، وعلى النمسا عام 1866م وعلى فرنسا- المعارض الكبير للوحدة الألمانية- عام 1870- 1871م، وفوق أرض العدو في قصر فرساي بفرنسا، أعلنت الوحدة وقيام "الرايخ الثاني" [ألمانيا القيصرية] عام 1871م،[3] وانتخاب ملك بروسيا فيلهلم الأول، قيصرا لألمانيا الموحدة، وتولى بسمارك منصب

1. Müller, H. M.: Schlaglichter. 2003. S. 31-38.

2. Müller, H. M.: Schlaglichter. 2003. S. 67f. S. 72f.

3. Schulz, Kjaus: Aus Deutschen. 1963. S. 89ff.;
Schulze, H.: Kleine Deutsche.1996. S. 123-127.

المستشار لتلك الإمبراطورية، حتى عام 1890م.[1]

واستمر الحكم الإمبراطوري في ألمانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، بعدها أجبرت الأسرة الحاكمة على التنازل؛ بسبب دورها في تلك الحرب، وحكمت بعدها جمهورية فيمار، حتى عام 1933م، حين وصل أدولف هتلر إلى سدة الحكم، واستمر حتى عام 1945م، وأدخل بلاده في حرب عالمية ثانية، هزم فيها، وتسبب في تقسيم ألمانيا عام 1945م.[2]

الوحدة الألمانية وقيام الإمبراطورية 1871

من بسمارك إلى هتلر 1871-1945 :

على الرغم من أن الأباطرة الألمان، من أسرة الهابسبورج، قد حكموا تلك البلاد أكثر من خمسة قرون تقريبا، وقد ورثوا عرش أسبانيا، وممتلكاتها فيما وراء البحار، حوالي قرنين من الزمن، - من بداية عهد الإمبراطور كارل الخامس، "الملك كارل الأول في أسبانيا" - ومع ذلك كله فإن الشعب الألماني لم يتمكن من تحقيق وحدته الوطنية، ولم ينجح الأباطرة في تشكيل دولة قومية ألمانية، كما حدث في فرنسا، وإنجلترا، وأسبانيا، ولقد تأخر توحد ألمانيا إلى سنة 1871م، على يد رئيس وزرائها، أوتو فون بسمارك، بعد أن قام بإضعاف القوى المعارضة لوحدة بلاده، وفي مقدمتها الإمبراطورية النمساوية، والإمبراطورية الفرنسية؛ وذلك بهزيمتهما عسكريا، وتأسيس إمبراطورية ألمانية عظمى، بديلة لإمبراطورية الهابسبورج، والرابطة الألمانية، وانضم إليها جميع الأمراء، والملوك الألمان، ولقد تحول ملوك بروسيا إلى أباطرة، واستمر حكمهم حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، وقد انتهت تلك الإمبراطورية بعد هزيمة ألمانيا في تلك الحرب.

1. Schulze, H.: Kleine Deutsche.1996. S. 129-138.
2. Schulz, Kjaus: Aus Deutschen.1963. S. 26ff.

تقسيم ألمانيا من عام 1945-1990 :

نتيجة لهزيمتها في الحرب العالمية الأولى، تشجعت القوى المنتصرة، على استقطاع أجزاء كثيرة من الأراضي الألمانية، وأجبروا حكومتها وشعبها على دفع تعويضات مالية كبيرة، وفرضوا عليها عقوبات تعجيزية، وكانت هذه العقوبات من أهم أسباب قيام الحرب العالمية الثانية، التي أشعل نارها النظام النازي، وقاد بلاده إلى هزيمة ثانية وكبيرة، وخلال ربع قرن من الزمن خسرت ألمانيا حربين كبيرتين، وعند نهاية الحرب الثانية، احتل المنتصرون عام 1945م كل الأراضي الألمانية.

وطبقاً لاتفاقية يلطا الموقعة في فبراير من عام 1945، بين كل من الزعيم السوفيتي ستالين، والرئيس الأمريكي روزفلت ورئيس الوزراء البريطاني تشرشل، والبيان الذي أصدره زعماء تلك الدول، - إضافة إلى فرنسا- في 1945/6/5م، أعلن الحلفاء أن أمور ألمانيا قد أصبحت بين أيديهم وتحت الحكم العسكري لتلك الدول، ثم قاموا بتقسيمها، إلى أربع مناطق عسكرية، وكونوا مجلسا رباعيا يتولى السلطة العليا فيها، وقرروا إعادة النمسا إلى الوضع، الذي كانت عليه قبل أن يضمها هتلر، واتفقوا أن يكون للعاصمة برلين وضعا خاصا، حيث تبقى تحت الإدارة الرباعية للحلفاء.

وفي الثاني من أغسطس 1945م وقع الحلفاء الثلاثة في بوتسدام على اتفاقية رسمت مصير ألمانيا ومستقبلها، حيث قاموا بفصل الأجزاء الشرقية منها، وأعطوها لبولندا، وتشيكوسلوفاكيا، وروسيا، وعدوا نهري الاودر ونيسه، نهاية الحدود الشرقية لألمانيا، وقامت تلك الدول بطرد معظم السكان الألمان من تلك المقاطعات المستقطعة.[3]

وبعد ذلك التاريخ بدأت الخلافات تظهر بين

3. Krockow, Ch. G. von: Die Deutschen.1992. S. 265-294.

المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي، واتفق المنتصرون أيضا على تعيين المناطق التي سيحكمها كل واحد من الأطراف؛ حينها حصلت فرنسا على جنوب غرب ألمانيا، وجنوبها الشرقي كان من نصيب أمريكا، وشمالها الغربي لبريطانيا وشرقها جاء من نصيب السوفيت، وقسمت العاصمة برلين قسمين، شرقها وضع تحت السيطرة السوفيتية، وأصبح بعد ذلك عاصمة ألمانيا الشرقية، وغربها حكمته إدارة مشتركة مكونة من أمريكا وانجلترا وفرنسا. واستمر الحكم العسكري حتى 1949م والقواعد العسكرية حتى عام 1990م، على الرغم من قيام دولتين. وقد تسبب تقسيم ألمانيا في ظهور الكثير من الصراعات والخلافات بين الشرق والغرب، وحدوث أزمات بين السوفيت من جهة، وأمريكا من جهة أخرى، شكلت أهم عوامل قيام الحرب الباردة؛ وأخطر تلك الأزمات، ظهرت خلال حصار برلين عام 1948، وأثناء تقسيم ألمانيا إلى دولتين عام 1949، وعند بناء جدار برلين عام 1962.[1] أدت المصالح والأهداف المتناقضة جدا بين دول الحلفاء، إلى تقسيم ألمانيا عام 1945، إلى دولتين.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وتقسيم ألمانيا بين المنتصرين إلى أربع مناطق، بما فيها العاصمة برلين، التي أصبحت مقرا لمجلس حكمهم، وكان الحلفاء قد قرروا قبل ذلك أن يشتركوا في حكمها حتى عام 1947، وبسبب خلافاتهم المتكررة، التي ظهرت بعد ذلك، وأوصلتهم إلى حافة الحرب الباردة مراراً؛ قرر الحلفاء الغربيون، عام 1949 تأسيس دولة ألمانية جديدة، في المناطق الخاضعة للسيطرة الفرنسية والبريطانية والأمريكية، وأطلقوا عليها "جمهورية ألمانيا الفيدرالية" وعاصمتها بون، وبعد وقت قصير من عام 1949م، دعم الإتحاد السوفيتي في المنطقة الواقعة تحت سيطرته، قيام جمهورية "ألمانيا الديمقراطية"، وعاصمتها شرق برلين. وبعد قيام الدولتين، أخذت كل واحدة منهما تزعم أحقيتها في وراثة دولة ألمانيا المنحلة عام 1945م، وبعد ذلك غيرت ألمانيا الشرقية موقفها، وأصبحت تقول إن تلك الدولة لم يعد لها وجود بعد عام 1945م، وإن كلا من ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية دولتان حديثتا التأسيس.[2]

وفي عام 1952م ظهر أول مقترح يدعو إلى إعادة توحيد ألمانيا، تقدم به الزعيم السوفيتي ستالين، مشترطا ما يلي:

- أن يطبق على ألمانيا شروط مشابهة للتي فرضها الحلفاء على النمسا.
- أن تكون ألمانيا دولة محايدة.
- أن تكون نهاية حدودها الشرقية نهري الأودر ونيسه.
- أن تخرج جميع قوات الحلفاء منها خلال عام واحد.

أهدر مستشار ألمانيا الغربية حينذاك- كونراد اديناور- تلك الفرصة، تماما كما فعل قبله ملك بروسيا عام 1884م- وقرر الاندماج بشكل أكبر مع أوربا الغربية، لكنه طالب أن تجرى تدابير عملية إعادة التوحيد تحت إشراف واستفتاء دولي يشمل كافة ألمانيا، غير أن السوفيت رفضوا ذلك المطلب، وقدم ستالين مقترحاً آخر، دعا فيه إلى إعادة توحيد ألمانيا بحدودها عام 1937م على أن تنضم إلى الكتلة الشرقية، ولم يجد ذلك الاقتراح استجابة من جانب الحلفاء الغربيين.[3]

وبعد تأسيسها عام 1949م نهجت ألمانيا الفدرالية، سياسة جديدة، حولتها إلى دولة برلمانية، ديمقراطية، رأسمالية، وأدى ذلك التحول الذي بدأت العمل به عام 1950م. إلى نمو اقتصادي كبير، استمر ثلاثين عاما في غرب ألمانيا. وصف بالمعجزة الاقتصادية "Wirtschaftswunder". أما في شرق

1. Schulze, H.: Kleine Deutsche.1996. S. 221-259.

2. Müller, H. M.: Schlaglichter. 2003. S. 308-322.
3. Hellwig, G.; Linne, G.: Daten. 1989. S. 440.

ألمانيا، فقد تشكلت فيه حكومة شمولية، بنظام اقتصادي، مشابه للنظام المتبع في الاتحاد السوفيتي، ومقارنة بغيرها، فقد كانت أكثر دول الكتلة الشرقية تطورا ورفاهية، ورغم ذلك كان الكثير من سكانها يتطلعون إلى حرية سياسية أوسع، ونمو اقتصادي أكبر؛ مما أدى إلى تزايد أعداد المهاجرين من شرق برلين إلى غربها، وهو الأمر الذي جعل حكومة ألمانيا الشرقية، تفكر في خلق نظام حدودي أكثر أمانا، لوقف الهجرة، وصل ذروته، عند بناء جدار برلين عام 1961.[1]

إعادة توحيد ألمانيا عام 1990م.

الظروف التي هيأت لقيام الوحدة

ظلت ألمانيا مقسمة، حتى وصول ميخائيل غورباتشوف إلى سدة الحكم في الاتحاد السوفيتي عام 1985، وقيامه بنشر كتابيه "البروسترويكا والجلاسنوس" الذي دعا فيهما إلى الشفافية وإعادة البناء، وكان لهما أكبر الأثر فيما حدث في أوروبا الشرقية عام 1989- 1990.[2]

وفي ألمانيا الشرقية، كانت نقطة الصفر، يوم إعلان نتيجة الانتخابات، التي نظمتها حكومة ألمانيا الشرقية عام 1989، المخيبة للآمال، وشعر الناس حينها بالإحباط، وبدأوا يستعدون للاحتجاج، ويطالبون بانتخابات جديدة،[3] وتحول ذلك تدريجيا إلى حركة ديمقراطية، انتشرت سريعا في جميع دول أوروبا الشرقية، ويمكن حصر أهم الأسباب التي أدت إلى قيام تلك الحركة في النقاط التالية:

1- الإصلاحات السياسية، التي تبناها الرئيس السوفيتي جورباتشوف، ونشرها في كتابيه "البروسترويكا والجلاسنوس" وهي التي أدت إلى انسحاب القوات الروسية من الخارج، وعودتها إلى بلادها، وخفض ميزانية الدفاع، ووقف سباق التسلح.

2- تزايد النشاط السياسي للمعارضة السياسية، ودعاة الحقوق المدنية، في ظل حماية اتفاقية الأمن والتعاون KSZE.

3- التطور الاقتصادي الملحوظ في غرب أوربا.

4- التطور المستمر في قضية الوحدة الأوربية، وتأثيره في شرق أوربا.

5- الاحتجاجات المستمرة على التلاعب، في نتيجة الانتخابات، التي تمت عام 1989م.[4]

ومما تجدر الإشارة إليه، فإن المقدمات الأولية لثورة ألمانيا الشرقية، قد بدأت متزامنة، مع صدور قرار السماح للألمان الشرقيين، بزيارة ألمانيا الغربية، لأول مرة منذ بناء حائط برلين عام 1961م، حينذاك قدم عشرات الآلاف من الناس، طلباتهم إلى دوائر الهجرة، في ألمانيا الشرقية، للحصول على تصاريح خروج، وتطور الأمر سريعا، ولجأت أعداد كبيرة منهم، إلى السفارات، والبعثات الألمانية الغربية، في كل من وارسو، وبراغ، وبودبست، إلى مقر البعثة الدائمة، لألمانيا الفدرالية، في برلين الشرقية نفسها؛ اقنعت تلك الأحداث قيادة ألمانيا الشرقية، بأن سياستها التي مر عليها 28 عاما - منذ بناء جدار برلين- لم تنجح، ولم تمنحهم ثقة الناس.[5]

وفي مطلع النصف الثاني من عام 1989م، بدأت الحركة في ألمانيا الشرقية، تحاكي ما يجري في دول أوروبا الشرقية الأخرى، المجر، تشيكوسلوفاكيا وبولندا؛ فتشجع زعماء المعارضة السياسية، ودعاة الحقوق المدنية، الذين ضايقتهم الأنظمة الشمولية الشرقية، وبدءوا بتنظيم الاجتماعات، والدعوة لمظاهرات عامة، داخل المدن الألمانية الشرقية، التي انتظم انعقادها بشكل متواصل، وتعاظم أعداد

1. Müller, H. M.: Schlaglichter. 2003. S. 371-377.
2. Krockow, Ch. G. von: Die Deutschen. S. 270-286.
3. Lehmann, H.G.: Deutschland. 2002. S. 357-376.
4. Müller, H. M.: Schlaglichter. 2003. S. 432ff.
5. Klett-Cotta: Das Europäische. 2001. S.390ff.

المشاركين فيها يوميا، ولم تتوقف إلا بعد سقوط النظام، وهدم جدار برلين، وموافقة دول الحلفاء على إعادة توحيد ألمانيا، وقيام انتخابات حرة، وتوقيع الجانبين على اتفاقية الوحدة.

فيما بدأ الجمهور بانتقاد سياسة الدولة المعادية، واعدوها سبب الهروب الجماعي نحو الغرب، واستخدموا شعارات ذكية ومعبرة، تحمل معاني غاية في الأهمية، ولم يتناولوا مسألة الوحدة إلا في مراحل الثورة الأخيرة، وكانوا يهتفون: نريد إصلاحات جذرية، لا للعنف، سنبقى هنا، نحن الشعب، نحن شعب واحد، اذهبوا انتم، الديمقراطية الآن، أيها الألمان مدوا أيديكم لبعض، تصافحوا، لا للدكتاتورية، نريد انتخابات حرة من غير امتيازات، الزهور بدل الشموع ألمانيا ألمانيا، وحدوا أرض الآباء.[1]

وتزايد أعداد المحتجين يوميا بشكل ملحوظ، وتحت ضغط الجماهير، استقال الرئيس إريك هونيكر، مع الكثير من رجال دولته، وكبار أعضاء حزبه، في أكتوبر عام 1989، ثم بدأ العد التنازلي لسقوط الحزب الحاكم، وتواصلت الثورة وبدأ النظام الجديد يسمح للناس بعبور الجدار إلى غرب ألمانيا، وقد زاد عدد المتظاهرين، حتى وصل إلى أكثر من نصف مليون متظاهر، وأخيرا تم إزالة الجدار، وأصبحت برلين من الناحية العملية موحدة، ولكن سقوط جدار برلين بتلك السرعة غير المتوقعة، لم يكن يعني نهاية ألمانيا الشرقية، لأن المسألة كانت تحتاج إلى تأييد الرأي العام المحلي والعالمي. وفي خطاب جماهيري في برلين ألقاه السياسي المخضرم، ومستشار ألمانيا السابق "فيلي براندت" قال فيه عبارته المشهورة: ما ينتمي إلى بعضه، يجب أن ينمو معاً، وطالب المستشار هيلموت كول، بعقد اتفاقية كون فيدرالية.[2]

التوقيع على اتفاقية الوحدة

تطورت الأحداث نحو الأفضل وأصبح تحقيق الوحدة مسألة وقت لا غير، وأثناء محادثات 2+4 المشهورة، وافق وفود الدول المنتصرة، على إعادة توحيد ألمانيا، ومنع إقامة قواعد عسكرية، لحلف الناتو في القسم الشرقي منها، وشكل الساسة الجدد في شرق ألمانيا حكومة انتقالية، أعدت البلاد لانتخابات برلمانية حرة عقدت في 1990/3/18.

خول البرلمان المنتخب في ألمانيا الشرقية، الحكومة الجديدة بالتفاوض، مع وفد حكومة القسم الغربي، وقام الطرفان بصياغة اتفاقية الوحدة، التي تم توقيعها يوم 1990/10/3، وإعلان ضم الولايات الشرقية، مع الولايات الغربية، في دولة واحدة، واعتبار ذلك التاريخ، اليوم الوطني لألمانيا. وأصبح دستور ألمانيا الاتحادية- من غير تعديل- دستورا لألمانيا الموحدة، وتم تحديد يوم واحد لتغيير العملة الشرقية، وبعد ذلك أصبحت ألمانيا، أكبر دولة في أوروبا، يسكنها حوالي 80 ثمانين مليون نسمة، ومنذ زمن بعيد كانت تقود أوروبا اقتصاديا.

بعد سنوات من الوحدة، شعر بعض الشرقيين، بخيبة الأمل، وعبروا عن ذلك، بإطلاق شعارات جديدة، تطالب بإعادة بناء جدار برلين عاليا فوق الرؤوس، وبخروج الغربيين من شرق ألمانيا.[3]

ازدادت أهمية برلين، بعد أن نقلت إليها معظم الدوائر الحكومية الفيدرالية مقارها الرئيسية، إضافة إلى نقل الدول الأجنبية لبعثاتها الدبلوماسية من بون إلى برلين، واليوم تستثمر الحكومة الفيدرالية، مئات الملايين من اليورو في تنمية البنية التحتية في المدينة، تماما كما حصل مع معظم مدن ألمانيا الشرقية، وتملك المدن الشرقية الكبيرة مثل دريسدن وليبزغ

1. Müller, H. M.: Schlaglichter. 2003. S. 432f.; S. Medien: 2000 Jahre.1999. S. 768-785.
2. Müller, H. M.: Schlaglichter. 2003. S. 432f. S. Medien: 2000 Jahre. S. 768-785.

3. معد هذه الدراسة، كان شاهد عيان، لأحداث الوحدة الألمانية، ساعة بساعة، وخبير في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر وعلاقته بالعالم العربي.

أحدث أنواع وسائل النقل، وأصبحت بنيتها التحتية تضاهي مثيلاتها في مدن القسم الغربي من ألمانيا.

وجوه الشبه والاختلاف بين الوحدة اليمنية والألمانية عام 1990م.

العلاقات اليمنية الألمانية قبل الحرب العالمية الثانية

بدأت العلاقة الدبلوماسية اليمنية، مع ألمانيا الاتحادية، في خمسينيات القرن العشرين، وبعد قيام الثورة اليمنية عام 1962م كانت ألمانيا من أوائل الدول التي اعترفت بها، وفتحت مقراً لبعثتها الدبلوماسية في تعز. وفي عام 1965 قطعت اليمن تلك العلاقة، بسبب اعتراف ألمانيا بدولة إسرائيل، وعند وصول عبد الرحمن الإرياني إلى سدة الحكم في اليمن، وتشكيله للحكومة الجديدة التي، تميل إلى المعسكر الغربي، استأنف البلدان علاقاتهما في منتصف عام 1969.[1]

أما العلاقات الإنسانية بين الشعبين، فإن لها جذوراً عميقة عمرها حوالي 400 عام، وقد أثبتت الدراسات الحديثة، أن أحد الألمان كان موجودا في مدينة تعز عام 1618، وكان يحمل رتبة عسكرية كبيرة، وعمل مدربا للجيش التركي، و أعتنق الإسلام. فيما ذكرت رواية أخرى، أن الألماني هانس فليه، من ولاية توري نجن، وصل إلى اليمن عام 1606م بعد أن أسره الأتراك في المجر التي كانت تابعة للإمبراطورية الألمانية، وبيعَ في سوق الرقيق عدة مرات، وجاء إلى اليمن قادما من مصر، وعاد إلى بلاده، ونشر قصة حياته في كتابين، وكتب عن اليمن بعض الأخبار القليلة.

وفي عام 1762 وصل إلى اليمن، الرحالة الألماني كار يستن نيبور، في رحلة علمية جماعية، مونها ملك الدنمرك، وباستثناء نيبور، مات باقي أفراد الرحلة، وأغلبهم مات في اليمن. وفي مطلع القرن العشرين، زار اليمن الرحالة الألماني أولريك سيتزن، وتوفى فيها عام 1810 في حادث غامض.

وفى عام 1843 زار اليمن الباحث الألماني ادولف فون فيرده، وما بين عام 1882- 1894 زار اليمن، اكثر من مرة، العالم النمساوي الشهير، ادوارد جلازر، ورافقه العالم الألماني هرش، وقاما بجمع اكبر عدد من النقوش اليمنية القديمة، وفي عام 1909 زار اليمن العالم الألماني الكبير والمصور المحترف، يورك هارك، وقتل في ناحية العدين.[2]

مجالات التعاون بعد الحرب العالمية الثانية :

في الواقع كان التعاون المشترك، بين اليمن وألمانيا، - خلال الأربعين عاماً الماضية- متمثلاً في المساعدات الكبيرة، التي تقدمها ألمانيا لليمن، في كثير من المجالات، وبلغ حجم المساعدات الألمانية لليمن منذ قيام ثورة 26 سبتمبر حتى اليوم، ما يزيد على اثنين مليار يورو، ونسبة كبيرة من تلك المبالغ مخصصة لمجالات التعليم والصحة، والبيئة، والصرف الصحي، والتعليم المهني، والزراعي، وتطوير وتحسين الأداء الإداري.

وخلال العقود الأربعة الماضية، تم تأهيل قرابة 4000 أربعة آلاف دارس يمني في ألمانيا، بقسميها الشرقي والغربي، وبعض منهم حصل على درجة الدكتوراه، كما أن بعضهم الآخر حصل على درجة الماجستير في مختلف العلوم، وفي السياق ذاته عمل في اليمن في الفترة المذكورة حوالي 3000 ثلاثة آلاف خبير ألماني. ويحسن الإشارة إلى أن ألمانيا قامت ببناء مطار صنعاء الدولي، وطريق صنعاء تعز، والعديد من مشاريع المياه والصرف الصحي، والمعاهد المهنية، والبحوث الأثرية والترميم، وفي مجال تطوير التعليم، وبناء بعض الوحدات الصحية والدعم المادي في إقامة معارض دولية بالخارج تعرف باليمن، مثل معرض

1. Vestring, A.B.: Deutsche Botschaft. 1999. S.8-11. De.

2. Wald, P.: Fast 400 jahre. S. 13-19.Arab.

ميونيخ عام 1986 ومعرض هانوفر عام 2000.[1]

وفي الساحة الدولية، تعاون اليمن مع ألمانيا في مسألة الوحدة، وتقرير مصير الشعبين. وساندت ألمانيا السياسة اليمنية، ضد محاولة الانفصال عام 1994 في المحافل الدولية، عامة وفي البرلمان الألماني والأوربي خاصة. واليمن من جانبها تساند الحكومة في طلبها الحصول على مقعد دائم في مجلس الأمن،[2] وقد أعلن ذلك فخامة الرئيس علي عبدالله صالح، في قصر الرئاسة بصنعاء، أثناء زيارة المستشار الألماني جيرهارد شرويدر لليمن عام 2004، وموقف اليمن هذا لم يتغير حتى اليوم.

وجوه الشبه والاختلاف:

- من حيث النشأة، هناك فارق تأريخي كبير لصالح اليمن المعروف منذ آلاف السنين، ويختلف البلدان في النواحي، الشكلية والسياسية والاقتصادية والزراعية والصناعية والتعليمية وغيرها.

ومن حيث الموقع، يختلف البلدان جغرافيا ومناخيا وسكانيا؛ فألمانيا تقع في قلب القارة الأوروبية بكل مميزاتها؛ واليمن تقع في جنوب غرب القارة الأسيوية، وينقصها ما تتميز به ألمانيا، والفوارق كبيرة جدا لصالح ألمانيا، ويختلف البلدان أيضا من حيث الجنس، واللغة والدين، والعادات والتقاليد، ولا يوجد أي تشابه بينهما، لا في مسألة التقسيم ولا في مدتها ولا في عوامل قيام الوحدة.

- الوحدة اليمنية تمت بين زعيمي الدولتين السابقتين للوحدة، وفي ألمانيا أطيح أولا بنظام ألمانيا الشرقية من قبل شعبه وتم التوقيع على اتفاقية الوحدة مع القسم الغربي من قبل حكومة وبرلمان منتخب ديمقراطيا من قبل سكان القسم الشرقي فقط. من الناحية الزمنية اليمن سبقت ألمانيا في تاريخ إعلان الوحدة بشهور قليلة. وفي الوقت الذي أكد فيه بقاء صنعاء عاصمة اليمن التاريخية عاصمة لدولة الوحدة، بينما تحولت عاصمة الجنوب إلى مدينة حرة، انتقلت عاصمة ألمانيا المؤقتة من بون إلى برلين العاصمة التاريخية لألمانيا، وذابت عاصمة ألمانيا الشرقية- برلين الشرقية- نهائيا. كما أن الوحدة اليمنية تمت بناء على العديد من اللقاءات والاتفاقيات التي أعلن عنها بعد سنين طويلة من المفاوضات، وتم فيها دمج الدولتين في دولة واحدة فورا.

في واقع الأمر، لم يكن تحقيق الوحدة الألمانية ممكنا، إلا بعد موافقة الدول التي قامت بتقسيمها؛ أما الوحدة اليمنية، فإنها قد تحققت، بناءً على رغبة شعبية وحكومية، ولم يكن الشعب والحكومة بحاجة إلى موافقة خارجية من أحد.

- لم تكن اليمن بحاجة إلى موافقة قوى أجنبية، لكي تتوحد، في حين توجب على ألمانيا الحصول على موافقة الدول التي قامت بتقسيمها، ولم تتوحد إلا بعد توقيع تلك الدول على اتفاقية 2+4 [1- حكومة ألمانيا الشرقية 2- وحكومة الغربية + 1- روسيا 2- وفرنسا 3- وأمريكا 4- وبريطانيا].

- وفي حين أسقط سكان القسم الشرقي نظامهم السابق بالعصيان المدني السلمي، وانتخبوا بدلا منه حكومةً وبرلماناً بشكل ديمقراطي، وتولت الحكومة المنتخبة المفاوضات مع الحكومة الاتحادية - الغربية- وتوقيع اتفاقية الوحدة معها؛ قامت الوحدة اليمنية، كانت اليمن خالية من أي قواعد عسكرية أجنبية، لكن ألمانيا كانت تعاني من وجود قواعد عسكرية وأسلحة ذرية للدول المنتصرة عليها.

- نلاحظ هنا عدم وجود أي تشابه لا في المسيرة التاريخية ولا في أسباب تقسيم البلدين. ولكن الشبه الكبير والوحيد الذي يمكن تأكيده هنا هو

1. Wald. P.: Fast 400 jahre. S. 1-6.De.

2. تصريح الرئيس علي عبد الله صالح، أثناء زيارة المستشار الألماني شرويدر لليمن عام 2004.

أن النظام الشيوعي الضعيف اقتصاديا الذي تشكل وحكم القسم الشرقي من ألمانيا بعد الحرب الثانية، وعد التقسيم أمرا واقعا، لا رجعة فيه، ولم تهمه الوحدة في شئ: تشكل نظام شبيه له في جنوب اليمن بعد الاستقلال، وارتبط الطرفان بالمعسكر الشرقي الاشتراكي سياسيا واقتصاديا وعسكريا وثقافيا وغير ذلك.

أما القسم الغربي من ألمانيا فقد تكون فيه نظام سياسي رأسمالي قوي اقتصاديا ودولة أصبحت قوية بعد الحرب العالمية الثانية وعضوا في التكتل الغربي العسكري من ناحية والاتحاد الأوروبي الاقتصادي الرأسمالي والسياسي والثقافي من ناحية أخرى. وكانت ألمانيا الغربية تعد نفسها ممثلة للشعب الألماني بأكمله، لكن ذلك التقسيم الذي فرضه المنتصرون، وظهور كيانين سياسيين مختلفين تماما في القسمين، تسببا في خلق قطيعة حقيقية بين أبناء الشعب الواحد. فلم يكن من السهل على سكان القسمين عبور الحدود المصطنعة إلا نادرا وبشكل صعب جدا وبجوازات سفر مثلهم مثل الأجانب، ولم تطرح مسألة الوحدة للنقاش من قبل حكومات الطرفين من تاريخ التقسيم 1945 حتى نهاية عام 1989م عندما أسقط سكان ألمانيا الشرقية آخر حاكم لهم هو هونيكر.

وكان الوضع مختلفا تماما في اليمن، فقد كانت حركة السكان بين الشطرين شبه عادية في جميع المراحل، وبالبطاقة الشخصية أو بدونها، وكانت قضية الوحدة تطرح علنا كونها مطلبا شعبيا وحكوميا يجب تحقيقه، وبقيت سياسة اليمن الشمالية شبه محايدة، تربطها علاقات مع كثير من دول العالم على عكس ألمانيا الشرقية والغربية، وكانت حكومة جنوب اليمن تأخذ بالنظام الاشتراكي.

- إذا ليس هناك أي تشابه في سياسة البلدين، فالمطالبة بإعادة توحيد ألمانيا كانت شبه مستحيلة: لأن التقسيم فرض عليها فرضا، عقابا لها من قبل الدول المنتصرة، وقبلت القيادات السياسية التي حكمت بعد انتهاء فترة الحكم العسكري، ذلك التقسيم مكرهة، وأيضا استمرت الدول المنتصرة تعسكر بقواتها الكبيرة فوق الأراضي الألمانية. وظلت حدود الشطرين تشكل خطوط المواجهة الأولى بين المعسكر الشرقي والغربي طوال سنوات الحرب الباردة.

- وفي الوقت الذي كانت فيه مسألة الوحدة الألمانية عبارة عن حلم، وتحقيقه يحتاج إلى معجزة. وفعلا تحققت تلك المعجزة، من غير تخطيط ولم تكن في الحسبان أن تتم بهذه السرعة، وإنما تحققت نتيجة لسياسة غورباتشوف التي خلقت ظروفاً عالمية جديدة كان لها آثارا إيجابية، وسلبية في العالم كله، وقد استفاد الألمان من نتائج تلك الأحداث السياسية وانطبق عليهم المثل القائل "مصائب قوم عند قوم فوائد".

- كانت أوضاع اليمن مختلفة تماما؛ فالتقسيم لم يفرض على الشعب اليمني، بعد هزيمة، أو عقاباً له على ذنب اقترفه؛ وإنما حدث التقسيم بسبب إهمال وضعف الأتراك أولا، وآل حميد الدين ثانيا، الذين تركوا بريطانيا تحتل أجزاء من الوطن، وتستمر في احتلالها لها، في ذروة التنافس الاستعماري، ولم يقاوموا الاحتلال في حينه أو يقاتلوا من أجل تحرير الوطن واستعادة وحدته الوطنية طوال سني حكمهم. ولقد حكم العثمانيون- من الناحية النظرية- شمال اليمن قرابة 80 عاما بعد التقسيم، ولكنهم انسحبوا من اليمن عام 1919م، بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الثانية وتسلط عليها من بعدهم أسرة حميد الدين، قرابة 50 عاما، حتى عام 1962م، ولم يهتموا خلالها سوى بتثبيت نظام حكمهم، وفرض الإتاوات، واضطهاد الشعب، وقمع الوطنيين، وهم بالفعل لم يختلفوا كثيرا عن أجدادهم أئمة الدولة القاسمية.

وبعد قيام ثورة 26 سبتمبر عام 1962م. في الشمال، وثورة 14 أكتوبر عام 1963م. في الجنوب التي شارك في قيامها، والدفاع عنها أبناء الشعب اليمني من الشطرين، وبمساعدة شعب مصر، حينها صارت وحدة التراب اليمني، هدفاً قومياً، ومطلباً شعبياً؛ وبذلك بدأ

العمل الجاد من أجل تحقيق الوحدة الوطنية، وبالكفاح المسلح تم إخراج المستعمر الغاصب، الذي كان السبب الأول في تقسيم الوطن، وبعد التحرير والجلاء، عام 1967م. ازدادت المطالبة الشعبية بتحقيق الوحدة الوطنية، لكنها واجهت العديد من العوائق والتحديات والأخطار، والمؤامرات الخارجية والداخلية، وقادت إلى حربين دمويتين بين الأشقاء، وأخيراً حانت الفرصة المناسبة، وتحققت الوحدة الوطنية يوم 1990/5/22م. تحت قيادة الرئيس علي عبد الله صالح، ومن شاركه من الوطنيين، الذين لم يتركوا الفرصة تفوتهم وحققوا ما عجز عن تحقيقه أسلافهم، وهؤلاء الذين بذلوا الكثير من أجل تحقيق الوحدة الوطنية، دافعوا عنها، ولم يتركوا محاولات الانفصال تنجح.

لقد تميز علي عبد الله صالح، عن غيره من حكام القرون السابقة في اليمن، الذين فشلوا في تحقيقها، أو في الدفاع عنها، وقد وقف الشعب اليمني مع قيادته السياسية، في كل مراحل الوحدة، مؤيدا ومناصرا لها، ومدافعا عنها ومحافظا عليها، بعد ذلك التاريخ بدأت اليمن تتحول إلى دولة ديمقراطية جديدة، لها دستور وقوانين، واسم وعلم وشعار ونظام حكم رئاسي جديد، وتقسيمات إدارية مختلفة، وبرلمان ينتخب دوريا، واحتفظت دولة الوحدة، بعاصمتها التاريخية بعد تقسيم طويل مدته تساوي ثلاثة أضعاف مدة تقسيم ألمانيا.

إن الاختلافات الواضحة في أسباب التقسيم وعوامل التوحد في البلدين، لا تمنع من وجود بعض وجوه تشابه بينهما، وتتمثل في أن الوحدة اليمنية والألمانية قد تمت بنفس العام؛ فبعد وقت قصير من توحيد اليمن، تحققت وحدة ألمانيا، وقد حصلت اليمن على تشجيع وتأييد ودعم قوي من قبل حكومة ألمانيا الاتحادية، كذلك وقفت ألمانيا في صف الشرعية، ضد محاولة الانفصال التي تلت قيام الوحدة، وقدمت الدعم المادي والمعنوي لإنجاح مسيرة التحول الديمقراطي، والتطور الاقتصادي، والبنية التحتية، في حين حاول الأقربون منا، منع قيام الوحدة الوطنية ولكنهم فشلوا في ذلك.

واليمن من جانبها، أيدت مساعي الدولة الألمانية في تحقيق الوحدة، محليا ودوليا، وفرح الشعب اليمني واحتفل بتحقيق الوحدة الألمانية، كما لو كانت قضيته الخاصة، ليس ردا للجميل فقط، ولكن روح الوحدة والمحبة والإيمان بحق الألمان في تقرير مصيرهم كانت دوافع ذلك.

من ذلك كله نستنتج أن وحدة اليمن وألمانيا جعلت الدولتين أكثر استقلالية في قراراتهما، أكثر استقراراً في الوضع الداخلي، ومن حينها تناقص الخوف من قيام حرب عالمية ثالثة، بين الدول الكبرى، فوق أراضي ألمانيا، وزال خطر قيام حرب بين شطري اليمن، وهو ما حدث قبل ذلك أكثر من مرة.

ولا بد من تأكيد، أن فرصة توحيد البلدين قد تم استغلالها في الوقت المناسب، وأن التساهل فيها، - لو حدث- كان سيؤدي إلى ضياع الفرصة نهائيا، وعدم تكرارها. إضافة إلى ذلك، فقد ساهمت الوحدة الألمانية إلى حد كبير، في المتغيرات السياسية، والاقتصادية، في أوروبا الشرقية، وتحويلها إلى دول حليفة للغرب، بعد أن كانت خصما لها، وأيضا أسهمت الوحدة الألمانية، في إسقاط حلف وارسو، وتفكيك الاتحاد السوفيتي، والقضاء على التوازن الدولي، فوق القارة الأوروبية والعالم، وتقوية المعسكر الرأسمالي، وتوسيع وتقوية حلف الناتو، فوق أراضي أوروبا الشرقية، التي كانت خصما له، وأصبحت ألمانيا تشارك في صنع القرارات العالمية، السياسية منها والعسكرية، بوجه خاص، وتشترك بجيوشها في حروب خارج نطاق حلف الناتو، بعد أن كانت الدول الكبرى تمنعها، ودستورها يحرم عليها ذلك، قبل إعادة الوحدة.

مما لا شك فيه أن الوحدة اليمنية والألمانية قد تمت بالطرق السلمية، التي يمكن أن يستفيد منها الشعب الكوري، والصيني والقبرصي، إذا قرروا العمل من أجل تحقيق وحدتهم، أدركوا أن قوتهم

ورفاهيتهم والحفاظ على استقلالهم والسير في ركب الحضارة مع شعوب العالم المتقدم، لا يمكن الوصول إليها إلا بالوحدة القومية.

وفي المجال الخارجي أيضا، حققت ألمانيا نجاحات كبيرة، في القارة الأوروبية، وبمساعيها الحثيثة، أصبحت الوحدة الأوروبية الشاملة، مسألة وقت فقط، وذلك لأنه قد تحقق الكثير من الوحدة الأوروبية، من بعد توحيد ألمانيا، وبدافع منها في أكثر من مجال. وإن أسباب ذلك النجاح السريع والمتواصل، يعود إلى رغبة الشعوب الأوروبية، واستعدادها لتحقيقها، حتى وإن كان الثمن غاليا؛ فقد تحمل دافع الضرائب الألماني أولا ثم الفرنسي والهولندي ثانيا تكاليف الوحدة الأوروبية، وقد أصبحت قوانين البرلمان الأوروبي، فوق كل القوانين الوطنية لتلك الدول، وفي حقيقة الأمر، فإن أوروبا قد صارت من الناحية العملية موحدة. وعلى مسرح السياسة الدولية، أصبحت ألمانيا الموحدة تلعب دورا كبيرا جدا، نظرا لمكانتها الاقتصادية والسكانية والعلمية والجغرافية أكبر من ذي قبل.

وتشترك اليمن مع ألمانيا، في الرغبات والأمنيات، والأقوال والأفعال أيضا، في إقامة عالم حر ومستقر، وسلام عالمي ودائم. ويتضح ذلك من خلال الجهود المستمرة، التي تبذلها اليمن على المسرح العربي، من أجل تحقيق الوحدة العربية الشاملة، بالطرق السلمية، وتقديم مشاريع، ومقترحات، تخدم أهداف الأمة ومصالحها ورغباتها، وتشجيعها الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان العربي، وتعمل بكل ما لديها من إمكانيات- بالطرق السلمية- على حل مشاكلها مع جيرانها، وتساعد الآخرين على حل مشاكلهم، وإنهاء خلافاتهم وحروبهم والحفاظ على وحدتهم، وتعمل في جميع المحافل الدولية من أجل حل مشكلة الشعب الفلسطيني، وتحرير العراق من الاحتلال، غير أن الظروف التي تتمتع بها ألمانيا في أوروبا، غير متاحة لليمن في البلاد العربية، ولذلك فإن تحقيق نجاحات، شبيهة بما حققته ألمانيا في أوروبا، ما تزال بعيدة المنال، وتحتاج إلى وقت طويل.

ولكن اليمن استطاعت بعد توحيدها، أن تكسب لنفسها مكانة مرموقة، في المنطقة العربية، والعالم، وكسبت احترام الآخرين لها، وتفتخر اليمن بقيادتها الحكيمة، التي تحب الخير لشعبها، والعيش بسلام مع شعوب العالم أجمع.

والله الموفق.

مصادر البحث:

- ابن الأثير، عز الدين: الكامل في التاريخ. [حوادث سنة 6+11هـ]. بيروت 1965.
- بامخرمة، أبو محمد عبدالله: تاريخ ثغر عدن. ليدن 1936.
- الثور، عبد الله احمد: الجنوب اليمني. القاهرة 1986.
- الجرموزي، مطهر: تحفة الأسماع والأبصار، ج1+2.[...] تحقيق: عبد الحكيم الهجري. صنعاء 2002.
- الحسين، يحيى ابن: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني. تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور. القاهرة 1965.
- الخزرجي، علي بن الحسن: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، ج1. القاهرة 1911.
- الخزرجي، علي ابن الحسن: العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك. تونس 1979.
- السالمي، محمود علي: محاولة توحيد اليمن بعد خروج العثمانيين الأول. [...] صنعاء 1998.
- شجاب، محمد سالم: الوحدة اليمنية عبر العصور التاريخية. في: اليمن الجديد، عدد 10 صنعاء 1988.
- الشجاع: عبد الرحمن: تاريخ اليمن في الإسلام في القرون الأربعة الهجرية الأولى. صنعاء 2006[6].
- الشماحي، عبدالله: اليمن الإنسان والحضارة. بيروت 1985.
- صالح، علي عبد الله: تصريح الرئيس صالح، أثناء زيارة المستشار الألماني شرويدر لليمن عام 2004.
- الطبري، أبو جعفر محمد: تاريخ الأمم والملوك. [حوادث سنة 6+9+11 هـ]. القاهرة [د.ت].
- فخري، احمد: اليمن ماضيها وحاضرها. صنعاء 1988[2].
- اللقفي، عصام الدين عبد الرؤوف: اليمن في ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام دولة بني رسول. [د م][1] 1982.
- كحالة، عمر رضا: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج1-3. بيروت 1985[5].
- محمود، حسن سليمان: تاريخ اليمن السياسي. 1969.
- مقبل، سيف علي: وحدة اليمن تاريخيا. بيروت 1987.
- المقحفي، إبراهيم احمد: معجم البلدان والقبائل اليمنية. صنعاء 1988[3].

- مناقشات علمية طويلة، ومتكررة، مع جماعة من الباحثين من جامعة صنعاء وعدن والحديدة، دارت في جامعة اب في 15-2007/5/17، وفي منزل الباحث، بصنعاء بتاريخ 2007/5/20م.

-Beeston, Alfred: The Religions of Pre-Islamic Yemen. In: Chelhod, Joseph (Hrsg.): L'Arabie du Sud–Histoire et civilisation. Band 1: Le peuple Yemenite et ses raciness. Paris: Maisonneuve et Larose. S. 259-269. 1984

-Blukacz, Francois: Le Yemen sous lautorite des imams Zaidites au XVII siecle: Une ephemere unite. REMMM 67.1. S. 39-52. 1993

-Chelhod, Joseph: L'Islam en Arabie du Sud. In: Chelhod, Joseph: [Hrsg] L'Arabie du Sud – Historie et civilisation. Band 2: La societe Yemenite de l'Hegire aux ideologies moderns. Paris: Maisonneuve et Larose. S. 13-55. 1984

-Daum, Werner: Einführung. In: Daum, Werner (Hrsg.): Die Königin von Saba –Kunst, Legnde und Archäologie zwischen Morgenland und Abendland. Stuttgart 1988a.

-Daum, Werner: Yemen –3000 Jahre Geschichte, Kultur und Kunst– Von der Königin von Saba zu einem modernen Staatswesen. In: Daum, Werner (Hrsg.): Jemen, 3000 Jahre Kunst und Geschichte in Arabia Felix. Frankfurt am Main: Umschau Verlag Innsbruck: Pinguin Verlag. S. 9-32.1987a.

-Daum, Werner: Die Götter von Saba, In: Daum, Werner (Hrsg.): Die Königin von Saba – Kunst, Legende und Archäologie zwischen Morgenland und Abendland. Stuttgart 1988b.

-Daum, Werner: Jemen, Das südliche Tor Arabiens Tübingen. 1980.

-Dresch, Paul: Tribes, Government and History in Yemen. Oxford. 1989.

-Gajda, Iwona: L'Arabie du Sud unifiee par Himyar. In: Institut du Monde Arabe (Hrsg.): Yemen au pays de la reine de Saba. Paris: Flammarion. S.188-192. 1997.

-Gilliot, Claude: La reine de Saba, legende ou realite. In: Institut du Monde Arab (Hrsg.): Yemen – au pays de la reine de Saba. Paris: Flammarion. S. 64-66. 1997.

-Hellwig, G.; Linne, G.: Daten der Weltgeschichte. München 1989.

-Klett-Cotta: (Herg) Das Europäische Geschichtsbuch: Stuttgart 2001.

-Krockow, Chr. G. von: Die Deutschen In Ihrem Jahrhunderdt, 1890-1990. Hamburg 1992.

-Lehmann, H.G.: Deutschland-Chronik 1945-2000.Bonn 2002.

-Madelung, Wilferd: Islam in Jemen. In: Daum, Werner (Hrsg.): Jemen, 3000 Jahre Kunst und Geschichte in Arabia Felix. Frankfurt am Main: Umschau Verlag Innsbruck: Pinguin Verlag. 1987a.

Müller, H. M.: Schlaglichter der deutschen Geschichte. Mannheim 2003.

-Müller, Walter W.. Skizze der Geschichte Altsudarabiens. In. Daum, Werner (Hrsg.) Jemen. 3000 Jahre Kunst und Geschichte in Arabia Felix Frankfurt am Main S 50-56. 1987.

-Nebes, Norbert: Karibil Watar, premier unificateur du Yemen. In: Institut du Monde Arab (Hrsg.): Yemen, au pays de la reine de Saba. Paris: Flammarion. S. 95-97. 1997.

-Parker, Geoffrey (Hrsg). Atlas Zur Weltgeschichte. Augsburg 1998.

-Renaud, Htienne: Histoire de la pensee religieuse au Yemen. In: Chelhod, Joseph (Hrsg.): LArabie du Sud–Histoire et civilisation. Band 2: La societe Yemenite de l'Hegire aux ideologies moderns. Paris: Maisonneuve et Lorose. S. 57-68. 1984.

-Robin, Christian: La civilisation de L'Arabie meridionale avant l'Islam. In: Chelhod, Joseph (Hrsg): L'Arabie du Sud-Histoire et civilisation. Band 1: La peuple Yemenite et ses raciness. Paris: Maisonneuve et Larose. S. 195-223. 1984.

-Robin, Christian: Foundation d'un empire: La domination Sabeenne sur les premiers royaumes. In: Institut du Monde Arabe (Hrsg): Yemen – au pays de la reine de Saba. Paris: Flammarion. S. 88-94. 1997a.

-Romano, Amy: A Historical Atlas of Yemen. New York 2004.

-Schulz, Klaus: Aus Deutschen Vergangenheit. München 1963

-Schulze, Hagen: Kleine Deutsche Geschichte. München 1996.

-Schick, Thomas: Fragen zur jementischen Einheit. Bonn 2000.

-Serje, Medien: 2000 Jahre Weltgeschiche. Köln 1999.

-Serjeant, R.B.; Lewcock, Ronald. Sana'a An Arabian Islamic City. London: The world of Islam Festival Trust. 1983.

-Smith, G. R.: Political history of the Islamic Yemen. (E. A.) 1987.

-Smith, Gerald Rex: Politische Geschichte des islamischen Jemen bis zur ersten türkischen Invasion (1-945 h/ 622-1538). In: Daum, Werner (Hrsg): Jemen, 3000 Jahre Kunst und Geschichte in Arabia Felix. Frankfurt am Main. S. 136-154. 1987.

-Smith, Gerald Rex: The Early and Medieval History of Sana'a ca. 622-1382/1515. In: Serjeant, R.B.: Lewcock, Ronald (Hrsg): Sana'a – An Arabian Islamic City. London: The World of Islam Festival Trust. S. 68-107. 1983.

-Varisco, Daniel Martin: Tests and Pretexts; The Unity of the Rasulid State under al-Malik al-Muzaffar. REMMM 67.1. S. 13-24. 1993.

-Vestring, Alfred B.: Deutsche Botschaft in J. A. R. von 1969-1971. In: D.B. Sana'a. (Hrsg): 30 Jahre. (...) 1999.

-Wald, Peter: Fast 400 jahre Annäherung. In: D. B. Sana'a. (Hrsg): 30 Jahre. (...) 1999.

الكتابة على الجلود عبر العصور (الـرق)

الجلود من أهم مواد الكتابة التي استخدمها الإنسان عبر مراحل حياته الطويلة وذلك قبل أن يكتشف الإنسان الورق (الكاغد)، ويرجع السبب في ذلك إلى وفرة هذه المادة وسهولة الحصول عليها، إضافة إلى ما تتميز به هذه المادة من متانة وقوة تجعلها قادرة على مقاومة الظروف الطبيعية، ولذا نجد أن العرب استمرت في الكتابة عليه قبل الإسلام وبعده حتى حذق العرب صناعة الورق "الكاغد".

ولقد أطلقت تسميات عدة على الجلود منها الجلد، والأدم، والرق، والقضم، والطرس.

د. علي سعيد سيف*

فالجلد محركة أن يسلخ جلد البعير أو غيره من الدواب[1]، والجلد واحد الجلود، والجلدة أخص منه، والجلد جلود حوار يسلخ بتلبيس والجلد الكبار من النوق[2]، والجلد هو الطبقة السطحية من جسم الحيوان[3] وهو نوع من البروتين يعرف بالكولاجين Collagen[4].

الأدم: جمع أديم وقد تجمع على أدم وربما يسمى وجه الأرض أديما وتطلق على طبقات الجلد التي تلي اللحم والبشرة الظاهرة والأدم من الناس الأسمر[5] وهو طبقات الجلد التي تلي البشرة من الداخل[6]. وفي ذلك يقول المرقش الأكبر:

الدار قفر والرسوم كما   رقش في ظهر الأديم قلم[7]

القضم: القضم بالتحريك جمع قضيم وهو الجلد الأبيض يكتب فيه والقضم بكسر الضاد السيف[8]،

---

* أستاذ الآثار الإسلامية المشارك، قسم الآثار، كلية الآداب- جامعة صنعاء.

(1) الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، ص508.

(2) الجواهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج1، ص455.

(3) عبدالحميد، حسام الدين، المنهج العلمي لصيانة الممتلكات الثقافية، ص47.

(4) عبد الحميد، حسام الدين، تكنولوجيا صيانة وترميم الأخشاب والمخطوطات، ص43.

(5) الجواهري، نفسه، ص185.

(6) الصحاح في اللغة والعلوم، تجديد صحاح العلامة الجواهري، م1، ص 14.

(7) نقلا عن الزيات حبيب، الجلود والرقوق والطروس في الإسلام، مجلة الكتاب، س 2، ج 9، م 4، سنة 1947، ص 136.

(8) الجواهري، المصدر السابق، ج5، ص2013.

وهي تفضل في الكتابة لظهور الحبر عليها[1]، والقضيم شعر الدابة[2]، والقضيم تم تحضيره في العصر العباسي باستعمال التمر المخمر وهي طريقة صناعة الكوفة[3].

الرق: بما أن الرق اتخذ حيزا كبيرا لدى العرب في الكتابة عليه فسوف نأتي عليه بالدراسة والتعريف لاحقا.

الطرس: الطرس هو الكتاب الذي محي ثم كتب والجمع أطراس وطروس وقال الليث الطرس الكتاب الممحو الذي استطاع أن يعاد عليه الكتابة ويقال التطريس[4]، والطرس الصحيفة ويقال هي التي محيت ثم كتبت وكذلك الطلس[5].

ويبدو أن الكتابة على الجلود كانت من الأمور اليسيرة قبل معرفة الدباغة فقد اشتهرت البلاد العربية في الجزيرة العربية بكثرة الجلود فيها وذلك بسبب توفر هذه المادة لديهم ولا غرو في ذلك فالبلاد العربية بلاد رعوية تكثر فيها قطعان الماشية بمختلف أنواعها إضافة إلى كثرة غزلانها الوحشية ذات الجلود الجيدة[6].

ومن البلاد العربية التي اشتهرت في الجزيرة بلاد اليمن خصوصا بوفرة الأدم فيها حتى كانوا يكنون بها الدراهم فيقال ليس بين الدراهم والأدم مثله يريدون بين العراق واليمن لان تبايع أهلهما بالدراهم والادم ، وقال إدريس بن حجر:

وما عدلت نفسي بنفسك سيدا سمعت بين الدراهم والأدم[7]

وفي صعدة من بلاد اليمن يتخذ ما كان يتخذ بصنعاء من الأدم ويتخذ بنجران وجرش والطائف أدم كثيرة، غير أن اكثر ذلك يرتفع من صعدة، وبها مجتمع التجار والأموال[8]، وصعدة أصغر من صنعاء عامرة في الجبال بها تصنع الركاء الجيدة والأنطاع الحسنة ومنها يرتفع أدم جيد، ونجران مثل جرش وهما دون صعدة واكثر ما يرد من الأدم من هذه المدن[9]، ويقال للجلود المدبوغة الأدم ومنها كانت صحيفة المتلمس التي يضرب بها المثل، وأكثر ما كان من هذه الأدم من جلود الإبل لوفرته في البلاد العربية والتي كان منها ما ينحر من الطعام وقرى الضيف ومنها ما كان معظم تجارتهم في الأسواق، واشتهر بها في الجاهلية أبو سفيان بن حرب وعمرو بن العاص قيل إن "عمرو بن العاص كان تاجرا في الجاهلية وكان يختلف بتجارته إلى مصر وهي الأدم والعطر[10]، ولقد احتفظت الجلود العربية بخصوصيتها التقنية وفي نوعها وصفاتها، وربما وجدت الجلود العربية طريقها إلى أوروبا وغيرها عن طريق التجارة لاسيما وأن العرب عرفوا بتجارة الجلود[11]، وفضلت الجلود البيضاء للكتابة لظهور سواد الحبر عليها ويقال لها القضم ، وقد استخدمها المصريون القدماء والآشوريون والفرس والإغريق منذ القرن 3ق. م.، وقد جاء ذكرها على لسان تيودور و هيرودتس الذين ذكروا أنهم كتبوا على الجلود لفترة طويلة من الزمن[12]، وكانت الفرس كما يذكر ابن النديم " أن الفرس كانت تكتب على جلود

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج15، ص386.
(2) الصحاح في اللغة والعلوم، ج2، ص316.
(3) عبد الحميد، المنهج العلمي لصيانة الممتلكات الثقافية، ص54.
(4) ابن سيدة، المخصص.
(5) ابن منظور، نفسه، ج7، ص 427.
(6) حميد، عبد العزيز وآخرون، الخط العربي، ص178.
(7) عن الزيات، المصدر السابق، ص1358.
(8) الاصطخري، المسالك والممالك، ص24.
(9) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 87.
(10) الكندي، أبو عمر، كتاب الولاة وكتاب القضاة في مصر، ص6-7.
(11) أمين، نضال عبد العال، أدوات ومواد الكتابة، رسالة ماجستير، بغداد غير منشورة، ص 117.
(12) أمين، المصدر السابق، ص 117، انظر عبد العزيز، الفنون الزخرفية قبل العصر الفاطمي، ص125.

الجواميس والبقر والغنم وأن الروم تكتب أيضا في الفلجان وهو جلود الحمر الوحشية[1]، فضلا عن ذلك نجد في الشعر الجفر المشهور الذي ذكره أبو العلا بقوله:

لقد عجبوا لأهل البين لما   أتاهم علمهم في مسك جفر

والمسك هو الجلد والجفر ما بلغ من أولاد الماعز أربعة اشهر وجفر جنبناه انفصل عن أمه[2]، وبالرغم من أن الكتابة على الجلود كانت معروفة عند عرب الجاهلية إلا أن البداية لاستخدام الجلود للكتابة عليها بشكل أوسع كان مع بداية الدعوة الإسلامية[3]، ومن أغرب ما كتب فيه جلد خف "علي بن أبي طالب" قبل خلافته" قالوا إن الكتاب الذي كتبه الرسول ﷺ لتميم الداري واخوته في سنة 9هـ أثناء منصرفه من غزوة تبوك كتبه علي بخطه في قطعة من أدم من خفه"[4]، وكما جاء في الحديث أن الرسول ﷺ قُبض والقرآن في العسب والقضم، كما أنه من شواهد الكتابة على الجلود الحمر أن أسقف نجران آتى عليا ومعه كتاب في أديم أحمر قال: "أسألك يا أمير المؤمنين خط بيدك وشفاعة لسانك" يعني لما رددت إلي بلادنا، قال فأبى علي أن يردهم[5].

ويبدو أن الجلود ظلت المادة الرئيسية في الكتابة حتى أواخر دولة بني أمية وكان الناس يكتبون على الجلود والرقوق درجاً وكانت دفاتر الحكومة عبارة عن لفائف من الجلد[6]، وفي عهد بني أمية لعبت

(1) ابن النديم، الفهرست، ص 31.

(2) الزيات، حبيب، الجلود والرقوق والطروس في الإسلام، مجلة الكتاب، ص1359.

(3) أمين، المصدر السابق، ص 118.

(4) الزيات، حبيب المصدر السابق، ص 1359.

(5) الزيات، صحف الكتابة وصناعة الورق في الإسلام، مجلة المشرق سنة 1954م، ص28.

(6) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، ج3، ص 58.

لعبت الجلود دورا هاما في النشاط الفكري والاقتصادي بحيث اشتهرت مدن في تجارة الجلود منها صنعاء وصعدة ونجران وجرش والطائف... وغيرها[7]، وكانت دواوين الشام مكتوبة في قراطيس "البردي" وكذلك كانت الرسائل إلى الخلفاء من بني أمية في حمل المال وغيره، ولما ولي الخليفة أبو جعفر المنصور أمر وزيره أبا أيوب المورياني أن يكتب الرسائل بحمل المال في صحف وأن تصغر الصحف فجرى الأمر على ذلك[8]، ونسب الجهشياري استبدال القراطيس بالجلود في أيام العباسيين إلى خالد بن برمك عندما وزر للخليفة السفاح وذلك قبل ظهور الكاغد (الورق) حتى إذا كانت فتنة الأمين نهبت الدواوين وأخذت الجلود فمحيت أو غسلت وأقام الناس ببغداد سنين لا يكتبون إلا فيها[9]، واكثر ما كان يكتب في الجلود خاصة، صكوك العقارات والضياع وأنوع الإقطاعات لقوة بقائها، وثمة قصة يوردها ابن خلكان عن الجلود لما فيها من الطرافة ونصها "كان بأصبهان رجل حسن النعمة واسع النفس كامل المروءة يقال له سماك بن النعمان وكان يهوى مغنية من أهل أصبهان لها قدر ومغنى تعرف بأم عمرو ولإفراط حبه لها وصبابته بها وهبها عدة من ضياعه وكتب عليه بذلك كتبا وحمل الكتب إليها على بغل فشاع الخبر بذلك وتحدث الناس به واستعظموه وكان بأصبهان رجل متخلف بين الركاكة يهوى مغنية أخرى فلما اتصل به ذلك ظن بجهله وقلة عقله أن سماكا إنما أهدى إلى أم عمرو جلودا بيضاء لا كتابة فيها وأن هذا من الهدايا التي تستحسن ويجمل موقعها عند من تهدى إليه فابتاع جلودا كثيرة وحملها على بغلين لتكون هديته ضعف هدية سماك وأنفذها

(7) الأصطخري، المصدر السابق، ص22.

(8) البلاذري، فتوح البلدان، ص465.

(9) ابن النديم،المصدر السابق. ص 23.

إلى التي يحب فلما وصلت الجلود إليها ووقفت على الخبر تغيظت عليه وكتبت إليه رقعة تشتمه وتحلف أن لا تكلمه أبدا وسألت بعض الشعراء أن يكتب لها أبياتا في هذا المعنى لتودعها على الرقعة ففعل ومنها:

أرأيت من يهدي الجلود	إلى عشيقته سواكا
وأظن أنك رمت أن	تحكي بفعلك ذا سماكا
ذاك الذي أهدى الضباع	لأم عمرو والسكاكا
فبعثتها منتنة كأنك	قد مسحت بهن فاكا[1]

وبعد هذا الاستطراد في الكتابة على الجلد لابد من أن نقف بعض الشيء إلى معرفة كيفية تجهيز الجلد وجعله صالحا للكتابة عليه.

الدباغة:

تعد الجلود من أكثر مواد الكتابة استخداما عند العرب في العصرين الجاهلية وصدر والإسلام فقد كانوا يعدون الجلود التي يرومون الكتابة عليها إعدادا خاصا فلم تستخدم تلك الجلود إلاّ بعد أن تغسل وتعالج بالنورة للتخلص مما هو عالق بها من شحم ثم تبسط على إطار وتترك لتجف قبل أن يحلق الشعر عنها بواسطة السكاكين، ثم تصقل الجلود للحصول على سطح ناعم أملس صالح تماما للكتابة عليه[2].

ولقد بلغت تجهيز الجلود حد الإتقان الكامل في المدن التي مصرت في العراق واشتهرت مدينة الكوفة في صناعة الجلود بشكل خاص فصار لجلودها المدبوغة اللينة الرقيقة المهيأة للكتابة رواجا وشهرة في جميع أرجاء العالم العربي الإسلامي، وفي ذلك يذكر ابن النديم "وكانت الكتب في جلود دباغ النورة شديدة الجفاف ثم كانت الدباغة الكوفية"[3]، التي أحدثت نقلة نوعية في تجويد الكتابة عليها بالرغم من المحاولات التي سبقتها والتي اتسمت بعدم الإتقان وأول ما عولجت بها الجلود النورة وبقيت مع ذلك عاسية قاسية غير طرية لا تخلو من بعض الشوائب والآفات لأن الدباغة لم تكن بلغت المبلغ الذي انتهت إليه من الإصلاح والتطرية والجودة فكانت الدباغة الكوفية وتحسنت طرق المعالجة فلانت ورقت ونحلت فهان الخط عليها[4]، وقد استخدمت في الدباغة الكوفية التمر وفيها لين وتلي جلود واسط جلود الكوفة من حيث الجودة ثم يتبعها جلود البصرة، وللجلود مزايا في الكتابة عليه أنه يمكن الحفاظ عليه لفترة زمنية طويلة نسبيا ويمكن أن تعاد الكتابة عليها بعد أن تغسل فترجع جديدة تماما وأنه قلما تعمل العثة والأرضة فيه[5]، وما دمنا في صدد الدباغة ومزاياها في إعداد الجلد للكتابة عليه نشير إلى الدباغة بمفهومها الحديث.

الدباغة هي عملية تجهيز الجلد ليصبح طاردا للماء ومقاوما للتحللُ من الفطريات ومتعادلاً، فضلا عما يحتفظ به من ليونة لمدة طويلة، وبما أن الجلد هو الطبقة السطحية من جسم الحيوان فإن مقطع الجلد العرضي يتكون من ثلاث طبقات هي:

1. الطبقة السطحية.
2. طبقة أم الجلد.
3. الطبقة اللحمية.

وللدباغة طرق عدة منها:

تأثير الدخان والعرق الآدمي وما به من أملاح وأحماض عضوية في حفظ الجلود، وفي العصور السحيقة عرف الإنسان جلود الحيوانات وبدأ باستعمالها في ستر جسمه وفي فراشه وبالصدفة اكتشف أن ما يستعمله على جسمه من فراء وجلود

(1) الزيات، صحف الكتابة، ص 30، عن ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 2، ص 204.
(2) حميد، المصدر السابق، ص 171.
(3) حميد، المصدر السابق، ص179.
(4) أمين، المصدر السابق، ص 120؛ الزيات، صحف الكتابة، ص 29.
(5) حميد، المصدر السابق، ص 17.

لمدة طويلة يكتسب خاصية مقاومة التعفن أو التحلل ويمكن تفسير ذلك بأن تأثير العرق وما به من أحماض وأملاح عضوية حافظة، إضافة إلى الدخان المتصاعد من طريق الأخشاب حيث تكتسب الجلود مناعة ضد التحلل بالعفن، ويعزى ذلك لتشبع الجلد المعرض لهذه الأدخنة بنواتج الاحتراق غير الكامل للأخشاب والتي تتركب من مواد قطرانية والدهيدات وهي مواد لها صفات مقاومة لبكتيريا التحلل، هذا وقد عرف المصريون القدماء الدباغة باستعمال قرون السنط والتي تحتوي على مادة التانين[1]، وهو حمض التانيك والذي يتمتع بخاصية الأحاد بالكولاجين والمواد الموجودة بألياف الجلد إذ تحل محل الماء المتصل به كيميائيا، كما تقوي ألياف الجلد.

والجلد الناتج عنها يكون لونه من البني الفاتح إلى البني المحمر وهو أكثر مرونة ورقة، فضلا عن ذلك فإنه يمكن اعتبار علاج الجلد بالشب دباغة، ولكن الشب يزال بالماء ويقصد به علاج الجلد بأملاح الكروم حيث إنها تتحد مع الكولاجين مثل الدباغة بقرون شجر السنط[2]، وقبل تجهيز الجلد لعملية الدباغة حيث يتم نقع الجلد في الماء من محلول الجير وسلفيد الصوديوم في براميل خاصة، وهي طريقة حديثة أويا لكشط والتمرير وهي طريقة قديمة حيث توضع الجلود في أحواض بها ماء الجير لإزالة الدهون والشعر وذلك للتخلص من الطبقة السطحية والطبقة اللحمية، حيث يتحول الجلد النيئ بالدباغة إلى جلد لايمكن رجوع الجلد المدبوغ إلى جلد نيئ مرة أخرى[3].

بعد تلك الطرق العلمية لعملية الدباغة نأتي إلى صفات الجلد بعد الدباغة وهي، يكون الجلد المدبوغ طارداً للماء مقاوماً للفطريات والعفن وله تعادل كيميائي ويحتفظ بليونته لمدة طويلة، كما يمتاز بقوة احتماله وعدم تأثره بالماء ونعومة ملمسه، بينما نجد الجلد المدبوغ بالشب أكثر تحملا للتأثيرات الكيميائية والطبيعية من الجلد المدبوغ بمادة نباتية.

الـــــــرق:

الرق بالكسر من الملك والعبودية، كما هو الشيء الرقيق ويقال للأرض اللينة رق والرق بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق[4]، ومنه قوله تعالى ﴿والطور وكتاب مسطور في رق منشور﴾ قال المبرد ما يرقق من الجلود ليكتب فيه وقال المعافى بن أبي السبار ومن ثم استبعد حمله على اللوح المحفوظ، والمنشور المبسوط واختلف في الكتاب المسطور فيه فقيل اللوح المحفوظ القرآن وقيل ما كتبه الله تعالى لموسى وهو يسمع صرير الأقلام[5]، وهو الصفحة البيضاء[6]، وهو جلد رقيق يكتب عليه[7]، كما عرفه آخرون بأنه بفتح الراء وكسرها يعني الطبقة الداخلية الرقيقة من جلد الماعز والغزال[8]، وأطلق عليه " البارشمنت" أو الرق وهو اسمان مترادفان لنوع واحد من الجلد، وهو الجلد المجهز للكتابة عليه، وإن كان البعض يرى أن الرق هو أرق من البارشمنت وسمي بالبارشمنت نسبة إلى مدينة برجام في آسيا الصغرى[9]، أما البارشمنت فهو جلد سميك وأقوى وأطول عمرا وهو جلد الماشية وغالبا العجول الصغيرة[10]، والرق معرفة جلد معدة بعض الحيوانات مثل الماعز والعجل والغزال، وقد اشتهرت بها مدينة

---

(1) عبدالحميد، المنهج العلمي، ص 47، 49.

(2) عبد الحميد، تكنولوجيا صيانة، ص 43-45.

(3) عبدالحميد، المنهج العلمي ص 47، 49، تكنولوجيا صيانة، ص 45.

(4) الجواهري، المصدر السابق، ج4، ص 1348، الصحاح في اللغة، م1، ص 500.

(5) سورة الطور: آية 1، 2.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج 2، ص186.

(7) ابن منظور، لسان العرب، ج10، ص132، الزبيدي، ج6، ص 356.

(8) يوسف، مصطفى السيد العلم وصيانة المخطوطات، ص20.

(9) عبد الحميد، المنهج العلمي، ص 52.

(10) عبد الحميد، تكنولوجيا صيانة وترميم، ص 45.

برجامن حيث يربط العلماء بين هذه المدينة وبين الكلمة الأوربية التي يسمى بها الرق[1] Pargamon أو Parchment وسماها الإغريق Diphterai وهي تسمية عمت المواد الأخرى المستخدمة في الكتابة[2]، والرق العظيم من السلاحف[3]، وينسب الرق إلى مدينة برجامن*.

مما سبق نستنتج من لفظة الرق أنها كانت رقيقة لينة، وقد قيل لوراق ما تشتهي، قال قلما مشاقا وحبرا براقا وجلودا رقاقا وكان منها نوع في غاية الرقة والنعومة لا يكاد يفرق من الورق بشيء في الشعر يقول طرفة بن العبد:

كسطور الرق رقشه بالضحى مرقش يشمه

ويقول حسان بن ثابت:

عرفت دينار زينب بالكثيب كخط الوحي في الرق القشيب

ويقول حاتم الطائي:

أتعرف آثار الديار توهما كخطك في رق كتابا منمنما[4]

ونخلص بالقول إلى أنه لا يوجد فرق واضح تماما بين الجلد والرق غير أنه يمكننا القول أن الرق أكثر خفة وأشد رقة، وربما أكثر بياضا من الجلد العادي، بينما تشير المصادر التاريخية إلى أن الرق أيضا كان على درجات متفاوتة من حيث الجودة وذلك حسب نوع الحيوان المستخرج منه الجلد وأن رقوق الغزلان كانت أفضل من رقوق الحولان - أي صغار البقر - أو رقوق النعاج والماعز وغيرها لأنها تجمع بين المتانة والنعومة والصفاء والبياض[5].

إعداد الرق للكتابة

يعتبر الرق من جلود الحيوانات والذي لابد من إعداده و تجهيزه ليكون صالحا للكتابة عليه وقد ذكر كل من ثيوفراتس وبليني طريقة تجهيز الرق وملخص تلك العملية كالتالي.

تغسل الجلود وتنقع في حمام من ماء الجير المطفأ حديثا إلى أن يفقد الشعر تماسكه بالجلد حيث تتم أثناء النقع إزالة الدهون العالقة بالجلد من الجانب الآخر، ثم ترفع الجلود من ماء الجير وتغسل ويتم كشط الشعر باستعمال سكاكين غير حادة وتتم عملية النقع في الجير وكشط الشعر بصورة تبادلية حتى تتم إزالة الشعر والدهن، ثم يتم تنظيف الجلد بالماء ثم يشد على إطارات من الخشب ويثبت عليها وهو مبلل بالماء وتترك الجلود مثبتة في إطاراتها إلى أن تجف مع تغيير مواقع التثبيت، ثم يغطى سطحه بمسحوق الجير ثم يحك لتصقل برفق بحجر وتسمى عملية الصقل[6]، وبعد ذلك يصير الجلد صالحا للكتابة عليه لأن سطحه صار مصقولا ومتينا بدرجة كافية للكتابة عليه من الجانبين[7].

هذا والرق بجميع أنواعه قاعدي الخواص فقد هيأت له طبيعته القاعدية الوقاية ضد الإصابة

(1) مرزوق، محمد عبد العزيز الفن الإسلامي، ص 158.

(2) عبد الستار، باهرة صيانة الوثائق، ص 14.

(3) الجوهري، المصدر السابق، ص 1483.

* برجامن: Pergamon اسم مدينة ينسب إليها الرّق تقع في الشمال الغربي من آسيا الصغرى، وهي هامة جدا، إذ أنها كانت تضاهي مدينة الإسكندرية طيلة فترة الازدهار اليوناني، وكان الناس يفضلون البارشمنت Parchment وهي الكلمة التي تعني ورقة من مدينة برجام، وهي مرنة لينة مثل البردي، ولكنها أمتن. انظر: اسكاربيت، روبير، صناعة الكتاب بين الأمس واليوم، ترجمة: ياقوت صالح، مراجعة: عبد الواحد جمال الدين، سلسلة قضايا الساعة، 1977م. ص 24.

(4) الزيات، حبيب، صحف الكتابة، مجلة المشرق، س 42، 1954، ص 459. وانظر، الجلود والرقوق والطروس في الإسلام، مجلة الكتاب، س 2، ج 9، م 4، سنة 1947م. ص 1362.

(5) حميد، المصدر السابق، ص 180.

(6) عبد الحميد، المنهج العلمي، ص 54، كالابرو، الورق تركيبه وتاريخ صناعته، ص 54، عبد الستار، صيانة الوثائق، ص14، ونضال عبدالعال، المرجع السابق، ص123.

(7) سفندال، تاريخ الكتاب، ص 20.

بالفطريات والكائنات الدقيقة التي تعيش في الأجواء الحامضية ومقاومة الرق لتأثير الأجواء الحامضية تميزه عن الجلود بطول بقائه إلا أنه يتأثر باصفرار لونه إذا تناولته أيدٍ كثيرة، وإذا تعرض للأتربة حيث إن ذرات الحديد التي تتراكم عليه من جراء ذلك لا تلبث أن تتحول إلى هيدروأكسيد الحديد مسببة هذا اللون الأصفر[1]، كما أن للرق قدرة كبيرة في التعادل مع الجو المحيط به بامتصاص أو إعطاء رطوبة، وقد ثبت ذلك بالتجارب إذ أن الرق يحتوي على الماء بنسبة 10% عندما يوجد في جو به 40% رطوبة نسبية وفي حالة وجوده في جو يحتوي على رطوبة بنسبة 80% فإنه يتعادل مع هذا الجو وتصبح نسبة الماء به 30%[2]، كما لم يتأثر بالرطوبة التي تسبب تلف الكثير من النصوص[3].

نشأة الرق وانتشاره

بينما كان البردي في زهوه الكبير ظهر له منافس في ميدان الكتابة ألا وهو الرق الذي يجهز من جلود الحيوانات وخاصة الغزلان منها والماعز والحولان ومع أن جلود الحيوانات كانت تستعمل للكتابة عليها منذ زمن بعيد فإن الرق كان أتقن صنعة وأجود نوعا وأرق و لا يمكن اعتبار الرق ابتكارا وإنما تطور لعملية تجهيز الجلد للكتابة عليه، فقد استعمل عند المصريين القدماء والآشوريين والفرس واليونانيين والساميين والرومان ومن ثم تبعهم المسلمون.

إلاّ أنه وكما تشير الكتابات التاريخية إلى أنه لم يبدأ تجهيز الجلد تجهيزا صالحا للكتابة عليه إلا في القرن 3 ق. م. حيث يرجع الفضل في ذلك إلى مدينة "برجاموس" حيث جرى تجهيز الجلد فيها على نطاق واسع لدرجة أنه اشتق من اسم المدينة لفظ " Parchmen" للدلالة على الرق، ومدينة برجام كانت تضاهي مدينة الإسكندرية أثناء الازدهار اليوناني وقد اشتهرت بصناعة الرق وتصديره حتى بلغت شهرة المدينة جميع أنحاء العالم المتمدن آنذاك حتى اشتق اسم الرق من اسمها في كثير من اللغات مثل parchment , parchemin, pargamena، وقد أشار المؤرخ اليوناني "بليني" في كتابه التاريخ الطبيعي (في القرن 2ق. م) إلى أن بطليموس الخامس حاكم مصر في القرن 2 ق.م كان يغار على مكتبة الإسكندرية الشهيرة ويهمه أمرها كثيرا فلما علم أن في "برجاموس" مكتبة قد تنافسها مع مرور السنين أمر أن تتوقف مصر عن تصدير البردي إلى تلك المدينة بقصد أن يضعف فيها صناعة الكتب حيث كانت برجام مركزا هاما للكتابة في فترة الازدهار اليوناني. فقد أبى ملكها أن يغلب على أمره فأصدر أوامره إلى شعبه بأن يستعيظوا عن البردي بمادة أخرى فاختاروا الرق وما لبثوا أن برعوا في صناعته وانتشر بعد ذلك[4].

ولقد اقتصر استعماله في أول الأمر لكتابة الخطابات والمذكرات القصيرة أكثر من استعماله للكتب الذي ظل البردي دعامتها المفضلة[5]، ثم خطا استعمال الرق الذي سماه الرومان Membrane فاستخدم في صناعة الكتب إلا أن استخدامه لم يعم إلا ببطء[6]؛ فظهرت لأول مرة في المجتمع الروماني على ما يبدو صناعة حقيقية وتجارة حقيقية للكتاب، فقد أنشئت مشاغل كثيرة كان عدد كبير من العبيد يقومون بنسخ النصوص الجديدة، فلقد تأسست في روما سنة 207ق. م. نقابة النساخ وكان هؤلاء ينسخون الكتب بسرعة تبلغ حوالي 250 بيتاً من الشعر يتكون البيت من 15- 17 مقطعاً في الساعة، كما كان

(1) شاهين، عبد المعز، طرق صيانة وترميم الآثار، ص33.

(2) شاهين، نفس المرجع، ص 34.

(3) يوسف، المرجع السابق، ص 24.

(4) سفندال، المرجع السابق، ص 20.

(5) جروليه، اريك دي، تاريخ الكتاب، ترجمة: د. خليل صابات، مراجعة: حسن محمود، سلسلة الألف كتاب، ص18.

(6) سفندال، المرجع السابق، ص 21.

الرومان ينسخون على الرق الكتب المدرسية والقانونية ولكنهم لم يدونوا عليها المؤلفات الأدبية[1].

ونتيجة لمرونة الرق فكانت تسمح باستخدامه على هيئة اللفة Ralleau؛ فتعاليم موسى "التوراة" مازالت تقرأ بهذه الطريقة حتى الآن في المعابد اليهودية، وذلك بشكل "درج" ومن أهم اللفائف المكتشفة حديثا هي التي اكتشفت في البحر الميت ومصنوعة من جلد الماعز.[2]

ومن المحتمل أن لف الرق بشكل لفائف راجع إلى تقليد لفائف البردي أو بحكم العادة، بينما كان طول اللفافة خاضعاً لطول الجلد المستعمل[3]، ثم أهملت اللفائف تدريجيا وقطعت ورق الرق إلى مساحات مستطيلة، والحق أنه في العصور القديمة وقبل اختراع الرق كان المرء يستخدم قطع الخشب على هيئة كراسات صغيرة، وهذه الطريقة طبقت في صناعة الرق واحتلت مكانة أسمى من البردي[4]، وانتشرت صناعة الكتب في أوائل عهد الإمبراطورية الرومانية حيث أطلق على هذه الكتب باللاتينية Codex[5]، (كراريس) وأن كلمة cod الفرنسية مشتقة من الاسم اللاتيني codex[6]، ووصل إلينا بضع صفحات من هذه الكراريس ترجع إلى نهاية ق. 1م. وبداية ق. 2م. حيث إنه قد كان معروفا الكتابة على الرق في هذه الفترة وقد كانت مخطوطات الرق تستخدم في صناعة كتب صغيرة رخيصة نتيجة إمكانية الكتابة عليها من الوجهين، وقد عثر في مصر أثناء القيام بالحفريات على مخطوطات من الرق ترجع إلى القرن 2، 3، 4م. مما يدل على أن شكل الكراريس قد تغلغل في مواطن البردي وظل استعمال الكراريس والبردي جنبا إلى جنب[7].

واختفت اللفائف تماما في القرن الرابع الميلادي لأن مساحات الرق الناعم تسمح للمرء أن يجمعها وأن يحفظها على هيئة الكراس، وهو الشكل الذي ينبئ عن الكتاب كما هو معروف حاليا[8].

أما المسيحيون فقد استخدموا منذ وقت مبكر الكتابة على الرق لأن ورقته المسطحة والمعروفة باسم "فيلان" كانت تستوعب قدرا أكبر من النصوص، وأن ورقة واحدة يمكن أن تكفي لنسخ التوراة كاملة[9]، وفضله المسيحيون في القرن الرابع الميلادي " خاصة إيطاليا حيث كان يستخدم في قاعات النسخ داخل الأديرة والكنائس والتي كانت تعرف باسم "الأسكريتوريا" Scriptoria وظلت المنافسة قوية بين الرق والبردي حتى عصر الإمبراطورية الرومانية حيث انتشر استخدام الرق وكان سبب ذلك أنه لا يتطلب زراعته مثل البردي الذي كان لا يزرع إلا في مصر بسبب الجو الملائم لهذا النبات، كما أن الرق لا يتطلب استيراده من مصر التي كانت تتحكم فيه، فقد كان بالإمكان تربية الماشية التي يصنع من جلودها الرق، كما فضله المسيحيون لسهولة محوه وإعادة كتابته، وهو ما لم يتوفر في ورق البردي من محو وإزالة للكتابة، فكان مما ساعد على انتشاره، ولهذا عثر على الكثير من المخطوطات المكشوطة وهي مخطوطات جلدية كشطت كتابتها الأولى ثم أعيد ت كتابتها بنصوص أخرى، كما أنه لم ترتبط صناعة الجلد ببلد معين، مما يستنتج احتمال رخص ثمنه بالنسبة للرق[10].

وابتداء من صحائف "ثيودرسياتوس" التي تعود إلى سنة 426م. صارت نصوص الفقهاء القدماء لا تعتمد إلا

(1) جروليه، المرجع السابق، ص21.
(2) سكاريب، الرجع السابق، ص 24.
(3) سفندال، المرجع السابق، ص 23.
(4) سكاريب، المرجع السابق، ص 24.
(5) سفندال، المرجع السابق، ص 21 .
(6) سفندال، المرجع السابق، ص 21.

(7) سفندال، المرجع السابق، ص 23.
(8) سكاريب، الرجع السابق، ص 24.
(9) جروليه، المرجع السابق، ص 25.
(10) سفندال، المرجع السابق، ص21، عبد الحميد، المنهج العلمي، ص53.

إذا كانت منسوخة على صحائف من هذا النوع[1].

وقد صنع الرق في فرنسا وبلاد اليونان من جلد الماعز والأغنام والعجول الصغيرة إلا أنه في فرنسا كان يصنع من العجول الليباني ولهذا أطلق عليه اسم Vellum على هذا الجلد المستخدم في الكتابة[2]، أما في بلاد فارس فقد وصف المسعودي بقوله "رأيت بمدينة اصطخر من أرض فارس في سنة 303هـ/ 915م. عند بعض أهل البيوتات المشرفة من الفرس كتابا عظيما يشتمل على علوم كثيرة من علومهم وأخبار ملوكهم وأبنيتهم وسياساتهم وصور من ملوك فارس من آل ساسان وكان تاريخ هذا الكتاب أنه كتب مما وجد في خزائن ملوك فارس للنصف من جمادى الآخرة سنة 111هـ/731م. ونقل لهشام بن عبد الملك من الفارسية إلى العربية، والورق فر فيري اللون عجيب الصنع فلا أدري أورق هو أم رق لحسنه وإتقان صنعه[3].

الرق عند العرب قبل الإسلام:

لم نعثر في الجزيرة العربية على أدلة مادية تؤيد استخدام العرب الرق في الكتابة عليه، ولكن هذا لا يمنعنا من الجنوح نحو الشعر وكتب التراجم والإخباريين، ففيها ما يدل على أن بلاد العرب استخدمت الرق "الجلد" في الكتابة عليه، وبما أن العرب لم يدونوا كتبهم شأنهم شأن بقية المواد التي أشير إليها بالشعر أو النثر فجاء وصفها كاملاً موح باستخدام العرب لتلك المادة.

إذا فلا غرو أن بلاد العرب كانت رعوية بالدرجة الرئيسية تكثر فيها قطعان الماشية بمختلف أنواعها إضافة إلى كثرة الغزلان الوحشية ذات الجلود الجيدة التي تجوب فيافي وبوادي الجزيرة، فإذا كان هذا شأن البلاد العربية فلابد من أن ينصرف أهلها إلى الاستعانة بالجلود[4]، مما جعل العرب تستعين بها في الكتابة، فيذكر طرفة ابن العبد:

كسطور الرّق رقشه بالضحى مرقش يشمه

ويقول حسان:

عرفت ديار زينب بالكثيب كخط الوحي في الرّقّ القشيب

ويقول حاتم الطائي:

أتعرف آثار الديار توهما كخطك في رقّ كتابا منمنما

ويقول الحارث المخزومي:

هل تعرف الدار أضحت آيها عجما
كالرّقّ أجرى عليها حاذق قلما

ومما كتبه العرب على الرق كانت كتب الأمان والتعويذات التي كانت تعلق في أعناق الأحداث لصبرها على الدعك واللمس، وفي ذلك أشار ابن همام السلولي:

فقد خط لي الرّق فيه الأمان إليك مخافة أبنائك[5]

وفي كتاب الأغاني "لأبي الفرج الأصفهاني" أن أم ذي الرمة جاءت إلى الحصين بن عبدة بن نعيم العدوي وهو يقرئ الأعراب بالبادية احتسابا بما يقيم لهم صلاتهم فقالت يا أبا الخليل إن ابني هذا يروع بالليل فاكتب لي معاذة أعلقها على عنقه فقال لها ائتني برق أكتب فيه فقالت فإن لم يكن فهل يستقيم في غير رق أن يكتب له، قال فجيئيني بجلد، فأتته بقطعة جلد غليظة فكتب لها معاذة فيه[6].

الكتابة على الرق في العصر الإسلامي:

كانت بلاد العرب تعرف الكتابة على الرق قبل الإسلام ولذا فلا يستبعد أنه منذ مبعث النبي ﷺ

---

(1) جروليه، المرجع السابق، ص 25.
(2) عبد الحميد، المنهج العلمي، ص53.
(3) الزيات، صحف الكتابة، ص 458، الجلود والرقوق والطروس في الإسلام، مجلة الكتاب، ص 1362.
(4) حميد، المرجع السابق، ص 178.
(5) الزيات، صحف الكتابة، ص 459، الجلود والرقوق، ص 1362.
(6) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ج 16، ص 111.

برسالته التي تحث على التعليم، كان الرق من المواد لأولية التي اتجه نحوها الكتاب في بداية العصر لإسلامي ليكتبوا عليها القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، ولوفرة الجلود "الرق" في أيام الحجيج و الذي حث الإسلام على نحر الأضاحي والهدايا التي قدم بها الحجاج إلى بيت الله فكان أن وجد الكُتّاب الكثير من الرق مرتعا خصبا للصحف التي تنتج من تلك الأضاحي، فضلا عما تتمتع به البلاد العربية من مناطق رعوية، إضافة إلى أنه كانت قد عرفت المعالجات الأولية للجلد، وذلك قبل عصر الكوفة الذي امتاز بمعالجات جيدة للجلد.

ومما يؤيد استعمال الرق للكتابة عليه عند ظهور الإسلام ما ذكرته الآية القرآنية الكريمة ﴿والطور وكتاب مسطور في رق منشور﴾[1]، وهنا لابد من الإشارة إلى أن القرآن الكريم عند نزوله قد دون بعضه على الرق أو الجلد العادي، كما يمكن اعتبار الرسائل التي وجهها الرسول ﷺ إلى ملوك وأمراء الدول في الجزيرة العربية وخارجها كانت أول ما كتب في صدر الإسلام على الرق والتي وصل إلينا منها خمس (ولسنا بصدد الحديث عن مدى صحتها من عدمه) إضافة إلى كتابة بعض من القرآن الكريم على الرق على يد كتاب الوحي.

هذا وقد توفي الرسول ﷺ والقرآن لم يجمع في مصحف واحد- بل كان كما يسميه البعض في صدور الصحابة "رضوان الله عليهم"- فكان على العسب والكرانيف والجلود واللخاف، مما يفهم من حديث الزهري ﷺ قوله: "قبض الرسول ﷺ والقرآن مكتوب في العسب والجلد" وربما كتب النبي ﷺ بعض مكاتباته في الأدم[2]، وبعد وفاته ﷺ وتولي أمور المسلمين الخليفة أبو بكر ﷺ وظهرت حركات الردة التي استشهد فيها حفاظ القرآن الكريم خصوصا في معركة اليمامة فخاف المسلمون على القرآن الكريم من الضياع فراجع عمر بن الخطاب ﷺ أبو بكر ﷺ في ذلك وطلب إليه أن يجمع القرآن فاستدعى زيد بن ثابت وأمره أن يجمع القرآن الكريم.

قال زيد: "أرسل لي أبو بكر فأتيته فإذا عمر عنده فقال أبو بكر إن عمر أتاني فقال لي: إن القتل قد استمر بالقراء يوم اليمامة وأني أخشى أن يستمر القتل في القراء فيذهب الكثير من القراء فأرى أن يجمع القرآن في الحال فقلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله الرسول ﷺ فقال عمر: هو والله خير فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك قد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن واجمعه.

قال زيد: "فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي من الذي أمرني به من جمع القرآن" قال: فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ولم أجدها عند غيره فكانت الصحف عند أبي بكر ﷺ حياته حتى توفاه الله ثم عند عمر ﷺ حتى توفاه الله ثم عند حفصة ابنة عمر ﷺ، وظل عندها إلى أن تولى الخلافة عثمان ابن عفان ﷺ.

قال محمد ابن إسحاق: روى الثقة أن حذيفة ابن اليمان قدم على عثمان وكان في العراق، وقال لعثمان آدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر عثمان زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال للرهط من قريش: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت

---

(1) سورة الطور: اية 1،2.

(2) القلقشندي، المصدر السابق، ص 486.

في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم[1].

وقد ذكر أن عدد المصاحف التي هيئت كانت أربعة وقيل سبعة أرسلت إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وبقيت نسخة في المدينة، ويشير القلقشندي[2] إلى أن هذه المصاحف قد كتبت بقلم الطومار[3].

وقد اجتمع رأي الصحابة ﷺ على كتابة القرآن في الرق لطول بقائه أو لأنه المتوفر عندهم حينئذ، وبقي الناس على ذلك إلى عصر الخليفة الرشيد[4].

وكان للرق مكانه الأثير عند العلماء حتى ليرونه وحده الجدير بكتابة القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ، وأن كتابته في غيره تجاوز لحدود الأدب العلمي إزاءه[5].

ويرى الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد عن أحمد بن بديل الكوفي الذي بعث إليه المعتز ليأخذ الحديث عنه حتى إذا دخل عليه واستقر في مجلسه وتهيأ لإملاء الحديث " قال أخذ الكاتب القرطاس والدواة والمداد- فقال له منكرا ذلك: أتكتب حديث رسول الله ﷺ في قرطاس بمداد، فسأله الكاتب فبم يكتب؟ قال في رق بحبر وأخذ في الإملاء "[6].

هذا وقد استمر استخدام الرق في كتابة المصاحف، وخاصة بعد تلك التي أرسلت إلى الأمصار، وبدأ الناس يستنسخونها فأجادوا في نقلها، وما وصل إلينا من تلك المصاحف الأولى عبارة عن مجموعات تحتفظ بها خزائن المخطوطات ومتاحف الآثار في العالم، وهي إما مصاحف كاملة أو أجزاء أو أوراق متناثرة ومتفرقة كتبت جميعها بالخط الكوفي على الرق وترجع إلى الفترة ما بين القرن 1-5 هـ أغلبها مؤرخ وقد نسب قسم منها إلى الخليفتين الراشدين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب[7].

ومن ضمن مصاحف الرق الكاملة مصحف في المشهد الحسيني في القاهرة، وآخر في مكتبة أمير المؤمنين علي بالنجف[8]، إلا أن أقدم الرقوق التي وصلتنا والمدون عليها آيات قرآنية ترجع إلى ق.1هـ منها ورقة من مصحف قديم بالخط المكي المائل محفوظ في مكتبة الفاتيكان، وورقة أخرى ترجع إلى نفس الفترة محفوظة في المتحف العراقي ببغداد[9].

الكتابة على الرّق في العصرين الأموي والعباسي:

إذا ما عرجنا على الدولة الأموية نفتش بين مكنوناتها وثنايا أوراقها المكتوبة على الرق في عصرها - فإننا نجد وبطبيعة الحال أن الرق من المواد سريعة التلف- فلم يصل إلينا منها نماذج كثيرة إلا انه مع تلك القلة النادرة وصل إلينا بعض ورقات من الرق حملت في طياتها آيات قرآنية كريمة منها ورقة محفوظة بالمتحف العراقي السالفة الذكر، كما

(1) ابن النديم، الفهرست ص 27.

(2) النقشبندي، أسامة، مصاحف كريمة على الرق مجلة افاق عربية، ع 10، س 10، 1985م ص36،37.

(3) الطومار، قلم مبسوط كله ليس فيه شيء من الاستدارة، انظر الخط العربي، د/ ناهض ص 51.

(4) القلقشندي، المصدر السابق، ص 486.

(5) حميد، المرجع السابق، ص 180.

* استثنى بعض أنواع الحبر فقيل يختار أن لا يكتب في الجلود والرق بالحبر المثلث، فإنه قليل اللبث فيها، سريع الزوال عنها، وأن يكتب فيها بالحبر المطبوخ، وفي الرق". الزيات، المرجع السابق، ص 459.

(6) الزيات، صحف الكتابة، ص 459، الجلود والرقوق، ص 1362، حميد، المرجع السابق، ص 180.

(7) النقسبندي، المرجع السابق، ص 38.

(8) حميد، المرجع السابق، ص 180، النقسبندي، المرجع السابق، ص 38.

(9) حميد، المرجع السابق، ص 182.

يحتفظ متحف الآثار الإسلامية بأستنبول بمصحف آخر مكتوب على الرق، وتحتفظ بعض المتاحف العالمية بالعديد من المصاحف أو الورقات التي تنسب إلى الفترة الأموية على أن أغلبها محفوظ بمتحف طوب قابسراي باسطنبول منها، مصحف مؤرخ سنة 49هـ بخط خديج بن معاوية بن سلمة الأنصاري، وقد كتبه للأمير عقبة بن نافع الفهري، ومصحف آخر بنفس المتحف مؤرخ بسنة 52هـ كتبه عقبة بن عامر وأن الاسم والتاريخ مضاف إليه فيما بعد.

وتحتفظ مكتبة الإمام الرضا علي بن الحسين في مشهد بثلاثة مصاحف ينسب الأول والثاني للإمام الحسين بن علي والثالث للإمام علي بن الحسين زين العابدين، وبما أنهم عاشوا خلال الفترة الأموية فتنسب تلك المصاحف إلى الدولة الأموية[1].

هذا وقد تم العثور في اليمن في عام 1982م على ما يقارب أربعين ألف صفحة مصحف كريم تمثل ألف مصحف يعود تاريخها إلى الفترة ما بين القرن 1-5هـ منها أكثر من 700 مصحف كتب على رق نفذت كتاباتها بالخط الحجازي والكوفي إضافة إلى وجود مصحف آخر ينسب إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

وبعد هذا الاستطراد غير السريع تيمم نحو المغرب العربي، فبعد أن مضى القرن الأول الهجري كان مهمة العرب الفاتحين إرساء قواعد الدولة وإقرار سلطانهم بها، فكان اتجاههم منصرفا إلى جهاد تلك المعارضة وإخضاع شوكة الثائرين المتمركزين في الجبال، وما أن انبلج فجر المائة الثانية حتى رسخت قدم العروبة والإسلام في أفريقية، فبدأ العرب في بث تعاليم الإسلام الحنيف، فقد روى "الرقيق" مؤرخ القيروان أن موسى ابن نصير أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن الكريم، وأن يفقهوهم في الدين، فما كان إلاّ نصف قرن حتى كثرت في أفريقية المصاحف المجلوبة من الشرق أو المنسوخة في البلاد وحذق الأفارقة الخط العربي وخاصة القلم الكوفي، كما نقل العرب الذين استقروا في أفريقية ما تحتاج إليه الكتابة من أدوات ومواد، حتى نرى بين أسواق القيروان سوق الوراقين، يجد فيه الكاتب والمتعلم ما يحتاج إليه من ذلك[2].

وهناك روايات كثيرة تدل على إقبال أهل أفريقية على التعليم في العهد الأول للإسلام وإقبالهم على تقييد مروياتهم وإثباتها على كراريس الرقوق لتكون عونا لهم، ومما ثبت عن سحنون في هذا المعنى أنه كان يقول: "العلم صيد والكتابة قيد"، ولم يكن لأهل أفريقية وسيلة غير الرق للكتابة عليها- لأن البردي لم يكن ينبت فيها[3]، إضافة إلى غلاء ثمن البردي وعدم اقتصاده في النفقات بحيث يكتب على الرق من جانبين بينما لا يكتب على البردي إلاّ من جانب واحد، ويؤيد ذلك ما أشار إليه المقدسي الذي كتب عن أفريقية في سنة 375هـ حيث قال: "وكل مصاحفهم ودفاترهم مكتوبة في رقوق"[4].

ولذا لما تبين للأخشيد أمير مصر خطأه بقبول المسير إلى بغداد والمثول بين يدي المتقي لله وخدمته إياه، وأراد استدراك ذلك الخطأ قال أحمد بن عبد الله الفرغاني: "فدعوت رجلاً من المغاربة له أخ بالمغرب فقلت له خذ رقا واكتب فيه كتابا من أخيك وقل فيه "لم أتصل بأمير المؤمنين القائم بأمر الله الفاطمي فسار الأخشيد إلى المتقي وجهز العسكر في البر والبحر إلى مصر واغتنم خلوها،

(1) دفتر، ناهض عبد الرزاق، الخط العربي، ص 60، 61.

(2) عبد الوهاب، حسن حسني، البردي والرق والكاغد في أفريقية التونسية، مجلة المخطوطات، نوفمبر 1956م، ص 37، 38.

(3) عبد الوهاب، المرجع نفسه، ص 40.

(4) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 239.

وإذا كتبت الكتاب فافركه وادعكه حتى يصير كأنه قديم، ثم حمله الأخشيد إلى المتقي وقرأه عليه، فقال سر ولا تتأخر"[1]، ومهما يكن من أمر فقد بلغ أهل أفريقية في صناعة وتجهيز الرق وصقله وصبغه أحيانا بألوان مختلفة ما بين أخضر ولازوردي وأحمر، حتى صار الرق من السلع التي يتجهز فيها ويرتفق بها إلى جميع آفاق المغرب[2].

ولم تزل في أفريقية وخاصة القيروان تلك المدينة التي أسسها عقبة بن نافع واختط فيها جامع القيروان وفي مكتبته التي امتازت على غيرها بما تحتويه من مجموعة من الرقوق لا تكاد توجد في أي مكتبة أخرى، وهي تعد من مجموعة طرائف التراث الإسلامي في المئات 3، 4، 5هـ لما تحتفظ به من وثائق[3]، وفي هذه الرقوق نجد أمورا شتى عن صناعة الرق والتصرف في صبغه وصقله وعن التذهيب وما فيه من عناصر أفريقية صرفة بلغت غاية سامقة من الجود[4]، ومن هذه المجموعة كراس في رق مقاسه 23×32 كتب بحبر أسود صفحاته 11 صفحة لم تتخذ في كتابته مسطرة مضبوطة بل تتراوح سطور الصفحة بين 26- 28 سطرا، وهو بخط شرقي* مترابط يلتزم إهمال النقط، وهو بخط صاحب التوقيع علي بن حسن أحمد الخالد كتبه في أواخر جمادى الثانية 692هـ، وسجل مصحف بخط كوفي في الرق مسطرة خمسة في أول كل جزء بالجرم الكبير مكتوبة بالذهب بخط كوفي في رق أكمل السور وعدد الآيات والأحزاب بالفضة، ولقد تأنقت المدرسة القيروانية في صبغ الرقوق وصقلها ولم تصلنا من هذه الأنماط الملونة غير قطعة من مصحف كبير على رق أزرق مذهب بالغ الجمال والروعة[5].

ومن مصاحف القيروان على الرق مصحف في ثلاثة أجزاء بخط كوفي في رق مسطرته سبعة أسطر ومصحف آخر في ثمانية أجزاء بخط كوفي في رق سطره 18 سطرا[6].

الكتابة على الرَّقّ في بلاد الأندلس:

تعد بلاد الأندلس المعبر العربي إلى أوربا ذلك البلد التي حباه الله سبحانه وتعالى جمالا طبيعيا وأضفى عليه العرب خلاصة تجارب عديدة ألبسته حلة قشيبة امتزجت فيها ثقافة المشرق العربي ومغربه حتى انصهرت في بوتقة الأندلس الرطيب.

وقبل التحدث عن الرق، صناعته وتحضيره فيها، يجب التنبيه إلى أن أهل الأندلس أخذوا ذلك عن أهل القيروان منها تسربت إليهم، ونورد شواهد تاريخية على ذلك، فهذا عثمان بن سعيد الصيقل مولى من موالي الأغالبة نشأ في بلاد "رقادة" حذو القيروان يستدعيه الأمير الحكم ولي عهد الأندلس بعد سقوط بني الأغلب سنة 269هـ فيلتحق به في قرطبة فيختصه بتحضير الرق، وهذا إبراهيم بن سالم التونسي يعرف بالوراق حذق صناعة الرق في القيروان ثم قصد الأندلس واتصل بالأمير الحكم، وقبل هؤلاء رحل إلى الأندلس محمد بن يوسف التاريخي المشهور بالوراق فهو ممن تعلم بالقيروان وحذق الوراقة ومهر فيها حتى كني بها[7].

(1) الزيات، صحف الكتابة، ص460، الجلود والرقوق، ص1363.

(2) عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 40.

(3) شبوح، إبراهيم، سجل مكتبة القيروان، مجلة معهد المخطوطات العربية، م2، ج2، نوفمبر 1956، ص 41.

(4) شبوح، المرجع السابق، ص 342.

* الخط الشرقي يعني به الخط الكوفي الآتي من بلاد المشرق العربي.

(5) شبوح، المرجع السابق، ص 345.

(6) شبوح، المرجع السابق، ص 346.

(7) عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 41،34.

هذا وقد غلب على الدواوين السلطانية في الأندلس الكتابة في جياد الرقوق بأجل الأقلام، ومن فعل الوزير أبي حفص بن برد الأكبر رقعة كتبها المظفر بن عامر "وإن ورد لأحد من الخدمة بعد وصول هذا العهد إليه كتاب اعتراض أو عمل في رق رديء أو بمواد دني أو خط خفي فيه لحن... ليبطلن سعي كاتبه فيما يكتب وليعاجلن بعقوبة عزله"، وكتب أيضا "إن قوما من خدمة الحضرة قد عادوا إلى ما نهوا عنه فكتبوا الخط الدقيق في دني الرقيق دقة من هممهم و دناءة في اختبارهم"، وربما أعوزهم الرق النقي فعمدوا إلى القديم منه أو المكتوب فيقشرون وجهه ويسمونه "مبشورا" ويعتذرون عن الكتابة فيه، ولما ولي المستظهر بالله أبو المطرف عبد الرحمن بن هشام الناصري سنة 414هـ رفع إليه شاعر ممن هنأه بالخلافة في يوم بيعته بشعر كتبه في رق مبشور اعتذر عن ذلك بهذين البيتين:

الرق مبشور وفيه بشارة
ببقاء الإمام الفاضل المستظهر
ملك أعاد العيش غضا شخصه
وكذا يكون به طوال الأدهر

وكان في قرطبة ربض يدعى ربض الرقا فين تباع فيه الرقوق بالقرب من باب العطارين، كما عرفت أشبيلية بصناعة الرقوق[1]، ولما أحرق ابن عباد كتب ابن حزم قال ابن حزم يصف ما أحرقه له من رق وقرطاس وكاغد:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي
تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث انتقلت ركائبي
وينزل أن أنزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رق وكاغد
وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

(1) الزيات، صحف الكتابة، ص 461، والجلود والرقوق، ص 1364.

وألا تقودوا في المكاتب بداءة
فكم دون ما تبغون لله من ستر[2]

وهناك من أغرب الحيل التي لجأ إليها بعض الخطباء في المشرق والمغرب كتابة خطبهم في رق بخط جميل وإلصاقه في الحائط يستعينون بقراءته أثناء الخطبة.

وللرقوق إذا تداولتها الأيدي قعقعة كان يضرب بها المثل، قال المقدسي- في كلامه على أصحاب الكهف: "على كل رجل منهم جبة وكساء أغبر يتقعقع كما يتقعقع الرق" [3]، والقعقعة هذه كانت سببا لسقوط (زينب) أخت الحجاج بن يوسف ومقتلها، وكان لما خرج ابن الأشعث وجه بها مع حرمه إلى الشام خوفا عليهن، فلما قتل ابن الأشعث كتب إلى عبد الملك بن مروان بالفتح وكتب مع الرسول كتابا إلى زينب يخبرها الخبر فأعطاها الكتاب وهي راكبة بغلة في هودج فنشرته تقرأه وسمعت البغلة قعقعة الكتاب فنفرت وسقطت زينب فدق عضدها وكسر جوفها فماتت[4]، وتضم متاحف العالم والمكتبات العامة أمثلة كثيرة من الرقوق التي تتضمن نصوصا دينية وأدبية وتاريخية.

الطروس:

الطرس الكتاب الذي محي ثم كتب، والجمع أطراس وطروس[5]، قال الليث الطرس الكتاب المحو الذي يستطاع أن تعاد عليه الكتابة[6]،

(2) الصولي، أدب الكاتب، ص 95 عن الزيات، المرجع السابق، 1364.

(3) المقدسي، المصدر السابق، ص 153.

(4) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ج6، ص 39، عن الزيات، المرجع السابق، 1365.

(5) ابن سيدة، المخصص، ج4، ص 8.

(6) ابن منظور، المصدر السابق، ج1، ص 121، الزبيدي، تاج العروس، ج4، ص 177.

والطرس الصحيفة، ويقال هي التي محيت ثم كتبت.

وكذلك الطلس[1]، وقد سبق الإشارة إلى أنه لما كانت فتنة الأمين نهبت الدواوين وأخذ ما فيها من الجلود المكتوبة فمحيت أو غسلت وكتب الناس فيها عدة سنين وفي كتب التراجم والتاريخ عدة إشارات إلى من غسل كتبه إما تورعا قبل موته وإما في حياته لغرض ما واشتهر من الأولين "سفيان الثوري" يقال إنه لما حضرته الوفاة غسل كتبه كلها خوفا كما قال أبو العلا والخوف لزم سفيان أن يغرق كتبه[2].

ويمكن في ختام هذا البحث أن نقول بشيء من الحزن الذي يفت في قلب البحاثة أنه كانت وراء ضياع بعض ذخائر العلم ومصنفاته، والتي منها جناية الدهر وكساد الوراقة وإهمال النساخ إضافة إلى تفريط الخزان القائم بالحراسة، وما تعرضت له بغداد ومكتباتها فقد فُقد فيها الكثير من العلم ومصنفاته والتي ما نفتأ أن نتوق إلى ما كان في تلك المكتبات والتي جاء في وصفها أثناء دخول التتار ورميهم بالكتب إلى النهر بأن مدادها غير لون ماء دجلة، مما يدل على كثرة الكتب والتي تشير بعض الروايات إلى أنها تصل إلى بضع مئات الآلاف ولذا خسر العالم أجمع ذلك التراث، وكأن ما أشبه الليلة بالبارحة فقد أبيحت مدينة بغداد في ربيع عام 2003م عندما دخلها الأمريكيون ونهبت مكتباتها ومتاحفها التي كانت تعج بالكتب المخطوطة والمطبوعة.

أدوات الكتابة:

بما أن البحث يدور حول الكتابة على الجلد (الرق) فإنه من الواجب علينا التطرق ولو بشيء يسير عن الأدوات التي كتب بها على هذه المادة.

القلم:

لقد استعمل الإنسان في بداية الكتابة آلة حادة لنقش كتابته على الأحجار والخشب والطين ثم تطور الأمر إلى استخدام الفحم والطباشير والرصاص، ولذا ذكر القرآن الكريم القلم في أكثر من موضع منه، فيقول تبارك وتعالى: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾[3]، وفي آية أخرى، وهي أول ما نزل على رسول الله ﷺ، وهي: ﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم﴾[4]، ولذا فسوف نتطرق إلى القلم الذي كتب به على مادة الجلد"الرق".

فقد كان القلم في الماضي يصنع من السعف والبوص حيث يقط ويقلم ويبرى ثم يغمس في الحبر ويكتب به، وقد عرف القلم بأسماء كثيرة منها:

1. قلم البوص، وهو الذي يصنع من البوص أوجريد النخل، وأحيانا يسمى قلم القصب.
2. قلم الخشب؛ ويصنع من أغصان الأشجار الرقيقة.
3. قلم العظم؛ ويصنع من العظام بعد أن يدبب رأسها، وكذلك عظام.
4. قلم الريش؛ ويصنع من ريش الطيور الملونة خصوصا ريش الذيل وأطراف الجناحين[5]، وقد اختص بالكتابة على الرق الناحية المجوفة من قصبة ريش الطيور الكبيرة كالنسر والغراب والأوز، وعن هذه والريشة التي عرفها القدماء أخذ ريش الأوز في العصر الحديث[6].

---

(1) ابن منظور، المصدر السابق، ج7، ص 121، ويقال وطرسه أفسده طرست الصحيفة إذا أنعمت محوها، وطرس الكتاب سوده، لسان العرب، ج6، ص 121، تاج العروس، ج4، ص 177، والصحيفة التي يكتب فيها والجمع صحائف وصحف التنزيل ومنها صحف إبراهيم وموسى، لسان العرب، ج4، ص 7،8، ومنها الطومار والطامور، وهي الصحيفة قال وليس بعربي وعدها سيبويه عربيا، لسان العرب، ج6، ص 121.

(2) الزيات، صحف الكتابة، ص 463.

(3) سورة القلم: آية 3.

(4) سورة القلم: آية 3،4.

(5) يوسف، المرجع السابق، ص 25.

(6) سفندال، المرجع السابق، ص 26.

والقلم من لوازم الكتابة، ويجمع أقلام، ويسمى قلما لأنه قلم أي قطع وسوي وكل عود قطع أو جز رأسه وأعلم فهو قلم قال تعالى: ﴿إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾[1]، ويرى القلقشندي أن تسمية القلم جاءت من اشتقاق القلم نفسه، وقيل هو مأخوذ من أقلام وهو شجر رخو وسمي قلما لقلم رأسه[2]، واعلم أن القلم اشرف آلات الكتابة وأعلاها رتبة وهو المباشر للكتابة دون غيره قال تعالى: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ وقد روي عن رسول الله ﷺ من قلم قلما يكتب به علما أعطاه الله شجرة في الجنة خير من الدنيا وما فيها[3]، وقال ابن المعتز القلم مجهز الجيوش والكلام تخدمه الإرادة ولا يمل من الاستزادة كأنه يقبل بساط سلطان أو يفتح نور بستان، ومن كلام أبي حفص بن برد الأندلسي، ما أعجب شأن القلم يشرب ظلمة ويلفظ نورا، والقلم به ينفذ المقاتل وشفرة تطيح بها المفاصل[4].

وروي عن زيد بن ثابت قال: "كنت أكتب بين يدي رسول الله ﷺ يوما فقام لحاجة، فقال لي: ضع القلم على أذنك فإنه أذكر للمصلي واقضي للحاجة"، ولا تزال عادة وضع القلم خلف الأذن جارية إلى وقتنا الحاضر[5].

ومن أنواع القلم، القلم المحرف، الذي تكون إحدى سنيه طويلة وإذا تساوت فيسمى قلماً مبسوطاً، كما أطلق على أجزاء القلم مسميات فيقال لطرفيه اللذين يكتب بهما "السنان، الشعيرتان" وهي تتفاوت في الجودة والدقة، فأجودها أن تكون أنابيب القصب أقلها عقدا وأكثفها لحما وأصلبها قشرا وأعدلها استواء، وقال إبراهيم بن العباس لغلام يعلمه الخط ليكن قلمك علما بين الدقة والغلظ ولا تبره عند عقد فإن فيه تعقيد الأمور، ولا تكتب بقلم ملتوٍ ولا ذي شقٍ غير مستوٍ[6]، وما ورد في كتاب جعفر بن يحيى إلى محمد بن الليث قوله "أما بعد فليكن قلمك حرفا لا متينا ولا رقيقا فابره بريا مستويا كمنقار حمامة، اعطف بطنه ورقق شفرته"[7].

الحبر أو المداد:

الأحبار تعرف بالمداد، وهذا الاسم مأخوذ من الفعل مد أي ما يمد الأداة المستخدمة في الكتابة، وفي ذلك يقول تعالى:

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[8].

وكلمة الأحبار تعني المواد التي تترك أثرها وهي غالبا صبغات كيميائية معدنية أو عضوية تختلف في درجة قابليتها للتأثر بالماء أو المحاليل الأخرى[9]، وعند القلقشندي أن أصل الحبر هو اللون كأن يقال فلان ناصع الحبر أي ذي اللون الخالص الصافي من كل شيء[10]، ويضيف القلقشندي أن هناك من المداد ما يناسب الرق "ويسمى الحبر الرأس ولا دخان فيه ولذلك يجيء بصاما براقا وبه أضرار للبصر في النظر إليه من جهة بريقه ويفسد الكاغد (الورق) على طول[11]. وسنقتصر في حديثنا على نوع من الحبر يسمى الحبر الحديدي والذي يتناسب مع الرق، وقد عرف هذا النوع من الأحبار في العهد المسيحي ولكن استعماله كان محدودا في البداية وهو نوعان حبر أسود Black Ink وآخر يسمى أزرق Blue Ink.

---

(1) سورة آل عمران: آية 44.

(2) القلقشندي، المصدر السابق، ج2، ص 44.

(3) القلقشندي، المصدر السابق، ج2، ص 445.

(4) القلقشندي، المصدر السابق، ج 2، ص 446.

(5) حميد، المرجع السابق، ص 223.

(6) حميد، المرجع السابق، ص 224.

(7) القلقشندي، المصدر السابق، ج2، ص 441.

(8) الكهف: آية 109.

(9) يوسف، المرجع السابق، ص 24.

(10) القلقشندي، المصدر السابق، ج2، ص 471.

(11) القلقشندي، المصدر السابق، ج 2، ص 478.

الحبر الأسود:

يتكون من كبريتات الحديدوز الفضي المستخرج من ثمار شجر البلوط والصمغ العربي والماء إضافة إلى الخل كمذيب، ويعرف بالحبر المطبوخ حيث تطبخ مكوناته على النار أثناء تجهيزه من الجلود، وهذه القلوية تكون قادرة على معادلة الحموضة[1]، مما يكون أنسب إلى الكتابة به على الرق، بذلك تتحقق الرواية التي تقول " إنه حين بعث المعتز إلى أحمد بن بديل الكوفي ليأخذ عنه حديث رسول الله ﷺ حتى إذا دخل واستقر في مجلسه و تهيأ لإملاء الحديث أخذ الكاتب القرطاس والدواة فقال له منكرا: أتكتب حديث رسول الله ﷺ في قرطاس بمداد، فسأله: فيما نكتب إذا، قال: في رق بحبر، فجاءوا بالرق والحبر وأخذوا في الإملاء[2].

الدواة:

نتحدث عن الدواة لأنها مقترنة بالقلم والخبر كمادة للكتابة على الرق ففيها أقسم الله سبحانه وتعالى بها بقوله: ﴿ن﴾ والتي قيل أنها الدواة، قال ﷺ: "خلق الله النون وهي الدواة وخلق القلم"، وفي هذا ما يدل على أن النون هي الدواة وهي أم آلات الكتابة وسمطها الجامع لها أما أصلها فهي دواة ودويات ودوِيُ ودوِي ويقال أيضا دواء، وقد غلب على الكتاب اتخاذ الدوي من النحاس الأصفر والفولاذ وتغالوا في أثمانها وبالغوا في تحسينها[3]، أما دوى الخشب فقد رفضت وتركت إلى الأبنوس والصندل الأحمر وقد اعتاد الكتاب التحلية بالفضة، وقرر الشافعية ويحرم التكفيت بالذهب والفضة وكذلك التمويه، وقيل في قدرها سبيل الدواة متوسط لا بالقصيرة فتقصر أقلامها وتقبح ولا بالطويلة فيثقل محملها وتعجف، ويكون طولها بمقدار عظم الذراع أو فوق ذلك بقليل لتكون مناسبة لقدر القلم، واختلف في هيئتها بين التدوير والتربيع[4]، وتشمل الدواة على أجزاء منها المقلمة، المحبرة، المحرك، المرملة، والمنشأة[5].

(1) يوسف، المرجع السابق، ص 24.

(2) أمين، المرجع السابق، ص 121.

(3) القلقشندي، المصدر السابق، ج2، ص441.

الخاتمة:

بعد هذه الدراسة للكتابة على الجلد (الرق) وأدواتها يجنح الباحث بشيء يسير نحو التعريف بالكتابة، فالكتابة هي طريقة تعبير بحروف، لغة يعيشها الإنسان فإذا ما استوت هذه الحروف راح الإنسان يتفنن في طريقة رسمها بخطوط هندسية ذات أشكال مختلفة، ومن هنا نجد أن الخط والكتابة سببان متلازمان لتحقيق هدف معين[6]، والكتابة في اللغة تتضمن معان، منها:

- تطور اللفظ بحروف الهجاء، يقال: كتب، يكتب، كتابة، والكتاب صور فيه اللفظ بحروف الهجاء[7]، والكتابة لمن تكون له صناعة مثل الصباغة والخياطة، وقد تكررت الكتابة ومشتقاتها في الكتب السماوية، وفي القرآن الكريم:

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ..﴾[8].

وإذا ما تطرقنا إلى المخطوط فلابد من أن نشير إلى كلمة (المخطوط MANUSCRIPT)؛ إذا فماذا يقصد بالمخطوط ؟

المخطوط كلمة تعني كلما كتب بخط اليد

(4) القلقشندي، المصدر السابق، ج2، ص 442.

(5) حميد، المرجع السابق، ص 220.

(6) يوسف، المرجع السابق، ص 14.

(7) الفك، الفيكتو، صناعة الكتاب، ترجمة: سعد علي، بيروت، ص 131.

(8) الأعراف: آيه 145.

سواء كان رسالة أو وثيقة أو كتابا أو غيره من النقش على حجر أو رسم على قماش، كما أنه لا فرق بين ما كتب باللغة العربية أو غيرها[1]، ومن ثم انتشر المخطوط وخاصة العربي منها بانتشار الإسلام، واتبع ذلك نزوح العرب إلى الأقطار الداخلة في الإسلام، ثم بدءوا في تدوين العلوم حتى اتسعت دائرة التدوين والتأليف والترجمة، فلم تقتصر على الأحاديث النبوية الشريفة فحسب بل امتدت إلى القصص والأخبار والتاريخ واللغة والآداب والعلوم، إلى أن بلغت ذروتها في القرن الثالث والرابع الهجريين، اللذين شهدا ذروة نشاط العقل العربي، وهكذا بدأ تراث أمتنا يزداد وينتشر بشكل مخطوط ومنسوخ، إما على جلد أو رق أو قرطاس أو ورق (كاغد).

المراجع:

1- الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس.

2- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية.

3- عبد الحميد، حسام الدين، المنهج العلمي لصيانة الممتلكات الثقافية.

4- عبد الحميد، حسام الدين، تكنولوجيا صيانة وترميم الأخشاب والمخطوطات.

5- نقلا عن الزيات حبيب، الجلود والرقوق والطروس في الإسلام، مجلة الكتاب، س2، ج9، 19478.

6- ابن منظور، لسان العرب، ج15.

7- عبد الحميد، المنهج العلمي لصيانة الممتلكات الثقافية.

8- حميد، عبد العزيز و آخرون، الخط العربي.

9- الأصطخري، المسالك والممالك.

10- المقدسي، احسن التقاسيم ، ص 87.

11- الكندي، أبي عمر، كتاب الولاة وكتاب القضاة في مصر.

12- أمين، نضال عبد العال، أدوات ومواد الكتابة، رسالة ماجستير، بغداد غير منشورة.

13- عبد العزيز، الفنون الزخرفية قبل العصر الفاطمي.

14- ابن النديم، الفهرست.

15- الزيات، حبيب، الجلود والرقوق والطروس في الإسلام، مجلة الكتاب.

16- الزيات، صحف الكتابة وصناعة الورق في الإسلام، مجلة المشرق، سنة 1954م.

17- زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، ج3.

18- البلاذري، فتوح البلدان.

19- عبد الحميد، تكنولوجيا صيانة، ص 43-45.

20- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج2.

21- يوسف، مصطفى السيد، العلم وصيانة المخطوطات.

22- مرزوق، محمد عبد العزيز الفن الإسلامي ص158.

23- عبد الستار، ياهرة صيانة الوثائق.

24- اسكاريب، روبير، صناعة الكتاب بين الأمس واليوم، ترجمة: ياقوت صالح، مراجعة: عبد الواحد جمال الدين، سلسلة قضايا الساعة، 1977م.

25- صيانة الوثائق، ص 14، ونضال عبد العال المرجع السابق، ص 123.

26- سفندال، تاريخ الكتاب.

27- شاهين، عبد المعز، طرق صيانة وترميم الآثار.

28- جروليه، اريك دي، تاريخ الكتاب، ترجمة: د. خليل صابات، مراجعة: حسن محمود، سلسلة الألف كتاب.

29- النقشبندي، أسامة، مصاحف كريمة على الرق، مجلة آفاق عربية، ع10، 11985م.

30- الطومار، قلم مبسوط كله ليس فيه شئ من الاستدارة، انظر الخط العربي، د. ناهض.

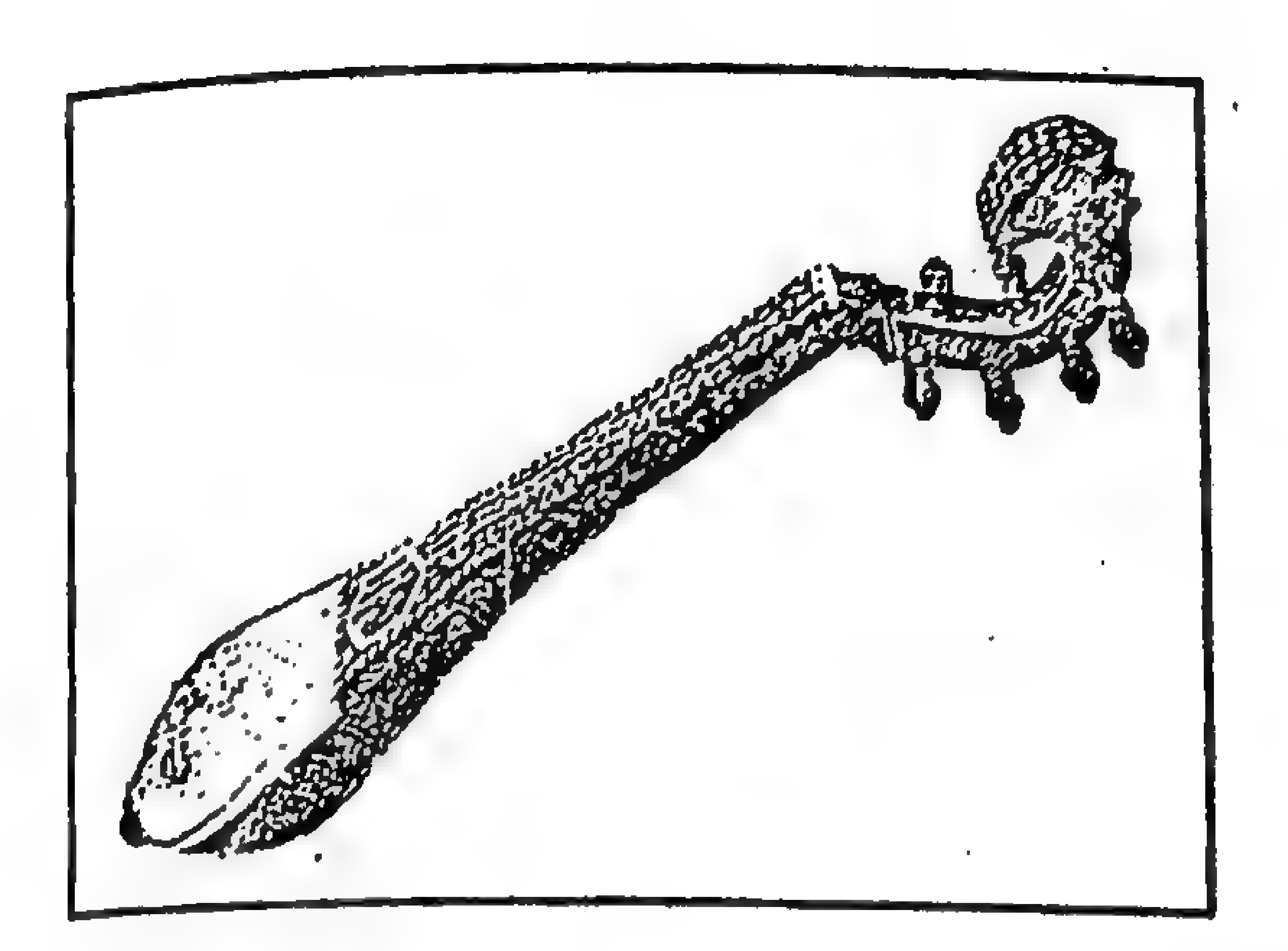
31- عبد الوهاب، حسن حسني، البردي والرق والكاغد في أفريقية التونسية، مجلة المخطوطات، نوفمبر 1956م.

32- شبوح، إبراهيم، سجل مكتبة القيروان، مجلة معهد المخطوطات العربية، م2، ج2، نوفمبر 1956.

---

(1) يوسف، المرجع السابق، ص 16.

آلة العود اليمنية
العود الصنعاني
(الطُربي- الطَرَب- القنبوس)



د. محمد بركات*

آلة العود اليمنية (الطُربي)**

تاريخ الآلة:

تعتبر آلة العود اليمنية (الطَربي) ذات الأوتار الأربعة والبطن المغشاة بالجلد، والشائعة باسم (العود الصنعاني) من أهم الآلات الوترية في اليمن منذ القدم، وهي من الآلات التي أصبحت شبه منقرضة، وغير مستخدمة في الوقت الحاضر.

وقد نشأت في أوج ازدهار الحضارة اليمنية القديمة، كما نشأ العديد من الآلات الموسيقية الوترية الأخرى، كالمعزفة التي كانت شائعة في اليمن[1]، والمعزف الذي يشبه البربطون (Barbiton)[2] والقيثارة ذات الستة أوتار[3]، والطنبور[4] والربابة[5]، وغيرها.

وقد تجلى ذلك في النقوش، والآثار التي خلفتها تلك الحضارة بآلهتها المتعددة، ومعابدها الفواحة بأريج البخور والقرابين، منذ ما قبل الميلاد بآلاف السنين. ومن بين الكثير من تلك المخلفات المادية، والآثار، والنقوش المسندية تبرز إحدى اللوحات المرمرية الجدارية- المحفوظة بالمتحف الوطني للآثار اليمنية القديمة بمدينة صنعاء التاريخية- التي رسم على الوجه الأعلى منها صورة فنان يجلس على كرسي مرتفع يتوسط صالة مجلسه، محتضناً في حجره آلة موسيقية أشبه بالمزهر (العود القديم)، يقوم بالعزف على أوتارها والغناء كما يبدو، ويقف على جانبي مجلسه اثنان هما غالباً أعضاء جوقته الموسيقية، أو عازفا إيقاع يصاحبانه في ذلك المجلس الغنائي.

---

* باحث في الموسيقى اليمنية.

** الطُربي: يسمى أيضا (الطرب، العود الصنعاني، القنبوس).

(1) أبي طالب المفضل بن سلمة: كتاب الملاهي وأسمائها.

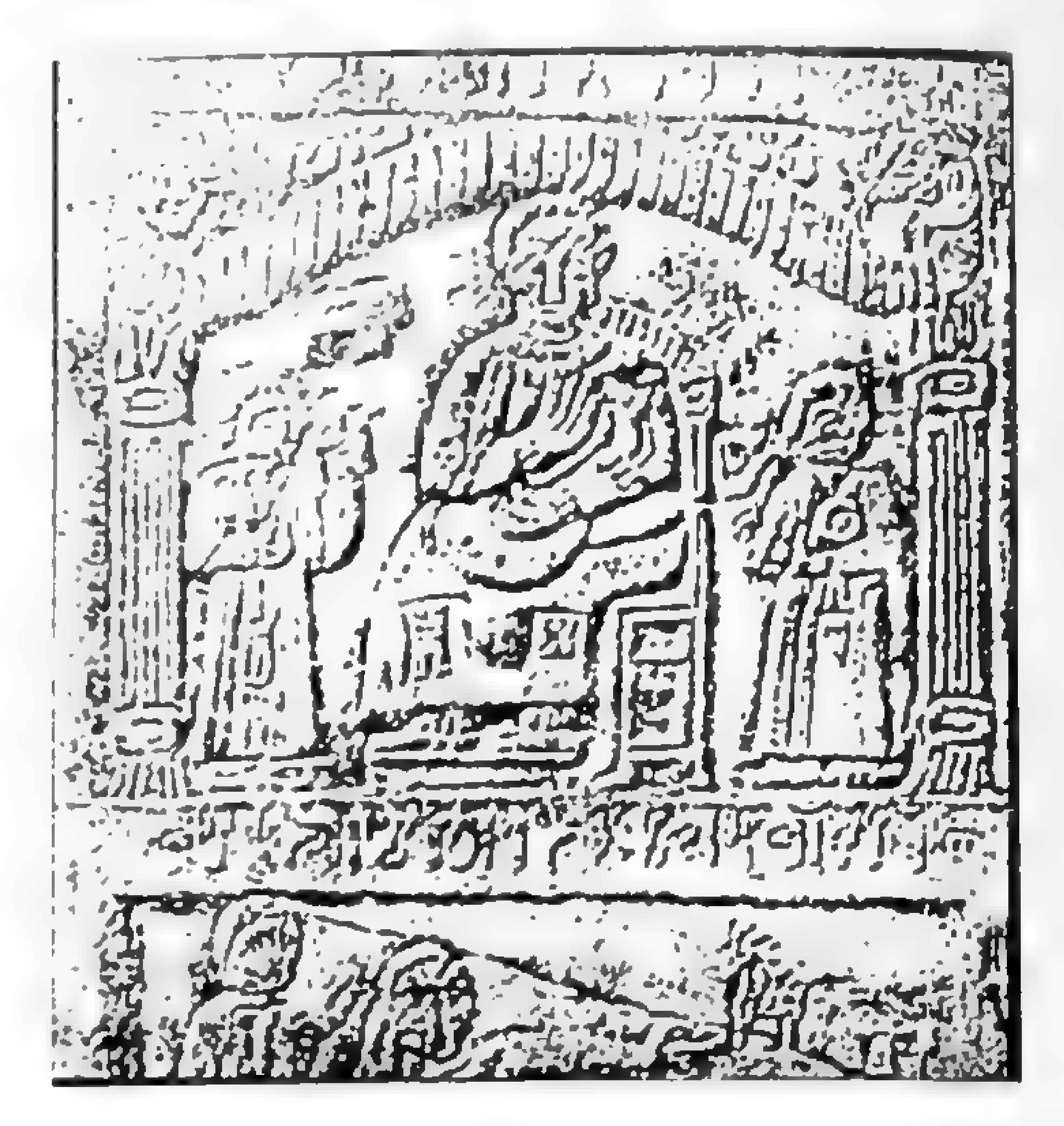
(2) فارمر هـ. ج: تاريخ الموسيقى العربية، مرجع سابق، ص 9.

(3) Poch, Qanbous, The New Grove Dictionary of musical Instruments, P.168.

(4) فارمر هـ. ج: المرجع السابق، ص15، وانظر زاكس: تاريخ الآلات الموسيقية، ص 257.

(5) المخطوطة الديوانية: ورقة 7، وانظر فاطمة أحمد محمود: الفرق الموسيقية الشعبية في مصر، رسالة ماجستير غير منشورة، ص 77.

وهذا الوصف الأولي والسريع لما احتوته تلك اللوحة المنقوشة على لوح من المرمر الأبيض، دلالة على انتشار تلك الآلة، وشيوع العزف عليها، في حين كان فيه المجتمع اليمني يسعى لتنمية الازدهار الحضاري الذي يعيشه، والتطور الصناعي والاقتصادي والثقافي



شكل رقم (1)

أحد النقوش الأثرية اليمنية القديمة التي تبين جانباً من مظاهر الازدهار الفني الموسيقي إبان حضارة اليمن القديمة

وإلى جانب أن تلك اللوحة المرمرية من النقوش والآثار اليمنية القديمة التي أفصحت عن جوانب من مظاهر الثقافة الموسيقية والغنائية إبان حضارة اليمن القديمة، فقد أوحت رسومها بمؤشرات هامة من أبرزها التوافق في أسلوب العزف على تلك الآلة حينذاك، مع أسلوب العزف على العود اليمني ذي البطن المغشاة بالرق، المعروف محلياً وصناعياً في صنعاء باسم "الطُربي" [أو "الطرب"، وشاع باسم "العود الصنعاني" وفي بعض مناطق اليمن عرف باسم (القنبوس)]، حيث يقوم العازف بحمل هذه الآلة بين ذراعيه عند العزف أو الغناء، كما هو الحال بالنسبة لتلك الآلة المنقوشة على اللوحة.

وإضافة إلى ذلك التوافق فيما بين طريقتي العزف في الحالتين هنالك توافق آخر تعكسه رسوم تلك اللوحة المرمرية الأثرية القديمة، وهو محدودية عدد العازفين للجوقة الموسيقية التي تصاحب المطرب في اليمن حيث لا يزيد عددها عن عازفين اثنين على الآلات الإيقاعية، وهذا ما يتضح من خلال رسوم اللوحة الأثرية، إذ باستطاعتنا تحديد الموسيقيين الذين يصاحبون المطرب العازف على العود اليمني ذي البطن المغشاة بالجلد، حيث يصاحبه فقط موسيقيان[1] أحدهما يعزف على آلة تسمى (الصحن)* والآخر يعزف على طبل بدوي صغير يسمى (مروس أو مرواس)[2].

وضمن النقوش الأثرية اليمنية القديمة الموجودة في بعض متاحف دول العالم، هناك نقش أثري قديم "بمتحف اللوفر"، تحت رقم (AO1029) يرجع تاريخه إلى القرن الثاني الميلادي، وهو منحوت على الحجر الكلسي. ويتضح في الجزء الأعلى منه التجمع لحضور وليمة. وتظهر عليه عزف الطرب (ربما في ذلك العود الكمثري الشكل الذي يبدو واضحاً في الجانب الأيسر للنقش)، كما يظهر عليه أيضاً نشر البخور على الحاضرين في حضرة الملك. أما في الجزء الأسفل من النقش فيرى الفارس وهو يمتطي ظهر بعير لحراسة قافلة من القوافل التي تحمل البضائع نتيجة ما واجهته اليمن في تلك الحقبة الزمنية من حروب وصراعات من قبل الأحباش ويأتي هذا الاحتفال الذي عبر عنه النقش بعد إجلاء المعتدين[3]. (انظر الشكل

---

(1) عبد الله محمد الرنيني: مقدمة عن التطور التاريخي والاجتماعي لمراحل الغناء والموسيقى باليمن، مجلة المناهل، العدد4، ص12.

* الصحن: آلة إيقاعية يمنية تسمى (الصحن الميمياء)، وتصنع من معدن الفولاذ (Stainless steel) كما تصنع أيضاً من النحاس.

(2) محمد عبده غانم: شعر الغناء الصنعاني، ص 32.

(3) هير هانز سلافر: العلاقة بين الشفوي والمكتوب، مجلة الإكليل، ص 206.

رقم "2"). ويؤكد هذا النقش الأثري بأن العود الكمثري الشكل كان مستخدماً في اليمن منذ ما قبل القرن الثاني الميلادي، أي خلال عصر الدولة الحميرية (115ق.م- 533م)، وهذا دليل آخر على ازدهار فن الموسيقى في هذا العصر، أحد عصور ازدهار الحضارة اليمنية، وقد ظل هذا الازدهار الفني متواصلاً منذ ما قبل هذا العصر وما بعده، ويتضح ذلك من خلال تلك النقوش والآثار.

شكل رقم (2)

نقش أثري من الآثار اليمنية القديمة يبرز في الجزء الأعلى منه العود اليمني الكمثري الشكل

(نقش رقم "AO1029" متحف اللوفر)

يضاف إليها ما ورد في بعض المخطوطات ومنها المخطوطة الديوانية للدولة الرسولية (626هـ- 858هـ)، التي دونت في عصر هذه الدولة ما بين (690هـ/1290م- 695هـ/1295م)، وقد ورد في أحد أبوابها الذي حمل عنوان (أشغال الإطراب) شرحاً تفصيلياً عن كل ما يتعلق بصناعة الآلات الموسيقية التي كانت تصنع في اليمن، تتصدرها صناعة العيدان اليمنية.

وقد صنفت المخطوطة تلك العيدان إلى عدة أنواع من حيث الجودة، وفقاً لمعايير محددة هي:

أولاً: الفترة الزمنية التي تُستغرق لصناعة كل عود من عيدان الغناء.

ثانياً: اختلاف مواد الصناعة من عود إلى آخر.

وبناءً على ذلك حددت أثمانها ثم أجور إصلاحها. ومما جاء في المخطوطة(1) عن هذا الموضوع:

"عيدان الغناء- العود أربعة وعشرين* اثني عشر. العود العشريني، ثمانية. العود الستة عشر، سبعة. العود الإثني عشر**، أربعة. العود العشاري، ديناريين ونصف***".

ومن خلال ما ورد في المخطوطة الديوانية عن صناعة العيدان ومعرفة إصلاحها يتضح أن العود في هذا العصر- كما يبدو وكما أشار محقق المخطوطة- كان صندوقه الصوتي يصنع من شرائح أو أضلاع خشبية، ويزعم الباحث بأن ذلك لا يعني أن هذا العود هو العود الكمثري الشكل الشبيه بالعود العربي التقليدي كما قد يتبادر إلى ذهن البعض،

---

(1) المخطوطة الديوانية، أشغال الاطراب، ورقة 6.

* نوع ممتاز من عيدان الغناء بلغ ثمنه اثني عشر دينارا، والتسمية الرقمية لأنواع العيدان في دولة بني رسول ترجع إلى الفترة الزمنية لصنعها محسوبة بعدد الأيام، فالعود (الأربعة والعشرون) يكمل الحرفي صناعته في مدة أربعة وعشرين يوماً.

** الستة عشر والإثني عشر وردتا في الأصل، والصواب (الستة عشري) و(الاثني عشري) كما ورد في موضع أخر من المخطوطة.

*** وردت في المخطوطة أيضا تسمية (العود الثماني) الذي يصنع في ثمانية أيام.

والدليل على ذلك أن مقاساتهما مختلفة فطول جسم العود المذكور بالمخطوطة كما هو مبين في مواد الصناعة، يساوي ثلاثة أشبار وعرضه يساوي شبراً واحداً فقط، والشبر يساوي حوالي (21 سم)، وهذه المقاسات لا تنطبق على مقاسات العود الكمثري الشكل، ولذلك فمن المرجح عدم وجود وجه للتشابه بينهما، بينما هناك تشابه واضح بين مقاسات العود المذكور بالمخطوطة ومقاسات الطُربي أو القنبوس ذي البطن المغشاة بالرق، والاختلاف البارز بينهما هو أن الصندوق الصوتي للطربي قطعة خشبية واحدة محفورة لتشكل جسم العود كاملاً. والصندوق الصوتي للعود الآخر يصنع من شرائح خشبية. ويرجح الباحث بأن العود الذي ورد ذكره في المخطوطة الديوانية هو في الغالب تطورا للطُربي، وهو في كل الأحوال أحد أنواع العيدان اليمنية المتنوعة.

وإلى جانب تلك الحقائق هناك أيضاً ما أوردته بعض المراجع والمؤلفات المتخصصة التي تؤكد أن كثيراً من الآلات الموسيقية المستعملة في العصور الإسلامية تنتمي إلى جنوب بلاد العرب (اليمن) ومنها المعزف والكوس[1] وغيرهما.

وقد سجل التاريخ أن أقدم الآلات الموسيقية كانت آلة ذات تجويف جلدي يُظن أنها المزهر[2]. وكان المزهر عوداً جلدي الصدر[3]، وهذه التسمية عرف بها هذا العود لدى العرب فيما قبل العصر الإسلامي[4]، وظل يستخدم حتى نهاية القرن السادس[5].

والمزهر في الأصل هو طنبور قديم ذو وجه من الجلد[6]. مأخوذ عن السبأيين[7] وقد نال إعجاباً كبيراً من قبل العرب، حيث أصبح من الآلات الموسيقية التي كانت رمزاً للموسيقى العربية الكلاسيكية[8] وإن احتل بعض مكانته العود ذو الصدر الخشبي[9] في حوالي نهاية القرن السادس أو بداية السابع، وقد ظل ذلك العود القديم ذو الأربعة أوتار في جنوب الجزيرة العربية محتفظاً بمكانته القديمة حتى عهد قريب، وإن لم يحتفظ باسمه القديم الذي عرف به وهو المزهر[10].

وظل الموسيقيون اليمنيون في استعمال عودهم الشهير باسم (العود الصنعاني) والذي عرف أيضاً باسم الطربي أو القنبوس ذي الأوتار الأربعة والبطن المغشاة بالجلد، والصنع المحلي، حتى بعد الحلقة الثانية من القرن الهجري الحالي[11]، (أي حتى أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين) بالرغم من عودة ظهور العود ذي البطن الخشبية والأوتار الخمسة، الذي عرف في اليمن باسم (الكبنج)*.

وإبان حياة الفنان الشيخ عتيق محمد وزير بعدن، فيما قبل وفاته بجيبوتي في عام 1921م الذي كان أحد أبرز فناني الغناء الصنعاني، كان العود اليمني ذا البطن الجلدية هو الآلة المستخدمة في العزف والغناء، وظل مستخدماً إبان حياة الفنان الشيخ علي أبو بكر باشراحيل المتوفى عام 1951م.

---

(1) فارمر: تاريخ الموسيقى العربية، ص 9.

(2) فارمر: مرجع سابق، ص 25.

(3) الأصفهاني: الأغاني، ج16، ص 13، 14. وانظر: المسعودي: مروج الذهب، ج8، ص 93. وانظر أيضاً: لين Lane: المعجم، مادة عزف.

(4) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج2، ص 186، عن: فارمر: دراسات في الآلات الموسيقية الشرقية، ص 73.

(5) Farmer H. G., Studies in Oriental Musical Instruments, 1929, P. 73.

(6) أبو طالب المفضل بن سلمة: كتاب الملاهي وأسمائها من قبل الموسيقى، ص 23.

(7) فارمر: تاريخ الموسيقى العربية، مرجع سابق، ص 15.

(8) سيمون جارجي: الموسيقى العربية، ص 29.

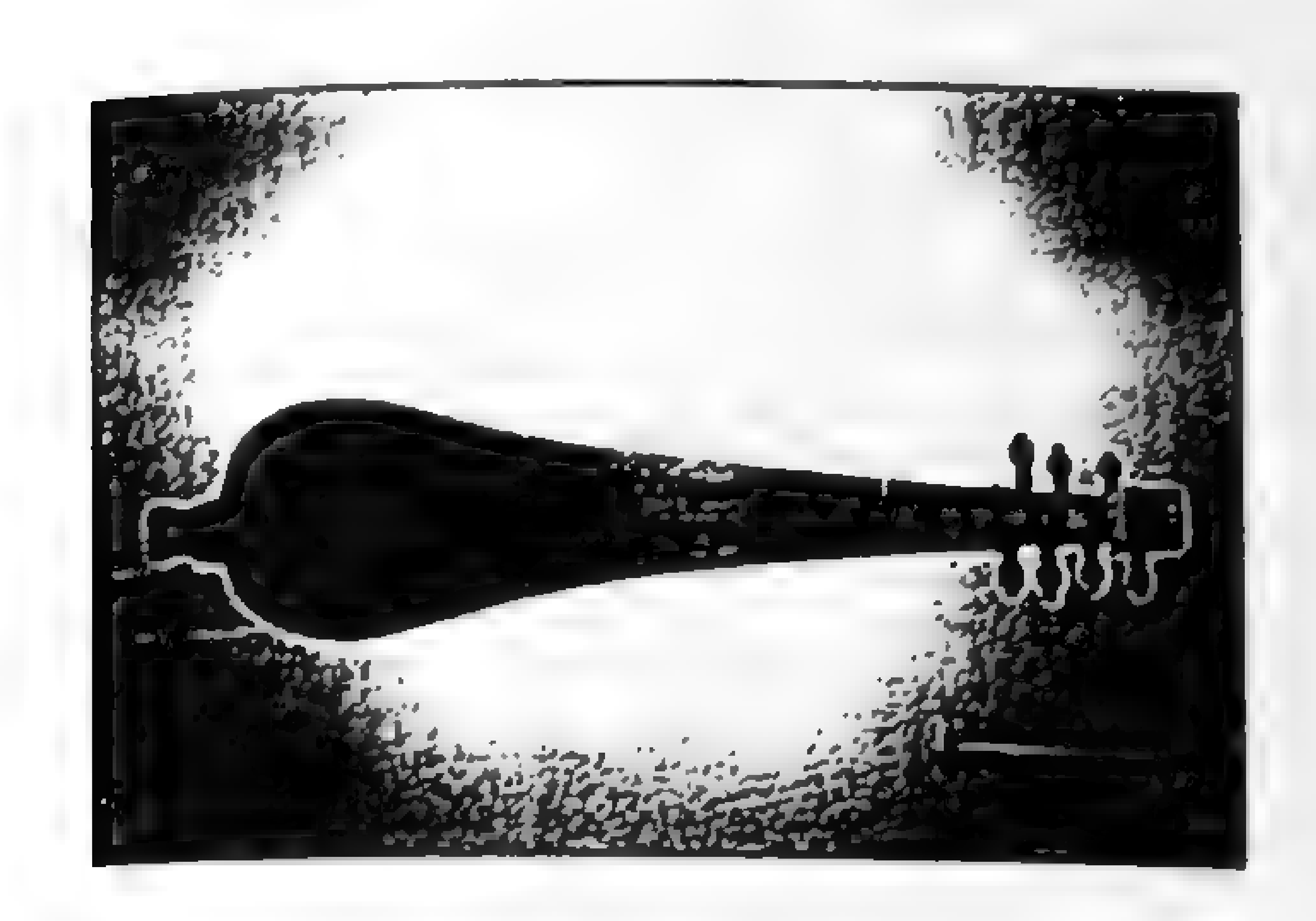
(9) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج8، ص 93، 94.

(10) المسعودي: نفس المرجع، ج4، ص 134.

(11) محمد عبده غانم: شعر الغناء الصنعاني، مرجع سابق، ص27، 31.

* الكبنج: تسمية أطلقت في اليمن على العود ذي البطن الخشبية والأوتار الخمسة.

وقد أشير إليه في معجم لين (LANE) 1863م، حيث ورد فيه أن هذه الآلة "نوع من الطنبور يصنعه اليمنيون ويسمونه قابوس Qabus أو العود"[12]، وقد اشتق هذا الاسم من الجذر ق- ن (Q-N) الموجود بقاموس المصطلحات الموسيقية للغات السامية، وحذف النون (N) ليصبح الاسم قابوس (Qabus) بدلاً من قنبوس (Qanbus) قاد إلى تخمين خاطئ بأن هذا المصطلح تحريف للمصطلح كوبوز (Kopuz) الذي يبدو أنه من أصل تركي[1]. وهو عود طويل الرقبة[2]، وهيكله الصوتي (صندوق الصوت) عريض، تشد عليه خمسة أوتار مزدوجة، ويعزف عليه بقطعة من الخشب[3]، ويفيد فارمر بأن له ثلاثة أوتار فقط[4]. بينما الطربي أو القنبوس اليمني ذو رقبة قصيرة، هي استمرار لنفس جسم الآلة، وصندوقه المصوّت بيضاوي الشكل، تشد عليه أربعة أوتار فقط، ثلاثة أوتار منها مزدوجة والرابع منفرداً يعزف عليه بريشة من قوادم الغراب أو النسر.



شكل رقم (3)
العود اليمني (الطربي)- (تصوير الباحث)

ويرى لانديبرج (Landberg) أن كلمة قابوس (Qabus) ذات أصل عربي جاءت من المصدر (قبص)* التي تعني الإمساك بواسطة رؤوس الأصابع، وأضاف أن قبص لها علاقة بالنقر وهي تعني الضرب أو العزف على الآلات الموسيقية[5].

ويذكر بعض الباحثين والمؤرخين بأن العود اليمني الشهير باسم (العود الصنعاني) بمظهره وشكله وصوته يذكر بتلك الآلات التي ورد ذكرها في بداية الفتوحات الإسلامية.

ويمكن اعتبار هذا العود من أقدم العيدان المذكورة في المراجع القديمة وهي: الكران والموتر والمعزف[6]. ولا غرابة في ذلك فإن كثيراً من الآلات الموسيقية المستعملة في العصور الإسلامية ينتمي إلى اليمن[7] كما أسلفنا، وتظل آلة العود اليمنية (الطُربي) إحدى العلامات الفنية البارزة في تاريخ فن الموسيقى والغناء في يمن الحضارة والتاريخ العريق.

(12) LANE (E.W.) Madd al-qamus, an Arabic – English lexicon, P. 93

(1) فارمر: تاريخ الموسيقى العربية، مرجع سابق، ص247.

(2) Pach, Qanbus, The New Grove Dictionary of Musical Instruments, P.168.

(3) محمد محمود سامي حافظ: تاريخ الموسيقى والغناء العربي، ص78. وانظر: فارمر: تاريخ الموسيقى العربية، مرجع سابق، ص 247.

(4) Farmer H. G., studies in Oriental Musical Instruments, OP. Cit. , P.72.

* القبص: القبصة ما يتناول بأطراف الأصابع. انظر: المعجم الوجيز، ص488.

(5) Farmer H. G., studies in Oriental Musical Instruments, OP. Cit. , P.73.

(6) Poche, Musics & Musicians of the World, P.3.

(7) فارمر: تاريخ الموسيقى العربية، مرجع سابق، ص9.

ولعراقة هذه الحضارة وامتداد جورها في أعماق التاريخ، فما زالت الآثار والنقوش اليمنية القديمة تكتشف تباعاً حتى عصرنا الحاضر في اليمن. وفي بعض متاحف العالم التي تضم عدداً كبيراً من تلك النقوش والآثار، لتكشف للأجيال عن العديد من الجوانب التي ما زالت مجهولة في تاريخ الحضارة اليمنية وخاصة الجوانب الفنية والثقافية بشكل عام، التي نسعى جاهدين للتعرف عليها، ومن ضمنها معرفة التاريخ المحدد لنشأة آلة العود اليمنية ذات الأوتار الأربعة والبطن المغشاة بالجلد، الذي لم يعرف حتى اليوم.

تعريف الآلة واستخدامها:

عرفت آلة العود اليمنية ذات البطن المغشاة بالجلد باسم (الطربي* أوالطرب أو القنبوس) وتسميته الشائعة بـ (العود الصنعاني) ترجع إلى أن نشأتها وصناعتها كانت فيما مضى في مدينة صنعاء، كما أشارت الدراسة الميدانية، وكذلك لارتباطها بالغناء في صنعاء الذي يطلق عليه (الغناء الصنعاني)، وقد أطلقت على هذه الآلة قديماً تسميات أخرى منها: الهزار*، الكتاب**، وهي من آلات النبر الوترية، ويتم العزف عليها بواسطة ريشة من قوادم النسر أو الغراب، تؤخذ من الجناح الأيمن لأي منهما، حيث يكون شكلها مائلاً نحو اليمين ليسهل استخدامها.

وتتمتع هذه الآلة المصنوعة من الأخشاب المحلية كالطنب أو المشمش (أو الجوز) برنين أكثر رقة وأكثر حيوية من العود ذي البطن الخشبية خاصة وبطنها مغشاة بجلد الماعز[1].

وتميزها بصوت ذا طابع خاص يرجع إلى طبيعة تكوينها من حيث خامات صناعتها، ونوعية أوتارها، وشكل صندوقها المصوت الذي يتكون من قطعة خشبية واحدة محفورة (منحوته) مرققة.

وقد وصف صوت الآلة بالجمال والروعة من قبل الفنانين الذي أجادوا استخدامها وكذلك الفنانين الذي استخدموها ثم استخدموا فيما بعد آلة العود ذات البطن الخشبية والأوتار الخمسة.

وكانت الآلة تستخدم لمصاحبة الغناء، وكذلك الرقص كما كانت تستخدم لأداء بعض المقطوعات الموسيقية، وأيضاً التقاسيم أي العزف المرتجل وهو ما يسمى محلياً (الفرتاشة) واستخدام هذه الآلة إما منفردة أو بمصاحبة آلتي الصحن، والمرواس، وهما من الآلات الإيقاعية***.

والطريف أن العازف الماهر على هذه الآلة كان يقوم أحياناً بالمشاركة بالرقص في نفس الوقت الذي يعزف فيه، والبعض كان يقوم بالعزف والغناء والمشاركة أيضاً في الرقص، ويروى أن بعض المحترفين من العازفين الأوائل كان يضع الآلة على كتفيه خلف رأسه، ووجهها إلى الخلف، ثم يقوم بالعزف عليها على هذا الوضع الغريب، ويشارك الراقصين في الرقص[2].

ولم تكن هناك ألحان خاصة بآلة الطربي فقد كانت تؤدى بمصاحبتها جميع الألوان الغنائية اليمنية

---

* الطربي: مشتقة من الطرب: الغناء ونحوه مما يحرك في النفس الطرب، انظر المعجم الوجيز، ص 388.

* الهزار: اسم لأحد الطيور المغردة.

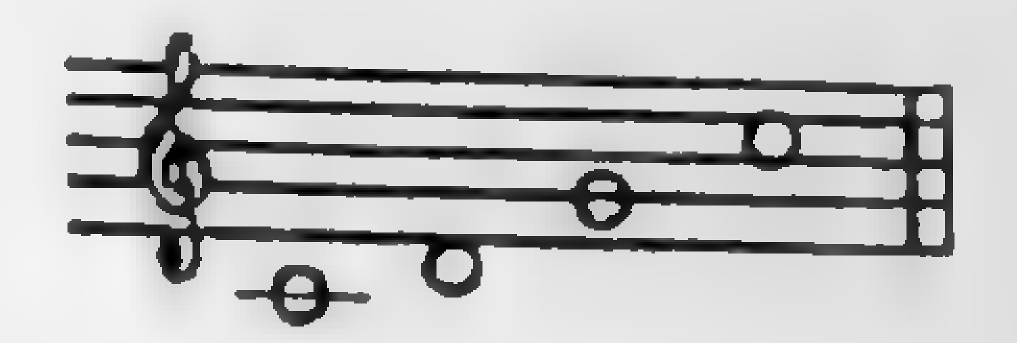
** الكتاب: تسمية أطلقها الأوائل من الفنانين والأدباء اليمنيين على العود اليمني (الطربي) لإيمانهم بأن فن الموسيقى والغناء علم راقٍ، كما كانت في ذات الوقت رمزاً فيما بينهم للتعمية على الرقباء في فترة حكم آل حميد الدين الذي حرموا الفن في عهدهم.

(1) Lambert. J., La Medecine de l'ame, Musique et Musiciens dans La Societe citadine Asan'a (Republique du Yemen) , These de doctorat en Anthropologie P. 129.

*** الصحن والمرواس: من الآلات الإيقاعية اليمنية.

(2) من أحاديث مسجلة أجراها الباحث مع كل من الفنانين: علي ناجي بركات، ومحمد الحارثي، ومحمد الأخفش.

بألحانها المختلفة، وبعض الألحان العربية التي تتناسب مع إمكانياتها ومنطقتها الصوتية، وأهم الألحان التي كانت تؤديها هي الألحان الصنعانية.





شكل رقم (4)

وضع آلة الطربي أثناء تسوية أوتارها (تصوير الباحث).

تسوية الأوتار:

أما أوتارها فتضبط (تسوى) من الحدة إلى الغلظ بمقدار مسافة رابعة بين كل منها عدا وتر اليتيم (دو) فيسوى على قرار وتر الحازق (دو[1])، والأوتار وفقاً لتسمياتها اليمنية، ويقابلها التسميات الموسيقية الحديثة كالتالي:

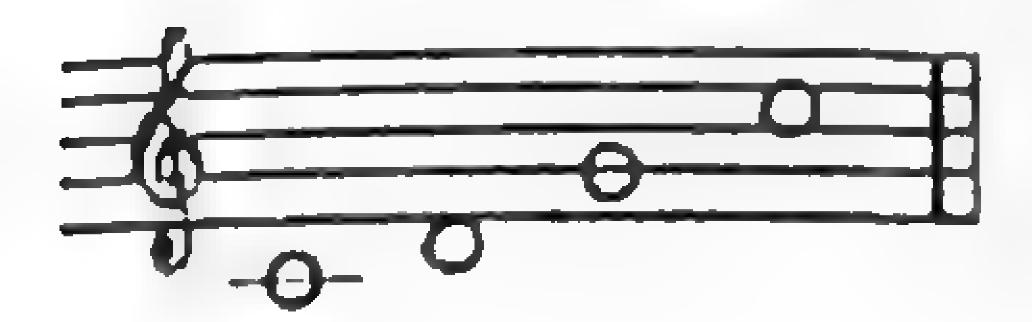
الحازق : دو[1] (Do[1])- وتر مزدوج

الأوسط : صول (Sol)- وتر مزدوج

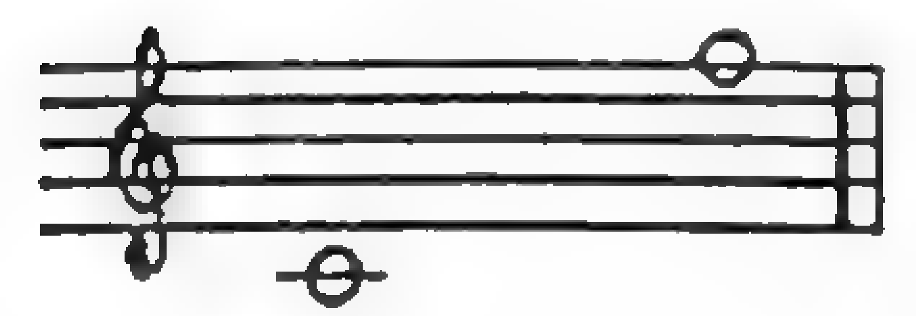
الرُّخيم : ري (Re)- وتر مزدوج.

اليتيم : دو (Do)- وتر منفرد، ويسمى أيضاً الجرّ*.

وبيان هذه النغمات بالتدوين الموسيقي كما يلي:



وهذه التسوية للأوتار يمكن تصويرها على أية درجة وفقاً لأصوات المطربين كما أثبتت الدراسة الميدانية، أما منطقة الأصوات المستخدمة في هذه الآلة فهي تمتد من دو إلى فا[1].



وعند العزف يحتضن العازف الآلة نحو صدره محمولة على ذراعه الأيمن بواسطة القطعة الموجودة في أسفلها وتسمى (الكف أو كرسي العود أو الشدادة)، التي تشد عليها أيضاً الأوتار وتثبت بها، والطرف الآخر للآلة تحمله اليد اليسرى التي تقوم في نفس الوقت بالعفق على الأوتار، أما الريشة فليمسك بها الكف الأيمن.

---

* **الحازق:** تسمية محلية تعني الوتر ذو الصوت الحاد، وقد يسمى أيضاً (السقيم) وتشير على ألم العشق والحيرة.

الأوسط: يعتبر لسان الآلة الناطق لأنه مسيطر ومراقب.

الرخيم: تشير هذه التسمية إلى الرقة والشجن.

اليتيم: عرف هذا الوتر بهذا الاسم لأنه الوحيد المنفرد، بينما الثلاثة الأخرى مزدوجة.



شكل رقم (5)

صورة توضح كيفية احتضان العود اليمني "الطربي" عند العزف. (تصوير الباحث)

وكان يتم العزف على الآلة عن طريق الاستماع والتوجيه الفطري، وكانت توجد الحان سهلة وخفيفة من التراث تسمى (المدرسة) أو (مفتاح الغناء) تؤدى بأسلوب (التفريد)* وعلى إيقاع (الوسطى)** لتعليم المبتدئ أصول العزف على الآلة. ولم يشترط في العادة سن معين للعازف على الآلة، كما لم يكن من المعتاد أن يرتدي العازف على هذه الآلة ملابس خاصة، بل يرتدي ملابسه الوطنية.

وكان يقتصر العزف على الآلة عادة على استخدام إصبعي السبابة والخنصر فقط، في حين يهمل استخدام إصبعي الوسطى والبنصر. كما كان العزف عليها يقتصر فقط على استخدام الوضع الأول من أوضاع العزف (Positions)، وذلك هو حدود استخدامها المعتاد الذي لم يتجاوزه العازفون الأوائل على هذه الآلة، إضافة إلى أن هناك صعوبة يواجهها العازف عند محاولة نقل يده اليسرى من الوضع الأول إلى وضع أعلى على صدر الآلة (المنطقة الخاصة بالعفق) لاستخراج نغمات إضافية حادة بسبب قيام اليد اليسرى بوظيفة حمل الجزء الأعلى من الآلة، إضافة إلى وظيفتها الأساسية وهي العفق.

وهناك أسلوبان للأداء على آلة الطربي:

الأول يسمى التفريد: وهو عزف النغمات الأساسية للحن (أسلوب لحني).

الثاني يسمى الخلط* وهو مصاحبة اللحن الأساسي بنغمات مختلفة (أسلوب هارموني) وهذا الأسلوب مبنى على التداخل الصوتي الذي تبرز من خلاله معالم اللحن الأساسية، ويتطلب أداء هذا الأسلوب حرفية عالية لدى العازف أساسها المهارة في العزف على الآلة والتحكم في النفس.

ويتنوع أداء الألحان باستخدام الأسلوبين معاً، حيث لا تستخدم منفردة بل مجتمعة، أي بالتداول وفقاً لطبيعة كل لحن تضاف إليهما:

الضفارة: وهي ضفارة الألحان أي أداء عدد من الألحان بشكل متصل، كعمل غنائي متنوع، بحيث تكون منسجمة في مقاماتها وموازينها الإيقاعية. ولها تفسير آخر- أنها أحد أساليب العزف ويعتمد في أدائها على وتري الرخيم (ري) والسقيم أو الحازق (دو[1]) منفردان أو مجتمعان إضافة إلى الأوسط (صول) ويسمى لسان الآلة الذي يعتبر أساساً لكثير من الألحان، حيث يتم تحريك الأوتار الثلاثة في نفس الوقت لمصاحبة أداء اللحن[1].

تقنيات العزف على الآلة:

تستخدم تقنيات متعددة للعزف على آلة الطربي أهمها:

الخَرْشَة، قلب الريشة، البَصمة، الحلْيات، وغيرها.

---

* التفريد: عزف اللحن الأساسي (أسلوب لحني).

** ضرب إيقاعي يمني ذو ميزان رباعي.

* الخلط: يطلق عليه البعض أيضا اسم المسلّس أو المواصل.

(1) Lambert. J., La Medecine de l'ame, Musique et Musiciens dans la Societe Citadine Asan'a (Republique du Yemen), These de doctorat en Anthropologie P. 129

والخرشة هي امتداد النغمة باستخدام الريشة في وضعي (الصّد والرّد) بشكل متكرر وسريع، وتؤدى الخرشة في كلا الأسلوبين (التفريد والخلط) اثناء سير اللحن، وهي شبيهة بما يسمى (الفرداش).

أما البصمة فهي الصفق على الأوتار بالأصابع دون استخدام الريشة أثناء سير اللحن، بحيث تسمع بوضوح أصوات النغمات التي تصفق بهذه الطريقة.

ولآلة الطربي عازفون مهرة ذاع صيتهم في اليمن لما عرفوا به من إجادة واقتدار في العزف والغناء، وهم من أجيال مختلفة، ومن هؤلاء الفنانين:

الشيخ سعد عبدالله، العطّاب، الشاعر محمد عبدالرحمن شرف الدين المعروف باسم محمد عبدالرحمن كوكبان، أحمد علي الحمامي، محمد قحطة، جابر رزق، الشيخ علي ابو بكر الذي تتلمذ على يد العطّاب، الشاعر أحمد عبدالله السالمي، قاسم الأخفش.

وكذلك أيضاً: أحمد فايع، عوني العجمي، علي ناجي بركات، الحاج لطف السرحي الذي تتلمذ عليه أحمد على الحمامي.

وممن تلا هؤلاء: أحمد هبة، علي شبريم، وعبدالخالق خليل الذي تتلمذ عليه محمد الخميسي.

وهناك أيضاً فنانون آخرون.

إمكانيات الآلة وخصائصها الفنية:

لآلة العود اليمنية الطربي مميزات متعددة، إضافة إلى إمكانياتها المذكورة فيما سبق، وأهم خصائصها الفنية هي:

1- لها صوت متميز يختلف عن صوت العود ذي البطن الخشبية والأوتار الخمسة.

2- سهلة الحمل على أي وضع سواءً كان العازف قاعداً أو قائماً، ويمكن استخدامها في الوضعين.

3- لها أسلوبان في الأداء هما:

أ. التفريد– وهو أسلوب لحني.

ب. الخلط- وهو أسلوب هارموني.

تضاف إليهما: الصفارة– سواء استخدمت كأسلوب من أساليب العزف أو في صفارة الألحان.

4. آلة معمرة لجودة الخشب الذي تصنع منه*، وتحمله لتقلبات المناخ، إضافة إلى ان الآلة وحدة واحدة متماسكة، وليست مجزاة ماعدا الصدر (الوجه الخشبي للآلة) وأحياناً المعطف**.

5. جسمها كاملاً يعتبر صندوقاً مصوتاً مما يكسبها ذلك الصوت المتميز، ويطيل بقاءها، وتلك من الحالات النادرة.

6. أوتارها المستخدمة من أمعاء الحيوانات التي استعيض عنها بـ(الخيوط الجراحية المجدولة المعقمة)*** المتدرجة في أحجامها وفق مقاييس محددة حددها الجيل السابق من الفنانين، ولهذه الأوتار صوت ورنين متميز يختلف بالطبع عن صوت الأوتار المصنوعة من النايلون التي تستخدم عادة في العود ذي البطن الخشبية، والأوتار الخمسة.

7. الغزالة**** متحركة وليست مثبتة حماية للبطن الجلدية للآلة.

8. نسبة تعرضها للتأثر بتقلبات المناخ ضئيلة، لعدم استخدام مادة الغراء في صناعتها، إلا لتثبيت الصدر على وجهها فقط، باعتبار أن الآلة وحدة

---

* تصنع الآلة من خشب الجوز أو الطنب وأحيانا من خشب العنبرود (الكمثرى) وتزرع جميعها باليمن.

** المعطف: هو ما يعرف ببيت الملاوي أو بيت المفاتيح..

*** الخيوط الجراحية المجدولة المعقمة: هي خيوط يستخدمها الأطباء في العمليات الجراحية.

**** الغزالة: القطعة الخشبية التي تمر عليها الأوتار، وتوضع على البطن الجلدية للآلة.

واحدة منحوتة.

9. تركيب الأوتار المزدوجة كوتر واحد متصل يلوى حول قطعة الشدادة دون ربط ودون قطع كل وتر مفرد على حدة يجعل ضبط صوت الوتر المزدوج أكثر توافقاً وانسجاماً، مما لو كان كل وتر مفرد مستقلاً عن الآخر.

صناعتها:

تصنع آلة العود اليمنية ذات البطن المغشاة بالجلد من خشب الجوز أو من خشب الطنب وهما أفضل أنواع الخشب لصناعة الآلة. لأنهما يعمران أكثر ويتحملان تقلبات المناخ، وأحياناً تصنع الآلة من خشب العنبرود (الكمثرى)، ونادراً يصنع جسمها من الدبَّا (القرع) ثم تستكمل بقية أجزائها من الخشب.

ولضمان جودة الصناعة يشترط اختيار قطعة الخشب الجافة، الصلبة في تماسكها الخالية من العقد أو الثغور، لأن وجودها يؤثر على مستوى جودة الصناعة ودقتها، ويعرض الآلة فيما بعد للكسر، كما يجب مراعاة الدقة في عملية نحت الآلة على الخشب.

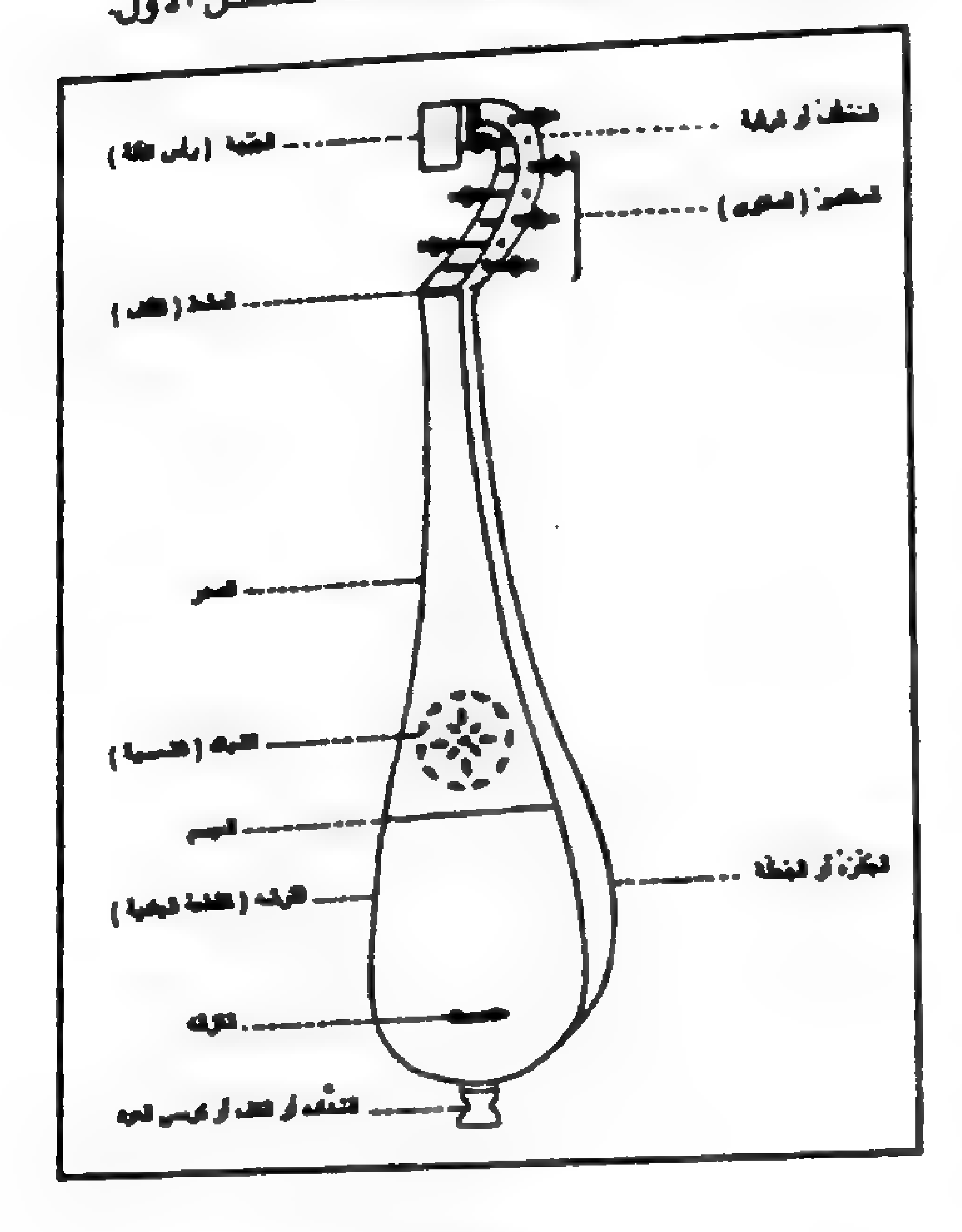
أنواعها:

كانت آلة الطربي تصنع فيما مضى بشكلين:

الأول: الشكل المعتاد الموضح بالشكل رقم (6).

الثاني: مكون من جزأين منفصلين، يتم ربطهما بواسطة مفصلتين* تثبتان على صدر الآلة، بحيث يمكن ثني جسمها بسهولة، ويتم تثبيت الآلة في وضع الاستخدام بواسطة خُطَّاف** يركب على ظهرها

ويصنع هذا الشكل بنفس مقاسات الشكل الأول.



شكل رقم (6)
رسم توضيحي للعود اليمني (الطربي)

ويروى أن هذا الشكل ذا المفصلات صنع إلى جانب الشكل المعتاد خلال الفترة التي عاشتها اليمن في ظل الحكم المتوكلي (1904م. حتى ما قبل عام 1962م)، حيث كان الفن والفنانون يواجهون مضايقات عديدة من قبل السلطة الحاكمة، قبل قيام الثورة اليمنية عام (1962)، بفرض حرمان الشعب من حريته في ممارسة فنونه، ونتيجة لذلك كانت ممارسة الفن الغنائي تتم في الخفاء بعيداً عن عيون الرقباء، بعد أن كان يمارس هذا الفن منذ القدم بمنتهى الحرية، وحينما كان الفنان يتنقل بين مجالس الفن والأدب كان يضطر لإخفاء عوده تحت عباءته حتى لا يتعرض لمضايقات السلطة الحاكمة، وبناء على ذلك كان لا بد أن يكون الفنان أكثر حرصاً، فتم التفكير في صناعة

* مفصلتين: مفردها مُفصَّلة: وهي أداة من حديد ونحوه ذات جزأين، يثبت أحدهما في مصراع الباب والآخر في عضادته. انظر المعجم الوجيز، ص474.

** الخطاف: كل حديدة معقوفة تجتذب بها الأشياء. انظر: المعجم الوجيز، ص203.

هذا العود المكون من جزأين * حتى يمكن لمه ليسهل إخفاؤه عند التنقل به.

أما حجم الآلة فهناك أكثر من حجم لها، حيث كان يحدد حجمها من قبل العازف، ويبدو أن ذلك كان يتم وفقاً لحجم جسم كل عازف.

صُنّاع الآلة:

كانت صناعة آلة الطربي تتركز في صنعاء، حيث كان يوجد بها عدد من صناع الآلة، إضافة إلى قيام بعض الفنانين المطربين العازفين على الآلة بصناعتها بأنفسهم، أمثال الفنان علي ناجي بركات الذي صنع منها أربع آلات، والفنان قاسم الأخفش الذي صنع آلته من الدبا (القرع)، واستكمل صناعة باقي أجزائها من الخشب، وآخرين غيرهما.

وكان من أشهر صُنّاع هذه الآلة قديماً:

الحاج محمد الوديدي، محمد الحيلة، الصيرفي، المرتّقص، وفي منطقة كوكبان وما جاورها كان هناك الصانع محمد وهبان.

ومن الصناع المحدثين:

عبد الله عمر، الحاج أحمد عطيه، الحاج حسين الفيشي، الذين كانوا يعملون بالورشة المركزية بصنعاء، حينما كانت مركزاً لمختلف الصناعات ومنها النجارة. وتلا هؤلاء عدد محدود من الجيل التالي، ومنهم: الصانع يحيى حميد، والقعطري.

أثمان الآلة:

كانت الآلة قديماً تكلف حوالي من عشرة ريالات إلى خمسة عشر ريالاً من الفضة**، ويروى أن هناك أنواعاً منها كانت تكلف جنيهين من الذهب.

ويبدو أن ثمن الآلة كان يحدد وفقاً لنوعية خاماتها، ومستوى صناعتها، ولو أعيدت صناعتها في الوقت الحاضر فربما تكلف ما بين ستة آلاف ريال إلى عشرة آلاف ريال من العملة الورقية اليمنية المتداولة حالياً.

الآلات الموسيقية المصاحبة لفن آلة العود اليمنية (الطربي)

الصحن:

آلة الصحن من آلات النقر الإيقاعية اليمنية القديمة الشائعة في اليمن، وهي تشبه في شكلها آلة الدف، ويشيع استخدامها في صنعاء نظراً لارتباطها بمصاحبة الفنون الغنائية في هذه المنطقة، فقد كانت تستخدم بشكل أساسي لمصاحبة فن آلة الطربي سواء منفردة أو إلى جانب آلة المرواس.

وتعتبر آلة الصحن من الآلات المحببة للمستمع اليمني، وخاصة عند مصاحبتها للغناء الصنعاني، حيث إن صوت الآلة وأداءها يوضحان الملامح الإيقاعية المتميزة لأشكال الأغاني الصنعانية ذات الضروب المختلفة، ونكهتها المحلية. وعادة ما يستحسن المطربون مصاحبة آلة الصحن لأدائهم لهذا النوع من الغناء قديماً وحالياً، سواء العازفين على آلة الطربي أو على العود الكمثري ذي الأوتار الخمسة، لما لأدائها من تفرد، فالعزف عليها يعد فناً ذا أسلوب خاص، يتطلب الإتقان، وذلك بالطبع لا يتسنى إلا للمحترفين.

ويوجد من هذه الآلة نوعان:

أحدهما يسمى (الصحن الميمياء) ويصنع من معدن الفولاذ، وهو أفضلهما، لرنينه المتميز. والنوع الآخر يصنع من النحاس.

كما يوجد للآلة أحجام مختلفة منها:

الصحن الكبير، الصحن المتوسط، الصحن الصغير. ويؤدي كل منها نفس الغرض عند مصاحبته للغناء.

وآلة الصحن من الآلات الإيقاعية التي يتم العزف

---

* لم يجد الباحث حاليا نموذجا له نتيجة اندثاره كما يبدو.

** عملة قديمة كانت متداولة في اليمن قبل ثورة عام 1962م.

عليها بالنقر بواسطة أصابع اليدين، كما يتم حملها أثناء العزف أيضاً بواسطة أصابع اليدين، وخاصة إصبعي الإبهام، أي أن الأصابع تقوم بوظيفتين في آن واحد، هما حمل الآلة والعزف عليها.

وأهم مجالات استخدام الآلة حالياً هي:

1- تستخدم بشكل محدود لمصاحبة الغناء الصنعاني بواسطة العود الكمشري ذي البطن الخشبية والأوتار الخمسة.

2- تستخدم لمصاحبة الغناء الشعبي الخاص بالنساء في صنعاء، وفي مناطق يمنية أخرى عديدة، وتقوم بالعزف عليها المغنيات اللاتي يؤدين الغناء الشعبي في مجالس النساء، ويستخدمنه بطريقتين:

الأولى: النقر بواسطة أصابع اليدين.

الثانية: النقر بواسطة قطعة من المعدن مثل (الملعقة أو المفتاح)، وفي هذه الحالة يتم حمل الآلة باليد اليسرى بينما تقوم اليد اليمنى بعملية النقر.

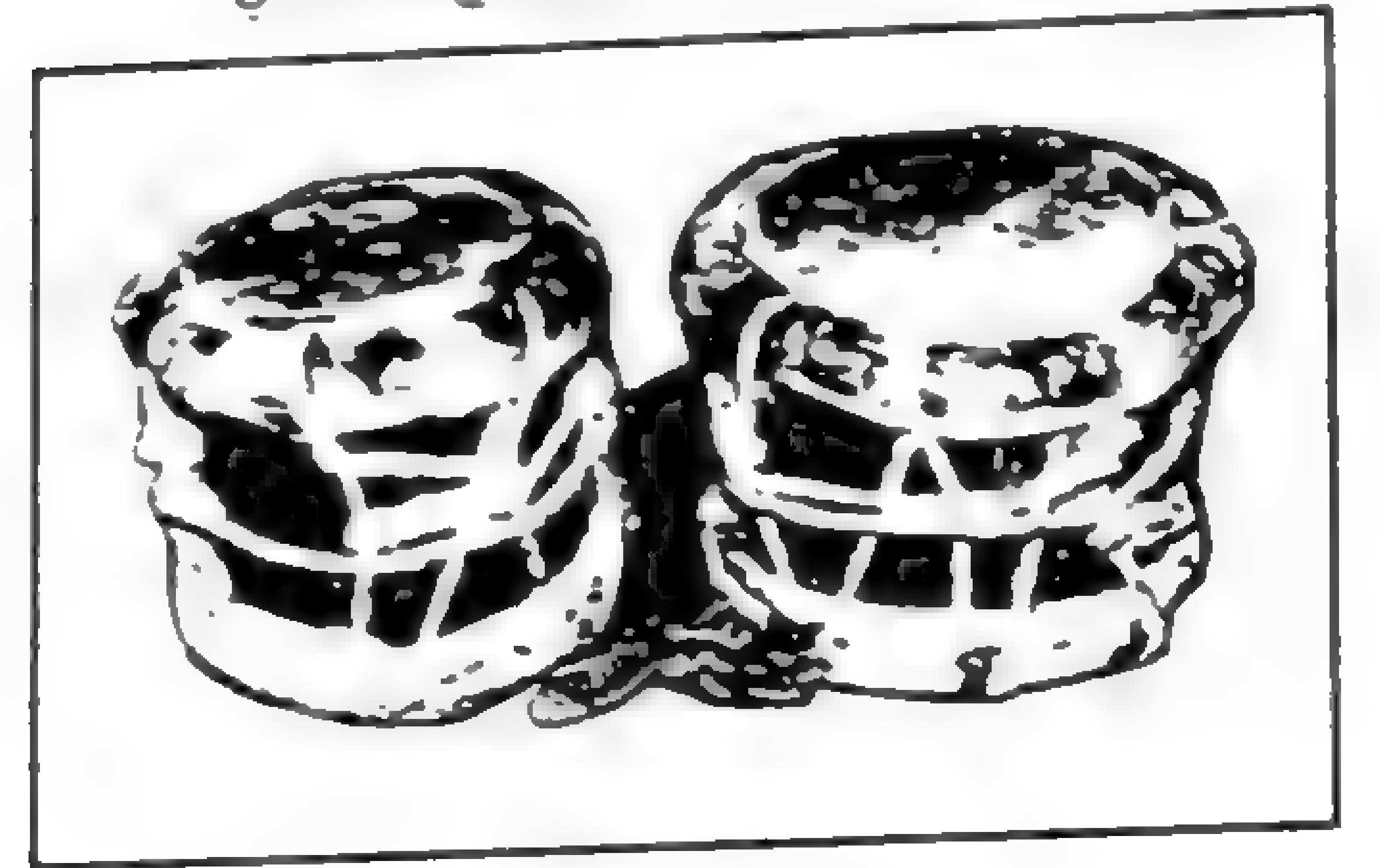
3- تستخدم لمصاحبة الغناء الشعبي في عدد من المناطق اليمنية إلى جانب آلة المزمار المزدوج (ذي القصبتين)، وآلة الطبل البلدي أو غيره، وطريقة استخدام الآلة عند مصاحبة هذا النوع من الغناء هي النقر بواسطة مضرب من الحديد أو من النحاس، أو مضرب من الخشب، وتحمل الآلة باليد اليسرى أو تعلق على صدر العازف بواسطة حبل يوضع على رقبته.

جدول رقم (1)
القياسات بالسنتيمتر لثلاثة أحجام مختلفة من آلات الصحن

حجم الآلة	قطر فوهتها	قاعدتها	عمقها
الصحن الكبير	31	29	4.5
الصحن المتوسط	24	22	3
الصحن الصغير	20	19	4

المرواس أو المروس:

المرواس آلة إيقاعية من الآلات الإيقاعية اليمنية المتعددة، المنتشرة في جميع المناطق اليمنية، وهي طبل صغير الحجم ذو غشائين من الجلد، كانت تستخدم لمصاحبة فن آلة الطربي إلى جانب آلة الصحن الإيقاعية وأحياناً كانت تستخدم لمصاحبة فن هذه الآلة أربعة من المراويس، حيث كان أحد العازفين عليها يقوم بأداء الإيقاع الأساسي، بينما يقوم باقي العازفين بوظيفة ارتجال التنويعات الإيقاعية على الإيقاع الأساسي



شكل رقم (7)
لتي مرواس من الآلات الإيقاعية اليمنية

وقد ورد اسم هذه الآلة في بعض الأغاني اليمنية نذكر منها أغنية بعنوان (طيب الأنفاس) التي غناها الفنان محمد جمعة خان ومن بعض كلماتها:

على ضربة المرواس ... شا نقطف الزهرا
وخذ من حبوب الماس ... واستنشق العطرا[1]

وحين أضيف عملياً الوتر الخامس إلى أوتار العود الكمشري الشكل بعد أن كان ذلك نظرياً فقط، انصرف العازفون عن آلة الطربي إلى العود الكمشري ليحل هذا العود محل الطربي، كما حلت آلة الدف (الرق) محل آلة المرواس، وأصبحت المراويس تستخدم لمصاحبة الأهازيج الشعبية، والألوان المرتبطة بالرقص[2]، إضافة إلى مصاحبة أداء الأغاني وفنون الرقص في المحافظات اليمنية التالية:

---

(1) عبد الله محمد بلحصن: بلحصن الرائد والفنان، تقديم محمد عبد القادر بامطرف، ص 61.

(2) سعيد عوض باوزير: الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، ص 250.

حضرموت- شبوة- المهرة- لحج.

ويكتسب استخدام هذه الآلة في حضرموت أهمية كبيرة، لأنها تعد عنصراً أساسياً من العناصر المكونة للفن الغنائي والموسيقي اليمني في هذه المحافظة، وجميع الرقصات والألعاب الشعبية بها تعتمد في موسيقاها على الطبول والمراويس[3].

ويتم العزف على آلة المرواس بالنقر بواسطة أصابع اليد اليمنى، ويتم حملها باليد اليسرى بواسطة مقابض من الحبال تثبت بالآلة.

وتصنع آلة المرواس من صندوق أسطواني صغير الحجم من الخشب، يتراوح طوله من 14- 16سم، وقطر فوهته من 13- 15سم، ويغطى بغشاء من جلد الأغنام، ويتم شد الغشاء الجلدي على فوهتي المرواس بإحاطة طرفي فتحتي الآلة بطوقين رفيعين من خشب الخيزران، تسوى أطرافهما بحيث تكون قابلة للالتواء بما يشبه الدائرة، ليشد الجلد بواسطتهما أي دون الربط المباشر، وفيما بين هذين الطوقين تمر حبال أو فتل غليظة يتم شدها بين طرفي الآلة بالتناوب وبطريقة منتظمة.

وهناك أوتاد صغيرة، يلوى كل واحد منها حول كل زوج من الحبال المشدودة بين الطوقين المحاطين بفتحتي الآلة، وتستخدم هذه الأوتاد لغرض شد الغشاء الجلدي بعملية لفها عدة مرات للحصول على درجة الشد المطلوبة.

وظائف الآلة ومكانتها الاجتماعية:

كانت آلة الطربي تستخدم لأداء الموسيقى التقاليدية اليمنية (الغناء المتقن)، وأهم أشكالها الألحان الصنعانية التي اعتمدت على نوعين من الشعر أحدهما يسمى (الحكَمي) وهو الشعر الذي يلتزم بقواعد اللغة العربية الفصحى وبعروضها ومفرداتها، والنوع الثاني يسمى (الحُمَيْني) وهو الشعر الذي لا يلتزم بهذه القيود[4].

ولم تظل الآلة فقط مختصة بتقديم ذلك النوع من الموسيقى، بل لقد قدم بواسطتها بعض من الغناء الشعبي.

وكان لهذه الآلة وضع متميز أساسه حب الناس لها، وتذوقهم لنغماتها بمختلف فئاتهم وبالأخص الأدباء والشعراء.

وكان للعزف والغناء بواسطتها شعبية كبيرة لدى الجماهير، بل إن العازف المجيد للآلة، ذا الصوت الجميل كان يحظى بتقدير خاص لدى جميع الأوساط، وكان الناس يعبرون عن حبهم وتقديرهم له في مختلف المناسبات، وفي جميع مجالس الفن التي كان يتصدرها، فقد كان يعد المجلس الذي سيتربع عليه خصيصاً له بشكل متفرد ومرتفع عن مجالس الحاضرين.

ولشدة إعجاب بعض المتذوقين بفن هذه الآلة، كانوا لا يترددون في اقتناء أية تسجيلات لها بأي ثمن مهما كان غالياً، لندرة وجود التسجيلات، وصعوبة الحصول عليها في ذلك الوقت، بسبب عدم توفر الإمكانيات اللازمة لذلك، فقد كان البعض يدفع حوالي خمسين ريالاً من الفضة ثمناً لاسطوانة مسجل عليها أحد الألحان بواسطة هذه الآلة، بينما كان يستطيع امتلاك منزل جيد بثمن تلك الاسطوانة[1].

وإبان الفترة التي سبقت عهد آل حميد الدين* (1904م)، كانت ممارسة فن الموسيقى متاحة للجميع دون أية قيود. أما خلال فترة حكمهم فقد أصبحت ممارسة هذا الفن من الأعمال المحرمة على الناس جميعاً ذكوراً وإناثاً. ورغم ذلك الحظر فقد استمرت ممارسة فن الموسيقى في الخفاء.

وكان الذكور غالباً يعزفون ويغنون بمصاحبة

---

(3) عمر أحمد بن ثعلب: محمد جمعه خان، حياته وفنه. ص12.

(4) محمد عبده غانم: شعر الغناء الصنعاني، ص164.

(1) من حديث مسجل أجراه الباحث مع الفنان محمد حسن الجماعي.

* بدأت فترة حكم آل حميد الدين بتولي الإمام يحيى حميد الدين الحكم في عام 1904م.

آلة الطربي، بينما كانت تمارس بعض النساء العزف عليها بشكل محدود، وفي إطار مجالس النساء.

وكانت هذه الآلة قديماً منتشرة في أنحاء اليمن: في صنعاء، وكوكبان، وتعز، وعدن، وحضرموت وغيرها، لكن صنعاء تظل متميزة بها لعدة اعتبارات، أهمها: أن أهم ألحان الآلة هي الألحان الصنعانية، وأشهر صناعها كانوا موجودين في صنعاء، ومنهم بعض الفنانين الذين قاموا بصناعة الآلة بأنفسهم. إضافة إلى ما لمدينة صنعاء من تاريخ أدبي وفني عريق يشكل علامة بارزة في تاريخ اليمن، ولذلك فقد اشتهرت الآلة باسم (العود الصنعاني). ويبدو أن الآلة لم تكن منتشرة في اليمن فحسب بل انتقلت منها كما انتقلت الموسيقى اليمنية قديماً عبر الفنانين، والمهاجرين اليمنيين، وكذلك التجار رفقة القوافل التجارية أو الحملات العسكرية[2] إلى بلدان متعددة منها: الحبشة، وجيبوتي، والمغرب العربي، وشمال أفريقيا، ومصر، والشام، وكذلك إلى الهند، وبلاد الشرق الأقصى، الملايو، أندونيسيا، ومناطق الخليج والجزيرة العربية وغيرها.

ومن المؤكد أنه كان لهذه الآلة وغيرها من الآلات الموسيقية اليمنية تأثيرها كما كان للموسيقى اليمنية تأثيرها في أوساط مجتمعات هذه البلدان التي عاش فيها الفنانون والتجار والمهاجرون اليمنيون بمختلف مهنهم.

أما في عصرنا الحاضر فقد أصبحت الآلة شبه منقرضة، ولم يتبق منها سوى نماذج نادرة جداً يحتفظ بها البعض كتحف فنية، وقد تعرضت بعض أجزاء تلك الآلات للتلف.

وكان فن آلة الطربي يقدم في مجالس الأدب والفن، وفي مختلف المجالس المعتادة في اليمن وتسمى محلياً (المَقَايِلُ أو المَبَارِزُ)*، التي كانت تتم في الفترة الواقعة ما بين بعد الظهر وحتى غروب الشمس، وكذلك ليالي السمر، وتسمى محلياً (السمرة) التي تعتبر أحياناً امتداداً للمقايل، وأيضاً في بعض المناسبات المرتبطة بدورة الحياة كمناسبة الزواج، كما كانت الآلة تستخدم في مناسبات الأعياد الدينية.

وكان رواد تلك المجالس يسمون (الخُبْرَ)* أي مجاميع الأصدقاء الذين يشكلون هذه المجالس.

وكانت تستخدم الآلة بمصاحبة آلة الصحن، وآلة المرواس، وأحياناً بمصاحبة عدد من المراويس يتراوح ما بين اثنين إلى أربعة في بعض المناطق اليمنية كمنطقة حضرموت.

وتتميز المقايل (المجالس) في اليمن بأنها تمثل منتديات للتواصل بين الأصدقاء باستمرار، ولها تقاليدها الخاصة، فكل مجلس له رواده المحددون (الخُبْرَة) أي المجموعة التي اعتادت ارتياد هذا المجلس، وتربطهم علاقات ود وتفاهم.

كما تميزت أيضاً هذه المجالس بتنوع ما كان يقدم خلالها من أشكال موسيقية غنائية مختلفة بمصاحبة آلة الطربي فيما مضى، وفق تقاليد معتادة لا خروج عنها، وبالأخص في مجالس صنعاء وكوكبان، حيث تقدم تلك القوالب الغنائية بترتيب معين وفي أوقات محددة خلال (جلسة المقيل)، ومنها ما يسمى بـ(الأغاني النهارية أو الغروبية)، و(القَوْمه) وهي شكل غنائي محلي مكون من أربعة أقسام، كما تقدم أيضاً الأغاني الراقصة، ولو امتد المجلس حتى طلوع الفجر يؤدى نوع آخر من الأغاني يسمى الأغاني الصباحية.

أما نوعية الأغاني التي تصاحبها هذه الآلة،

---

(2) عبد العزيز بن عبد الجليل: مدخل إلى تاريخ الموسيقى المغربية، ص 13.

* المقايل: مفردها (مقيل)، والمبارز: مفردها (مَبرز).

* الخُبْر: تسمية محلية، مفردها خُبرة، أي صحبة، والخبرة هم مجموعة من الأصدقاء الذين يشكلون أحد المجالس.

ومواضيعها فهي عديدة أهمها:

- أغاني الحب والغزل.
- أغاني الحب الروحي.
- الأغاني الدينية والاجتماعية.
- الأغاني التي تدعو إلى الاستمتاع بالحياة.
- القصائد التي تتغنى بالبيئة الطبيعية.
- الأغاني التي تعكس خلاصة التجارب الطويلة للطبيعة البشرية.

المصادر والمراجع

المراجع العربية

الكتب:

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج2، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ط2، 1953م.

(2) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني،ج16،القاهرة، دار الكتب.

(3) أبو طالب المفضل بن سلمه: كتاب الملاهي وأسمائها من قبل الموسيقى،القاهرة،الهيئة المصرية العامةللكتاب1985م.

(4) المسعودي، أبو الحسن الحسين بن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج4،8، القاهرة، كتاب التحرير، 1966م.

(5) سعيد عوض با وزير: الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، القاهرة، دار الطباعة الحديثة، 1961م.

(6) سيمون جارجي: الموسيقى العربية، ترجمة جمال خياط بغداد، وزارة الثقافة والإعلام، دار الشئون الثقافية العامة، 1989م.

(7) عبد العزيز بن عبد الجليل: مدخل إلى تاريخ الموسيقى المغربية (فنون الأداء) الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، 1988م.

(8) عبد الله محمد الحبشي: مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن،صنعاء،الدار الحديثة للطباعة والنشر، 1972م.

(9) عبدالله محمد با حسن: با حسن الرائد والفنان، تقديم محمد عبد القادر با مطرف، عدن، دار الهمداني للطباعة والنشر، 1985م.

(10) عمر أحمد بن ثعلب: محمد جمعة خان حياته وفنه، صنعاء، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، ط2،1987م.

(11) فارمر هـ ج: تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة حسين نصار، القاهرة، مكتبة مصر، دار الطباعة، 1956م.

(12) محمد عبده غانم: شعر الغناء الصنعاني، بيروت، دار العودة، ط2، 1980م.

(13) محمد محمود سامي حافظ: تاريخ الموسيقى والغناء العربي، القاهرة، المطبعة الفنية، الحديثة، (د.ت).

الرسائل والأبحاث:

- فاطمة أحمد محمود: الفرق الموسيقية الشعبية في مصر، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة، المعهد العالي للموسيقى العربية، أكاديمية الفنون، 1992م.

المجلات والدوريات:

(1) عبد الله محمد الزديني: مقدمة عن التطور التاريخي والاجتماعي لمراحل الغناء والموسيقى باليمن، مجلة المناهل، صنعاء، العدد4، 1992م.

(2) هيرمانز سلافر: العلاقة بين الشفوي والمكتوب، ترجمة: إقبال أيوب، الإكليل، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، العدد الأول، 1989م.

المخطوطات:

- المخطوطة الديوانية: (الديوان الرسولي- أشغل الإطرب)، تحقيق محمد عبد الرحيم جازم، صنعاء، 2000م.

المعاجم:

- المعجم الوجيز، القاهرة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، 1995م.

المراجع الأجنبية:

1. Farmer H.G.
   Studies in Oriental musical Instruments, Landon, 1929.
2. Lane (E.W).
   Madd al-qamus, an Arabic-English lexicon, London, 1863.
3. Poch Christian.
   Musics & Musicians of the world, Unesco, Paris, 1976.
4. Poch Christion.
   Qanbus, The New Grove Dictionary of Musical Instruments, Edited by S. SADIE, Macmillan, London, 1984.
5. Sachs Curt
   The History of Musical Instruments, New York, W.W. Norton and Co. Inc., 1940.

الرسائل والأبحاث الأجنبية:

1. Lambert J.
   La Medecine de l'ame, Musique et Musiciens dans la Societe Citadine A San'a (Republique du Yemen), These de doctorat en Anthropologies, Ecole Des Hautes Etuoes en sciences socials, Paris, 1990.

تخطيط مدينة زبيد التاريخية بين الحفاظ والتنمية

د. عبده ثابت العبسي*

المستخلص

إن إعادة تجديد المخطط العام لمدينة زبيد يهدف توجيه نموها المستقبلي والحفاظ على المدينة التاريخية وفقا للمبادئ والأسس التخطيطية المستجدة لتخطيط وإعادة تخطيط المدن، والذي يحتوي في مضمونه أيضا خلاصة مختلف العلوم ذات العلاقة بالمدن والمدن التاريخية ومناطق ومباني الحفاظ، الذي يعتبر أحد المواضيع الرئيسية لإنقاذ مدينة زبيد التاريخية والذي يتعرض نسيجها الحضري وعمارتها التاريخية للهدم والتشويه بسبب التجديدات العشوائية والمعالجات الجزئية داخل منطقة الحفاظ، وأيضا التوسعات الغير مدروسة في المناطق الجديدة، وكذلك الخلط والتشويش بين مفهومي الحفاظ والتنمية وما يحملانه من دلالات.

هدف البحث :

يهدف البحث إلى صياغة توصيات يمكن من خلالها إعادة تخطيط مدينة زبيد المعاصرة وفقاً للأسس والمبادئ التخطيطية المستجدة لتخطيط هذا النوع من المدن على اعتبار أنها مدينة تحتوي على تراث تاريخي إنساني متميز.

المشكلة البحثية

تتعرض مدينة زبيد التاريخية لتدهور بيئي، وتشويه ملامحها التاريخية، عمارة وعمراناً، لعدم وجود مخطط عام للمدينة يهتم بقيمها الحضارية، لان المخطط العام الحالي للمدينة يؤدي وبدون قصد إلى استمرار تدهور نسيجها الحضري ومحيطها البيئي والتراثي.

منهجية البحث :

لتحقيق الهدف من البحث اتبعت منهجية تعتمد على التحليل التاريخي الامستباطي كوسيلة لتبيين أهميتها مقارنة بالحواضر الأخرى، ومقارنة كل ذلك بين وضعها الحالي وبين المبادئ والأسس التخطيطية المتبعة لتخطيط المدن التاريخية.

كما يجب اعتبار مدينة زبيد التاريخية المحددة داخل السور كعنصر خاص له وضعه المميز المتصل والمنفصل عن باقي عناصر المدينة الأخرى المتمثلة في مناطق التوسعات الجديدة خارج السور، ووضع حد لمفهوم التداخل تخطيطيا وإدارياً المتبع حاليا ما بين مناطق الحفاظ التاريخية ومناطق التوسعات الجديدة، وكل هذا يجب أن يحدد من ضمن الأهداف الرئيسية لإعادة تخطيط مدينة زبيد المعاصرة.

أهمية البحث:

- توضيح القيمة التاريخية لمدينة زبيد لما تحتويه من تراث حضاري يصل الماضي بالحاضر.
- توضيح القيمة الوظيفية الفريدة التي تتميز بها مدينة زبيد عبر تاريخها كمدينة علمية.
- ربط تلك العلاقة وتحليلها بمستوى تخطيط المدينة التاريخية العمراني واستعمالات أراضيها كتخطيط متجانس يمثل مراحل تاريخية مهمة.

---

* كلية الهندسة- جامعة صنعاء.

ارتبط اسم مدينة زبيد بالعلم والعلماء وبمدارسها ومساجدها وبلغت شهرتها ما بلغته بعض الحواضر الإسلامية المهمة في الحقب الماضية، غير أنها خلال السبعينات والثمانينات من القرن العشرين انحسر إزدهارها العلمي تدريجياً بسبب التغيرات المعاصرة التي مر بها المجتمع اليمني، وتراجع نموها الحضري مقارنة ببعض المدن والحواضر الأخرى، إلا إنها خلال أكثر من عشر سنوات مضت بدأت مدينة زبيد التاريخية تستعيد سمعتها التاريخية وقيمها الحضارية أكثر، لما تحتويه من آثار وخصائص ذات دلالات ومعاني ثقافية واجتماعية لا تقدر بثمن، جذبت إليها العلماء والمهتمين بالأمور الإنسانية والعلمية من يمنيين وأجانب بمختلف مشاريعهم العلمية والثقافية للبحث والتقصي عما تحمله من أسرار وخفايا. ثم في الفترة الأخيرة ازداد الاهتمام بها على المستويين المحلي والعالمي، وبرزت أهمية الحفاظ عليها أكثر، كما برزت على السطح مشاكلها التخطيطية التي ساهمت وتساهم في اختلال نسيجها الحضري وما ارتبط بذلك من تهديم وتحوير في مبانيها التاريخية الأثرية سواء ما يتعلق بالمباني ذاتها أو محيط الحماية المجاور لها، إضافةً إلى تشويه نسيجها العمراني المتمثل بنظام الطرق والحركة وإطلالات المباني عليها مع ما تتمتع به من كتل وزخارف، وعلاقات اجتماعية تتفرد بها مدينة زبيد. كما برزت على السطح مشكلة إدارتها الحضرية التي تساهم إلى حد بعيد وبدون قصد على طمس تلك الملامح.

2- الموقع والمناخ:

تقع مدينة زبيد على بعد 90 كيلو متراً جنوب مدينة الحديدة وفي موقع متوسط على شريط سهل تهامة بين البحر الأحمر غربا وبين بداية سلسلة المرتفعات الجبلية شرقا، وجغرافيا تقع على خط عرض 14.13 شمالا وخط طول 44.20 شرقا، وترتفع عن سطح البحر 90 متراً[1]، ومناخها شديد الحرارة والرطوبة صيفا يميل إلى الاعتدال شتاء، وتقع ضمن حزام الرطوبة العالية والسطوع الشمسي المرتفع، وتبلغ معدل درجة الحرارة فيها 32- 35 درجة، ومعدل الرطوبة العظمى 85.2 %، والصغرى 41.1 %، والأمطار قليلة ومتقطعة ويبلغ معدل سقوطها 13.12 مم.

3- نشأة المدينة وقيمتها التاريخية:

توجد روايات كثيرة عن نشأة مدينة زبيد، غير أنها إجمالا كغيرها من المدن والحواضر الأولى من حيث النشأة فقد كانت قرية أو مجموعة قرى اندمجت معا لتكون مستوطنة حضرية كنواة للمدينة، وهي قديمة الاستيطان وتعود إلى ما قبل الإسلام، وقد كانت تسمى بالحُصَيْب نسبة إلى الحُصَيْب بن عبد شمس الهميسع بن سبأ، وسميت فيما بعد بمدينة زبيد، و تذكر بعض المصادر التاريخية أنه في العام الثامن الهجري تم فيها تأسيس جامع الأشاعر على يد جماعة من قبيلة الأشاعر ومنهم الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري، وهذا يدل على إنها كانت حاضرة مهمة قبل الإسلام على سهل تهامة وقد استمر نموها تدريجيا، وفي عام 204هـ/819م اختطها محمد بن عبد الله بن زياد لتكون عاصمة للدولة الزيادية ثم استمرت عاصمة الدولة النجاحية والدولة المهدية خلال الفترة (412-569هـ/1017- 1173م)[2] أي استمرت عاصمة لهذه الدول لمدة 365 سنة متتالية. كما أنها ازدهرت علميا وثقافيا خلال الحقب اللاحقة وبالذات في عهد الدولة

1- الشيباني، د. عبد الرقيب طاهر- "الحفاظ على مدينة زبيد التاريخية" المدينة العربية وتحديات المستقبل- المعهد العربي لإنماء المدن 1997- ص785.

2- شيحه- مصطفى عبد الله- مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية اليمنية- وكالة اسكرين- القاهرة 1987- ص40.



الرسولية، وفي عهد حكم العثمانيين (الأتراك) في المرحلتين الأولى والثانية، وكان موقعها مركزاً سياسياً وعلمياً وثقافياً واستمرت أهميتها العلمية المتقدمة حتى عام 1962م.

4- التراكم الأثري لمدينة زبيد واستمرارية تواصلها التاريخي:

جرت العادة إن بعض الحكام العرب في التاريخ، كان الواحد منهم ينفي الحاكم أو السلالة التي حكمت قبله ويؤسس له المدينة أو الموقع الخاص به، وهذا ما حدث عند بداية نشأة مدينة القاهرة مثل الفسطاط، العسكر، القطائع[1]، وهو ما احتفظ بمرحلة تاريخية محددة لكل جزء من أجزاء مدينة القاهرة، غير أن مثل هذا النمط من المدن لم يحدث بشكل واضح في المدن اليمنية القديمة، حيث نجد أن المدينة الواحدة حكمت فيها أكثر من سلالة حاكمة، إلا أن تكوينها العمراني لم يتغير بل يمتد متخذا استمرارًا للنمط السابق له، ومع تعاقب الأزمان قد يحدث أن تنهار بعض الأبنية لسبب ما، أو لانتهاء صلاحيتها أو لغرض التجديد فتبنى محلها مباني جديدة أخرى، وهذا ربما ما حدث عند بناء قلعة زبيد (الدار الناصري الكبير) حيث شيدت على أنقاض قصور الزياديين والنجاحيين وقد تحدث بعض التغيرات في النمط المعماري غير أنها تبقى بطيئة وتراكمية يصعب تحديدها بوضوح كما أن الأثر المعماري المحدد تجري عليه إصلاحات وترميمات وتوسعات عبر عصور مختلفة بعضها قد لا تؤرخ. ولهذا يصعب تحديد طرز وأنماط هذا النوع من المدن (منها مدينة زبيد) إلى عصر أو زمن محدد كما هو متعارف عليه عند تقسيمات العصور التاريخية.. على الأقل هذا في الوقت الحاضر ونورد هنا بعض العناصر الأثرية المتراكمة بالتجديدات المتباعدة من خلال النماذج المذكورة بالجدول رقم (1).

جدول (1) يوضح العصور المختلفة لإنشاء بعض المباني الأثرية وتواصل تجديدها عبر الحقب التاريخية

العنصر	المؤسس	تاريخ التأسيس	التجديدات					المساحة المغطاة	المساحة
			1	2	3	4	5		
مسجد الأشاعر	جماعة من قبائل الأشاعر	عام 9هـ	ق 5هـ	832	899هـ	949هـ	1276هـ	35.5×24.5	5.3 ×11
الجامع الكبير بزبيد		قبل ق. 3هـ	391هـ	502هـ	897	1185هـ		57 ×59	14 ×26.9
المدرسة الجبرتية	الشيخ إسماعيل بن عبدالصمد	ق. 8هـ	909هـ 1181هـ						
المدرسة الكمالية بزبيد	الأمير كمال بك	الربع الثاني من ق10هـ							11.6 ×16.5
المدرسة السكندرية بزبيد	الوالي العثماني أسكندر موز	منتصف ق. 10هـ							6.42 ×9.85
المدرسة الفرحانية	زوجة الملك السلطان الأشرف إسماعيل	منتصف ق. 9هـ							14.7 ×11.65
قلعة زبيد (الدار الناصري الكبير)	الملك الناصر أحمد الرسولي	822هـ							

1. د. محمد عزمي احمد موسى- محاضرات في تاريخ تخطيط المدن- جامعة صنعاء- (بدون تاريخ).

وهذه النماذج الأثرية أو التراثية الموضحة بالجدول تدل على أن التراث المعماري في مدينة زبيد التاريخية قد تراكم خلال أكثر من عشرة قرون من الزمن تقريباً، مما يدل على استمرارية تواصل تطور المدينة، وخلال حكم الرسوليين ازدادت ازدهاراً، خاصة فيما يتعلق بالجانب العلمي والثقافي.. الخ، حيث تذكر المصادر وجود أكثر من 238 منشأة دينية مختلفة في هذه الفترة[1].

5- العناصر التخطيطية المكونة لمدينة زبيد التاريخية:

5-1. المساحة والسور:

تبلغ مساحة مدينة زبيد التاريخية المحددة بداخل السور 92 هكـ وارتفاع السور 4 أمتار تقريباً عن سطح الأرض وقد بني من اللَّبن في البداية ثم من الآجر، ودعم بالنواب التي تبعد بين كل واحدة منها ما بين 50- 100 متر لغرض الحماية والدفاع، بالإضافة إلى الخندق الذي كان يحيط بالمدينة من جميع الجهات، وفي الجهات الأصلية تقريبا فتحت أربعة بوابات رئيسية للمدينة[2].

5-2. الطرق وتقسيم المدينة:

تتكون مدينة زبيد التاريخية من شارعين محورين رئيسين متعرجين ومتعامدين يقسمان مدينة زبيد إلى أربعة أقسام رئيسية شبه متساوية، وسمي كل ربع باسم محدد، وعند تقاطعهما تكون مركز المدينة وسوقها الرئيسي، ومن هذه الناحية يشبه إلى حد ما يتميز به تخطيط بعض المدن الرومانية القديمة[3]، إضافة إلى ما تميزت بها كمدينة إسلامية تضم في مركزها المسجد والساحة والسوق. وفي نهاية الشارعين المتقاطعين والمحددين على الجهات الأربع الأصلية، توجد أربع بوابات رئيسية للمدينة، ومن هذين الشارعين المتعامدين امتدت شوارع فرعية إلى كل جزء من الأربعة الأجزاء المكونة للمدينة حددت على ضوئها الحارات، ومن الشوارع الفرعية، امتدت أزقة تكبر وتضيق أحيانا، وتؤدي إلى المجموعات السكنية والتي غالبا ما تكون من 3- 4 أدوار سكنية مشتركة ببعض الوظائف وهي ظاهرة تتميز بها مدينة زبيد.

أما الأربعة الأجزاء الرئيسية الناتجة عن تقسيم المحورين المتعامدين فكل ربع له تسميته الخاصة به، وهي كالتالي:

1. الجزء الجنوبي الشرقي يسمى ربع المجنبذ.
2. الجزء الجنوبي الغربي يسمى ربع الجزء.
3. الجزء الشمالي الشرقي يسمى ربع العلي.
4. الجزء الشمالي الغربي يسمى ربع الجامع[5].

وهذه الأجزاء تحتوي على حارات ومجموعات سكنية متصلة ومترابطة تتصف بالامتداد الأفقي في التوسع والبناء، وعلى النظام التصميمي السكني الحر والمفتوح للداخل والذي عادة ما يميز المناطق التهامية والحارة.

5-3. مركز المدينة (السوق):

حدد موقع مركز المدينة كنتيجة طبيعية للتخطيط، عند تقاطع المحورين (الشارعين) المتعامدين في مركز المدينة وتم توزيعه على الأربعة الأجزاء المكونة للمدينة، ويمتد بشكل شريطي باتجاه شرق غرب، وربما قد ساعد، على تحديد امتداد اتجاهه غرباً، موقع المسجد الجامع الكبير، وطبيعي أن تطوره قد مر بعمليات تطور وتحديث مستمر خلال تطور المدينة وجرى له من التحديثات والتغيرات مثل ما جرى للعناصر الأخرى المكونة للمدينة.. غير أن تلك

---

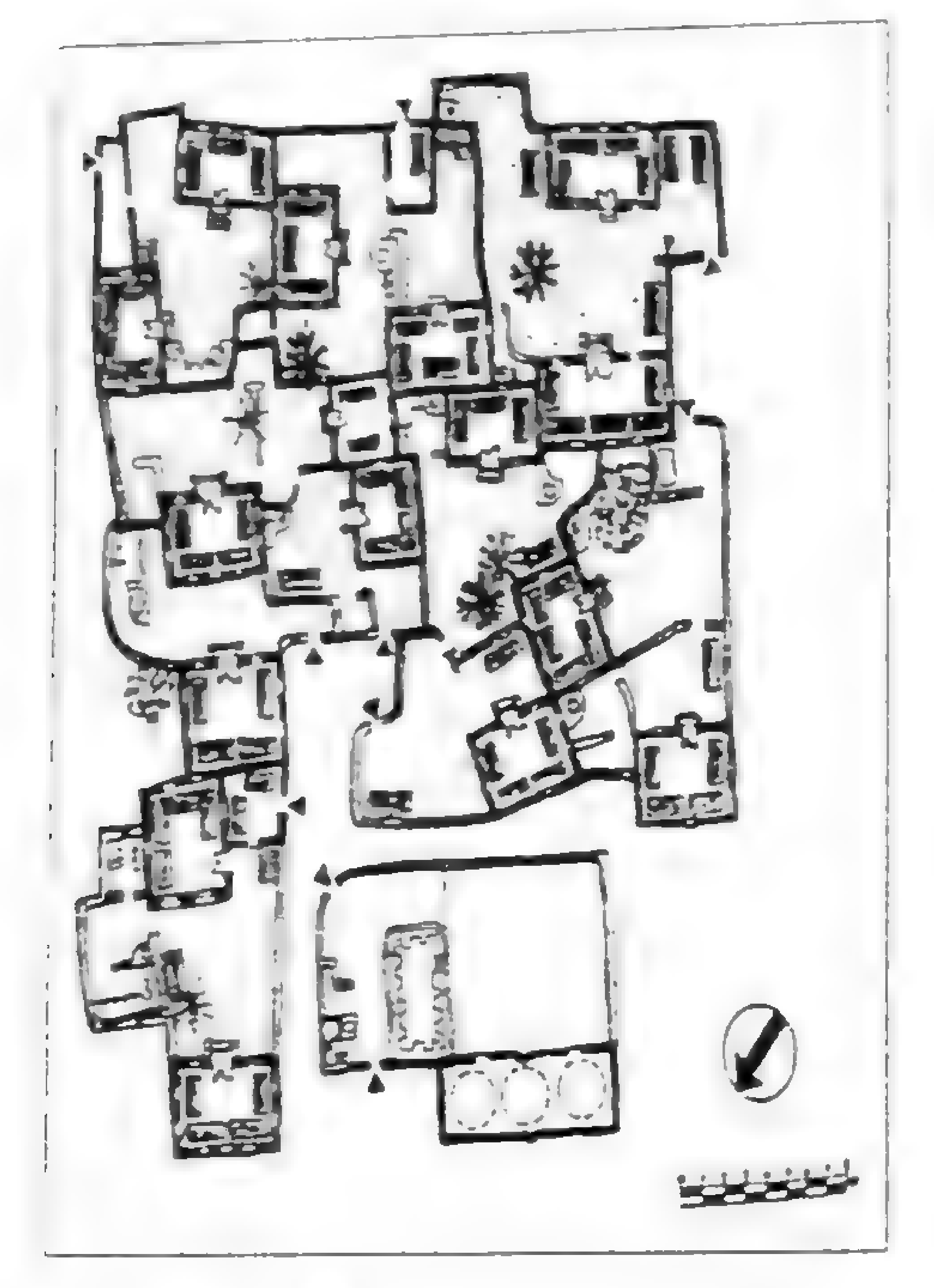
1. شيحه- مرجع سابق- ص45.
2. المقطري، د. نجيب علي عبد الله- الحفاظ والتطور على مدينة زبيد التاريخية في الجمهورية اليمنية- رسالة دكتوراه لم تنشر ص 32- ط1996.
3. د. محمد أحمد عبد الله- تاريخ تخطيط المدن- ص48- 1981.

التجديدات يبدو أنها كانت في إطار النسيج الحضري الأساسي (أي بقية الشوارع والممرات كما كانت عليها سابقا) لنشأة المدينة الأولى.. والذي يحمل في حد ذاته قيمة أثرية خاصة، وقد تطور تخطيط مركز المدينة القديمة (السوق) وامتد وفقا لنظرية الطرد والجذب وأصبح يحتوي على أسواق تخصصية ويختص كل سوق منها ببضاعة معينة مثله في ذلك مثل كثير من أسواق المدن الإسلامية القديمة. انظر (شكل1)

شكل (1) خريطة لمدينة زبيد القديمة (داخل السور)
المصدر: البرفسور/ بول بونيفانت- فرنسا

5-4. السكن:

قسمت مدينة زبيد كما ذكر سابقا إلى أربعة أجزاء متساوية، واحتوى كل جزء أو ربع على عدد من الحارات وكل حارة احتوت على مجموعة سكنية تتخللها الشوارع والأزقة، وكل مجموعة سكنية تتكون من عدد من البيوت السكنية المتصلة أسوارها الخارجية مع بعض، وتحيطها طرقات وممرات ضيقة من كل الاتجاهات تقريبا، وهذه الوحدة السكنية المكونة من مجموعة من البيوت هي الخلية الأساسية (بعد السكن المنفرد) المكونة لنسيج المدينة. ولها طابعها الخاص والمميز في مدينة زبيد. انظر (شكل 2).



شكل (2) مسقط أفقي لوحدة سكنية في زبيد

5-5- العناصر العامة الأخرى:

المساجد والجوامع التاريخية: أخذت مواقعها المناسبة في مركز المدينة، ومحاورها الرئيسية، كما أخذت مكانها المناسب من المناطق السكنية.

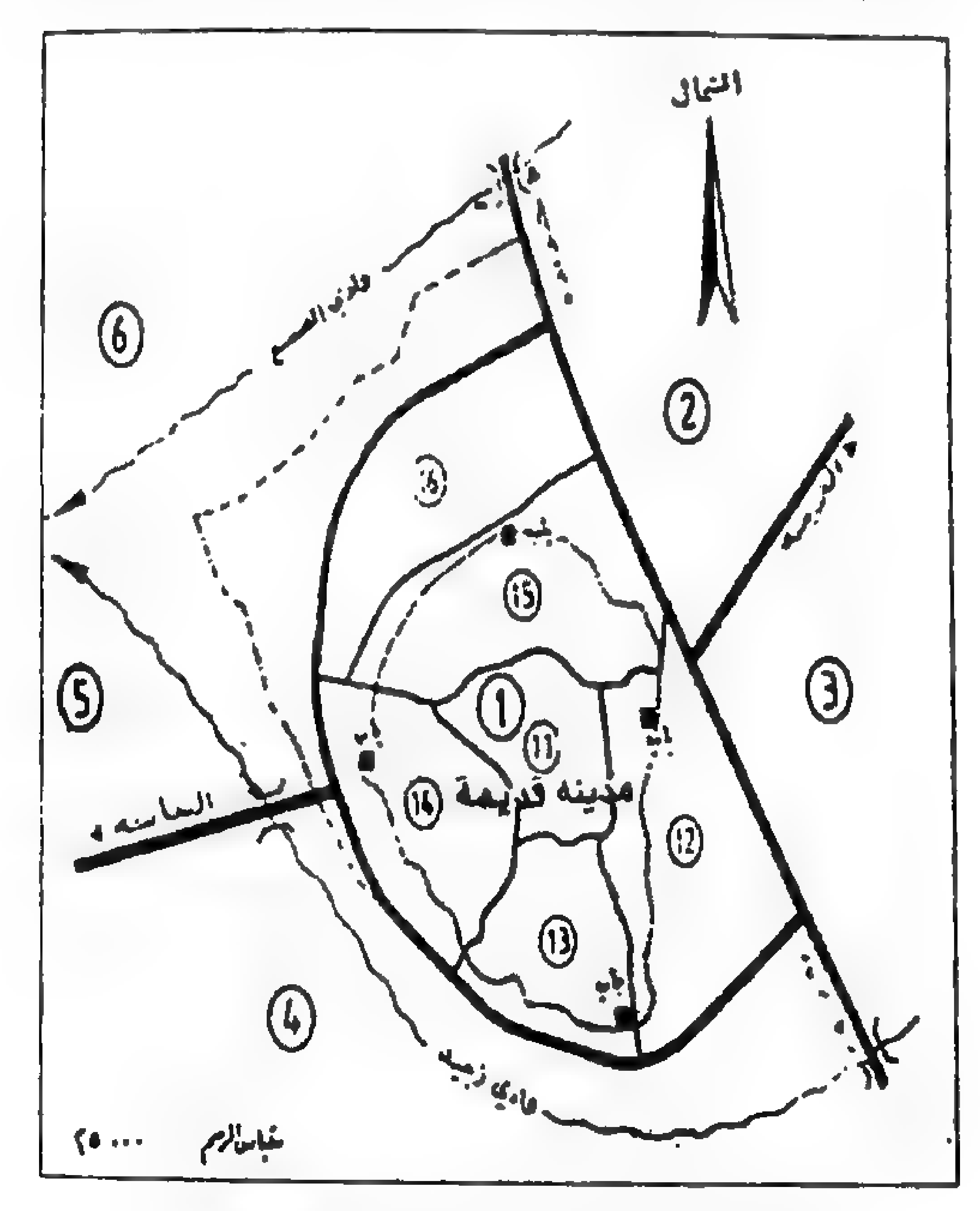
المدارس: وهي كثيرة وتعتبر إحدى أهم الوظائف الرئيسية التي تميزت بها مدينة زبيد كمدينة للعلم

والعلماء وحافظت على استمرارية تواصلها، ووزعت على مناطق المدينة المختلفة بما يخدم الوظيفة، وجنبت إلى جانبها خدمات أخرى مما أدى إلى توسع المدينة والاحتفاظ بقيمها التاريخية.

أبواب المدينة: حددت الأبواب الرئيسية الأربعة على الأربع الجهات الأصلية، وعند بداية شوارع محور المدينة المتجه نحو المركز، وقد تميزت بوابات المدينة بتصميم خاص اتخذ عنصر الحماية كهدف حيث تميز التصميم ببروز إحدى أكتاف كل بوابة لتأكيد المدخل، ووظيفياً ربما لغرض زيادة استراتيجية المراقبة وحراسة المداخل إضافة إلى الحماية المتقدمة للمدينة. وهذه النتوءات البارزة والمسننة ظهرت أيضا في بعض نوبات (حصون) المراقبة الموزعة على محيط سور المدينة.

6- المخطط العام لمدينة زبيد لعام 1984م:

تم إعداد المخطط العام لمدينة زبيد عام 1984م من قبل الفريق الألماني بالاشتراك مع المهندسين اليمنيين في وزارة الإنشاءات، وتم وضعه بناءً على دراسة متوقعة لنمو المدينة حتى عام 2000م، وحدد اتجاه نموها بشكل حلقي حول المدينة التاريخية وإن ركز بشكل أساسي على نموها في اتجاه الشمال يليه الجنوب الشرقي، وبعض التوسعات في الجهات الأخرى، وذلك من خلال تخطيط طريق نصف حلقي التف حول المدينة القديمة ومناطق التوسع المحيطة حولها ومنها انطلقت الطرق الإقليمية التي حددت قطاعات المدينة ويبدو أن المخطط العام اتخذ الطريق الرئيسي الذي يربط الحديدة-تعز في شرق المدينة كمحدد لنمو المدينة مستقبلا، واعتبر المدينة القديمة كوضع راهن ومنها امتدت عمليات التوسع، أما الاعتبارات التاريخية والقيم التراثية والثقافية وعمليات الحفاظ على المدينة التاريخية كما يظهرها المخطط، فلم تعط الكثير من الدراسات والبحث والاهتمام، لهذا جاء المخطط قاصراً؛ وربما يعود هذا إلى قصور في فهم القيمة التاريخية للمدينة في تلك الفترة (أو أن فكرة الحفاظ على المدن التاريخية ومبانيها الرئيسية لم تتبلور بعد كما هي عليه الآن) وعن مدى أهمية ربطها بعمليات توسعها المستقبلي من قبل القائمين على أعمال التخطيط، مما جعل المخطط العام يخل بالنسيج الحضري للمدينة ويحاصرها من جميع الجهات وبدون ترك مجال انتقال واضح ما بين القديم والجديد، واكتفى بتبسيط عملية التخطيط وتقسيم المدينة إلى قطاعات، ومن ثم ركز على القطاع رقم (1) الذي يضم المدينة التاريخية إلى جانب مناطق التوسعات المتوقعة حتى عام 2000. واستمر بتقسيم القطاع إلى أحياء أو وحدات جوار، وهنا أهمل المدينة القديمة ونسيجها الحضري المحدد بالسور، وبدأ تشتيت وتجزئة المدينة القديمة بطريقة غريبة بين الأحياء والوحدات المختلفة، وصار الحي أو وحدة الجوار الواحدة في قطاع رقم (1) تحتوي بداخلها على جزء من المدينة التاريخية وجزء آخر من منطقة التوسع الجديدة وبينهما حدود لسور المدينة القديمة، وكل وحدات الجوار الست في



شكل (3) مخطط العام لمدينة زبيد 1984.
المصدر: وزارة الإنشاءات

القطاع رقم 1 تعرضت لهذه التجزئة ما عدا رقم 11 والتي تحتوي السوق، فتعتبر كاملة داخل المدينة التاريخية، ورقم 16 كاملة في منطقة التوسع المحيطة بالمدينة وإن كانت في منطقة انتقالية، انظر المخطط لعام 1984 (شكل3)، وهذا المخطط العام ما زال يعتبر المرشد الأساسي للتخطيط في الوقت الراهن.

7- تعدد الجهات في إدارة مدينة زبيد التاريخية:

هناك ثلاث جهات حكومية لها علاقة مباشرة في المدن التاريخية هي وزارة الإنشاءات، والهيئة العامة للحفاظ على المدن التاريخية، والهيئة العامة للآثار، وكل جهة من هذه الجهات لها علاقة مباشرة مختلفة المهام على المدينة، وكل حسب اختصاصه، لكن يبدو أن هناك تداخلاً كبيراً بين تلك الاختصاصات، ربما يعود لعدم التعريف الواضح بعمليات الحفاظ والمناطق أو المباني التراثية، لأن مفهوم المدن التاريخية ما زال يشوبه الغموض والإبهام مما يؤدي إلى التداخل وإدعاء كل جهة بأولويات معالجة هذا العنصر أو ذاك، والمخطط العام للمدينة يساعد أيضا على ذلك التباين رغم أن عملية الحفاظ هي عملية متكاملة ليس فقط بين الثلاث الجهات؛ بل وأيضا مع جهات أخرى مثل السياحة وغيرها، ويفترض وجود قوانين تنظم اختصاص كل جهة، وتداخل هذه الاختصاصات في المدن التاريخية، وكل بطريقته أدى ويؤدي إلى التداخل وصعوبة تحديد المسئولية عند حدوث تجاوزات أو أخطاء.

8- الاهتمام المحلي والدولي بمدينة زبيد التاريخية:

8-1. الاهتمام المحلي:

اهتمام محلي فردي من قبل المهتمين بالأمور الإنسانية والتاريخية والثقافية للمجتمع اليمني وتراثه من أكاديميين وأدباء وكتاب ومؤرخين، ومهندسين، وكان لهذه الشريحة الدور الرائد في إبراز أهمية الحفاظ على المدن التاريخية اليمنية ومنها مدينة زبيد على المستوى الشعبي والرسمي والدولي.

الاهتمام الرسمي ممثلا بالهيئة العامة للحفاظ على المدن التاريخية وغيرها.

8-2. الاهتمام العالمي:

- إصدار منظمة اليونسكو عام 1993م قرار بإدخال مدينة زبيد في قائمة التراث العالمي[5].
- في مارس 1998م صنفت ضمن المدن التاريخية العالمية[1].
- دراستها ميدانيا من قبل بعض المنظمات الدولية هولندا، فرنسا، كندا.

9- الوضع الراهن لمدينة زبيد التاريخية:

9-1. السكان:

بالرجوع إلى الإحصاء السكاني لعام 1975م بلغ عدد سكان مدينة زبيد 9065 نسمة، وإحصاء عام 1994م والذي بلغ فيه عدد سكان المدينة 17254 نسمة[2] يتضح أن متوسط نسبة الزيادة السكانية السنوية للفترة بين التعداديين بلغت في حدود 3.4 % وهي نسبة تقل قليلا عن معدل نسبة النمو السكاني الطبيعي على مستوى اليمن والتي بلغت 3.5 % سنويا.

ومن هذه الأرقام نستنتج أن مدينة زبيد لم تتأثر كثيراً في توسعها أو نموها بالوثبة التي حدثت خلال الستينات وما تلاها من القرن الماضي من تغيرات بالحراك السكاني وما رافقه، كما حدث لمعظم المدن اليمنية والتي تضاعف سكانها ومساحتها أضعافا عما كانت عليه سابقا، واختل تركيبها السكاني ما بين الذكور والإناث بسبب هجرة الرجال إليها بحثا عن عمل، بينما مدينة زبيد احتفظت حتى بتوازنها السكاني ذكورا وإناثا، وهذه ظاهرة يبدو أن مدينة زبيد تنفرد بها، وأنها مدينة غير جاذبة للسكان. ويبدو

---

1. الشيباني، د.عبد الرقيب - مرجع سابق - ص783.
2. الجهاز المركزي للإحصاء والتعداد السكاني والمساكن. ديسمبر 1994 - ط 1996.

ان لهذه الظاهرة امتداداً تاريخياً؛ فقد ذكرت المصادر التاريخية أن محمد بن زياد مؤسس الدولة الزيادية في بداية القرن الثالث الهجري واجه هذه المشكلة فعمل على جذب السكان إليها من خلال إعفاء الرعاة من الزكاة لمدة سنة واحدة بهدف ترغيبهم في استيطانها بعد أن اتخذها عاصمة لدولته[1].

وربما التاريخ يعيد نفسه الآن. والمدينة بحاجة إلى تخطيط عمراني حديث يتناسب مع وضعها وإمكانياتها الكامنة ومتطلباتها المستقبلية، يتسم بإيجاد عناصر جذب لإحياء المدينة من ناحية ولجذب بعض السكان إليها بدلا من توجههم إلى مراكز المدن الرئيسية من ناحية أخرى.

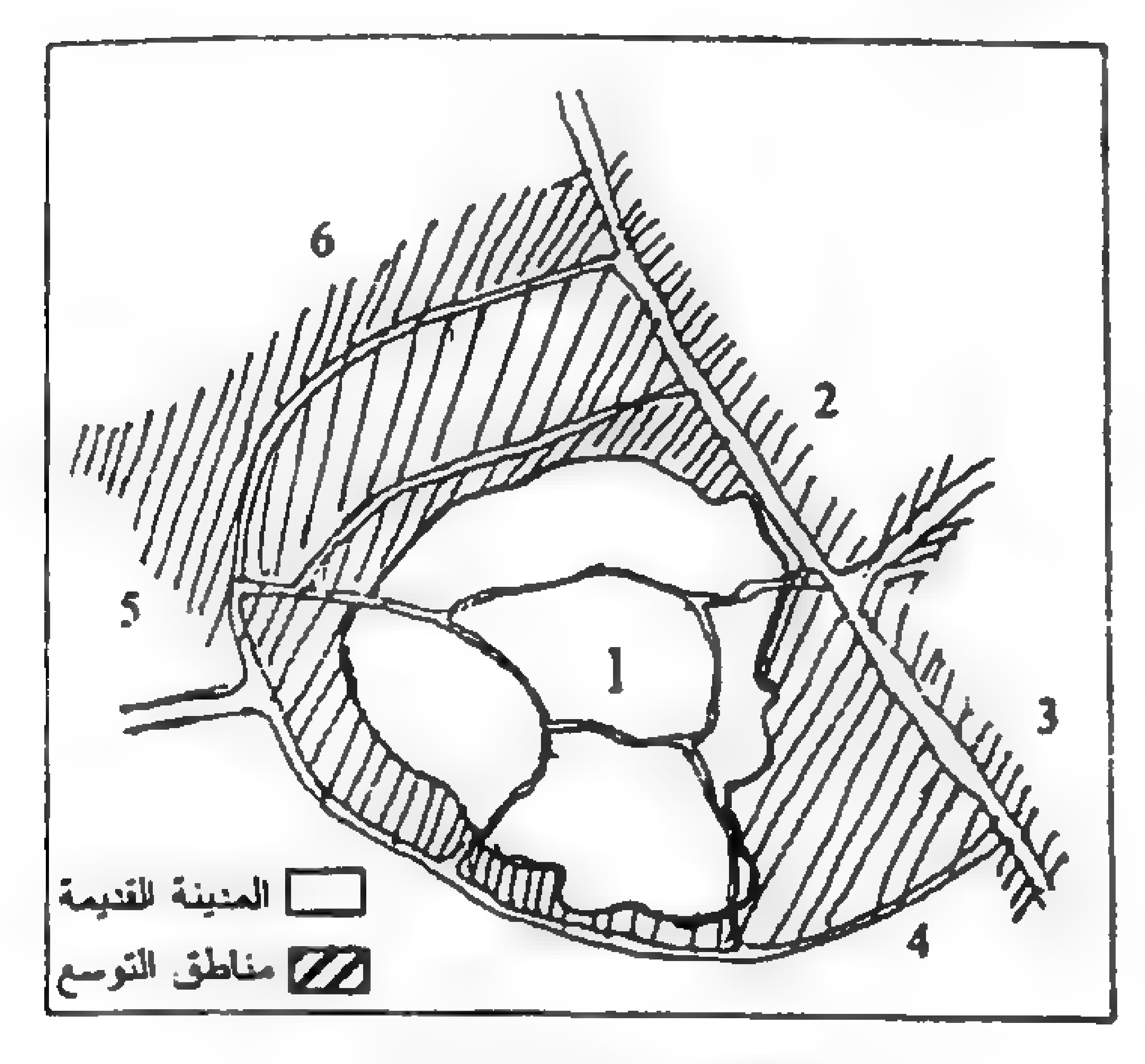
وعلى ضوء الأهداف المتخذة نحوها يتحدد تخطيط وإعادة تخطيط المدينة مستقبلا، وإذا ما أخذ معيار معدل نسبة الزيادة السكانية السنوية الماضية، كمعدل نمو مستقبلي فمن المتوقع أن يكون عدد سكانها حاليا 21800 نسمة، وفي عام 2020م. إذا ما استمر نفس النمو ولم تحدث أي تدخلات خارجية فسوف يبلغ عدد سكانها 40.000 نسمة.

9-2. المساحة:

بلغ إجمالي مساحة مدينة زبيد في حدود 245 هكتار منها 92 هكتار مساحة المدينة التاريخية والمحددة داخل السور[2]. وبذلك فإن الكثافة السكانية الإجمالية في المدينة في حدود 70 شخصاً/ هكتار، وهي نسبة تتصف بها جميع المدن الصغيرة في تهامة.

9-3. تنفيذ المخططات التفصيلية على الواقع وعلاقتها بالمخطط العام:

من المخطط العام يتضح أن المدينة قد قسمت إلى خمسة قطاعات تلتف حول قطاع المركز، وحددت القطاعات بالطرق الرئيسية الإقليمية، ولم يتم تصنيف الشوارع وتحديد أنواعها واستعمالات الأرض ما عدا قطاع رقم 1 الذي يحتوي المدينة التاريخية من ضمن مساحته، حيث قسمت مساحته إلى وحدات جوار تحيطها شوارع رئيسية، مما ترك مجالاً كبيراً للاجتهادات الشخصية وللجهات ذات العلاقة المباشرة بالنواحي التخطيطية، والذي أدى بدوره إلى الامتداد والتوسع العشوائي على مخطط المدينة وفي كل الاتجاهات، إضافة إلى عمليات الهدم والتحوير والتشويه للتراث المعماري التاريخي والنسيج العمراني. أنظر (شكل 4).



شكل (4) الوضع الراهن لمدينة زبيد
المصدر: وزارة الانشاءات

10- أهمية إعادة تخطيط مدينة زبيد:

إن المخطط العام لمدينة زبيد عام 1984م. اتخذ عام 2000 كهدف متوقع بعيد المدى لتخطيط المدينة على أن يرافقه خلال الفترة الزمنية تحسينات وإضافات وتعديلات بما يتلاءم مع المتطلبات المرافقة للتطور وعمليات النمو كما هو متعارف عليه في تخطيط المدن، ولهذا يفترض أن العمر الافتراضي للمخطط قد انتهى قبل عام 2000 بكثير طالما ولم يتم تجديده، والمدينة في الوقت الراهن في حاجة ماسة إلى إعادة تخطيطها بشكل علمي وبما يتلاءم مع مستجدات

1. ابن الديبع- المستفيد في تاريخ زبيد- مركز الدراسات اليمنية- صنعاء 1979.
2. وزارة الإنشاءات والتخطيط الحضري- المخطط العام.

العصر ومتطلباته، سواء فيما يتعلق بالأفكار والنظريات الحديثة لتخطيط وإعادة تخطيط المدن التاريخية وما يتصل به من رقي في الفكر الإنساني واستيعاب أهميته. أو فيما أفرزه العصر من تطورات اقتصادية وتقنية ومعلوماتية وانتقاله التدريجي إلى الاقتصاد الخدمي والمعلوماتي، وتأثير كل هذا على المدن التاريخية وإمكانية إعادة استثمارها مادياً (سياحة، وخدمات) وروحياً (ثقافة، فنون، تاريخ)..الخ.

وسوف يتم التطرق باختصار إلى إبراز ومناقشة إحدى العناصر الأساسية المكونة لمدينة زبيد المعاصرة وهو عنصر المدينة التاريخية وأهمية الحفاظ عليها عمارة وتخطيطاً، لعلاقته بصلب موضوع هذا البحث وذلك من خلال النقاط التالية:

1-10. اعتبار المدينة التاريخية كعنصر أساسي من مكونات مدينة زبيد المعاصرة:

لقد كانت المدينة التاريخية فيما مضى تعتبر الكل ويتم تقسيمها إلى أجزاء (سكن، خدمات، شوارع..الخ) أما الوضع الراهن لتخطيط المدينة وتحديد عناصرها الرئيسية، فيفترض على المخططين وذوي العلاقة بالتخطيط اعتبارها كإحدى العناصر أو الأجزاء الأساسية المكونة للمدينة وفقا لشروط خاصة، وبتعبير آخر يتم تحويل ما كان يعرف بالكل إلى الجزء أو الأساسي إلى الفرعي.

2-10. عند إعادة تخطيط مدينة زبيد المعاصرة، يجب تحديد شروط الحماية اللازمة للمدينة التاريخية[1]:

خلال إجراء عمليات التخطيط العام للمدينة يجب النظر بشمولية إلى خصائص ومميزات المدينة وقيمها التاريخية والتراثية والثقافية على مختلف المستويات المحلي والإقليمي والدولي (باعتبارها تراث إنساني) على أن يُربط ذلك بالحياة المعاصرة للمدينة وسكانها واتجاه نموها، والذي عادة ما يحدد وفقا لوظيفتها الأساسية حاضرا ومستقبلا (صناعية، خدمية، سياحية) كما يجب تحديد مجال الحماية اللازمة للمدينة التاريخية المتناسق شكلاً ومضموناً وانسجاماً مع مناطق التوسع، أي أن مجال الحماية لا يعني العزل بل يتضمن النشاط والوحدة والانسجام.

3-10. تخطيط مدينة زبيد التاريخية يجب أن ينطلق من التخطيط العام الشامل للمدينة ومن استيعاب خصائص المنطقة وعلاقتها بالمحيط:

إن تخطيط وتقسيم مناطق المدن التاريخية تمت وفقا لأسس فلسفية معينة مكتوبة وغير مكتوبة لأن جميع العناصر المكونة للمدينة من مباني منفردة أو مجمعات سكنية..الخ. بالرغم من تشابهها شكلا إلا أنها في الواقع مختلفة مضموناً. لاختلاف شروط مواقع أراضيها واختلافها في التكوين والملامح وما تولده من أحاسيس.

كما أنه عند تخطيط مناطق الحفاظ في المدن التاريخية يجب إبراز النقاط التالية:

1-3-10. إبراز الخصائص البيئية أثناء ترتيب مناطق الحفاظ في المدينة التاريخية:

إن عملية الإصلاح والتجديد داخل المدن عبر التاريخ تتم بشكل تراكمي، وأثناء التجديد يصعب التحديد الدقيق لنشأة العناصر بحسب الفترات الزمنية المختلفة. فمدينة زبيد بدأت كعاصمة للدولة الزيادية لكنها احتوت في ثناياها مباني وتراث ما قبلها، ومع استمرار تطورها المتتالي صعودا وهبوطا، ازدهرت مدارسها خلال عهد بني رسول في القرون (7- 9هـ) وهذا أيضا لا ينفي خبراتها المتراكمة واستمرار تواصلها مع ما قبلها ومن ثم مع ما بعدها.

2-3-10. الاهتمام بالتراث الثقافي، وخلق محيط خاص للمدينة يتمتع بالبعد الزماني والمكاني:

طابع المدينة لا يتجسد فقط بالأشياء المادية الممكن رؤيتها من الأشكال والعناصر بل يتضمن خواصها الغير مادية، المكانية والتاريخية والثقافية والفراغية، وما يتولد من إحساس بالمتعة أثناء التجوال فيه.

1 -si yong hua city planiny Review 1992-6- P 28-3.

10-3-3. تحديد نماذج رمزية ذات دلالات لمختلف المراحل التاريخية مع تحديد مجال محيطها[1]:

إن المدن التاريخية والأثرية وعبر مراحل تطورها التاريخي قد مرت بتغيرات وتجديدات كثيرة سواء من حيث استخدام المواد والنواحي التصميمية أو من خلال تغير متطلباتها الوظيفية، وكل ما اقترب بعدها الزمني عن الحاضر كلما كانت رؤيتها أوضح وأدق وجرت عليها تغيرات أسرع.

والتجديدات والتوسعات والتحويرات المستمرة عبر التاريخ لبعض مباني منشآت زبيد التاريخية تبين ذلك بوضوح، وسواء اتسمت تلك التجديدات الجزئية أو الكلية بالاحتفاظ بنفس الوظيفة القديمة التي وجدت من أجلها مثل ما حدث للجامع الكبير ومسجد الأشاعر، أو فيما يتعلق بإعادة بناء بعض المباني وتغير وظائفها كما حدث لقلعة زبيد التاريخية (الدار الناصري الكبير) والتي بنيت على أطلال قصور الزياديين والنجاحيين.

كما أن عدم تحديد مناطق حفاظ معينة في مدينة زبيد التاريخية (وغيرها) مع محيط حماية، وفقا لتسلسل العصور التاريخية فمن المحتمل أن يؤدي هذا إلى أن تفقد المدينة بعض خصائص تطورها واستمرار تواصلها التاريخي. وإذا كان الواقع العمراني كما يُرى يشوبه الصعوبات بتحديده إلى عصر ما، فإن محيط بعض المباني ونسيجها الحضري يمثل جزءا أساسيا من تلك المراحل، مثلا مسجد الأشاعر ومحيطه يمثل فترة بداية الإسلام، والمدارس ومحيطها يمثل القرون (7- 9هـ) والقلعة..الخ.

وما حدث خلال الثلاثة العقود الماضية من أعمال عشوائية سواء ما استجد منها أو ما أصلح أو ما تعرض للهدم يضر أضرارا فاحشا بنسيج المدينة الحضري وملامحها الأثرية التاريخية ومحيطها الحيوي لأنها لم تأخذ هذه العناصر في الاعتبار مما أدى إلى إضعاف قيمها التاريخية وملامحها الجمالية وتدخل مشوش لحقبها التاريخية.

10-4. تخطيط المدن التاريخية هو أحد التخطيطات الشاملة متعددة العلوم والمعارف ومتعددة التخصصات:

إن تخطيط المدن التاريخية ومناطق الحفاظ يحتاج إلى تعاون فريق متكامل يضم مختلف التخصصات العلمية والأدبية (أثريين، مخططي مدن، معماريين، حدائق، تاريخ، اجتماع حضري، اقتصاد، ..الخ) ويحتاج إلى دراسة عادات وتقاليد المجتمع ومستواه الثقافي، كما يحتاج إلى المعالجة الجيدة لوسائل النقل والاتصالات وغيرها لكي تلبي متطلبات الناس اليومية والمعاصرة، اقتصادياً وعلمياً واجتماعياً وثقافياً.

10-5. تخطيط المدن التاريخية ومناطق الحفاظ يجب أن يتم وفقا لأسس ومبادئ علمية تتصف بالمرونة:

لقد ارتقى علم إعادة تخطيط المدن وعمليات الحفاظ على المدن والمناطق والمباني التاريخية عما كان عليه في الماضي وأصبح له قوانينه ومبادئه المنظمة لاتجاه تطوره على كافة المستويات، ابتداء من محيط الحماية الخارجي للمدينة أو المنطقة أو الشارع أو المسكن وحتى التفاصيل الداخلية للمباني التاريخية والتراثية، ورافق ذلك الارتقاء النظري المرونة اللازمة وتقنيات مساعدة للوصول إلى هدف عمليات الحماية ودراستها.

10-6. الحفاظ على المدن التاريخية هي إحدى الخطط التنفيذية بعيدة المدى:

الدراسات المتواصلة لعمليات الحفاظ على المدن التاريخية، والمباني التراثية تكشف بشكل متواصل معلومات مستجدة عن أهمية الحفاظ وطريقها، والوسائل المتبعة والمناسبة لمعالجتها، لهذا فإن عملية الحفاظ كغيرها من العلوم هي عملية مستمرة ومتجددة ومتواصلة لا تنقطع وتحتاج إلى زمن لتظهر سلامة نتائجها (والمهم أن يتم الحفاظ على محيطها من التداخل والعبث والتحوير)، ومدينة زبيد التاريخية ينطبق عليها هذا الوصف، إلا أن هذا لا يعني التأخير في إجراءات

---

1 - Zhang Kai Ji, CHANG SHI KAI FA, 1994/4. P12.

إعادة تخطيطها وإنجاز مخططها العام بما يتناسب مع وضعها الخاص والمستجدات المتزامنة المحيطة بها على المستوى المحلي والدولي باعتبارها تراث إنساني عالمي

11- الخلاصة:

تعتبر مدينة زبيد من المدن الصغيرة الحجم (مساحة وسكانا) إلا إنها كبيرة بقيمها التاريخية والتراثية والعلمية(الروحية والمادية) بما احتوت من مدارس وجامعات وبما تميزت من استمرارية تواصلها التاريخي بالعلم والعلماء لأكثر من عشرة قرون مضت.

وانخفاض نموها السكاني ومحدودية توسعها العمراني، مقارنة مع المدن اليمنية الأخرى قد ساعد إلى حد ما باحتفاظها ببعض ملامحها وخصائصها التاريخية ونسيجها العمراني المميز في فترة النمو السريع العشوائي الذي انطلق كالمارد بعد 1962م وأثر علي التكوين العام لمعظم المدن اليمنية التقليدية الأخرى.

ومنذ بداية التسعينات برزت بوضوح اكثر أهمية الحفاظ على مدينة زبيد التاريخية وتراثها على المستوى المحلي والعالمي، وبدأت البحوث والدراسات النظرية والميدانية تتوالى وتبحث عن الطريق السليم لكيفية الحفاظ عليها، وكلٍ تناولها من الزاوية التي يراها أو تهمه في مجال تخصصه.

أما تحديد مفهوم الحفاظ ومستوياته وما هو الهدف من الحفاظ؟ وهل الحفاظ هدف بحد ذاته؟ مازال مفهوماً يشوبه الكثير من الإبهام والغموض، ولهذا يبدو أن بعض الدراسات التي تناولتها قد دمجت ما بين هذا وذاك، وهذا البحث حاول أن يتناول موضوع المدن التاريخية ومناطق الحفاظ (متخذاً من مدينة زبيد كنموذج) من ناحية التخطيط وإعادة التخطيط (العمراني) العام الشامل للمدينة، على اعتبار انه المحك الرئيسي الذي يعكس خلاصة البحوث العلمية (ذات العلاقة بالمدن ومشاكلها) النظرية والتطبيقية على الواقع العملي ويحولها إلى واقع حياتي معاش يمارس يوميا، ومن ثم في دورة استرجاعية أخرى تجري بعض الدراسات والبحوث على المدن التاريخية من المنظور العام والتي معظمها تكون عن تقييم مرافق لإعادة التخطيط العام، أو نتيجة لتفاعلات مستجدة متراكمة تحدث خلال فترة زمنية لاحقة وتتراكم وتعاد صياغتها مرة أخري في إعادة تخطيط أخر أجد، وهكذا.

12- التوصيات:

إن إعادة تخطيط مدينة زبيد بما يتناسب مع وضعها كمدينة تاريخية من ناحية ومدينة معاصرة يجب أن تستوعب متطلبات العصر من ناحية أخرى. من خلال اتباع منهج علمي حديث في عملية التخطيط يحتوي علي المبادئ والأسس التخطيطية المعاصرة لتخطيط وإعادة تخطيط المدن ونورد منها التالي:

1. التحديد الواضح لعلاقة عناصر المدينة المختلفة وخاصة المدينة التاريخية.
2. اعتبار المدينة التاريخية كعنصر أساسي ومهم من العناصر المكونة للمدينة.
3. تحديد مجال ومحيط حماية للمدينة التاريخية المحددة بالسور عمرانيا وبصريا وبيئياً.
4. يجب إعادة تقسيم استعمالات الأرض في قطاع رقم 1 الذي تضمنه المخطط العام لعام 1984م مع دراسة ومعالجة كل ما ارتبط بذلك التقسيم من آثار تخطيطية بيئية وعمرانية للمدينة وكذلك إعادة تقييم القطاعات الأخرى للمدينة.
5. أن تتصف إعادة التخطيط العام والمخططات التفصيلية المرافقة له بنوع من الدقة وأن يضيّق إلى أقصى الحدود من عملية الاجتهادات الشخصية التي تمارس أثناء عمليات التنفيذ.
6. إداريا: الحد من ازدواجية إدارة المدن التاريخية ومناطق الحفاظ.

Abstract

The renew of the general planning of the historic city of Zabid aims to its preservation and direct its future growth according to the laws and principles of the newly developed city planning. These laws and principles contain the basics and summaries of different sciences dealing with historical cities and their preservations. The application of such laws and principles is one of the main subjects to save the historic city of Zabid and preserve its historical architecture from demolition and distortion due to the partial treatments, unstudied expansion of the city and due to the misunderstanding between city development and city preservation.

The historic city of Zabid within the borders of its historic walls is being considered as a special element or identity distinguished from others in the new expanded areas beyond the historic walls. As an additional important objective, it is important to put a limit for the misunderstanding of the interaction of administration and planning that is followed up recently for the of preserved and the expanded areas.

المراجع

1. الشيباني، عبد الرقيب طاهر، الحفاظ على مدينة زبيد التاريخية، المدينة العربية وتحديات المستقبل، الجزء الأول، إصدارات المعهد العربي للإنماء، 1997.
2. د.محمد عزمي احمد موسى، التخطيط العمراني، (د. ت).
3. د. محمد احمد عبد الله، تاريخ تخطيط المدن، 1981/10.
4. شيحة، مصطفى عبد الله، مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية اليمنية، وكالة سكرين للدعاية، 1987.
5. الجهاز المركزي للإحصاء والتعداد السكاني والمساكن، ديسمبر 1994، طبعة 1996.
6. الشيباني، عبد الرقيب طاهر، معايير ووسائل تقيم المعالم التاريخية (نموذج تقييمي، مدينة زبيد)، مجلة العلوم والتكنولوجيا، يناير 1997.
7. وزارة الإنشاءات والتخطيط الحضري، المخطط العام لمدينة زبيد، 1984.
8. zhany song on the Ecology view point of Urban Historic Projection URBAN PLANNING FORUM 1992/4, Shang Has Tong ji university china.
9. xi yong hua, some points of observation on the conservation of famous historical sites in the city of nanjing , City Planning Review, 1992/6, Beijing china.
10. Li Xiong Fei, URBAN PLANNING AND PROTECTION OF ANCIENT ARCHITECTURE , Tian jing, 1989/9.
11. Zhang Kai Ji, CHANG SHI KAI FA, 1994/4.

رحلة العالم الألماني (أولريخ زيت سن) إلى اليمن

وأثرها في إرساء قواعد علم (السبئيات) اليمنية، في أوربا القرن التاسع عشر

يعالج هذا البحث ظروف وملابسات قيام العالم الألماني الشاب المغامر (أولريخ زيتسن) بأول رحلة علمية له إلى اليمن وبعض بلدان الشرقين الأدنى والأوسط، بما انطوت عليه هذه الرحلة- في مطلع القرن التاسع عشر- من صعوبة ومخاطر، وأهوال قلّ من يقوى على مجابهتها، وينجح- بمفرده- في نفس الوقت- بتحقيق أهدافه ومراميه العلمية العظيمة التي شكلت منعطفاً هاماً وخطيراً في مسعى الفكر العلمي الأوروبي المتطلع- يومها- والمسكون بمهمة استكشاف مجاهل اليمن وكنوز معارفه الحضارية التي لم تكن معروفة بعد.

محمد الشعيبي*

خطة ومنهج أعمال البحث :

ترتكز خطة أعمال البحث وذلك على ثلاثة محاور معرفية رئيسية يمكن تلخيصها على النحو التالي:

يتولى المحور الأول دراسة شخصية هذا العالم من حيث المولد والنشأة والأصل الاجتماعي والبيئة الثقافية والعلمية كما من حيث الدراسة والتخصص والاهتمامات الشخصية والطموحات الفردية وحب المغامرة وتعشق الترحال، كما من حيث علاقته بمرعوسيه، وبقادة مراكز البحث وعلماء الاستشراق الألمان الكبار المهتمين بدراسة آثار الشرق عامة واليمن خاصة وبالذات مع علماء ورؤساء معهد (جوتا) الذي كان مهتماً يومها بموضوع القيام برحلة علمية إلى اليمن- والبلاد العربية- كما بخصوص مجرى تعامله مع توجيهات وملاحظات هؤلاء العلماء، في ظل ظروف نقص الأجهزة العلمية التقنية اللازمة لأعمال البحث الميدانية والطبيعية فضلاً عن شحة مصادر التمويل لهذه الرحلة المجهولة المحفوفة بالمخاطر والتي لم يغامر على القيا م بها قبله أي عالم ألماني- بل أوروبي أو أمريكي- وذلك بعد فشل رحلة البعثة العلمية الدنمركية التي توفي كل أعضائها السبعة داخل اليمن عدى رئيسها (نيبور) الذي لم يحصل على الشيء الكثير مما كانت تأمل به المحافل العلمية في ألمانيا على ذلك العهد. تولى العالم والرحالة الألماني هذا توفير تلك الاحتياجات العلمية الضرورية وبكميات هائلة تفوق ما كان يتوقع منه كما سنرى وذلك بإرساله العديد من النقوش الأثرية اليمنية الحميرية أو السبئية والمخطوطات العربية الإسلامية وأنواع التماثيل والهياكل البشرية والحيوانية المختلفة، وذلك إلى جانب إرسال مختلف أنواع البذور النباتية والأعشاب البرية والحيوانات الأليفة وغير الأليفة، بما يعني قيامه بتوفير معظم مواد وعنا صر مصادر المعرفة الطبيعية والأثرية والتاريخية التي شكلت بمجموعها في النهاية قاعدة علم الدراسات اليمنية داخل الجامعات الألمانية والمعاهد

* باحث ومؤرخ بمركز الدراسات والبحوث اليمني.

العلمية الأوروبية والأمريكية.

أما المحور الثاني فسوف يهتم بتتبع آثار وخطوات عملية التجوال داخل بعض بلدان العالم العربي ودول الشرق قبل وصوله إلى اليمن، والذي دام -بدوره- لسبع سنوات قضاها في كل من تركيا ومصر وفلسطين وسوريا والحجاز، وذلك بهدف تعلم اللغة العربية والحميرية والآرامية والسريانية، فضلاً عن معرفة حياة وتقاليد شعوب المنطقة استعداداً للسفر إلى اليمن.

فيما يكرس المحور الثالث والأخير لتتبع نشاطه وأعماله داخل الأراضي اليمنية التي دامت ثلاث سنوات تنقل خلالها بين مختلف المواقع الأثرية والأماكن التاريخية، ووضع الخرائط لها، والقيام بجمع المواد العلمية الضرورية والمخطوطات التاريخية ونسخ العديد من النقوش الأثرية الهامة وإرسالها إلى ألمانيا تباعا على ظهر البواخر التجارية الأوروبية التي كان بعضها يرسو على ميناء (المخاء) وخليج (عدن) وذلك قبل أن يلقى مصرعه- بنهاية المطاف- بمنطقة (وادي رسيان) القريب من مدينة المخاء- الذي كان يومها- قبل مائتي عام- حافلاً بالأحراش، وتعدد الكمائن.

تمهيد:

لقد ظل أدب، وقصص، وأعمال الرحالة عبر التاريخ وما يزال يأخذ بالألباب، وأنه بمقدار ما يشبع الرغبات المادية والروحية لبني البشر بما يشيعه من بهجة في النفوس، وطرب القلوب وإثارة لمشاعر الخيال، بقدر ما ينزع إلى تلبية حاجات العقل، والمنطق، اللذين يشكلان الانعكاس الموضوعي للحركة والأحداث الخارجية المعبرة عن أصل الوجود والطبيعة، وحياة الناس، وطبيعة معاشهم وصور تفكيرهم، وأضراب سلوكهم، واختلاف وتنوع درجة تطورهم- فضلاً عن ذلك- أن أدب الرحلات مفعم بالأسرار والعجائب، وهو يندفع كالسيل في اختراق الحواجز، واجتياز العوائق شاقا طريقه في رحاب المجهول وسط السهول والوديان والجبال والصحارى، وحتى الفضاء، وأعماق المحيطات، فضلاً عن الإبحار في نفس الوقت داخل النفس البشرية.

إن أدب الرحلات قد انفصل مؤخراً عن الأدب القصصي، والعمل الروائي، وأصبح فرعاً علمياً قائما بذاته، له أصوله، ومقوماته، وقوانينه، تماما كالعلوم الطبيعية القائمة على التخصص، العلمي والتجارب المعملية، والأبحاث الميدانية.

فابن ماجة على سبيل المثال- وابن خلدون وبن بطوطة، واليعقوبي في العصر الوسيط، لم يصنفوا كمحترفين ومبدعين في كتابة التاريخ والأدب فحسب بل ينظر إليهم كعلماء رحلات عظام، وكذا الحال إلى من كان قبلهم في القرون الأولى من الرحالة الأجانب مثل: سترابون، وديمقريطس الأبدري، ويل وتارك اليوناني، ولودوفيكو دار فارتيما، الإنكليزي، الذي زار مصر، وفارس عام 1510 ووضع أول خارطة لليمن، وينتمي إليهم من الأجانب في العصر الحديث الرحالة الألماني الكبير (أولريخ ياسبرزيت سين)، موضوع هذا البحث، والذي كانت تمثل أرض اليمن وبلاد العرب عند منتصف القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر بالنسبة له ولأوربا وأمريكا عموماً الأرض المجهولة، حيث كانت نشوة النصر والظفر- في تلك اللحظة التاريخية- على قوى الإقطاع وعوامل التخلف تلعب برؤوس جيل الثورة الأوربية المشتعلة على التو، في حين كان يحلم العباقرة والرواد منهم بتحقيق المزيد والمزيد من المعارف الإنسانية، آملين من وراء هذا الانبعاث الحضاري الجديد، والحرية التي منحتها لهم قوى الثورة الصناعية البرجوازية فرصة- اقتحام كل مجهول على مستوى المعمورة والكون ككل.

ومهما بدا في أن الأعمال الكبار والأهداف العظام التي اضطلع بها الرحالة العلماء مطلع العصر

الحديث قد استغلت لصالح الملوك والحكام، والطبقات الرأسمالية الصاعدة، إلا أنهم قد انجزوا الكثير من أهداف البحث العلمي لمصلحة كل البشر، وأن الإنسانية جمعاء تدين لهم بما وصلت إليه من معارف فكرية وتطور ثقافي وعلمي حضاري لم يكن ليتحقق لولا ذلك الأمر.

ونحن في اليمن خير من يدرك الأمر بالنظر إلى، اكتشاف رحالتنا هذا للغة المسند، وطرحها بين يدي العلماء الأوربيين الذين تولوا بعده حل معضلة عدم فهم أبنائها لها وجهلهم المطبق بمحتواها المعبر عن حضارة وعظمة الأجداد، فمن هو يا ترى هذا ا العالم الرحالة العظيم؟ الذي أشعلت أعماله وأبحاثه ودراساته عن اليمن مخيلة رؤس ثلاثة أجيال من العلماء الأوروبيين الكبار، وحفزهم بالتالي على استكمال الطريق العلمي الشاق الذي بدأه، أوائل القرن التاسع عشر، لصالح البشرية عامة، واليمن خاصة وذلك بتأسيس ما أطلق عليه لاحقا داخل الأوساط العلمية والأكاديمية (بعلم السبئيات) الذي أفضى- بدوره إلى تعرف العالم على تاريخ الحضارة اليمنية، ووضع أول معجم للغة الحضارة هذه المسماة بلغة المسند، وجعلها لغة تراثية حية تدرس بعناية في المعاهد والجامعات الأوروبية، والأمريكية والتركية، التي تحتفل كل عام بذكرى حياة هذا ا العالم وتشيد بانجازاته وتعظم قدراته ومهاراته. وقوة صبره وجلده، وتضحيته- في الأخير- بحياته على الأرض اليمنية، في سبيل البحث عن المعارف الإنسانية، في حين يندر بالمقابل من يعرف عنه بما فيه الكفاية من اليمنيين أصحاب الشأن، بما في ذاك جهل الأوساط الثقافية ومراكز البحث وأقسام الدراسات التاريخية والأثرية الجامعية، التي تدعي بأنها منبر للعلم والمعرفة. فهل هناك من سبيل لتجاوز عقدة الذنب هذه ومحاولة رد بعض الجميل ؟

ذلك ما يستهدفه مشروع عمل هذا البحث الذي يحفل بعناية واهتمام الأخ الأستاذ الدكتور/ عبدالعزيز المقالح رئيس المركز آملاً في أن تكون هذه المحاولة تمهيدا لعمل معرفي ثقافي أوسع في هذا الخصوص، يعبر عن هم ثقافي ومعرفي عام داخل الوسط التربوي والثقافي والأكاديمي اليمني والعربي ليس فقط- بواجب حق هذا ا لعالم علينا- بل وحق الكثير من أمثاله عربا وأجانب وباحثين محليين عظام لا يزالون مغمورين، غير أن أسوء ما في الأمر تجاه مثل هذه المحاولة هو تعذر الحصول على قاعدة للبيانات والمعلومات عن هذا ا الرحالة العظيم وذلك داخل أرشيف الوثائق التاريخية اليمنية والعربية أيضا خاصة إذا ما علمنا ما عنته هذه الرحلة- بالنسبة لنا كيمنيين وعرب- من مسائل فكرية وحقوقية مصيرية خطيرة- لها علاقة بموضوع السيادة والأرض. أبرزها دحضه لادعاءات بعض القوى المحلية والإسرائيلية بتملك قطعة أرض هذا المعبد أو ذاك، وإراقة الدم من اجل ذلك بالتالي ليس بين الفلسطينيين والإسرائيليين فحسب بل وبين الفلسطينيين أنفسهم مسيحيين ومسلمين- حيث كان رحالتنا- قبل مائتي عام شاهداً محايدا على صحة أو عدم صحة أي شيء من هذا القبيل، الأمر الذي كان يفترض فيه وجود مثل هذه المصادر والمرجعيات التاريخية الهامة وذلك داخل مراكز التوثيق العربية للاستفادة منها ليس فقط على صعيد العمل المعرفي وإغناء الفكر الثقافي وتوسيع قاعدة أعمال البحث والدراسات التاريخية لشعوب المنطقة فحسب، بل ولصالح إثبات الحق التاريخي للسكان الأصليين، وفضح زيف أي ادعاء مخالف لذلك، غير أنه لم يكن باليد حيلة- بالنسبة لي- كما يقال- حيث تركز جهد عمل هذا البحث- نتيجة لذلك الافتقار غير المبرر- وذلك على محاولة استكشاف المراجع والمصادر المعلوماتية الأولية الخارجية، بالذات داخل أرشيف الوثائق التاريخية الألمانية والروسية، بالأخص ما كتبته العالمة الروسية (تمارا يوتسيفنا) في هذا

الخصوص وذلك في مؤلفها الموسوم: (الآثار تودي إلى رمال الجزيرة العربية)، الذي كنت قد نقلته إلى العربية ونشرته عام 1985- فضلا عما امكن جمعه من هنا وهناك داخل شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) في محاولة تستهدف معرفة المزيد عن سيرة حياته و سنوات دراسته وانشطته العلمية الجامعية ،وتنوع ثقافته الفكرية ومستوى قدراته العقلية، والأهم – من هذا ا وذاك – هو معرفة مكانته العلمية داخل المحافل الثقافية الألمانية والأوساط الأكاديمية كعالم ورحالة مستقبلي متميز سوف يكون له بصمة في الثقافة والفكر العالمي التاريخي الحضاري.

وعليه يمكن القول بادي ذي بدء بأنه كان- من حيث الأصل والمنشأ- ألمانيا بالولادة، وروسياً بالجنسية كون ولادته عام 1767م قد تم في دوقية (ينير) الألمانية التي كانت تابعة لروسيا القيصرية وذلك قبل تسليمها عام 1814م إلى دوقية (أولدنبورغ) الألمانية، وتصادف ولادته تلك في نفس العام الذي عاد فيه (الرحالة كرستن نيبور) من رحلته الطويلة الشهيرة إلى اليمن. خلال أعوام 1785- 1789- اجتاز رحالتنا مرحلة دراسة الطب، وعلوم الطبيعة، فرع علوم الحيوان والنبات والمعادن. وكان أستاذه في كلية الطب الأستاذ (يوهن فردريك بلومنباخ) الذي كان يتمتع داخل الكلية باحترام واسع، مكنه ذلك من أن يجمع حوله الطلبة الموهوبين، وكان في عدادهم (زيت سين) ممن اشتهروا فيما بعد وذلك في مجال علوم الجغرافيا، والقيام بالرحلات العلمية الناجحة إلى بلدان الشرق، وليس عبثا انجذاب أمثال هؤلاء الشبان إلى المجالات والبحوث العلمية منذ لحظة انتسابهم للجامعة، وفي هذا ا الإطار كان قد قام (زي تسن) وهو لما يزل طالبا بعدة رحلات إلى مناطق ألمانيا الجبلية لجمع عينات النباتات والمعادن، و نشر العديد من المقالات في المجلات العلمية حول علوم الطبيعة وقضايا الإحصاء، والجيولوجيا، كما أسهم بفعالية في إنشاء الجمعية الفيزيائية، غير أن شيئا مهما قد طرأ على تفكيره وذلك إثر الانتهاء من مناقشة اطروحته العلمية عام 1789م، فقد شعر بانه كلما كانت معارفه تزداد أكثر فأكثر في علوم الطب والطبيعة، كلما كانت الرغبة تقل لديه في أن يصبح طبيبا او عالم طبيعيات، حيث بداله في أن المكوث في مكان ما، ومعالجة المرضى، أو إجراء الاختبارات على النبات عمل اعتيادي للغاية في عصر كانت لا تزال في العالم أراضي مجهولة كثيرة، وعليه فقد صمم على مفاتحة والده بالأمر، وأنتهز أول فرصة ليقول له بعد أن سأله الأب: متى ستقدم على معالجة الناس في نهاية المطاف، يا أولريخ؟ كان بمقدورك التخفيف من أحوال مواطنيك في المدينة"

– لا ادري ما الذي يحدث لي، أن كل شيء في نفسي يعارض ممارسة التطبيب، وأشعر بانني قادر على أن انجز لصالح وطني شيئا يكون ذا شأن كبير، وأضاف: لست مد عواً للمكوث بلا تنقل، إن الأعمال الاعتيادية ليست ما يثير نفسي ثمة ولع واحد فقط يقرضني: هو القيام برحلات.

- وهل هي إلى بعيد؟
- إلى سكسونيا، بافاريا، النمسا، ولم يجرؤ على القول تواً لوالده: إلى (إفريقيا) فربما اعتبره مجنونا.

أجواء المناخ الثقافي بألمانيا عشية الأعداد للرحلة

بحلول نهاية القرن الثامن عشر أخذت تتوالى الأخبار في كل من ألمانيا وأوربا عن الرحلات والاكتشافات الجغرافية الجديدة، وكانت مآثر الرحالة تمجد وتبجل، واعتبر الرحالة بالتالي علماء أفذاذا.

كما أخذ يتطور علم جديد هو الجغرافيا المقارنة، وبفضله أصبحت البلدان الشرقية وحتى إفريقيا أقرب إلى الأذهان بشكل محسوس، وقد حظي- في هذا الإطار- كتاب (منابع النيل)

لصاحبه (جيم برموس) الرحالة الانجليزي بشهرة كبيرة توازي أهمية و شهرة كتاب (وصف جزيرة العرب) لنيبور، الصادر في نفس العام والذي كان يحتل مكاناً خاصاً داخل أمتعة القائد الفرنسي نابليون بونابرت أثناء حملته على مصر عام 1799م.

ومع هذا فقد كان (زيت سين) متأكدا من ان هناك مناطق كثيرة لا تزال مجهولة، ولسوف يتأتى له عما قريب اكتشاف شبه الجزيرة العربية مجددا وذلك بشكل أدق وأسلم، حيث كان يرى بأن الرحالة نيبور، الذي سبقه إليها كان يتمتع باستعداد غير كاف في جوهر الأمر. ولتجاوز ذلك فقد وطن نفسه على وجوب امتلاك كل وسائل العلم والمعرفة بالأخص في مجال علم الفلك، وحيازة أدواته ووسائله..التي تفقد كل رحلة مغزاها في حال عدم توفر مثل هذه الأدوات والوسائل، ولكن أنى له الحصول على ذلك وهو الإنسان غير القادر والفقير في نفس الوقت، فوق أن الإحداثيات والوسائل هذه نادرة يومها في أوربا وغالية الثمن أيضاً ولم يكن قد مضى سوى أشهر على اختراع (الكرونومتر) أداة قياس الزمن، والذي يتيح لأي رحالة إمكانية تحديد مقدار خط الطول الجغرافي، وهو في أمس الحاجة للحصول على هذه الآلة لإنجاح عملية الرحلة هذه، تماماً كحاجته الملحة أيضا إلى (السداسية) أحد اهم آلات الرصد الفلكية، والبوصلة كذلك والأنبوب البصري، وساعة الجيب ذات العقرب الدال على الثواني، وأشياء أخرى. ولم يكن أمامه سوى اللجوء إلى أستاذه العظيم (بلومنباخ) كي يشفع له عند العالم الألماني الكبير ذائع الصيت (فون تساخ) مخترع ذلك الجهاز، ومؤسس مرصد ألمانيا الشهير على جبل (زيبرغ) وصاحب أشهر مجلة علمية معنية بدراسة الأرض والسماء، علماً بأنه كان في مقدوره الحصول على الأجهزة المطلوبة وعلى غيرها من المساعدات الأخرى بما في ذلك تمويل عملية الرحلة الطويلة المزمعة لو أنه يوافق فقط على الانضمام إلى إحدى الجمعيات الراعية لمثل هذه الأعمال الطموحة، غير انه أبى إلا أن يحتفظ لنفسه- وحده- بالمجد والشهرة، ومهما كانت الصعاب والمشاق التي تنتظره وهي ليست بالقليل الذي يستهان به دون عون، اللهم إلا من أسرته التي سوف تبعث له تباعا بعض الأموال بعد بيع ممتلكاته الشخصية وحاجياته الخاصة التي لم يأبه لبقائها من عدمه. وكأنه كان يقرأ صفحات الغيب بعدم العودة سليماً معافى من الرحلة هذه التي يكتنفها الغموض والمصير المجهول. لكن لا بأس المهم أن تتحقق مطالب الرحلة والتعجيل بالبدء فيها على وجه السرعة وهو ما يجب التفكير فيه والانشغال به الآن، وإذا صار كل شيء في هذا الخصوص على ما يرام- قال لنفسه- فليس هناك ما يمنع من انجاز وتحقيق أهداف الرحلة إلى اليمن وبلاد العرب، بالأخص بعد أن كان قد وطد العزم على هذه الرحلة وربط مستقبله العلمي والعملي بتنفيذها، وعن طريقها فقط يمكن أن يتصالح مع نفسه ويحقق ذاته وشهرته بالتالي كإنسان متحضر، وعالم فذ متميز بمقدوره القيام بفعل ما لم يعمله أي عالم رحالة قبله ولا بعده، كما لم يجادل نفسه في أن روحه قد تزهق،وتمزق السيوف جسده ربما قبل أن يتمكن من انجاز هذه المأثرة العلمية التي لا تزال في علم الغيب، غير أنه قد أدرك- بحس العالم المرهف الجسور بأنه لو يحدث مثل ذلك- وهو ما لم يأبه به على الإطلاق – فلن يكون إلا بعد أنجاز مهمته العلمية الرفيعة هذه واكتشاف كنوز معارف اليمن والشرق، وجعلها ترى النور ولو على جثته كما يقال، وهو ما حدث بالفعل، كما سنرى.

في الطريق إلى الشرق :

قبل أن يشد الرحال في يوم 13 يونيو عام 1802م، وينهض مسافراً إلى شبه الجزيرة العربية والأراضي اليمنية كان قد تمكن من إقناع (فون تساخ) بالموافقة على مخطط الرحلة إلى اليمن والتي كانت قد أثارت جدلاً واسعاً داخل الأوساط العلمية والأكاديمية، بالأخص فيما يتعلق بإمكانية نجاح

رحلته العلمية منفرداً دون صحبة رفيق واحد ينهض معه للقيام بهذه المهمة الصعبة، على عكس رحلة (نيبور) الذي اصطحب معه فريقاً علمياً متكاملاً، بما في ذلك طبيباً متخصصاً في أمراض الصحارى والمناطق الاستوائية، ومع ذلك لم تتكلل أعمال هذه البعثة المكونة من سبعة أشخاص بالنجاح الكامل، فوق أنهم قد لقوا جميعا حتفهم واحدا بعد آخر عدا رئيسهم (نيبور).

غير أن أي شخص لم يكن بمقدوره فرض إرادته على (زيت سين) الذي كان معتدا بنفسه، وواثقا من قدراته الشخصية، ومخزون ثقافته وتعلمه، واستفادته من التعمق الواسع في دراسة وتمحيص تجارب من سبقه إلى اليمن وبلدان الشرق، وحيث كان يحلم في أن يصبح نجما ساطعاً- بلا منازع- على سماء أوربا مطلع القرن التاسع عشر، وقد تعززت هذه الثقة لديه فور سماع الموافقة على مشروع خطة الرحلة الذي سبق أن قدمه لـ(فون تساخ) وذكر له فيه كيف أنه قد اتخذ جميع الاحتياطات الخاصة، ووضع لنفسه برنامجا صارما وملزما لكيفية ـ وجوب التعاطي مع أجواء البيئات المحلية المختلفة، والتعامل الحسن و الأفضل مع السكان ومراعاة العادات والتقاليد السائدة والمشاعر الدينية، والامتناع عن شرب الكحول، وأكل اللحوم، اللذين أوديا بحياة أفراد بعثة (نيبور)، ولقد غمرته السعادة والشعور بالفخر والاعتزاز بالذات وذلك عندما أبلغ في احتفال مهيب، بأن الملك (ارنست الثاني) قد اتخذ قرار إعطائه منحة مالية لتغطية بعض نفقات الإقامة في أراضي الشرق، وقدر قيمة هذه المنحة كما تقول بعض المصادر هو مبلغ- 800 ألف (رايخ سطالير) سنويا، وهي عملة المملكة الروسية يومها، والتي كانت تتماثل في القيمة مع العملة الأسبانية (ماريتريزا) وذلك علاوة على دفع ثمن أدوات وأجهزة أعمال البحث الدورية للرحلة، وكان تصنيفها على النحو التالي: سداسية وكرون ومترا، موضوعان في علبة ذهبية تحسبا لتأثير تقلبات درجة الحرارة، ثلاثة مسطحات أفقية صناعية، وميزانين مائيين، وأنبوبا للرصد مع ركيزة ثلاثية القوائم، وأخيراً وليس آخراً بوصلة بحرية، الخ.

وعندما حان موعد توديع أسرته يوم الثالث عشر من يونيو عام 1802، قال لشقيقه الأكبر وهو راعي كنيسة كان يحاول منعه من الرحيل، اسمع يا أخي: لقد فكرت في هذه الرحلة سنوات كثيرة، ولن أتخلى عنها حتى مقابل أي مبلغ من النقود، وتقلد المناصب العليا،- بالمناسبة كانت حاكمة (بيفير) الأميرة أوغسطا- صوفيا، قد اقترحت عليه تولي منصبا حكوميا رفيعا براتب جيد وذي آفاق للترقي في سلم الدرجات العلمية- ، وواصل كلامه لأخيه: إن قراري قرار ثابت، ومفاهيم السعادة تكون مختلفة بلا نهاية عند البشر الاعتياديين. إن سعادتك تكمن في خدمة الله، وسعادة أخينا الأصغر في التجارة وسعادتي أنا في الرحلات.

تركيا- سوريا- و مصر، وفلسطين، ومكة: محطات ذات مغزى في مخطط الرحلة قبل الوصول إلى اليمن هدفها الأساسي

كانت تركيا بعد أن وصل إليها عن بعد عن طريق مناطق آسيا الوسطى المحطة الأولى في مشروع الرحلة التي سوف تستهلك عشر سنوات من عمره قضى جلها ما بين مصر وسوريا وفلسطين بهدف تعلم اللغة العربية، والآرامية، والسريانية، ومحاولة العثور- في نفس الوقت- على بعض المخطوطات، والتحف الفنية وقطع الآثار التاريخية الهامة، فضلا عن نماذج من أنواع النباتات والحشرات والحيوانات وإرسالها جميعا إلى متحف (غوتا) الذي تعهد له بمحاولة جمع ذلك أثناء مكوثه في هذه البلدان وإرسالها على الفور إلى ألمانيا كلما سنحت له الفرصة ليس ذلك فحسب بل القيام بجمع المعلومات المختلفة عن أوضاع الحياة العامة لهذه البلدان، ودراسة

أحوال السكان فيها على الصعيدين الثقافي والاجتماعي- كذا على الصعيد السياسي والاقتصادي، والتنوع (الأثنوجرافي) وحيث إن محاولة تناول هذه الأمور بالدرس والتعليق ليس من مهمة هذا البحث إلا أنه يجدر التعرف مع ذلك على خلاصة وجهة نظر رحالتنا حول بعض هذه الأمور بالأخص ما يتعلق بتسجيل بعض انطباعاته وملاحظاته الفورية الهامة على دفتر مذكراته بخصوص بعض المسائل الحيوية التي لا يجب تفويتها، لما لذلك من علاقة حميمة بموضوع الرحلة إلى اليمن.

وعليه يجب الإشارة في الأول إلى بعض ما انجزه في تركيا التي عاش فيها زهاء ستة شهور، أصبح خلالها تركيا كما قال عن نفسه ذات يوم، إذ أنه تمكن من التغلغل فيها بعمق كما في معرفة طابع عادات أهل العاصمة العثمانية، التي أرسل منها مجموعاته الأولى داخل عشرة صناديق كبيرة مليئة بالعديد من المخطوطات العربية والتركية والفارسية، والإغريقية والآرامية، وبأندر الآلات الموسيقية، إضافة إلى التحف التركية الثمينة، ومن مدينة (أزمير) التي كان ينطلق منها إلى القسم الساحلي الغربي لآسيا الوسطى، استنسخ منها عددا من النقوش الإغريقية، وألف خارطة دقيقة للمنطقة وأخرى لمدينة (أزمير) وضواحيها، وقبل أن يغادر تركيا إلى الشام عن طريق آسيا الصغرى منحه القنصل الروسي بتركيا بعض المال للاستعانة على مواصلة الرحلة عوضا عن التأخر بتركيا في انتظار وصول التحويل من ألمانيا والذي كان يتأخر على الدوام لعدة أشهر- كما سنلاحظ- ، الأمر الذي كان يشكل مأزقا حرجاً بالنسبة له وذلك داخل الأراضي والمناطق التي سينعدم فيها الأمل للحصول على مديد المساعدة والعون أيّاً كان مصدرهما، وهنا كانت تتجلى مهارته وجلده وصبره الذي لا ينفد، فبعد أن انقطعت به السبل وهو في حلب- وظن بأن اسمه قد انتسى بألمانيا، فقد واصل بدأب وعناد جمع عينات المعادن والنبات واقتناء المخطوطات والكتب القيمة لقاء دفع آخر ما بحوزته من مال، فضلاً عن حفظ الأسماك والأفاعي في الكحول، وتحنيط الحيوانات التي اصطادها، ويقوم في نفس الوقت بأعمال الكتابة دون كلل عن مختلف أنوع الكتب والمؤلفات الصادرة يومها في بلاد الشرق، وعن الآلات الفلكية الموجودة فيها، كما عن المذهب الوهابي الذي ظهر على التو هناك.

ولعل أهم ما سجله في مذكراته من ملاحظات حول بلاد الشام بعد أن طاف هذه البلاد طولا وعرضا، واستنسخ منها معظم النقوش اليونانية والرومانية والآرامية، وجمع عينات الأعشاب والنبات والمعادن، والتحف الأثرية، والمخطوطات العربية، والفارسية، والهلينيستية اليونانية المتأخرة، فقد وجد في مذكراته عن الوضع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في سوريا عشية وصوله إليها في 9 إبريل عام 1805، الملاحظة التالية: كان الباشاوات الأتراك والإقطاعيون المحليون يسرقون السكان بكل الوسائل الممكنة، وكان نير الضرائب وغارات البدو ترغم سكان الأرياف على النزوح إلى المدن وترك الأراضي الخصبة للهلاك.

ولا يقل أهمية عن ذلك- على الصعيد المعرفي والتوثيق التاريخي- ما ترك للبشرية وخلفه أيضاً من معلومات تاريخية هامة وملاحظات علمية: ستاتيكية وطبوغرافية دقيقة وذلك عن مدينة القدس التي كان قد وصل إليها من دمشق صحبة إحدى قوافل الحجيج كذا عن السكان البدو القاطنين على ضفة نهر الأردن كما عن حوض البحر الميت الذي كان حتى مطلع القرن التاسع عشر أحد أكثر الأماكن غموضاً وسراً على وجه الأرض وقد أثارت عملية طوافه حول هذا البحر العجيب الذي يعتبر أعمق منخفض على أديم الأرض يصل معدله إلى 400 متر تحت سطح البحر، ووصفه الدقيق له، ونال ذلك إعجاب العلماء في أوربا بشكل كبير.

وضمن مدينة القدس وجد في جيب مذكرته، الملاحظة التالية: عدد المسلمين بالمدينة 4000 شخص، واليهود 3000 شخص، والأرثوذكس 1400 شخص، والكاثوليك 800 شخص، والأرمن، الفريفوريين 50 شخصا، والأقباط 50 شخصا، والأحباش 13 شخصا، والسريانيين 12 شخصاً.

كما يعتبر في هذا الإطار، وصفه العلمي، والفلسفي، لأنقاض المدن التاريخية العشر الواقعة جنوب دمشق، وهي: درعا، والبطين، المكونتان من مئات الكهوف المحفورة داخل الصخور الجبلية، وكاب بتوليا- التي احتفظت ببقايا عظمة عهود الماضي ممثلة في الأعمدة والنواويس كذا أبيل، وأطلال أم الجمال، والسويدا، وغيرها، قوله معلقا على مصير الحضارة، وفناء الوجود البشري: إن الحضارة الإنسانية تتطور بشكل حلزوني غريب، ومفاجئ، فهي تخلق ثم تتهدم وتنسى، ثم يعاد خلقها من أحشاء الماضي كي تخدم المستقبل، أو بالأصح كي يقضى عليها من جديد مرة واحدة، كما سجل تحت تلك الملاحظة بالقلم الأحمر العريض وذلك مقطعا من حوار ملفت للنظر استمع إليه ذات مساء داخل خيمة بعض البدو الرحل الذين نزل ضيفاً مرحبا عليهم، دون أن يعلق على هذا الحوار في مذكرته كالعادة، وكأنه يبحث متلهم- لكن في صمت- عن الإجابة على السؤال الفلسفي المعلق حول مستقبل البشرية الأبدي، وقد ورد هذا المقطع على النحو التالي: قال صاحب الخيمة احمد الذي كان قد عاد على التو من رحلة لمناطق الحضر بأنه قد سمع الشيء الكثير من أصحابه القاطنين هناك وذلك عن الخيرات والنعم التي وعد بها الإنسان المسلم في الآخرة، وبأنه لن يكون هناك لا زوجات ولا أزواج، والنساء الحوريات خذ منهن قدر ما تريد.

وما الحاجة إلى ذلك؟ سأله أحد البدو الكهل أجاب على الرجل الكهل بدعابة- طبعاً ليس فقط النساء وهو مالا تريده كونك قد شخت وعجزت بل إن اللحم والتبغ أيضا متوفران بالقدر الكافي.

- هذا أمر يلائمنا تماما، سمع صوت احد الحاضرين، اللحم لن يجري إلى المرء بحد ذاته، بل تبغي تربية وتنمية الخروف، علق الرجل الكهل- لا لزوم لذلك هناك قال احمد وهو يحاول إقناعهم إن الخرفان تنمو هناك لنفسها، وحتى أنها تشوى بحد ذاتها.

- إننا لا نعرف عما سيحدث بعد وفاتنا أكثر مما تعرف عنه ماشيتنا- أضاف الرجل الكهل متفلسفا. أما عن انطباعاته وأعماله في مصر التي وصل إليها يوم 1 مايو 1807 ومكث بها أكثر من عام ونصف وذلك استعداداً- كما أسلفنا- للرحلة المخطط لها مسبقاً إلى مكة واليمن.

فقد قام بادي ذي بدء بزيارة محافظة الفيوم بمظهر تاجر مصري وجلب منها مجموعة كثيرة من المخطوطات القيمة، وكان أول الأوربيين من اكتشف هناك بالفيوم أنقاض مدينة (أرينون) واستنسخ العديد من النقوش (الهيروغليفية) وعثر على مجموعة من الجماجم البشرية المحنطة التي أفادت العلماء الألمان ومكنتهم من تحديد أساس النوع (الأنثروبولوجي) الذي كان ينتمي إليه سكان مصر القديمة، إلى غير ذلك من الاكتشافات والدراسات الأخرى التي غدت رافد علم الاستشراق، لا يتسع موضوع البحث لعرضها.

حيث ينتظرنا الحديث عن الموضوع الرئيسي وهو اليمن الذي وصل إليه عن طريق البحر الأحمر وذلك إثر الانتهاء من زيارة الكعبة المشرفة والمدينة المنورة متخفياً هناك في زي رجل مسلم كي يتسنى له دخول الأراضي المقدسة ووضع خارطة طبوغرافية عن المسجد الحرام والكعبة الشريفة هي الأولى من نوعها بالنسبة لأوروبا التي كانت تتلهف شوقا لرؤية مبنى الكعبة وصورة الحجر الأسود والمصلى الإبراهيمي، وسقاية ماء زمزم، وغيرها من معالم الحرم المكي الشهيرة المعروفة هناك بالاسم وليس بالنظر، وهو ما

تحقق أخيراً على يد هذا الرحالة، العالم المغامر، الذي لم يكن ذلك من السهل امامه - كما قد يتصور البعض- فقد راهن من أجل تحقيق ذلك ليس فقط على مستقبل الرحلة الأساسي إلى اليمن، بل راهن بحياته ودفعها ثمناً لذلك.

- وفقا لما استنتجه في الأخير بعض العلماء الألمان وذلك إثر مصرعه بعد ثلاث سنوات باليمن كما سنرى.

على خطى الرحالة السابق (نيبور) وتجاوز قدراته وآفاق معطياته. كان قد وصل إلى اليمن، مسافراً إليه، وذلك عن طريق البحر الأحمر على باخرة شراعية كانت تحمل بعض الحجاج اليمنيين العائدين إلى أرض الوطن، بعد أن كان قد مكث بأراضي نجد والحجاز عدة أشهر تنقل خلالها بين عدد من المدن والقرى، ووضع مخططات وخرائط لها بما في ذلك مخطط المسجد النبوي بالمدينة المشرفة، وآخر للمدينة نفسها، بعد أن أنتحل لنفسه اسما جديدا هو عبد الله، مخالفاً لتوصية العالم الرحالة الأسبق (نيبور). صاحب التجربة بالأرض والسكان قبله. ومحذراً إياه قبل السفر من مغبة الإقدام على مثل هذه الخطوة، وانتحال شخصية مزيفة، حيث كان بمقدوره الظهور بين السكان المحليين، كما هو عليه مسيحياً أجنبيا، خير له من أن يبدو مسلماً مزيفا، فما أشد وطأة على الإنسان العربي من أن يخدع، هكذا سبق أن قيل له ذلك وهو لما يزل ببلاده ألمانيا.

رغم ذلك فقد ظل مستمرئا لمواصلة عملية الخدعة هذه حتى وهو باليمن حيث لم يكن هناك ضرورة لذلك وكأن المسالة لديه مجرد لعبة يتسلى بها ويعرضها عند الحاجة متى اضطر إلى ذلك، فقد قال في رسالة بهذا الصدد- بعثها من اليمن- إلى ألمانيا بتاريخ 17 نوفمبر عام 1810 (إذا بقيت بصحة وعافية وبعد إنهاء رحلتي في ربوع شبه الجزيرة العربية سوف استعجل نفسي بغيرة اكبر إلى افريقيا، علما بأنني أعتبر بأن قناع المسلم سيقدم لي نفس الخدمة المفيدة التي أداها لي في شبه الجزيرة العربية) وكانت هذه غلطته الوحيدة خلال ترحل عشرة أعوام لكنها كانت الغلطة القاتلة، لن نستبق الأحداث، ولنر قبل ذلك ما أنجزه لصالح اليمن والبشرية فقد يخفف علينا ذلك بعض الشيء من هول الفاجعة، وافتقاد اليمن والعالم اجمع لعالم كبير وإنسان مثقف عظيم، وهب شبابه وزهرة عمره، منقباً في السهول والجبال والوديان والكهوف والمقابر والأدغال، بحثاً عن كنوز، ومعارف وثقافات شعوب الشرق وجعلها ترى النور وبالتالي تسهم مجددا بدورها إلى جانب ثقافات ومعارف الشعوب الأخرى في بناء الحضارة العالمية المعاصرة.

حضرموت أولاً:

كان رحالتنا الألماني (زيت سن)- يرغب في التوجه إلى اليمن وذلك عن طريق حضرموت حيث كان قد سارع يوم 23 مارس عام 1810 بحزم حقائبه للبدء فوراً بالتوجه نحوها صحبة رفيق محلي اسمه عبد الله استأجره لهذا الغرض غير أن عبد الله هذا قد غير رأيه بخصوص هذه الرفقة، المتفق عليها وذلك بشكل مفاجئ، وقال له بشكل حازم بعد أن سأله الرحالة عن سبب هذا التغير المفاجئ أنه غير مرتاح لمرافقته في الرحلة وذلك بعد أن علم أن هناك قافلة كبيرة للوهابيين يحرسها مائة فارس متوجهة إلى حضرموت، ويكره مطلقاً مرافقتها، وقد ساءه الأمر بصورة أشد عندما علم بأن الرحالة يرغب بمرافقة الوهابيين وبالفعل نفذ عبد الله تهديده وتخلى عن مرافقة الرحالة الذي صدم بدوره من هذا الإصرار العنيد واعتبره علامة غير عادية على مدى كره الناس البسطاء للمذهب الوهابي الجديد وحيث جاء هذا الرفض من عبد الله- بالتالي مخيباً لآماله في مواصلة الرحلة بدونه إلى حضرموت والتي كان يعلق عليها آمالاً كبيرة كونها الموطن الرئيسي الأول لحضارة شبه الجزيرة العربية التي لم يطأها قبله قدم

أي رحالة أوروبي إضافة إلى أنه كان يرغب في التعرف مباشرة على مبادئ وأهداف المذهب الوهابي الجديد هذا، والذي يحاول نشره في أصقاع الجزيرة بعد السيضه، رغما عن أنه قد سمع بأن هذا المذهب الجديد قد لقي الترحيب من بعض أهل السنة باليمن ويتم تداول قصيدة شعرية بين الوهابيين لمحمد بن إسماعيل الأمير احسنوا استغلالها لنشر مذهبهم داخل اليمن، بما في ذلك حضرموت التي تتوجه قافلتهم المدججة بالفرسان والسلاح إليها بهدف التخويف والإرهاب والقتل إذا ما لزم الأمر، وهو ما حصل بالفعل للسكان المسلمين في حضرموت فور وصول الوهابيين إليها مما حدا بالشاعر اليمني إلى تغيير موقفه الأول المؤيد لهم، معبراً عن هذا التحول السريع في قصيدة أخرى مناقضة للأولى مطلعها:

لقد رجعت عن القول- الذي قيل في النجدي*.

وقد لمس الرحالة بنفسه هذا التحول أثناء وجوده بصنعاء التي كانت تسري فيها شائعات عند وصوله إليها بأن الوهابيين ينزلون بالأرض الخراب والدمار، ويستبيحون الدماء والأعراض، لكل مخالف لهم في المذهب فضلا عن هدم المقابر، ونسف أضرحة العلماء، والثقاة، ونهب ممتلكات دور العبادة، ومدارس الفقه والشرع العائدة لأصحاب المذهب الشيعي هناك، ولبعض منتسبي السنة المعارضين لهم، والمستنكرين لتلك الأفعال الشنيعة، المنافية من وجهة نظرهم - للدين وبالنسبة لرجالتنا فقد منى النفس- بأنه سوف يعرج عليها لاحقا خلال مكوثه في شمال اليمن وعليه فقد اختار السفر وذلك عن طريق البحر، حيث وصل يوم 8 أبريل إلى مدينة الحديدة الساحلية وانطلق منها صباح اليوم التالي على ظهر جمل نحو مناطق الجبال المتاخمة لسهل تهامة في الشرق وذلك صحبة دليل من السكان المحليين اسمه الشيخ حمزة، ومقتفياً في طريقه الجبلية تلك آثار خطى الرحالة (نيبور) الآنف الذكر الذي كان قد سبقه إلى اليمن قبل نصف قرن ومسترشدا بخارطته الجغرافية التي كان قد وضعها حينذاك ونشرها في ألمانيا على صفحات كتابه الشهير (وصف جزيرة العرب) وحيث كان ينحرف أحياناً عن خط سير رحلة (نيبور) تلك التي بدأت من مدينة الحديدة فبيت الفقيه، وزبيد، فكسمة على الجبال، فذمار، ويريم، وتعز، ومن ثم العودة منها والاتجاه نحو العاصمة (صنعاء) وكان يدقق في مسار تلك المسالك بنفسه ويضيف ويصحح ما لم يرد في خارطة نيبور وتدارك أخطاء بعض التسميات للقرى والبلدات فيها، مستفيداً من خبرة مرافقه الشيخ حمزة الذي يسافر طيلة العام على هذه الطرق جيئة وذهابا صحبة جمله المؤجر لنقل المسافرين المحليين الموسرين وحمل أمتعتهم، بما في ذلك بضائع وسلع التجار المتنقلين لبيعها في القرى والبلدات أو القادمين بها من ميناء عدن في جنوب اليمن، ولم يكن لينجح في الاستفادة من خبرة وتجربة الشيخ حمزة- الذي وصفه بالرجل الصالح التقي، والذي كان يهدر معظم وقته في أداء الصلاة- بمناسبة وغير مناسبة- على حد تعبير الرحالة، وذلك عوضاً عن أن ينفق مثل هذا العمل الصالح في شيء خير مماثل فيه فائدة له معرفيا وعقليا بما يخدم نفسه وأهله ومجتمعه و يجعل لحياته- بالتالي- قيمة ومغزى.

هكذا فكر الرحالة زيت سين في أول الأمر ثم فاتحه عند أول فرصة مناسبة: - لماذا لا تدون خبراتك وتأملاتك في مذكرة يستفع بها غيرك، علماً بأن كل المتعلمين يفعلون ذلك؟

كان هذا الاقتراح مغرياً للشيخ حمزة الذي طفق على إثره يدون ملاحظاته ومعلوماته بحمية وحماسة حول كل ما كان يصادفه في الطريق، وقد وجد

---

* مطلع القصيدة:

رجعت عن القول الذي قلت في النجدي

(الإكليل)

فيها الرحالة الشيء الكثير والجديد عندما راجعها وقارنها بعمله، ثم اغترف منها ما فاته، وراح يمتدح الشيخ حمزة على قدراته التأملية، غير انه قد افتقد رفقة هذا الإنسان ذي العقلية الصافية وذلك بعد وصولهما إلى مدينة تعز وتوجه كل واحد منهما نحو طريق آخر شبه متعارض، الشيخ حمزة إلى عدن، في حين قفل الرحالة راجعاً إلى مدينة يريم والبدء بزيارة المواقع الأثرية هناك وفي مقدمتها منطقة ظفار عاصمة دولة حمير الأولى التي سوف يغترف منها ما شاء له من المعلومات الوصفية للموقع واستنساخ العديد من النقوش لم يكن يدور بخلده بأن ما سوف يحمل منها من كنوز أثرية سوف يكون تاجا على مفرقه، وسبباً كافياً لشهرته وخلوده، بصرف النظر عما سوف ينجزه في ميادين العلوم الأخرى أو لم ينجزه، ولن يدهشنا في هذا الخصوص معرفة ماذا حل ببعض أعماله الأخرى التي لم تفحص وتدرس من قبل العلماء في أوربا والعالم إلا بعد نصف قرن من وصولها إلى هناك كما سنرى، وذلك على عكس ما حدث لعلم السبئيات، حيث استقبلت أولى مواده واكتشافاته الأثرية الخاصة بلغة المسند باحتفاء كبير وهو لما يزل باليمن، وعكف علماء الاستشراق في عواصم البلدان الأوربية وروسيا، وأمريكا، على الفور في فحصها ودراستها، والتحفز بالتالي للسفر إلى اليمن وجمع ما يمكن حمله، واستنساخه من مواد أخرى مكملة، لم يمض وقت قصير على ذلك حتى استكمل وضع حجر الأساس لبناء قواعد أصول هذا العلم، مما فتح الأبواب بحلول نهاية القرن التاسع عشر وجعلها مشرعة أمام العالم لأول مرة في التاريخ القديم منه والحديث، غير أن الثمن كان باهضاً جداً وكان الامتحان الأول الصعب في هذا الإطار هو الإصابة بالحمى في مدينة تعز الموبوءة يومها بفيروس الملاريا ولقد تذكر عند وصوله محمولاً إلى مدينة يريم موت العالم الرحالة العظيم (فورسكال) السويدي الأصل عضو بعثة (نيبور) واحد أعظم علماء أوربا في علم النبات الذي كان قد اصيب مثله بالحمى ونزل بنفس المكان الذي استقر به (زيت سين) اليوم، وحيث كان مثله قد حمل فيروس المرض نفسه قبل خمسين عاماً من تعز ولقي مصرعه بكل بساطة، وعبثية درامية، افتقد على إثرها العالم أعظم علماء الأرض، واشد البشرية حاجة إلى مثله، دون أن يشفع له كل ذلك بشيء، فكيف والحال هذه مع (زيت سين) نفسه؟

طرح على نفسه هذا السؤال بأسى ومرارة، وكاد الذعر إلى جانب الهذيان يقتلانه، غير انه في فترة صحوة العقل كان يراجع نفسه- الم يكن قد تغلب على نوبات الذعر هذه قبل ذلك؟

وبالكاد نجا من الهلاك بأعجوبة؛ إلا أن ما كان ينتظره بعد ذلك أكثر سوءاً من المرض القاتل هذا، إنه القهر النفسي الأشد وطأة على الناس العظام من فيروس أي مرض جسدي، ولماذا يحصل له ذلك في اليمن فقط ؟ ألم يكن قد مر بسلام وأمان نفسي وجسدي كذلك طيلة أيام وسنوات ترحله في الشام ومصر وفلسطين وتركيا ؟ ولم يصب بأي مرض أو يتعرض لأي سوء ؟

صحيح أنني قد عانيت- على الصعيد المعنوي بعض الشيء، بالذات من قبل الوهابيين الذين وضعوا جملة من العوائق والحواجز أمام رغبتي في زيارة ضريح الرسول محمد بالمدينة المنورة، كجزء من خططهم العمومية لمنع السكان من زيارة الأضرحة والمقابر عموماً إلا انني رغم ذلك قد أفشلت خطتهم تلك، وتعافيت نفسياً من ملاحقتهم.

هكذا حاول التصالح مع ذلك الذعر غير أن إحساسه المرهف بالأخطار التي كانت تنتظره بالفعل لم يفارقه من الآن وصاعداً، لربما كان قدره في اليمن شأن قدر أصحاب الأعمال العظيمة في التاريخ التي يكون ثمنها باهظاً، وأعلى ألف مرة مما هو معتاد في الأصل، تجاه أصحاب كل الأعمال

الإنسانية الشريفة البديهية وهو ما حصل له بالفعل.

صنعاء .. ولكن هذه ليست صنعاء بالنسبة لعاشقها العالم الرحالة الولهان:

إثر تعافيه مباشرة من الحمى ومغادرة مدينة يريم قام بجمع ما أمكن جمعه أثناء الطريق إلى صنعاء من الأعشاب، والنبات، واصطياد بعض الحشرات والثعابين وتحنيطها، وحفظها من ثم في الصناديق جنباً إلى جنب مع العديد من المخطوطات، وبعض التحف الأثرية ومستنسخات نقوش مدينة ظفار التاريخية، وتلك التي عثر عليها صدفة في جدار مبنى جامع قرية منكث المجاورة، فقد أخذ على غرة، من قبل جماهير العاصمة صنعاء، التي وصلها في 2 يونيو عام 1810، متهما بتسميم ينابيع المياه بواسطة نقع جثث الحيوانات التي يقوم باصطيادها، ولم يقبلوا منه أي تفسير آخر، شأنهم في ذلك شأن أولئك الفوغائيين الذين قاموا عام 1995 بإتلاف مواد نتائج أعمال البحث والدراسة الجيولوجية لمنطقة صنعاء القديمة وتدمير موقع عمليات الحفر الأثرية في بيت العميسة بحارة غزل الباش ونهب معداته، وذلك بتهمة محاولة السطو على كنوز الملك سليمان المدفونة هناك على حد اعتقادهم.

ولا تقل همجية عن ذلك ما حدث له مجدداً إثر الإفراج عنه في صنعاء من السجن والنجاة منها هارباً بجلده ألا وهي مأساة إتلاف مواد عيناته العلمية الأخرى وذلك بمدينة المخاء، التي وصلها بعد رحلة مضنية طويلة شملت لحج وعدن ومضيق باب المندب، وشواطئ القرى والبلدات الواقعة على الساحل الجنوبي الغربي للبحر الأحمر، أنجز خلالها العديد من المهام العلمية عن الأرض والسكان والمناخ والطيور والأعشاب والنباتات والحيوان ورسم الخرائط وتحديد مواقع وأسماء بعض الجزر في جنوب البحر الأحمر والقرن الأفريقي وذلك إلى جانب ما حصل عليه من المخطوطات في عدن ولحج، وبعض السيوف وقطع المسوغات والحلي المعدنية الفنية، وشيء من الألواح الرخامية القتبانية والحضرمية العائدة لممالك معين وسبأ الأقدم عهداً من حمير، وقد كانت هذه المواد من الكثرة والوفرة بحيث تطلب الأمر نقلها على الجمال، ولعلها أول قافلة له مكونة من عشرين جملاً كان يزمع شحنها من ميناء المخاء على إحدى بواخر الشحن الأوربية الموسمية التي كان لديه جدولاً لموعد وصولها وتاريخ إبحارها.

وذات مساء- نحس غير سعيد- عندما كان في انتظار وصول هذه الباخرة إلى عرض الميناء، سطا بعض اللصوص على مستودع الميناء ونهب بعض محتوياته من المواد العلمية تلك، غير أن ما أسف عليه، وغاضه أكثر، جراء هذه المأساة التي يمكن أن يغتفر لمرتكبيها الجهلة- كما يقول- هو موقف قاضي المدينة المتعجرف وتصرفه الأهوج تجاه شكواه من ممارسات أولئك الجهلة وتفتيشهم الغبي واللامسئول لأمتعته وإتلاف بعض مواد عمله العلمي والذي لا يدل على تميزه بشيء عن هؤلاء الأغبياء الجهلة رغم الإدعاء بالعلم ومعرفة شيء من القضاء، فقد بادره القاضي ساخراً بالقول: أحقاً يبحث الحاج موسى الحكيم عن أمتعته المحتوية على العناكب؟ ربما أشفق الله عليها وجعلها تهرب زاحفة، أم أنها لا تستطيع الزحف كونها ميتة؟ اسمعوا؟ فمن يحتاج إلى العناكب الميتة عموماً؟ أو الفراشات التي لا تطير وتحولت إلى محنطات؟ أو الأحجار التي توجد بكثرة في هذه الجبال؟ عندها شعر لأول مرة بالعجز والخور، وقرر على الفور مغادرة المدينة، بل ومغادرة اليمن ككل والسفر إلى البصرة عن طريق مسقط، ثم الإبحار من هناك إلى أفريقيا وبإمكانه في الطريق القيام بزيارة صنعاء وتقديم شكوى للإمام بما جرى له في المخاء تاركاً ما تبقى له من تلك المواد لدى التاجر الإيطالي- ميزونا- الذي وعده بإرسالها إلى أوروبا، غير أنه سوف يكتشف بعد قطع بعض المسافات الكثير مما يجب عليه إنجازه قبل مواصلة السفر، وكانت مجموعاته العلمية الأثرية وخرائطه ومدوناته ومخطوطاته وحيواناته وأعشابه تزداد حجماً كلما تقدمت خطاه داخل مناطق الجبال والسهول

والمدن والوديان معا اضطره إلى استئجار قافلة مكونة من سبعة عشر جملاً، وحيث لم يكن يعلم إلا الله ماذا سيحل بهذه القافلة وصاحبها بعد أيام ليست بالكثيرة ؟ لكن لماذا وكيف وأين ؟

جفن أوروبا ومراكز العلم يعتريهما القلق والذعر بينما تتقاذف رياح الشرق أعشاب ونباتات (زيت سين) وأوراق مدوناته ومخطوطاته وتعصف بهما في الآفاق

في المساء الأخير لمغادرة مدينة المخاء صعد (زيت سين) إلى سطح البناية المكشوف حيث، كانت النجوم تتلألأ على نحو ساطع، وتغمر الهواء شفافية جافة عذبة، ولم يتمالك نفسه من أن ينظر إلى الكون من حوله بعمق ونفاذ فكر بعد أن كان قد نسي روعة وعظمة هذا الكون وذلك في غمرة أعماله اليومية المضنية، ومجابهة قسوة ظروف البيئة المحيطة، والأوبئة الطبيعية، وسوء التغذية، وآلام ومتاعب تعامل البشر اللاإنساني معه، وافتقاد الشعور بالأمان وسطهم... هل يجب عليّ البقاء بعيداً عن هذا الفيض السماوي ؟

لقد أوحت النجوم للإنسان على الدوام بالطمأنينة والثقة بالنفس، إذ أنها ترى من الأعلى كل خطوة له على الأرض، "فأين أنت يا نجمتي؟" قال ذلك لنفسه وهو ينظر إلي الأفق المتألق، عندما مرقت فجأة كتلة نارية في كبد السماء ورسمت عليه خطاً مشعاً قبل أن تسقط وتتوارى عن العين.

هل سقطت النجمة؟

ما هو هذا الأبدي داخل الكون المترامي؟ لكان وسط غمرة المناجاة هذه كان يستشعر بقرب نهايته المرتبطة أصلاً في ذهنه بسقوط واختفاء تلك النجمة، حيث كان يرى من خلال تجاربه- كعالم في الفلك والنبات والحيوان والجماد بأن هناك ما يجمع بينها- يسمى فلسفيا عند العلماء العرب (بوحدة الوجود) فضلاً عن أنه كان يتصور بأن لكل إنسان علاوة على ذلك- نجمة- تعيش وتفنى معه وذلك رغم إدراكه الحسي كعالم، بأن المادة لا تفنى، بل تجدد نفسها إلى ما لانهاية، وفي أشكال مغايرة، ومع هذا

فقد لف الخوف والذعر في تلك اللحظة كل مشاعره كما لم يحدث له مثل ذلك من قبل على الإطلاق فقد ارتعش جسده وانحنى رأسه.

في أعقاب تلك الأمسية شبه الدرامية بعدة أيام، تساءل أستاذه (فون تساخ) العائد على التو إلى معهد (جوتا) من رحلة علمية إلى (ميلانو) ماذا يسمع عن رحالتنا العزيز: أولريخ ؟ بعد أن وصلت إرسالياته الأخيرة من المخاء؛ إذا كان قد تمكن من التغلغل في شبه الجزيرة العربية فسنضطر للانتظار بعض الوقت قبل وصوله إلي البصرة وفقاً لما هو مخطط، غير أن إجابة المسئولين بالمعهد على هذا التساؤل لم تكن مرضية له، بل ومريبة. غير مستساغ ما تقولون: اغتيل بعد مغادرة المخاء ؟

من اغتاله ؟ لأي سبب ؟ صاح فون تساخ- وهو في حالة ذعر- ربان سفينة شركة الهند الشرقية السيد (جيمس بكيناهم) هو من سمع بذلك عندما وصلت باخرته إلى المخاء وقد نشر له مقال صحفي بهذا الخصوص في بريطانيا، تلك كانت إجابة المعهد المفجعة، تنحى فون جانباً مطأطئ الرأس، وهو يدمدم: بلى إن بكيناهم ليس بحاراً ورحالة فحسب بل وكاتباً صحفياً، ومقال مثل هذا سوف يخدم بلا شك مجلته (أثينيوم) لأن العالم بأسره يتتبع رحلات أولريخنا. ولم ينقطع الجدل في أوروبا بعد ذلك حتى اليوم، ويردد الجميع القول بأنه قلما تجرأ احد من الأوربيين بعد (لودوفيكودارفارتيما) على زيارة مكة، وأما ضريح الرسول محمد- عليه السلام- فلم يعرفه ويزوره اي أوروبي غير (زيت سين) وكلما مرت الأشهر والسنوات أزداد هذا الجدل سخونة، ويعاد بالتالي مرات ومرات نشر مقالاته العلمية ومدوناته التذكارية عن اليمن والبلدان الأخرى التي رحل إليها في المجلات الألمانية والأوروبية الشهيرة مثل مجلة المراسلات الشهرية) ومجلة (كنوز الشرق) ومجلة عطارد الألمانية، وغيرها.

وفوق هذا وذاك لم يتوقف الحديث في أوربا والعالم المتحضر عن حجم وكمية المواد العلمية التي جمعها لصالح أوروبا والبشرية، ولقد كانت ضخمة

بشكل المقاييس، وإذا ما تطلب الأمر حصر ما هو معروف بالتحديد، لم يصعب على الإنسان الأوربي الذي كانت تساوره الحيرة والشك والقلق- يومها تجاه ما حل برحالته العظيم القول بأن، ما أستطيع التأكيد عليه في هذا الخصوص وذلك خارجا عما لم يعرف بعد، أو ينشر عنه في المراكز العلمية هو التالي أربعة صناديق جلبها من ازمير، وستة من حلب، وأربعة من عكا، وستة عشر صندوقا: من القاهرة، كان موجودا بداخلها 1574 مخطوطة قديمة، و3536 تحفة، وحلي، ولوازم منزلية، وعينات أعشاب، وحيوانات وموميات فرعونية وجماجم، وأفاع محنطة وغيرها.

أما بخصوص إرسالياته من اليمن ومكة وهو فهي مجموعة مخطاته ورسوماته عن مكة والمدينة وصنعاء وعدن، ومدن وبلدات أخرى في أنحاء الجزيرة العربية، علاوة على حمولة قافلة مكونة من عشرين جملاً مليئةً بالمخطوطات اليمنية القديمة إضافة إلي التحف والحلي والنقوش والهياكل البشرية ورسوم الحيوانات والزخارف الفنية، وجلها معروض الآن في متاحف ألمانيا وأوروبا.

ماذا عن دوافع عملية الاغتيال وعن مصير أعماله غير المعروفة ؟

بعد أن قضى عدة أعوام أي في فبراير عام 1815، أجرى (جيمس بكينهام) البحار الصحفي البريطاني، تحقيقا دقيقا في مدينة المخا وذلك بخصوص مقتل الرحالة الألماني (زيت سين) ومصير حمولة قافلته وكان من ضمن ذلك التحقيق حوارا مع شخص يدعى الدكتور (أكين) وآخر مع وكيل شركة الهند الشرقية السيد (فوريس) كونهما قد شاهدا (الرحالة زيت سين) وذلك قبل هلاكه بيومين حيث أفادا بأن دليله اليمني المرافق ومترجمه قد أخذا القسم الأكبر من مجموعاته العلمية، أما فيما يتعلق بالمخطوطات فقد وقعت في قبضة أحد العمال الهنود العاملين في شركة الهند الشرقية غير أنها قد سلبت منه وأرسلت إلى الإمام في صنعاء، وبخصوص قضية مقتله، وكيف تم ذلك وأين ؟ قال الصحفي البريطاني: لم أستطع كشف ملابسات مقتله، بيد أنه لم يبق أي أمل في العثور على أي شي مما ترك وراءه، ولا تحديد حتى موضع اغتياله، غير أني- فيما يخص النقطة الأخيرة هذه- قد سمعت من بعض السكان المقيمين على ضفة وادي رسيان، وذلك خلال زيارتي للمنطقة والإعداد لهذا لبحث، بأنه قد تنامى لمسامعهم من بعض الآباء نقلاً عن الأجداد شيئا ما بخصوص قتل ونهب سائح أجنبي داخل أحراش الوادي وذلك من قبل قطاع الطرق الذين كانوا يتخفون وراءها وينقضون في الليل على المسافرين.

لكن أين موقع عملية القتل والسطو بالتحديد؟ ذلك ما لم يشر إليه أحد، فقد تبدلت أحوال بأخرى، وجفت سيول ومنابع الوادي وزالت معظم أحراشه ومعالمه، حتى أنا شخصيا لم أعد أتبين معالمه الرئيسية التي كانت معروفة لي جيداً قبل خمسة وأربعين سنة حيث كان الوادي من أخصب الوديان اليمنية المشهورة بالزراعة وثراء المياه، ولقد تقطعت يومها بسيارتنا السبل وذلك لعدة أيام جراء تدفق السيول وكثافة الأحراش والحواجز على ضفتيه التي تمتد من منتهى السهل الأعلى لشرق مدينة المخاء وحتى منحدرات مناطق شرعب وتعز والحجرية المتجهة غربا والتي كانت تصب مياه أمطارها بغزارة على هذا الوادي وتخلفه في البحر على سواحل منطقة المخاء. كما لا تقل ملابسات ظروف دوافع عملية القتل غموضا عن ذلك، وجل ما تم تداوله في هذا الصد د هو مجرد تخمين ليس إلا، بالرغم من أن هذا التخمين كان أقرب إلى الحقيقة منه إلى التخيل والافتراض غير المعقول كونه لم يذهب بعيداً عن محاولة الإجابة المعقوله وذلك على السؤال الملح المطروح يومها داخل الأوساط العلمية في ألمانيا، وهو: هل كانت دوافع الاغتيال هذه سياسية؟ أم جنائية بهدف السطو على القافلة؟ أم أنها كانت بسبب دوافع إيديولوجية اعتقاديه؟ ومع أنه كان من الصعب الإمساك بطرف خيط أي واحد من هذه التساؤلات واعتباره الدافع الأساسي المباشر فإن ذلك لا يمنع

القول بأن كل واحد من تلك الدوافع الثلاثة آنفة الذكر كان لحاله كافيا ومرشحا لارتكاب ذلك الجرم الشنيع، فعلى الصعيد الأيديولوجي كانت هناك شكوك واسعة في صحة المعتقد الإسلامي الذي ادعاه، وتمكن عن طريقه بالتالي من الدخول إلي المسجد الحرام ورسم خارطة مبنى الكعبة الشريفة، وهي مسألة ذات جدل- يومها ليس داخل العالم الإسلامي بل والأوروبي، بما يعني انه كان يتوجب عليه إزاء هذه المسالة الحساسة أخذ الحيطة والحذر وهو مال لم يفعله، وقد قال أستاذه المشرف على سير عمل ومهام الرحلة، أن ذلك الأمر كان أعظم خطأ ارتكبه الرحالة في حياته قاطبة، وسبب مقتله بالتالي على حد تعبيره موضحا ذلك بالقول: إنه من غير المحتمل أن يكون هناك من كان قد وثق بصدق اعتناقه للإسلام، علاوة على ذلك فإنه قد أخذ يثير الريبة والاشتباه به في كل مكان إثر ذلك. نتذكر في هذا الخصوص أنه ما لبث أن استدعي على الفور من أمير الوهابيين بمكة، ما هو السبب ؟ بعدها لم تحد عيون مراقبيهم عنه للحظة" أما في المخاء فقد نبشت كل أغراضه " أفلم يكن ذلك فالاً شراً ؟

وبخصوص فكرة الدافع السياسي لارتكاب جريمة القتل فيعزى منشؤها إلى جنسيته الروسية وتعاونه مع القنصل الروسي في تركيا الذي كان يقدم له بعض العون المادي والمعنوي عندما كان منقطعاً هناك فقد راجت رواية بهذا الشأن زعم بموجبها أن ممثلي الدول الأوربية قد اعتبروا الرحالة جاسوساً روسيا، فأرسلوا إليه خلسة بعض القتلة المأجورين، أما فيما يتعلق بالاحتمال الثالث والأخير فإنه مرتبط بظاهرة انفلات الوضع الأمني يومها في اليمن؛ بسبب ضعف الدولة المركزية وعدم كفاءتها في بسط النفوذ على كل شبر فيه، وقد ذهب إلى هذا الرأي ورجحه عالم ألماني آخر هو (برنهاردت) بقوله: من الطبيعي أن القافلة المكونة من سبعة عشر جملاً، قد بدت لقطاع الطرق مغرية جداً لكن أياً هو الدافع الفعلي لعملية القتل؟ لقد سكت الكلام وتوقفت الإجابة ولم يبق أمام أعين أساتذته وزملائه غير تمثل صورة العالم الرحالة الإتمساني، قصير القامة الجموح، رجل المهام وصاحب السعي اللجوج لاكتشاف الجزيرة العربية، والتعمق بعدها في قلب القارة الأفريقية.

من ذا الذي أوقف غيرته الجارفة ؟

من ذا الذي رآه قبل الوفاة ؟

بأي شيء فكر قبل اللحظة الأخيرة ؟

على أي شيء تأسف ؟

أي شيء تذكر ؟

والأهم بعد كل هذا وذاك- هل ستعلم الأجيال عن الأمر كله في يوم من الأيام ؟

تلك كانت تساؤلات أستاذه- فون تساخ- فعل ذلك ومر زمن طويل جداً، وجرت مياه تلو أخرى قبل أن تتم عملية جمع كل أعماله ومدوناته، ومن ثم جدولتها وفهرستها، ونشرها على الملأ، في عمل متكامل، إلى أن تولى القيام بهذه المهمة بعد أكثر من خمسين سنة العالم والباحث والمحقق الألماني الكبير، ذائع الشهرة والصيت، البروفيسور (فردريخ كبروزه) الذي اجتذب حوله، في سبيل إنجاح ذلك- عشرات الأخصائيين في العلوم الطبيعية والرياضيات وعلماء اللغة والفلك، والجيولوجيا والمصريات، والسبئيات، أسفر عملهم الدؤوب معه على مدى عقد من جمع كل رسائله، ومذكراته، ومقالاته، وحساباته الطبوغرافية، ونتائج تأملاته وملاحظاته الفلكية، وذلك إلي جانب تحقيق رسالة علمية له في الموسيقى الشرقية ومجموعة مقالات عن (أثنوجرافيا) القبائل العربية، وتراجم لبعض الأغاني العربية، وخرائط عن اليمن ومصر وسوريا وفلسطين وما وراء نهر الأردن والبحر الميت، وقد ظهر كل ذلك- بحلول أعوام 1854، 1856م في عدة مجلدات أطلق عليها اسم (المؤلفات الزستينية).

تصحيح أخطاء بعض اللغويين والدارسين حول لغة اليمن القديم

عبدالكريم حسين رعدان

لم يحظ أي تاريخ حضاري بمصادر عديدة موثوقة مثلما حظي به تاريخ اليمن القديم، وفي مقدمة تلك المصادر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، والنقوش القديمة، والمرويات المبثوثة في مئات المصادر التاريخية. ورغم ذلك نجد العديد من المؤرخين والكتاب قديماً وحديثاً قد وقعوا في أغلاط وأخطاء فادحة حول التاريخ اليمني وحضارته، بل وصل الأمر إلى تلفيقات مجافية للحقيقة والواقع، والسبب في ذلك يعود إلى جهل بالتاريخ نفسه، والاعتماد على روايات أسطورية، ضمّنها القدماء في مصادرهم، ودونوها في كتبهم دون تمحيص وتدقيق، فثبتت على أنها حقائق يُعتمد عليها، وهي ليست كذلك، وقد يعود السبب إلى وجود رغبة من نوع ما لدى جهات معينة في تحريف سياق التاريخ عن مجراه الصحيح؛ لغايات ومقاصد ثقافية وأيدلوجية.

ونحن هنا لا نقصد تلك الأخطاء الشكلية، كتحريف أسماء الأعلام والقبائل والمواضع والبلدان؛ "فإلى اليوم نقرأ في كتب الأخبار والتاريخ أن "المقه" اسم لبلقيس ملكة سبأ، بينما نعرف اليوم علم اليقين أن المقه هو اسم الإله القمر عند السبئيين"[1]، وأمثال هذه الأخطاء ما يفوق الحصر، ويستعصي على الاستقراء، ولكن ما نقصده بالبيان هنا هو تلك الأغلاط الجوهرية التي تمثل سياقات كبرى كاللغة والدين والثقافة، ويمكن الوقوف على أمثلة منها في الآتي:

أولاً: نفي وإنكار اللغة العربية والشعر والشعراء عن اليمن واليمانيين

وقد وقع في هذا الغلط بدايةً أبو عمرو بن العلاء، عالم القراءات المشهور؛ عندما قال وهو يتحدث عن اللهجات: "ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا"[2].

ثم جاء طه حسين ليرفع راية هذا الغلط، وانضم تحت رايته عدد من الباحثين، كان أبرزهم الدكتور علي عبد الواحد وافي، في كتابه "فقه اللغة"، حيث ذكر أن لغات اليمن القديمة مستقلة تمام الاستقلال عن اللغة العربية، وتؤلف معها ومع اللغات الحبشية السامية شعبة لغوية واحدة هي الشعبة السامية الجنوبية. وهذا - أيضا - ما قاله فيليب، في كتابه تاريخ العرب[3].

(1) انظر: أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، د. يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، ودار الفكر دمشق، الطبعة الثانية 1411هـ/ 1990م. ص 21.

(2) طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام، ج1، ص 11.

(3) انظر: اللسان العربي المبين، د. جعفر دك الباب، مجلة التراث العربي العدد التاسع السنة الثالثة 1403هـ/ 1982م.

وعندما نعود للحديث عن مقولة أبي عمرو بن العلاء، فإن طه حسين قد استند عليها في نفيه لعربية اليمن وعروبة القحطانيين جملة، وصنع منها فكرته العوراء أساساً، محمّلاً تلك المقولة ما لم تحتمل. ولو أن أبا عمرو بن العلاء علم حينها أن طه حسين سيأتي في القرن الرابع عشر بما أتى به، لأعلن سحب كلمته، أو فسرها ووضح مراده بها، على أن طه حسين قد حذف شقاً من مقولة أبي عمرو في استشهاده، وهي قوله: "أقاصي اليمن"، فأخلّ بالمعنى وبتره.

ومن يقف بتدقيق على هذه المقولة يجد أن أبا عمرو بن العلاء لم يكن يقصد نفي عروبة اليمن، ولا نفي نسبة لغتهم إلى العربية بدليل قوله: "ولا عربيتهم بعربيتنا"، فهو يعترف "بعربيتهم" لكنها غير عربية الشماليين، بمعنى أنها لهجة عربية تختلف عن لهجة قريش، أو لهجة تميم، أو هذيل أو هوازن، فأين طه حسين من ذلك؟!

ثم إن "مقولة أبي عمرو بن العلاء ما لغة حمير بلغتنا ولا عربيتهم بعربيتنا هي في الأصل مقولة يمنية سابقة لأبي عمرو بن العلاء بعدة مئات من السنين، فقد ذكرت كتب التراث وذكر السيوطي في كتابه المزهر أنه خرج رجل من بني كلاب، أو من سائر بني عامر بن صعصعة، إلى الملك ذي جدن الحميري، فأطلع إلى سطح والملك عليه، فقال له الملك: ثِبْ، أي أقعد، فقال: إني سامع مطيع، ثم وثب من السطح، فقال الملك: ما شأنه؟ فقالوا: أبيت اللعن، إن الوثب في كلام نزار الطمر، أي القفز، فقال الملك: ليست عربيتنا كعربيتهم، من ظفر حمّر (أي من أتى ظفار فليتكلم بالكلمات الحميرية الخاصة) ويتبين أن أصل مقولة أبي عمرو بن العلاء هو قول ذي جدن الحميري"(4).

(4) شعر وشعراء اليمن في الجاهلية، محمد حسين الفرح، طبعة وزارة الثقافة 2004م. ص 11.

والمتابع للعصر الذي كان قبل أبي عمرو بن العلاء- وهو عصر النبي ﷺ- فقد ثبت أنه ﷺ خاطب أقيال همدان وملوك حمير وأذواءها وعباهلتها، بلهجاتهم الخاصة التي كان يفهمها دون الصحابة، مما يعني أنها لهجات عربية، كغيرها من اللهجات العربية المنتشرة في جزيرة العرب، فعندما جاء إليه وفد همدان بقيادة مالك بن نمط ذي المشعار خاطب الرسول ﷺ بقوله: "يا رسول الله نصية من همدان من كل حاضر وباد أتوك على قلص نواج متصلى بحبائل الإسلام لا تأخذهم في الله لومة لائم من مخلاف خارف ويام وشاكر أهل السود والقود أجابوا دعوة الرسول وفارقوا الإلهات والأنصاب عهدهم لا ينقض ما أقامت لعلع وما جرى اليعفور بصلع، فكتب لهم رسول الله ﷺ: "{هذا كتاب من محمد رسول الله لمخلاف خارف وأهل جناب الهضب وحقاف الرمل مع وافدها ذي المشعار مالك بن نمط، ومن أسلم من قومه، على أن لهم فراعها ووهاطها وعزازها، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة يأكلون علافها ويرعون عفاءها، لنا من دفئهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثّلب والناب والفصيل والفارض والداجن والكبش الحوري، وعليهم فيه الصّالغ والقارح}"(5).

ومن ذلك خطابه ﷺ إلى أقيال حضرموت

(5) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل بيروت، ط1، 1411هـ ج5، ص 298، 299. وانظر: الفائق في غريب الحديث للخطابي، ج3، ص433، 434. فراعها: قلتها. ووهاطها: الوهط الأرض المطمئنة. عزازها: الأرض الصلبة. العلاف: الطعام للأنعام. العفاء: الأرض التي ليست لأحد. الدفء: ما يتدفأ به. الصرم: النخل. الثّلب: الجمل الهرم الذي تكسرت أسنانه. الفارض: المسنّة. الصالغ: من الغنم الذي دخل في السنة السادسة. والقارح من الخيل مثله.

بلهجتهم التي لا تختلف عن الفصحى إلا في بعض الخصائص الدلالية، ففي حديث وائل بن حجر أن النبي ﷺ كتب إليه وإلى قومه: {من محمد رسول الله، إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشابيب، من أهل حضرموت بإقام الصلاة المفروضة، وأداء الزكاة المعلومة عند محلها، في التيعة شاة، لا مقورة الألياط، ولا ضناك، وانطو الثبجة وفي السيوب الخمس، ومن زنى مم بكر فاصقعوه مائة واستوفضوه عاما، ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالأضاميم، ولا توصيم في الدين ولا غمة في فرائض الله تعالى، وكل مسكر حرام، ووائل بن حجر يترفّل على الأقيال، أمير أمره رسول الله فاسمعوا وأطيعوا}[6].

وفي هذا ما يكفي للتدليل القاطع بأن اللغة العربية هي اللغة الناطقة في لسان اليمنيين من حمير وسبأ ابتداء من تاريخ يعرب بن قحطان أول من نطق العربية وهو جد العرب الثاني بعد قحطان.

أما الشعر والشعراء فإن طه حسين لو عاش إلى زماننا هذا لما تجرأ على التفكير بإنكار شعر اليمن وشعرائها، ولما سمح لأوهامه وشكه، أن يجاوز دماغه إلى صفحات كتابه، فقد قام العديد من الباحثين بجمع شتات شعر قبائل اليمن، ولمّ شمل شعرائها ضمن أعمال أكاديمية دقيقة، فجمعوا من الدواوين والشعراء العدد الجمّ، وبين يدي ثلاثة بحوث أكاديمية لثلاثة من كبار الباحثين والكتاب، احتوت على مائتين وأربعين شاعراً من شعراء اليمن المشهورين في الجاهلية، ومنهم امرؤ القيس نفسه حامل لواء الشعراء، وعبد يغوث الحارثي ومالك بن حريم، والأفوه الأودي، والشميذر الحارثي، وابن حمران، والمكشوح المرادي، وابن علة الجرمي، وحاتم الطائي، وغيرهم[7].

ثانياً: في أصنام قبائل اليمن

فقد نسبت بعض المصادر التاريخية القديمة، ودرجت على إثرها المراجع الحديثة للقبائل اليمنية عبادة عدد من الأصنام القديمة، وبالذات تلك الأصنام التي كان يعبدها قوم نوح عليه السلام، وهي: ودّ وسواع، ويعوق ويغوث ونسر.

---

(6) غريب الحديث للخطابي، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة 1402هـ ج1، ص280 وكتاب شعب الإيمان: للبيهقي، ج2، ص159، رقم الحديث (1433). الأقيال: الملوك، العباهلة: الذين أقروا على ملكهم ، والأرواع: جمع رائع ، وهم ذوو المناظر والهيئات من الملوك العظام، المشابيب: واحدهم مشبوب، وهو الزاهر المتقد اللون، التيعة: الأربعون من الغنم، المقورة الألياط: الهزيلة المسترخي جلدها، ضناك: كثيرة اللحم، أنطوا الثبجة: أي أعطوا الوسط، السيوب: الركاز والعطاء ، اصقعوه: اضربوه على الرأس، والاستيفاض: النفي والتغريب، ضرجوه: اضربوه حتى يُدمى، الأضاميم: الحجارة، التوصيم: الهوادة والمحاباة، غمّة: ستر، يترفل: يرأس.

(7) انظر: شعر همدان وأخبارها في الجاهلية والإسلام، الدكتور حسن عيسى أبو ياسين، من إصدار دار العلوم للطباعة والنشر الرياض عام 1403هـ/1983م. وهي رسالة دكتوراة، قامت بجمع وتحقيق ودراسة شعر قبيلة همدان في الجاهلية والإسلام، ذكر فيه ستة وأربعين شاعراً في العصر الجاهلي، وأربعة وتسعين شاعراً في صدر الإسلام، وكلهم من قبيلة همدان. وانظر: شعراء مذحج وأخبارهم في الجاهلية، صنعة مقبل التام عامر الأحمدي، من إصدار وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، 1425هـ/ 2004م. وقد جمع فيه الباحث أكثر من مائة شاعر من شعراء قبيلة مذحج اليمنية، وتناول فيه الخصائص الفنية لهذا الشعر. وانظر: شعر وشعراء اليمن في الجاهلية، محمد حسين الفرح، من إصدار وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء عاصمة الثقافة العربية 2004م. وقد جمع فيه مائة شاعر من قدماء شعراء اليمن، بما فيهم شعراء ينتمون إلى عهود كندة وحمير وسبأ.

حيث أورد ذلك ابن الكلبي في كتابه الأصنام، وابن دريد في الجمهرة، وابن حزم في جمهرة الأنساب، وأبو حيان في تفسيره، والطبري في تاريخه، وكذا جواد علي في المفصل، وشوقي ضيف في كتابه العصر الجاهلي، وغيرهم.

وقد خبط هؤلاء خبط عشواء في نسبة هذه الأصنام للقبائل اليمنية؛ فقال بعضهم: بأن يعوق كان صنماً لهمدان، وقال آخر بأنه كان لقبائل في حاشد، ومنهم من جعله آلهة لخولان، ومنهم من قال بأن يعوق كان في بلدة خيوان، وقالوا بأن يغوث كان آلهة لكهلان، أما نسر فكانت تعبده همدان وحمير، وكان منصوباً في صنعاء، ووصل الأمر ببعضهم إلى القول بأن همدان كانت تعبد اللّات والعزّى ومناة[8].

ولا يدري المرء كيف يفسر غفلة المؤرخين عن حقيقة هذه الأصنام المذكورة فمعلوم أنها تابعة لقوم نوح عليه السلام، وفقاً لما جاء في القرآن الكريم، من خبر صادق عنها، قال تعالى حاكياً عن قوم نوح وهم يتواصون بالمحافظة على آلهتهم تلك: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ نوح: 23.

فأرسل الله الطوفان على أولئك القوم الكافرين وأصنامهم، بعد أن كذبوا نوحاً، فدعا عليهم بالهلاك. فكيف إذاً أصبحت آلهة لقبائل همدان وحمير وكهلان التي تفصل بينها وبين عهد نوح قرون كثيرة.

إن من يتأمل في أصل رواية نقل تلك الأصنام إلى اليمن وغيرها من القبائل العربية، يجد أنها لا تعدو أن تكون أسطورة محضة، فقد ذكر بعض المؤرخين أن عمرو بن لحي بن ربيعة الخزاعي أتاه آتٍ في المنام بأن يذهب إلى ساحل مكة، لينقل تلك الأصنام التي عبدها قوم نوح ويونس، بعد أن أخذها الطوفان وطمرها تحت الرمال في الصحراء، فذهب عمرو بن لحي واستخرجها من بين الرمال ووزعها على قبائل العرب، في الحجاز وتهامة وقبائل همدان وحمير وغيرها، وأمرهم بعبادتها، والتقرب إليها[9]. فمن غير المعقول أن تكون عبادة الأصنام قد بدأت بتلك الحكاية، هكذا جملة واحدة، ولا يعقل أن توافق القبائل في شتى أرجاء الجزيرة العربية واليمن على آلهة بتلك السهولة!.

وقد وصل الخلط والوهم ببعض المؤرخين، أن يقول بأن "سعد العشيرة" صنمان، من جملة الأصنام، إذ كان سعد صنماً لقبيلة مذحج، و"العشيرة" صنماً من أصنام اليمن القديمة[10]، مع أن الحقيقة هي أن سعد العشيرة اسم لأحد أولاد مذحج بن أدد كما هو ثابت في كتب الأنساب[11].

ثم إن هذه الأصنام لم يرد ذكرها في أي نقش من الآف النقوش المسندية التي تعود لفترات سبأ وحمير، وقد وردت آلهة عرفت باسم "المقه" وهي آلهة القمر أو الشمس، وأخرى باسم "عثتر" أي عشتار، وهو إله النجم، وتكررت في العديد من النقوش مما يدل على أنها كانت آلهة رسمية في فترة من الفترات ثم اختفت، بعد أن انتشرت الديانة المسيحية واليهودية، بل منذ أن أسلمت مع قومها ملكة سبأ عندما وفدت إلى النبي سليمان عليه السلام، بعد أن كانت وقومها يعبدون الشمس ممثلة في رمزها الوثني "المقه"، وهذا ما

---

(8) انظر: الأصنام لابن الكلبي، ص 10. وانظر: جمهرة الأنساب لابن حزم، ص 394. وانظر: العصر الجاهلي لشوقي ضيف، ص 90. وانظر: المفصل في تاريخ العرب، ج6، ص 264.

(9) انظر المنمق في أخبار قريش، وكذا في سيرة ابن هشام، والبداية والنهاية، نسخ منشورة على شبكة الإنترنت.

(10) انظر: أديان العرب في الجاهلية لمحمد الجارم، ص 139.

(11) انظر: نسب معد واليمن الكبير، طبعة العظم، ج1، ص 327.

أكده القرآن في قوله تعالى على لسان الهدهد:

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ النمل: 22- 24.

وبعد أن تبين لهذه الملكة السبئية الحق من الضلال نبذت مع قومها عبادة الشمس وتوجهت لله رب العالمين، كما قال تعالى عنها:

﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ النمل: 44.

وهناك دلائل عديدة تشير إلى أن عبادة الأصنام والأوثان لم تكن موجودة لدى اليمانيين إلا بشكل نادر، ومختلف عما هو لدى القبائل العربية الأخرى. فيذكر الباحثون أن العديد من النقوش المسندية الثابتة الصحيحة، التي لم تتعرض للنسخ أو المسخ توحي في مجملها إلى محور الديانة في حياة اليمنيين القدماء، حيث تتضمن التعقيب في ختامها بذكر الآلهة والدعاء، ومعظم تلك الآلهة لا تتعدى الثلاثي المعروف "الشمس والقمر والزهرة"[12].

وعليه يبقى الغالب على الحياة الدينية هو التوحيد ولاعتراف بالله الواحد، وقد حكى القرآن ذلك عن قوم سبأ عندما جحدوا النعم، إذ في دعائهم على أنفسهم ما يدل على اعترافهم بالله، قال تعالى عنهم:

﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ سبأ: 19.

ومن يتأمل في أشعار ملوك سبأ وحمير ووصايا أقيال اليمن في الفترات الجاهلية، يجد أنها تشير إلى أنهم كانوا يؤمنون بالله، ويعتنقون الديانة اليهودية أو المسيحية، ففي قصيدة قدم بن قادم الهمداني[13] أحد أقيال همدان الذي عاش في الفترة ما بين القرن الرابع والقرن السادس الميلاديين، نجده يؤكد على إيمانه بالله والإخلاص له، واجتنابه للشرك، واقتفائه للديانة اليهودية، فقال وهو يوصي أبناءه[14]:

فلست أبالي أن تجيء منيتي
وقد كنت من علم ابن داوود آثرا
بني أبوكم كان لله مخلصاً
وكان حنيفاً لا يشوب السرائرا
قضى وطراً من دين أصحاب يوسف
وكان لهم حزباً ولله ناصرا
فأوصيكم أن تعبدوا الله وحده
ولا تجعلوا لله كفواً مناظرا

ومثل ذلك ما ورد على لسان الملك أسعد الكامل الملقب بتبّع الحميري، يقول في قصيدته[15] مبشراً بالنبي العربي:

شهدت على أحمد أنه	رسول من الله باري النسم
نبي وجدناه في كتبنا	به يهتدى وبه يعتصم

ويرى بعض المفسرين: أن أسعد الكامل هذا هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ الدخان: 37. وقوله تعالى: ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ

---

(12) انظر: أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، د. يوسف محمد عبد الله ص 51، 52.

(13) انظر: قضايا تاريخية وأدبية مجهولة في قصيدة قدم بن قادم الهمداني، للباحث: عبد الكريم حسين رعدان، ص 26. (تحت الطبع).

(14) المصدر نفسه.

(15) انظر: ملوك حمير وأقيال اليمن، نشوان الحميري، ص123.

وَعِيد) ق: 14. وقال بعض المفسرين إنه نبي[16].

وقد ورد في قصيدة أخرى للحارث بن كعب بن عمرو بن عُلَة المذحجي ما يدل على إيمانه بالله وحده، ومتابعته للإنجيل الذي جاء به عيسى عليه السلام؛ يقول[17]:

بني اهتدوا في ما اهتديت سبيله
فأكرم هذي الناس من كان هاديا
غُنيت زمنا لست أعرف ما الهدى
وقد كان ذاكم ضلة من ضلاليا
فألقيت عني الغي للرشد والهدى
ويممت نورا للحنيفة باديا
وصرت إلى عيسى بن مريم هاديا
رشيدا فسماني المسيح حواريا
بني اتقوا الله الذي هو ربكم
براكم له فيما برا وبرانيا
لتعبده سبحانه دون غيره
لتستدفع البلوى به والدواهيا
ونؤمن بالإنجيل والصحف التي
بها يهتدي من كان للصحف تاليا

وقد ذكرت المصادر التاريخية والنقوش الأثرية، أن اليمن عرفت الديانة اليهودية في القرن الرابع والخامس الميلادي. ففي أحد النقوش الذي وجد بناعط يعود تاريخه إلى القرن الرابع الميلادي يذكر مطهر الإرياني[18] الذي قرأ النقش ونشره، أنه قد احتوى على كلمات توحيدية (برا/ إلن/ ذسمين) أي وذلك بقوة الإله الذي في السماء، ثمّ علّق بقوله: ((وعبارة الإله الذي في السماء وكذلك كلمة آمين في آخر النقش: تعود إلى العصور المتأخرة لملكة سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمانة، وربما أعرابهم طوطاً وتهامة، وهو العهد الذي اصطلح الدارسون على تسميته بعصر التوحيد))[19].

وكما هو معلوم فإن المصادر التاريخية والنقوش تشير إلى أن اليمن عرفت الديانة اليهودية في فترات ما بعد الميلاد، وبالتحديد فإنها أي الديانة اليهودية- سادت في زمن يوسف أسار يثار الملقب بذي نواس، كما أنه تسمى يوسف بعد أن اعتنق الديانة اليهودية[20].

ويذكر بعض الباحثين أن النصرانية كانت قد دخلت اليمن من عدة منافذ، منها العراق بواسطة الطرق البرية وطرق الخليج البحرية، وبواسطة السفن اليونانية والرومانية، عن طريق أفريقيا حيث تنصّر الأحباش[21].

ويذكر اليعقوبي بأن عدداً من القبائل اليمنية قد تنصرت وهي: طيء ومذحج وبهراء، وسليح، وتنوخ وغسان ولخم[22].

ومن هنا يتبين أن نسبة هذه الأصنام والأوثان للقبائل العربية في اليمن أو غيرها، إنما هي مزاعم لا أساس لها من الصحة التاريخية، وهي في الحقيقة تعود لقوم نوح عليه السلام، الذي عاش في أزمنة غابرة، وحقب ضاربة في غياهب الماضي البعيد.

ثالثاً: إطلاق عرب الجنوب على اليمن

درج الباحثون على تسمية عرب اليمن والقبائل العربية اليمنية بعرب الجنوب، استنادا إلى مؤلفات

(16) انظر تفسير الآية 37 من سورة الدخان في الجلالين، وقال بذلك ابن عباس كما أورده القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب القاهرة الطبعة الثانية 1372هـ، ج16، ص146.

(17) شعراء مذحج وأخبارهم في الجاهلية والإسلام، مقبل التام، من إصدارات وزارة الثقافة والسياحة صنعاء عاصمة الثقافة العربية عام 2004. ص445، 446.

(18) نقش من ناعط: مطهر الإرياني، مجلة دراسات يمنية، العدد 33، يوليو أغسطس سبتمبر 1988م، ص28.

(19) المصدر نفسه، ص36.

(20) انظر: الإكليل للهمداني، ج2، ص62 وانظر: تاريخ اليمن القديم لبافقيه، ص156.

(21) اليمن وحضارة العرب: د. عدنان ترسيسي، دار مكتبة الحياة، بيروت. ص 23 ، 24.

(22) انظر: تاريخ اليعقوبي، ج1، ص 227.

المستشرقين في التاريخ القديم[23]، فيقول فيليب: "يجب علينا أن نفرق بين عرب الجنوب وعرب الشمال الذين يشملون أهل نجد في أواسط الجزيرة، وكما أن سطح الجزيرة ينقسم إلى منطقتين شمالية وجنوبية تفصل بينهما صحراوات غير مطروقة، كذلك ينقسم سكانها إلى جماعتين تتمايز الواحدة عن الأخرى. وعرب الشمال في الغالب من البدو ويعيشون في بيوت من الشعر في نجد والحجاز، أما عرب الجنوب فأكثرهم من الحضر يقطنون اليمن وحضرموت وما جاورهما من السواحل. ولغة الشمال هي لغة القرآن أي اللغة العربية المعروفة، أما أهل الجنوب فلقد كان لهم لغة سامية قديمة- لغة سبأ وحمير- وهي تمت إلى اللغة الحبشية بصلة[24]. والتسمية في حد ذاتها ليست معيبة في استعمالها للدلالة الجغرافية، ولكنها استخدمت للتمييز النوعي، وإلحاق القبائل اليمنية بالعروبة إلحاقاً، كما نرى لدى العديد من الباحثين، وفي ذلك مجافاة تاريخية.

فالعرب هم شعب واحد وإن اختلفوا في تنوعهم وقبائلهم، وقد كانوا من قبل كذلك، ولم يطلقوا على أنفسهم عرباً شمالية وعرباً جنوبية، وهذه التسمية إنما استحدثت- كما سبق القول- في العصر الحالي من قبل المستشرقين في دراساتهم، وتلقفها بعض الباحثين العرب لتصبح لديهم تقسيما طبقياً، لأمة العرب الواحدة، ومن ثمّ مدخلاً لنفي عروبة الجنوبيين ولغتهم، كما أفاد بذلك طه حسين في كتابه "في الأدب الجاهلي".

وحتى في تقسيم العرب إلى عرب قحطانية وعدنانية، أو يمانية ونزارية، لم تعد التسمية تدل على واقع محدد وفق ذلك المسمى، فقد تداخلت القبائل العربية فيما بينها ولم تعد منفصلة، نتيجة لهجرات عديدة قامت في الزمن القديم لقبائل كبرى من جنوب الجزيرة إلى شمالها ووسطها، بل إلى مصر والمغرب وأفريقيا، وخاصة بعد تهدم سد مأرب إثر سيل العرم الجارف.

وفي الزمن القديم كانت قد هاجرت قبيلة جرهم القحطانية إلى الحجاز واستقرت بمكة[25]، وحدثت بعدها هجرة لقبيلتي الأوس والخزرج الأزديتان إلى يثرب، ومن القبائل التي هاجرت إلى بلدان متفرقة في الشام وفلسطين: غسان ولخم وجذام، وعاملة والأزد، كما حدثت هجرات معاكسة من الحجاز لقبائل من مضر وقيس عيلان وغيرها[26]. فأدت تلك الهجرات إلى تمازج كبير بين القبائل العربية؛ في خصائصها وطباعها ولغاتها وثقافتها، مكونة كياناً عربياً واحداً.

خلاصة القول: فإن العديد من المصادر التاريخية قد تضمنت شوائب وأغلاطاً عديدة حول التاريخ وأحداثه وخاصة ما يتعلق منه بتاريخ اليمن القديم، وهي بحاجة إلى تتبع وتنقية، فقد أصبحت بعض القضايا المغلوطة كأنها حقائق ثابتة، وسلّم الناس بها دون تدقيق وتمحيص.

---

(23) انظر: في هذه التقسيمات: العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص 26-30.

(24) تاريخ العرب (مطول)، دار الكشاف، الطبعة الرابعة، ج1، ص 38.

(25) انظر: الهجرة اليمنية إلى العراق والشام ومصر قبل الإسلام، د.محمد سعيد شكري، مجلة المؤرخ العربي، العدد 59، 1421هـ/2000م. ص 20.

(26) المصدر نفسه، ص 18-22.

(تمنع- هجر كحلان)؛

دراسة تاريخية آثارية *

أسوان محمد حسين

من المعروف أن البحث في التاريخ القديم مهمة ليست باليسيرة. وفي أثناء الجمع والدراسة وجدت أنني لابد أن أعتمد على علمين وأعني بهما علم التاريخ وعلم الآثار، فالأول يتطلب إمعان النظر بكل ما كتب، أكان بقلم عربي من إخباريين وغيرهم أو بأقلام عربية كلاسيكية أو على أقلام المستشرقين وأحيانا بلغات أخرى ويتطلب ذلك التدقيق والتمحيص مراجعة الكتب المؤلفة في هذا الشأن أو ما يخص البحث على الأقل وغربلة وتصفية ما شاب تلك الكتابات من تقصير، خاصة فيما يربط الحقيقة التاريخية بالأسطورة وقس على ذلك. والثاني علم الآثار الذي يتطلب معاينة ما استخرجته البعثات العلمية التي توالت على منطقة البحث من معالم أثرية شاهدة على حضور إنساني تعكسها كل قطعة أثرية تصور حياة ذلك الإنسان في مأكله ومشربه، وفرحه وحزنه، وحياته ومماته، وحبه وكرهه، وتفاؤله وتشاؤمه، وسلمه وحربه، وشموخه وسقوطه .

وفي هذا المقام لابد لي من أن أعرّف بموضوعي مكاناً وزماناً، أما المكانُ؛ فقد ظهرتْ مملكةُ قتبانَ في وادي بيحان إلى شمال شرق عدن بحوالي (300) كيلومتر وعن صنعاء بحوالي (350) كيلومتراً أو ما يقارب ذلك؛ وتخلّل نطاقَها مجموعة مِنَ الوديانِ الفرعية، وهي وادي حريب في الغرب، ووادي مرخة في الشرق، وفي وادي بيحان تقعُ الخرائبُ التي تمثلُ البقايا الأثريةِ للعاصمةِ القتبانيةِ تمنع، وهي اليومَ (هجر كحلان) كما يقعُ فيها موقعٌ أثريٌ يطلق عليه (حيد بن عقيل)، وهو المقبرة المحليةِ لتمنع، وموقعٌ أثريٌ يطلق عليه (هجر بن حُميد) وهو بقايا العاصمة الثانية لقتبان بعد حريقِ تمنع، ويقع هذا الأخيرُ شمال قرية النقوب. أما الزمان فهو تاريخُ منطقة امتدت في التاريخ القديم من القرنِ السابع قبل الميلادِ إلى نهاية القرن الأول بعد الميلاد.

إن دراسة التاريخ اليمني القديم عموماً ومملكة قتبان خاصة ضرورة وحاجة لوصل حلقات التاريخ، وخاصة قديمها ووسيطها؛ لإبراز مظاهر القوة والضعف في تاريخها ولإبراز قدرة الإنسان في العيش وسيطرتهِ على مظاهرِ الطبيعةِ واستغلالها وتوفير وسائلِ حياتهِ المتعددة.

لقد أسهمتْ هذهِ المملكة بدور مهم في التاريخ الحضاري لليمن وجنوب الجزيرة عموماً على أنها بَقيت شبه مجهولة للمؤلفين العرب في الحقبةِ الإسلامية. حيث اختفت المملكة قبل الإسلام بحوالي (500) عام. وذلك قد يعود إلى انشغالهم بنشر تعاليم دينهم الجديد وفتوحاتهم وما إلى ذلك.

وتكمُن أهمية هذهِ الدراسةِ في إبراز دور هذهِ المملكةِ التي كانت تتحكم في الطريق التجاريِّ البريِّ الرابط بين مناطق إنتاج البخورِ، وهذا الدورُ جعل تمنعَ، عاصمة محطِ اهتمام أكبرِ للحكام،

---

* أطروحة نالت بها الباحثة درجة الماجستير في تاريخ اليمن القديم، من قسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة عدن- 2006م.

وربما كانت نموذجاً للمدن المهمة التي أدت دوراً بارزاً في جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والدينية في جنوب الجزيرة. أما هدفي من إعداد هذا البحث فهو الإلمام بالجوانب الآتية:

1. دراسة الموقع الجغرافي لمدينة تمنع.
2. توثيق الكتابات حول المدينة، والوقوف عند أهم القطع الأثرية في تمنع، والوقوف عند المقبرة التي لها صلة بمدينة تمنع والإلمام بأغلب النقوش التي تتحدث عن مدينة تمنع ووصفها.
3. التعريف بالأنماط المعمارية في المدينة مثل: السور، المنازل، السوق، والمعبد، والصرح الكبير، والمقبرة، وتخطيطها، والأهمية المناطة بها.
4. رسم صورة تقريبية لملامح الحياة المدنية قديماً.

أما منهج الدراسة وأسلوبها، فقد استعنت بالمنهج التاريخي ببعده النظري، والمنهج الوصفي ببعده العملي واللذين يعكسهما الإطار التاريخي والأثري؛ ولقد كان التداخل المنهجي بينهما أمراً طبيعياً.

أما هيكل البحث فقد اقتضى أن يكون في أربعة فصول، يتقدمها تمهيد، وتقفوها خاتمة. التمهيد كان بعنوان الأعمال الأثرية والدراسات السابقة في مدينة تمنع. أما الفصل الأول فقد تناولت فيه الموقع الجغرافي لمملكة قتبان ومدينة تمنع، إذ عرضت للموقع الجغرافي لهما والمناخ فيهما كما تناولت تسمية قتبان اعتماداً على ما ورد في معجمات اللغة، والنقوش، والمصادر التاريخية للمؤرخين الغربيين والعرب.

وعن الفصل الثاني فقد تناولت فيه الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ففي الجانب الاقتصادي تناولت اقتصاد تمنع المتمثل بالزراعة والتجارة، وأوضحت طبيعة النشاط الزراعي العائد من خصوبة تربة الأرض ودور المناخ، وتوافر المياه بنوعيها الجوفية والسطحية، وبما توافر من طرق الري ومنشآتها، وبناء السدود والقنوات والصهاريج، وأساليب الزراعة، ومن النشاط الاقتصادي الذي تمتعت به المملكة بما فيه الثروة الحيوانية، واستدعى هذا الأمر تناول أشكال الملكية الزراعية، كما تناولت الأعمال والصناعات الحرفية. وأما الحياة الاجتماعية فقد عرضت لطبيعة المجتمع القائم على القبيلة والتركيب البيئي للسكان وما استلزم ذلك من تفاوت سكاني يكسوه غطاء التعاون الاجتماعي لخدمة المملكة وسدانتها..

أما الفصل الثالث فتناولت فيه: الحياة الدينية والنظام السياسي في تمنع إذ تناولت أولاً الحياة الدينية، ثمّ تناولت النظام السياسي، ثم عرضت للعلاقات التي نشأت بين مملكة قتبان مع ممالك اليمن القديم، مفصلة القول في العلاقة مع مملكة سبأ ومعين، وأوسان، وحضرموت، وحمير، ثمّ عرضت إلى أسباب ضعفها حتى سقوطها.

وميزت الفصل الرابع بأن جعلته وصفاً للمعالم الأثرية وأهم القطع الأثرية في مدينة تمنع عرضت فيه وصفاً لمدينة تمنع وفيها السور، وبواباتها، والمعبد ،والصرح الكبير، والسوق والمسلة، والمباني السكنية ، ثمّ تناولت مقبرة تمنع، ثم وصفت أهم القطع الأثرية وهي مجموعة من التماثيل، والأواني الحجرية.. وختمت البحث بخاتمة عرضت فيها أهم النتائج. ثمّ قدمت مجموعة من التوصيات. وذيلتها بملاحق تحوي النقوش والخرائط والمخططات والجداول والصور.

أما مصادر البحث ومراجعه فقد تعددت على وفق المادة العلمية التي حواها بحثي، فهناك مصادر أساسية لا غنى عنها لباحث في التاريخ القديم أذكر أهمها وهي القرآن الكريم والمصادر العربية الكلاسيكية وكذا المصادر الدينية الأخرى. ولقد اعتمدت على ما كتبته البعثات التي نقبت في تمنع

منها البعثة الأمريكية (1950-1951م)، و"براين دو" الذي قام بالتنقيب في عام (1967م)، والبعثة الإيطالية الفرنسية التي قامت بالتنقيب في عام (1999-2005م). ومن المصادر أيضاً أذكر منها على سبيل المثال (الإكليل) و(صفة جزيرة العرب لعلامة اليمن ولسانها الهمداني)، و(معجم البلدان) لياقوت الحموي.

أما المراجع فكانت من السعة فهي إما مراجع كتبها مستشرقون تخصصوا في تاريخ اليمن القديم، منها:

(التاريخ العربي القديم) لـرودو كناكيس وآخرين.

وكتاب: (تاريخ اليمن، نقوش مسندية وتعليقات) لمطهر علي الإرياني.

والنفوذ القتباني (اليمن في بلاد ملكة سبأ) لأفانزيني اليساندرا.

وكتابي: (تاريخ اليمن القديم) للأستاذ محمد عبدالقادر بافقيه، و(مختارات من النقوش اليمنية القديمة) لمحمد عبدالقادر بافقيه وآخرين.

واستعنت ببعض الأبحاث والدراسات المنشورة في المجلات العلمية المتخصصة المحكمة أذكر منها على سبيل المثال: بحث في (مسكوكات ممالك الجزيرة العربية قبل الإسلام) المنشور في أودوماتو- مجلة نصف سنوية محكمة تعنى بآثار الوطن العربي، لفرج الله أحمد يوسف و(عالم الآلهة في مملكة قتبان اليمنية القديمة قبل الإسلام- القرن الثامن ق.م- القرن الثاني الميلادي) المنشور في حوليات يمنية- المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية- صنعاء. وغيرها الكثير مما هو مدون في قائمة المصادر والمراجع، كما كانت النقوش مصدراً مهماً مدّت بحثي بكثير من الحقائق، التي استندت عليها في إثبات بعض الحقائق أو رفضها.

وإذا أراد أحد الاستفسار عن الصعوبات التي صادفتني في إعداد هذا البحث فأقول لكم وبصريح العبارة أن عشر صفحات ليست كافيه لشرحها. وبرغم ذلك فإنني أشعر بفرح لما أنجزته كما أشعر بغصة تلازمني متى ما استشعرت نقصاً هنا أوهناك ولعل العناية وما حظيت به من اهتمام كان كافياً لتجاوز تلك الصعوبات والتغلب عليها.

وبعد فهذا عملي الذي نال مني الجهد ولا أدعي بذلك أنني عملت بحثاً كاملاً، فما كان من صواب فهو من فضل الله، وما كان فيه من قصور فمن نفسي، وهو جهد متواضع أنتفع به ومن يريد، ويكون لي منطلقاً لمشوار البحث العلمي والدراسة الدؤوبة.

جزيرتا سقطرى وكمران من الاحتلال البريطاني حتى الاستقلال*

أمل عبدالمعز الحميري

نالت سياسة بريطانيا في احتلال جنوب اليمن اهتماماً كبيراً من قبل الباحثين وصدرت العديد من المؤلفات والدراسات الأكاديمية المتعلقة بهذا الشأن، لكن تاريخ الجزر اليمنية وسياسة بريطانيا تجاهها- في تلك الفترة الهامة من تاريخ الجنوب اليمني- ظل حلقة مفقودة من حلقات التاريخ اليمني.

وتأتي أهمية دراسة تاريخ الجزر اليمنية كونها تشكل أحد المواقع الإستراتيجية المهمة في البحر الأحمر وخليج عدن، ولأنها مثلت عبر تاريخها الطويل منطقة شد وجذب وصراع دوليّ بين الدول الاستعمارية الغربية، وعلى وجه الخصوص جزيرتا سقطرى وكمران اللتان شهدتا أحداثاً تاريخية متشابهة واستقبلت القوى الاستعمارية نفسها في كثير من المرات. وهو ما دفع الباحثة لاختيار الجزيرتين بالذات موضوعاً للبحث في الفترة المحددة للدراسة.

علاوة على الرغبة في كشف أبعاد السياسة البريطانية في موقعين من أهم المواقع الاستراتيجية في خليج عدن والبحر الأحمر وحتى تنال هذه الجزر حقها من الدراسة والاهتمام على الصعيد التنموي والسياسي والاستراتيجي، نظراً لما تمثله من أهمية قصوى بالنسبة لليمن، فجزيرة سقطرى تتميز بموقع جغرافي فريد حيث تسيطر بموقعها هذا على أعظم طريق ملاحي لنقل النفط من مناطق إنتاجه في الخليج إلى أوروبا وأمريكا عبر البحر الأحمر.

أما كمران فقد استمدت أهميتها من قربها من الساحل اليمني ومضيق باب المندب علاوة على إشرافها على خطوط الملاحة الدولية.

* أطروحة في تاريخ اليمن الحديث، نالت بها الباحثة درجة الماجستير من كلية الآداب- جامعة صنعاء 2006م.

وبناءً على ذلك فقد جذبت هاتان الجزيرتان، بكل مقوماتهما الاستراتيجية والاقتصادية والطبيعية، أنظار بريطانيا والدول الأوروبية. بل وسعت بريطانيا إلى امتلاك قواعد مهمة في هاتين الجزيرتين خلال الحربين العالميتين.

وبناءً على ما تقدم فقد اهتمت هذه الدراسة بتتبع سياسة بريطانيا تجاه الجزيرتين منذ احتلالهما وحتى الاستقلال في عام 1967م، وبما في ذلك إبراز موقف بريطانيا من القوى المنافسة لها على هاتين الجزيرتين.

وقد كشفت لنا مرحلة البحث قلة بل شحة المادة العلمية المتعلقة بتاريخ هذه الجزر عدا بعض الندوات والمؤتمرات، إلا أن أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها الدراسة، هي الوثائق الأجنبية البريطانية والعثمانية، فقد تنوعت بين وثائق منشورة وغير

منشورة وكلها كانت تحتاج إلى جهود مضاعفة.

أما الوثائق العثمانية فبرغم كثرتها إلا انها ركزت في معظمها على الجانب الإداري والعمراني، ولم تتطرق إلى الجانب التاريخي أو الاستراتيجي إلا فيما ندر، وكانت أهم وأغنى الوثائق الأجنبية المنشورة في كتابين هما:

1- Arabian Boundearis.
2- Records of Yemen.

أما عن محتوى هذه الدراسة، فهي مكونة من تمهيد وأربعة فصول وخاتمة مذيلة بملاحق وخرائط توضيحية مأخوذة من مصادر أصلية.

وفيما يخص التمهيد فهو مكون من محورين رئيسيين، يتناول أولهما جغرافية الجزيرتين ونشاط السكان فيهما.

أما ثانيهما، فيعرض الأهمية الإستراتيجية للجزيرتين منذ القدم، وحتى دخول القوات البرتغالية إليهما، كما استعرضت فيه أهمية موقعهما وتأثيره بالنسبة لموقع اليمن وقد دعمناه بخرائط قيمة من مراجع مهمة.

الفصل الأول بعنوان: "النشاط الأوروبي في السواحل والجزر اليمنية منذ القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر الميلادي" وعلى الرغم من طول فترة هذا الفصل، إلا أننا وجدنا تناول دخول البرتغاليين ومن بعدهم الهولنديين والفرنسيين ضرورة اقتضاها البحث قبل الدخول في تفاصيل سياسة بريطانيا في الجزيرتين، وذلك للتعرف على النشاط الأوروبي في الجزر والسواحل قبل الإنجليز.

أما الفصل الثاني فيحمل عنوان: "بداية اهتمام بريطانيا بالبحر الأحمر وجزره"، ونظراً لأهمية البحر الأحمر كونه أهم رقعة مائية تقع فيه هذه الجزر فقد تناولناه في نبذة مختصرة، وتناولنا بداية اهتمام بريطانيا بالجزيرتين، والذي كان نتيجة حتمية للصراع البريطاني الفرنسي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وعالجنا فيه موقف بريطانيا من تدخل فرنسا في جزيرة كمران، كما بحثنا عن الأسباب التي دفعت بريطانيا لاحتلال جزيرة سقطرى، والذي استنتجنا فيه أنه من خلال ذلك الصراع برزت أهمية الجزيرتين الاستراتيجية، والتي نبهت بريطانيا إلى ضرورة فرض سيطرة سياسية وعسكرية عليهما.

أما "سياسة بريطانيا تجاه الجزيرتين في الفترة من 1856-1914م/ 1282-1333هـ فقد كان عنواناً للفصل الثالث، وفيه تناولنا تأثير احتلال عدن وافتتاح قناة السويس في سياسة بريطانيا تجاه الجزيرتين، حيث سلكت بريطانيا بعد هذين الحدثين أسلوباً آخر ضمنت فيه بسط نفوذها على هاتين الجزيرتين، (بالنسبة لسقطرى) وهو أسلوب المعاهدات والاتفاقيات غير المتكافئة، والتي استطاعت بريطانيا من خلالها تكبيل حكامها بقيود معاهداتها وسلب السيادة من تحت أيديهم. ومن ناحية أخرى فقد تناولنا سياسة الحكومة العثمانية ودورها في هاتين الجزيرتين، وأوضاعهما قبيل الحرب العالمية الأولى.

أما الفصل الرابع والأخير فقد حمل عنوان: "موقف بريطانيا من الجزيرتين إبان الحرب العالمية الأولى وحتى الاستقلال" وقد حاولت الباحثة قدر المستطاع تقديم دراسة وافية عن الأحداث التاريخية التي مرت بها الجزر خلال تلك الفترة المهمة من التاريخ، من خلال المصادر التي توفرت لدينا، وذلك بإبراز سياسة بريطانيا تجاه الجزيرتين إبان الحرب العالمية الأولى وأثر تلك الحرب في قرارات بريطانيا وسياستها نحوهما. وكيف تعاملت بريطانيا مع جزيرة كمران وإدارتها لها كونها كانت تعد محطة للحجر الصحي وتشرف عليها الدولة العثمانية وبريطانيا، وتقع في منطقة الصراع الدولي" البحر الأحمر"، ومحاولة بريطانيا تمويه السيادة اليمنية على هذه الجزيرة، التي برزت أهميتها وأهمية موقعها بشكل كبير في الحرب العالمية الأولى من خلال معاهدة لوزان، والتي تركت

أمرها معلقاً بأطراف دولية أخرى. كذلك موقف اليمن من وضعها وكيف تعاملت الحكومة اليمنية إزاء هذا الوضع. وتطرقنا من ناحية أخرى إلى إستراتيجية بريطانيا في جزيرة سقطرى، والتي دفعتها سياستها التوسعية إلى التفكير بجعلها مستوطنة لليهود، وذلك من خلال المراسلات التي دارت بين مسئولي الحكومة البريطانية، والتي أثبتت مدى أهداف بريطانيا في المواقع التي تخدم مصالحها السياسية والاستراتيجية في المنطقة الممتدة من البحر الأحمر حتى المحيط الهندي.

وفي خاتمة البحث أجملت الباحثة نتائج الدراسة وذلك فيما يلي:

"وبعد أن وصلنا إلى خاتمة البحث حري بنا أن نتوقف لنستخلص النتائج التي توصلنا إليها خلال دراستنا لسياسة بريطانيا تجاه الجزر اليمنية من الاحتلال إلى الاستقلال. وعلى الرغم من أننا تناولنا فترة سابقة للاحتلال، وحاولنا استعراض جميع القوى التي دخلت إلى الجزر اليمنية تمهيداً للوصول إلى سياسة بريطانيا في تلك المواقع المهمة، لكن تلك المرحلة كانت جديرة بالاهتمام والتسجيل، لمعرفة البعد الاستراتيجي للجزيرتين وصراع القوى حولهما. أما عن بريطانيا ومواقفها تجاه الجزر اليمنية، فقد وجدنا أنفسنا أمام مواقف متعددة لبريطانيا تجاه جزيرتي سقطرى وكمران منذ احتلالهما في أوائل القرن التاسع عشر والعشرين وحتى استقلالهما عام 1967م. ومن خلال ذلك وصلنا إلى بعض الاستنتاجات أهمها:

- أن الجزيرتين تشكل كل منهما موقعاً استراتيجياً خطيراً وحساساً بالنسبة لموقع اليمن، وأن أي تهديد لتلك الجزر، يعد تهديداً لسيادة الدولة نفسها.
- أن موقف بريطانيا في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين اختلف باختلاف وضع بريطانيا في المنطقة، ففي البدء كانت سياسة بريطانيا تجاه الجزيرتين عبارة عن محاولات لشراء أو استئجار قاعدة كما هو الحال لدى سقطرى، التي حاولت بريطانيا شراءها من سلطانها أكثر من مرة، ثم قامت بإرسال الحملات العسكرية، ومن ثم وجدت بريطانيا أن أسلوب المعاهدات، ومنه معاهدات الحماية هو أنسب الأساليب لحيازة تلك المواقع بالنسبة لوضع بريطانيا الدولي آنذاك. لأنها قامت بموجب تلك المعاهدات بتحويلها إلى قواعد عسكرية وسط البحر لصالح بريطانيا. أما كمران فقد أظهرت بريطانيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر لمحمد علي- منافس بريطانيا في المنطقة آنذاك- بأنها احتاجت كمران لتستخدمها كمحطة لإيداع الفحم وإن كان ذلك سبباً ظاهرياً، فإن السبب الحقيقي يكمن في رغبة بريطانيا بالاحتفاظ بهذه المواقع المهمة في وسط البحر لصالحها كونها ستمثل لها، عاجلاً أم آجلاً، نقاطاً حارسة لمصالحها عبر البحر الأحمر في طريقها إلى الهند. كما أنها ظلت تخشى من ظهور أي قوة جديدة قد تضع يدها على هذه الجزيرة، وتغيرت سياسة بريطانيا تجاه جزيرة كمران في أوائل القرن العشرين، لتحاول الاستيلاء عليها مباشرة بواسطة قوة عسكرية.
- أدركت بريطانيا البعد الاستراتيجي لهاتين الجزيرتين حاضراً ومستقبلاً، ورغم الصعوبات التي كان يلاقيها الجنود المتمركزون فيهما، فإنها أصرت على بقاء جزء من قواتها في جزيرتي سقطرى وكمران.
- استخدمت بريطانيا في سياستها إزاء جزيرة سقطرى نفس الأساليب التي استخدمتها مع سلاطين ومشايخ المحميات، وكبلت سلاطينها بقيود الولاء والمعاهدات خوفاً من تدخل أي دولة أجنبية فيها. كما كشفت لنا وثائق القرن التاسع عشر وما قبله عن حركة تجارية في جزيرة سقطرى كانت قائمة وكان سلاطينها يتمتعون بأهمية كبيرة ذكرها الرحالة الأجانب وقد سبب موقعها ذلك أهمية في دخول العديد من التجار إليها، وذاع صيتها عند الرحالة والمستكشفين وأهمهم شركة الهند الشرقية الإنجليزية، حيث ما لبثت المكلة

فكتوريا أن أرسلت بعثة تابعة لشركة الهند إلى جزيرة سقطرى، لاستكشافها والتعرف على موقعها ومواردها الاقتصادية.

- حاولت بريطانيا الاحتفاظ بجزيرة سقطرى (محمية) تحت سيطرتها، لتتخذها نقطة دفاع لمحمية عدن، ومحطة توقف في طريق المحيط الهندي. وبالرغم من أنها كانت محمية بريطانية لكنها لم تحظ بأية خدمات أو إقامة مشاريع خدمية يستفيد منها السكان وقد كشفت لنا وثائق الفترة المتأخرة من القرن التاسع عشر مدى إهمال بريطانيا لسكان تلك المحمية ولتجارها، حيث لم توفر لهم الحماية الحقيقية، وربما نتج ذلك من أنها اطمأنت لوقوعها تحت سيطرتها، وذلك عكس جزيرة كمران، التي ما إن بدأت أهميتها في الظهور عقب الحرب العالمية الأولى، حتى قامت بريطانيا ممثلة بالمقيم السياسي في عدن في الالتفات إليها كلية والاهتمام بإقامة المشاريع فيها وذلك أثناء ما كانت مسئولة عن الإشراف على محطة الحجر الصحي.

- تغيرت وتعددت مواقف بريطانيا تجاه جزيرة كمران من عام إلى آخر، فقبل عام 1919م، - ورغم أن بريطانيا كانت قد كلفت بإشرافها على محطة الحجر الصحي- إلا أنها عانت نوعاً ما من الإهمال الواضح، فكانت بريطانيا كلما أحست بدنو خطر أجنبي من الجزيرة (حالة إيطاليا مثلاً) عادت وحاولت خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين وضع بصمات بريطانية واضحة على الجزيرة محاولة بذلك دخول كمران تحت السيادة البريطانية لتضمن امتلاك قاعدة مهمة في البحر الأحمر. وعلى الرغم من معرفتها باستحالة وقوع ذلك الإجراء، نظراً لتقيدها أولاً بمعاهدة لوزان والتي تركت أمر السيادة عليها مبهماً، ثانياً معاهدتها مع اليمن التي تمتلك الحق الشرعي فيها، والتي لم تجرؤ أيضاً خلال معاهدة الصداقة 1934م، أن تتطرق إليها بشكل صريح، خوفاً من إثارة قضية الجزر مع اليمن أولاً، وثانياً: إثارة مشاكل دولية مع الدول الحليفة الموقعة معها على معاهدة لوزان، والتي ستثبت لها حتماً عدم أحقيتها في حيازة الجزيرة مع وجود شركاء آخرين.

- شكلت معاهدة لوزان 1923م، حجر الزاوية في قضية كمران، فأثناء انعقاد مؤتمر لوزان نصت المادة 16 على أن تتنازل تركيا بموجب هذه المعاهدة عن الجزر التي بحوزتها، وتركت أمر السيادة عليها معلقاً، وبذلك علقت المعاهدة أمر الجزيرة وملكيتها لأطراف مجهولين وقد كان هذا الإجراء في صالح بريطانيا، لأنها لم تجرؤ على بسط سيطرتها عليها خوفاً من انتهاك الاتفاق المعقود بينها وبين الدول الحليفة في معاهدة لوزان. وقامت بإتباع وسائل مختلفة للسيطرة عليها وذلك بالتلاعب بالمصطلحات والمسميات المتفق عليها في الأعراف الدولية، فعندما انتهت مسئوليتها بالإشراف على محطة الحجر، ووجدت أن اليمن جادة في مطالبتها بها، قامت بإصدار قانون يخول حاكم عدن بحكمها أيضاً "كما لو كانت مستعمرة بريطانية" !! مما زاد في توسع قضية جزيرة كمران، وشكلت أزمة بين اليمن وبريطانيا خلال الخمسينيات من القرن العشرين.

- اختلفت مواقف الحكومة اليمنية من السياسة البريطانية في الجزر اليمنية واتسمت تارة بالضعف وتارة بالقوة، حسب ما تمليه حالتها السياسية، حيث شعرت بأن الحكومة البريطانية تتعمد تجاهل وضع الجزر، وقد شجع موقف الحكومة اليمنية السابق والضعيف في أول الأمر، إلى تدخل بريطانيا بشكل سافر في شؤون الجزر واعتبارها أحد أهم مواقعها الإستراتيجية للحفاظ على طريق تجارتها ومواصلاتها الممتد من البحر الأحمر وعبر المحيط الهندي وصولاً إلى الهند.

والحقيقة أن جزيرة سقطرى بالذات لم تحظ بمطالبة حكومة اليمن الشمالية نظراً لأنها كانت تتبع محمية عدن التي وقعت تحت السيطرة البريطانية، إلا أنها عندما أصدرت البيان الرسمي عام

1956م، أشارت بشكل غير مباشر إلى جزيرة سقطرى كأحد المواقع والجزر اليمنية التي يجب على بريطانيا تركها لأصحاب السيادة.

وكان لأعضاء الجبهة القومية في المهرة دور فعال في الستينيات من القرن العشرين في المطالبة بخروج المستعمر من جزيرة سقطرى التابعة للمهرة، إحساساً منهم بأهميتها وأهمية سيادتها في ضمان أمن وسلامة حدود اليمن.

أما كمران فلم تتوقف المطالبة اليمنية بضرورة عودتها للسيادة اليمنية حتى بعرض شكواها أمام الأمم المتحدة، إلا أن بريطانيا تجاهلت تلك الطلبات والمطالبات من قبل الحكومة اليمنية.

وخلاصة ما نريد طرحه في هذه الدراسة أن بريطانيا سلكت سياسات متعددة في محاولة السيطرة على هاتين الجزيرتين، اللتين تعدان نقاط ارتكاز قوية في موقعين من أهم المواقع ذات الصفة الإستراتيجية العالمية، وهما البحر الأحمر والمحيط الهندي، إلا أن وحدة التاريخ والإنسان وقفت حاجزاً قوياً أمام مطامع المستعمر الذي أراد فصل البر عن البحر، وإلغاء علاقات وروابط سكان الجزر بالبر اليمني، وقد ظلت تلك الروابط والعلاقات التاريخية القديمة تقف حائلاً أمام أي تجزئة وتفتيت. وكانت إرادة سكان تلك الجزر أقوى من أي محاولة خارجية. وبرزت تلك الإرادة في أوجها في رغبتها بالتوحد عام 1990م، التي ألغت كل حدود المكان والزمان، وصارت كل تلك المواقع تمثل نقاطاً حارسة لليمن ضد أي اعتداء خارجي على سيادتها. وكان الحفاظ على تلك الثغور البحرية المهمة من الأخطار الخارجية القريبة والبعيدة من أولى المهام التي أنيطت بالحكومات اليمنية السابقة واللاحقة، ومن هذا المنطلق، فالجزر بحاجة ماسة إلى الاهتمام المتواصل في شتى المجالات وتكثيف الدراسات الأكاديمية المتنوعة حولها وتطبيقها تطبيقاً عملياً، حتى تشهد نمواً يليق بمكانتها وأهميتها بالنسبة لليمن وللعالم.

العلاقات التجارية اليمنية البريطانية

(من أوائل القرن السابع عشر حتى 1839م)*

برز الاهتمام بتاريخ اليمن في العصر الحديث بشكل كبير، إلا أن هذا الاهتمام انصب إلى حد كبير على الجوانب السياسية، ولا زالت علاقات اليمن بالدول الأخرى وخاصة في الجانب الاقتصادي تحتاج إلى المزيد من الدراسة العلمية الجادة لإزالة الغموض الذي يكتنفها.

إن دراسة العلاقات التجارية بين الدول تعتبر جزءاً من دراسة التاريخ الاقتصادي لأي بلد، كما أنها تعكس الأوضاع السياسية والاجتماعية في حياة أي أمة من الأمم. وتاريخ العلاقات التجارية أو السياسية لدولة ما يعد دراسة مكملة لدراسة التاريخ العام لهذه الدولة.

ابتسام محمد حسين الجرافي

إن دراسة تاريخ اليمن الاقتصادي في العصر الحديث، لا يقل أهميةً عن دراسة التاريخ السياسي، بل هو مكمل له، وموضح لجزئياته ومفسر لكثير من التحولات والمتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية في التاريخ اليمني الحديث؛ ولمعرفة تلك العلاقات التجارية الأثر البالغ في توضيح العلاقات الدولية. ومتابعة تطور هذه العلاقات تجعلنا نستطيع فهم الكثير من المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية عن هذه الدولة وعلاقاتها مع غيرها؛ فكثير من الأحيان يكون الاقتصاد هو الموجه والمتحكم في سياسة الدولة والعكس صحيح.

لقد أسهمت التجارة اليمنية الخارجية بدور كبير في ربط اليمن بأنحاء العالم، وكان لها دور في تعرض اليمن لكثير من الأطماع الخارجية لأهمية موقعها ونشاطها التجاري وإنتاجها لسلع تجارية، كانت تعد ذات قيمة اقتصادية مهمة في ذلك الوقت؛ ولعل أهمها البن، الذي حدد علاقة اليمن بالدول الأخرى، وكان له دور في تنافس هذه الدول على اليمن. وفي تحول هذه العلاقات التجارية إلى أطماع استراتيجية واستعمارية.

لقد كانت التجارة إحدى الأسس المشجعة لإقامة علاقات جيدة بين اليمن وبريطانيا، تعززت على مدى السنوات التالية على الرغم من العوائق التي ظهرت هنا وهناك بفعل قوى محلية أو خارجية (أوروبية أو إقليمية) كان لها دور في إحداث عرقلة للنشاط التجاري الإنجليزي والأوروبي في الموانئ اليمنية.

ولقد مثلت الموانئ اليمنية مراكز اتصال تجارية بين المحيط الهندي وجنوب شرق آسيا وغرب أوروبا في

* رسالة ماجستير قدمت إلى قسم التاريخ بجامعة صنعاء نالت بموجبها الباحثة درجة الماجستير عام 2005م في التاريخ الحديث والمعاصر، تحت إشراف: أ.د. سيد مصطفى سالم..

العصور الحديثة؛ حيث تجمعت في أسواقها السلع التجارية الآسيوية والأفريقية والأوروبية. وتولت تلك الموانئ استيراد وتصدير البضائع، وإعادة توزيع السلع التجارية على التجار العرب والعثمانيين والفرس والأفارقة والهنود وكذلك الأوروبيين.

لقد كانت العلاقات التجارية اليمنية البريطانية فاتحة للتدخل البريطاني تحت مسميات عديدة في اليمن؛ لأهمية موقع هذه الدولة كبوابة جنوبية عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر. وكان لتصريف شركة الهند الشرقية الإنجليزية للسلع الأوروبية والآسيوية في الموانئ اليمنية بهدف الحصول على النقد، بالإضافة لوجود عدد من السلع والمنتجات الزراعية والتجارية اليمنية دورٌ كبيرٌ في إقامة هذه العلاقات بين اليمن وبريطانيا. وأهم تلك السلع اليمنية القوة والصبر والبن والزبيب والجلود وغيرها، الأمر الذي كان له دور في حدوث تنافس تجاري بين شركات أوروبية مع بعضها ومع تجار دول عربية حول تجارة الموانئ اليمنية.

وتمثل العلاقات اليمنية البريطانية إحدى حلقات اتصال اليمن بالغرب. ويرجع ذلك الاتصال إلى أوائل القرن السابع عشر الميلادي عن طريق ميناء المخاء وتجارته المزدهرة.

ونستطيع أن نحدد بداية العلاقات اليمنية– البريطانية منذ 1609م. عند وصول أول رحلة إنجليزية إلى الموانئ اليمنية. ففي هذا التاريخ نشأت أولى العلاقات التجارية بين البلدين. وتعمق ذلك الاتصال بانتشار وازدهار تجارة البن التي أصبحت إحدى الروابط والحلقات المهمة في اتصال اليمن بالغرب، وتنافس الدول والشركات الأوروبية على تجارة الموانئ اليمنية، ولاسيما ميناء المخاء الميناء الرئيس الأول لليمن ولمنطقة البحر الأحمر ولتجارة البن.

وتم تأسيس أول وكالة أوروبية في المخاء "وهي الوكالة الإنجليزية" عام 1618م. وقد امتازت العلاقات اليمنية- البريطانية ولفترة طويلة من الزمن امتدت بين 1609م- 1798م. بالعلاقات السلمية والتبادل التجاري النفعي، استفاد منه كلا الطرفين بدرجات متفاوتة، إلا أن تلك العلاقات أخذت طابعاً مغايراً لما كانت عليه بشكل تدريجي منذ 1798م- مع حدوث الحملة الفرنسية على مصر- وتحولت فيها العلاقات من التركيز على التجارة إلى الاهتمام بالنواحي الاستراتيجية والسياسية، وفي الأخير تأخرت التجارة لحساب تلك النواحي والأهداف السابقة، وبدأت إنجلترا في إظهار قوتها، التي بدأت تلوح بها في منطقة البحر الأحمر.

وفي خلال تلك الفترة التاريخية من تاريخ اليمن الحديث تباينت وتغيرت العلاقات اليمنية البريطانية من مجرد الاتصال التجاري البحت إلى الاهتمام بالموقع المكاني والاستراتيجي لليمن. فاليمن تتحكم بمضيق باب المندب، أحد المنافذ البحرية المؤدية إلى الهند.

وزادت أهمية اليمن الاستراتيجية في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، عند اشتداد الصراع الاستعماري البريطاني الفرنسي، خاصة بعد الحملة الفرنسية على مصر 1798م، الذي كان نقطة للوثوب الفرنسي إلى الهند لتهديد الإنجليز في مستعمراتهم. مما حدا بالإنجليز للتفكير باليمن بشكل مغاير تماما وأصبحت نقطة مهمة في استراتيجيتهم وسياستهم في منطقة المحيط الهندي، خاصة في ظل ضعف السلطنة العثمانية والحكومات اليمنية المحلية القائمة في صنعاء وعدن آنذاك.

وبدأت بريطانيا- بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر- ترسم سياسة جديدة في منطقة البحر الأحمر عامة واليمن خاصة ترتكز على هدفين هما:

الأول الحيلولة دون خضوع هذه المنطقة تحت هيمنة أية قوة دولية قد تشكل تهديدا لمصالحها.

والثاني العمل على تأمين مواصلاتها مع الهند من

أية أخطار قد تواجهها مستقبلا.

ومع أواخر العقد الرابع من القرن التاسع عشر الميلادي نلمس تغيرا جذريا في شكل العلاقات اليمنية البريطانية، التي تحولت إلى علاقة حربية سقط فيها جزء من "اليمن" تحت سيطرة الاحتلال البريطاني، لإزالة أي خطر قد يهدد المصالح البريطانية سواء من القوى الإقليمية كمحمد علي، أو أية قوة استعمارية منافسة كالولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وروسيا.

وتهدف هذه الدراسة إلى تتبع العلاقات اليمنية البريطانية من بداياتها في أوائل القرن السابع عشر وحتى وقوع عدن تحت الاحتلال البريطاني 1839م. حاولت الباحثة من خلال هذه الدراسة إبراز طبيعة العلاقات اليمنية البريطانية خلال تلك المدة، وإبراز كيفية التعامل التجاري الذي حدث بين اليمن وبريطانيا عن طريق شركة الهند الشرقية البريطانية، وكيف تحولت تلك العلاقات اليمنية البريطانية من علاقة تجارية بحتة إلى اهتمامات سياسية واستراتيجية وأطماع استعمارية توجت بالاحتلال البريطاني لعدن 1839م.

وتحاول هذه الدراسة تغطية مراحل الاتصال الإنجليزي والأوروبي باليمن، وكيف تطور هذا الاتصال من مجرد التبادل التجاري والحصول على النقد إلى التنافس الدولي على تجارة اليمن وخاصة ما يتعلق بتجارة البن اليمني تلك السلعة التي لفتت أنظار القوى الخارجية لليمن وتجارته ثم لموقعه الاستراتيجي مما أدى إلى حدوث تنافس بين هذه القوى مجتمعة حول تجارة بن المخاء والتجارة اليمنية، لتبين الهدف البعيد للسياسة الإنجليزية الرامية إلى تحقيق أطماعها الاستعمارية في منطقة جنوب اليمن والبحر الأحمر. وكان لتلك الأطماع دور في تجزئة اليمن إلى شطرين منذ ذلك الحين وحتى عام 1990م عندما استعادت اليمن وحدتها على يد فخامة رئيس الجمهورية علي عبد الله صالح.

لقد تناولت العديد من الدراسات العلاقات التي تربط اليمن ببريطانيا وركزت في مجملها على الجانب السياسي بشكل كبير، وهناك بعض الدراسات التي اشارت في ثناياها إلى هذه العلاقة التجارية بشكل أو بآخر: غير انه يندر وجود دراسة تاريخية متخصصة في العلاقات التجارية اليمنية البريطانية- بحسب علمنا المحدود- ومن الدراسات النادرة والقليلة لتاريخ اليمن الاقتصادي التي أشارت إلى هذه العلاقات أطروحة تجارة البن للأخت الباحثة أروى الخطابي، التي ركزت فيه على كل ما يتعلق بتجارة سلعة البن بين اليمن والدول والشركات الأوروبية والتجار العرب والمسلمين.

إن دراسة التاريخ الاقتصادي لمنطقة ما تنعدم فيها السجلات والمصادر الرسمية التي تشرح تلك الأوضاع الاقتصادية تعد إحدى أكبر الصعوبات التي تواجه البحث العلمي. وهذا ما واجهته الباحثة عند كتابة هذا البحث. والملاحظ أن دراسة التاريخ الاقتصادي لليمن غير مطروق كثيرا. بسبب شحة المعلومات في هذا الجانب في المصادر الأصلية للتاريخ اليمني الحديث والمعاصر، فيصعب على الباحث في تاريخ العلاقات التجارية اليمنية البريطانية بصفة خاصة والتاريخ الاقتصادي اليمني بصفة عامة، تتبع ومعرفة حجم هذه التجارة وتحديدها تحديدا دقيقا، وكذلك دراسة الأوضاع الاقتصادية، بسبب قلة المصادر التي تناولت هذا الموضوع، ولانعدام السجلات الرسمية المعاصرة، التي تدون حجم الضرائب والصادرات والواردات وكل ما يتعلق بالتجارة والنواحي الاقتصادية عامة.

وقد أهتم المؤرخون اليمنيون السابقون برصد الأحداث السياسية والعسكرية، وقلما أشاروا هنا أوهناك إلى بعض المعلومات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والفلكية. تلك المعلومات التي لها أهميتها في دراسة جوانب التاريخ اليمني المختلفة. وقد عملتُ على

الاستفادة من المعلومات الاقتصادية ما أمكنني.

ونظرا لقلة المصادر التي تناولت تجارة الموانئ اليمنية وخاصة ما يتعلق بحركة التجارة وحجمها لكل السلع التي تعاملت بها اليمن باستثناء البن، التي كانت السلعة الرئيسة والفعالة في النشاط التجاري في الموانئ اليمنية خاصة منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي، فإننا لم نستطع رسم صورة حقيقية كاملة عن الحركة التجارية هناك، إلا بقدر ما تيسر لنا أو استطعنا معرفته من خلال القياس والاستنتاج والتحليل. وربما يُتَحْ لغيرنا ما لم يتاح لنا، وحسبنا أن هذه محاولة لفهم ومعرفة حوادث تاريخية خلال حقبة أو فترة زمنية ليست بالقصيرة من تاريخ بلادنا الاقتصادي، كان لها أثرها الكبير في سير أو توجيه الأحداث السياسية في تاريخ اليمن الحديث بصورة عامة.

وقد اعتمدت الباحثة في دراستها هذه على بعض المخطوطات اليمنية القيمة، التي بات بعضها محققا أو منشورا، والتي احتوت على جزئيات من التاريخ الاقتصادي لليمن وأوضحت بعض جوانب هذا التاريخ من خلال الإشارات التي تضمنتها تلك المخطوطات وعملت الباحثة على الاستفادة منها لإبرازها في هذه الدراسة وتحليلها ما أمكن، ومن أهم تلك المخطوطات بهجة الزمن لـ: يحيى بن الحسين بن القاسم، ودرر نحور الحور العين لـ: لطف الله جحاف، وبغية المريد لـ: عامر بن الرشيد، واللطائف السنية للكبسي وغيرها... وعثرت في ثنايا تلك المخطوطات على بعض الإشارات إلى الأوضاع الاقتصادية في الموانئ وما يتعلق بالتجار وكيفية معاملة الحكومات القائمة في اليمن مع التجار الأوروبيين، الذين تعاملوا مع الموانئ اليمنية.

ونلمس من خلال تلك المخطوطات أن بعض مؤرخينا قد اهتموا بتدوين بعض الأحوال الاقتصادية التي اعتقدوا- واعتقادهم في محله- بأن لها تأثيراً على الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في المجتمع والدولة اليمنية في تلك المدة من الزمن التي عاصروها أو كتبوا عنها. وإلى جانب المخطوطات فقد اعتمدت الباحثة على بعض الوثائق البريطانية والعربية والعثمانية المنشورة وغير المنشورة، والتي حصلت على جزء منها من المركز الوطني للوثائق، والبعض الآخر عثرت عليها في ثنايا كتاب الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم " من وثائق شبه الجزيرة العربية في عصر محمد علي"، وكذلك بعض الوثائق المتضمنة ملاحق كتاب " تطور الأوضاع السياسية في جنوب غرب الجزيرة العربية إمارة أبي عريش" للدكتور محمد آل زلفة كما استفادت الباحثة من سجل الحوادث والمراسلات المتبادلة بين الإمام المنصور علي مع شريف مكة وحاكم الهند البريطاني وغيرهم، والتي كتبها الشوكاني باسم الإمام. وقد جمعها الدكتور صالح رمضان تحت عنوان ذكريات الشوكاني ولم يكن الدكتور رمضان- محقق الكتاب- دقيقا في وضع هذا العنوان لهذا الكتاب لأن تلك الوثائق التي نشرها في الكتاب المشار إليه سلفا، لم تكن ذكريات بل مراسلات كما أسلفنا. كما اعتمدتُ على بعض الوثائق البريطانية الموجودة في كتاب "Records of Yemen" لإنجرامس، واستفادت الباحثة من المعلومات التي استقاها كل من سلطان القاسمي في كتابه الاحتلال البريطاني لعدن، وفاروق أباظة في كتابه " عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر"، وجاد طه في كتابه بريطانيا وجنوب الجزيرة العربية، التي استمدوها من الوثائق التي لم يتيسر الحصول عليها، فأخذنا المعلومات وأسندناها للوثائق البريطانية نقلا عنهم.

وقد استعانت الباحثة- إلى جانب تلك المخطوطات والوثائق- بعدد من الدراسات والأبحاث العربية والأجنبية والدوريات، التي تناولت جزئيات مهمةً من موضوع البحث، ووجدت في ثناياها معلومات

مفيدة تدعم الموضوع وتنميه.

وقد قمنا بمحاولة ربط الأحداث السياسية وفقاً لمجريات الأوضاع الاقتصادية والعكس، فعلى سبيل المثال عندما تحدثنا عن تدني الأوضاع الاقتصادية في الموانئ فإنما ذلك يكون ناتجا عن خلل أمني أو بسبب الصراع على منصب الإمامة أو هو ناتج عن هجمات القبائل على الموانئ أو حدوث غزوٍ خارجي، أو أعمال قرصنة، فنربط ذلك بالوضع السياسي والاقتصادي القائم في البلاد، ونحاول من خلاله توضيح دور الحكومة في مواجهة تلك الأعمال أو في التقليل من آثارها، لأهمية التجارة بالنسبة للحكومة اليمنية في ذلك الحين، وحاولت الباحثة توضيح ذلك من أجل إعطاء صورة واضحة عن حقيقة الأوضاع في اليمن سياسيا واقتصاديا، التي أدت إلى تلك التطورات في الموانئ وتأثيرها على الأحوال التجارية هناك، وانعكاساتها على علاقات اليمن الخارجية، وعلى علاقة اليمن بغيرها وخاصة ببريطانيا التي هي موضوع الدراسة.

وتكمن فائدة دراسة تاريخ العلاقات التجارية اليمنية البريطانية في أنها تسمح للباحث بتنويع مصادر بحثه، وفي سعة الإطلاع على التاريخ الأوروبي واليمني والعربي، والربط بين الأحداث الواقعة في أوروبا والمحيط الهندي والبحر الأحمر.

ومن أجل تيسير دراسة هذا الموضوع فقد قسمناه زمنيا إلى تمهيد وأربعة فصول وخاتمة، حاولت الباحثة من خلاله الإلمام بالجوانب المختلفة لهذا الموضوع ما أمكنها ذلك ومراعية في ذلك التسلسل الزمني للأحداث.

التمهيد بعنوان: نبذة جغرافية وتاريخية عن اليمن قبيل وصول الإنجليز.

وقد تضمن جانبين الأول: جغرافي، والثاني: تاريخي. أوضحتُ في الجانب الأول منه موقع اليمن، وأهمية هذا الموقع على البحر الأحمر والبحر العربي وانفتاحها على المحيط الهندي وتحكمها بمضيق باب المندب، المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، الأمر الذي لفت أنظار القوى الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا إلى هذا الموقع، وابرزت من خلال هذا الجزء الجغرافي تأثير الموقع في تعدد القوى المسيطرة على اليمن، وبينت الباحثة أثر هذا الموقع في زيادة النشاط التجاري وقيام اليمن بممارسة التجارة البحرية مع جنوب شرق آسيا والخليج العربي والقوى التي وصلت إلى المحيط الهندي، وقد شرحت في الجانب الثاني من التمهيد الأوضاع السياسية والاقتصادية في اليمن في القرن السادس عشرأي قبيل الاتصال الأوربي عامة والإنجليزي خاصة بالموانئ اليمنية وكيف كان النشاط التجاري في موانئ اليمن قبيل القرن السابع عشر الميلادي تحت الإدارة العثمانية(أثناء حكمها لليمن)؟ مع التركيز في الوقت نفسه أحداث 1597م-1635م السياسية والاقتصادية لارتباطها وتأثرها وتأثيرها بموضوع الدراسة.

الفصل الأول: وصول القوى الأوروبية إلى المحيط الهندي وتأسيس القنصليات الأوروبية في المخاء (1600- 1635م).

ومن خلال هذا الفصل حاولت الباحثة توضيح أسباب اهتمام الإنجليز وبقية القوى الأوروبية بالشرق وتجارته، وكيف بدأ احتكاكهم واتصالهم بالمحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر وخاصة بالموانئ اليمنية، وبينت أهدافهم من هذا الاتصال ومحاولاتهم إنشاء وكالات ثابتة لهم في الموانئ اليمنية، كما أوضحت بعضا من جوانب التنافس بين القوي الأوربية المختلفة في منطقة المحيط الهندي عامة، بحسب التسلسل الزمني؛ وبينت أثره على النشاط التجاري والأمن الملاحي في المحيط الهندي ومداخله.

الفصل الثاني: التجارة الأوروبية في المخاء في ظل الحكم القاسمي (1635- 1709م)

شرحت الباحثة فيه النشاط التجاري الأوروبي خلال

المهد القاسمي، كما بينت في هذا الفصل الجهات التي تعاملت مع اليمن تجاريا. وعددت أسباب ازدهار الحركة التجارية في الموانئ اليمنية، التي ترجع إلى ازدهار تجارة البن، بسبب احتكار اليمن لتجارة البن. وأوضحت نظام التعامل التجاري في الموانئ اليمنية ودور التجار والوكالات التجارية، وذكرت أهم السلع التجارية التي تاجرت بها اليمن فيما يتعلق بتجارة الصادرات والواردات. وأبرزت العوائق التي أثرت على النشاط الأوروبي آنذاك، وأبرزها القرصنة الأوروبية والاعتداءات العمانية على النشاط التجاري في البحر الأحمر والموانئ اليمنية كما بينت أثر الأوضاع الأمنية في اليمن على تجارة الموانئ اليمنية ونشاطها التجاري.

الفصل الثالث النشاط التجاري الأوروبي في الموانئ اليمنية (1709- 1798)

وتناولت فيه دخول البن كعامل مهم في مجال التنافس التجاري العالمي كإحدى أهم السلع التي حاولت الشركات الأوروبية الكبرى المتمثلة بشركة الهند الشرقية الإنجليزية والشركات الهولندية والفرنسية، والنمساوية والسويدية والمصريين والعثمانيين والفرص للحصول عليه. وأوضحت تأثير الصراع والمنافسة بين تلك الشركات مع بعضها البعض. وتأثير تحول زراعة البن إلى جنوب شرق آسيا وأثره على الوضع التجاري والاقتصادي والسياسي في اليمن بشكل عام وعلى علاقة اليمن ببريطانيا.

الفصل الرابع النشاط الإنجليزي في الموانئ اليمنية 1798-1839م.

حاولت الباحثة من خلال هذا الفصل بيان تأثير الحملة الفرنسية على مصر في تحول السياسة التجارية الإنجليزية مع اليمن إلى اهتمامات استراتيجية وأطماع استعمارية. وأبرزت الباحثة من خلال هذا الفصل تأثير المنافسة الأمريكية والقوى الإقليمية مثل الوهابية ومحمد علي على المصالح الإنجليزية ورد الفعل البريطاني تجاه كل تلك الأخطار التي واجهت المصالح البريطانية. وأوضحت الباحثة كيف أن الاحتلال كان أحد الحلول لمواجهة تلك الأخطار؛ حيث شرحت دواعي الاحتلال ومواقف الحكومات اليمنية والمصرية والعثمانية حيال ذلك الأمر.

وعلى الرغم من أن هذه الدراسة تنتهي بوقوع الاحتلال البريطاني لعدن، إلا أن تأثير هذا الاحتلال على أوضاع اليمن السياسية وعلى الحركة التجارية في موانئها التجارية، وخاصة الموانئ الغربية منها، جعلنا نركز على توضيح ردود الأفعال تجاه هذا الحدث، وكذلك بيان أثره في ازدهار ميناء عدن على حساب تدهور ميناء المخاء. إذ اختتمتُ الفصل بالنتيجة الأساسية لانعكاس تأثير الاحتلال البريطاني على عدن في تحول النشاط التجاري من المخاء إلى عدن. بهدف محاربة النفوذ المصري في اليمن، لما لذلك الأمر من أهمية في اقتصاد وسياسة اليمن، وفي علاقتها مع بريطانيا.

الخاتمة:

تعدُ اليمن أحد المراكز التجارية المهمة في العالم خلال القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر، لذلك تسابقت كثير من الدول والشركات في العالم إلى إقامة علاقات تجارية معها بهدف الحصول على أهم سلعها التجارية وفتحها سوقا تجارية لمنتجات تلك الدول.

وكانت العلاقات التجارية اليمنية الإنجليزية هي النتيجة الأولى لمعرفة الإنجليز بأهمية موقع اليمن الاستراتيجي المتميز عند المدخل الجنوبي من البحر الأحمر.

وانصب الاتصال الإنجليزي والأوروبي باليمن في بادئ الأمر على فتح أسواق جديدة للمنتجات الأوروبية والآسيوية التي تتاجر بها الشركات الإنجليزية

والهولندية للحصول على النقد. وما لبثت اليمن أن أصبحت مصدرا لسلع تجارية لها أهميتها في النشاط التجاري في منطقة المحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج العربي وأوروبا. وزاد الطلب على بعض تلك السلع عالميا، لدرجة أن تسابقت الدول والشركات العالمية في إقامة علاقات تجارية مباشرة مع الموانئ اليمنية وخاصة المخاء، وتطور هذا السباق ليتحول إلى تنافس تجاري ثم صراع حربي بين القوى المحلية والإقليمية والشركات الدولية المتنافسة فيما بينها على تجارة المخاء والموانئ اليمنية وعلى منطقة البحر الأحمر بصورة عامة، وفي خضم ذلك الصراع والتنافس، جنت بريطانيا ثماره باحتلالها لعدن 1839م، ومنها بدأت ترنو بأنظارها نحو مصر والسواحل الأسيوية والأفريقية المطلة على البحر الأحمر وخليج عدن. فكان للعلاقات التجارية اليمنية البريطانية أثرها الكبير في معرفة البريطانيين لأهمية البحر الأحمر من الناحية الاستراتيجية لحماية المصالح والمكاسب الإنجليزية في الهند والمحيط الهندي. وكما أدرك الإنجليز أهمية هذا البحر كطريق تجاري يربط جنوب آسيا بأوروبا تجاريا وبريديا.

ونجد- من خلال هذه الدراسة- أن للاستقرار الأمني في اليمن- في ذلك الحين- دوراً كبيراً في ازدهار النشاط التجاري في الموانئ اليمنية، في الوقت نفسه كان للأحداث الإقليمية والدولية أثرها الكبير على النشاط التجاري في اليمن سلبا وإيجابا.

ونخلص من هذه الدراسة- كذلك- إلى أن اختيار عدن واحتلالها من قبل الإنجليز يدلل على احتياجات اقتصادية واستراتيجية وقومية خاصة بالدولة الإنجليزية، تمثلت تلك الاحتياجات في استخدام عدن محطة لتموين السفن بالفحم والماء والمؤن اللازمة لها واتخاذها مركزا لتوقيف توسعات محمد علي وتصفية نفوذه من الجزيرة العربية حتى لا يهدد طريق المواصلات إلى الهند عبر الخليج العربي والبحر الأحمر ثم الاستحواذ على التجارة اليمنية وخاصة تجارة البن وتحطيم المنافسة الأمريكية واتخاذ عدن قاعدة دفاعية لمواجهة المنافسة الروسية والفرنسية والنمساوية.

ومن خلال هذه الدراسة نؤكد على ضرورة استغلال الموقع الجغرافي لليمن بما يخدم أمن هذه الدولة واستقرارها و بما يعود عليها بالمنفعة الاقتصادية من خلال العمل على إحياء النشاط التجاري البحري في الموانئ اليمنية مع موانئ المحيط الهندي والموانئ الأخرى في كافة أنحاء العالم كون التجارة تعد إحدى أهم مقومات الاقتصاد الناجح خاصة إذا ما كان حجم الصادر أكثر من الوارد، الأمر الذي سيؤدي إلى تحسين الاقتصاد الوطني خاصة مع العمل على إيجاد أساليب إنتاج متطورة في المجالات الزراعية والصناعية والصناعات الاستخراجية، والعمل على تشجيع المحاصيل النقدية التي تدر دخلا جمركيا كبيرا على الحكومة اليمنية، مما سيكون له أثره على الدخل القومي لليمن، الأمر الذي سينعكس على اقتصادياتها وعلى العمران ومعيشة الإنسان اليمني.

ومما لاشك فيه أن تحويل ميناء عدن الآن إلى ميناء تجاري حر سيعيد لليمن مجدها التجاري وسيساهم في تقوية اقتصادها.

تطور الفكر السياسي في اليمن*

1930-1962م

إسماعيل قحطان

وقد قسم الباحث دراسته هذه إلى تمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة.

تناول التمهيد نبذة مختصرة عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في كل من المملكة المتوكلية ومستعمرة عدن ومحمياتها.

وتناول الفصل الأول، المؤثرات التي ساهمت في تشكل وتطور الفكر السياسي في اليمن، ومنها مؤثرات داخلية، كالمؤثرات التراثية، المتمثلة في الفكر السياسي الإسلامي، وسياسات المملكة المتوكلية الداخلية والخارجية، وانقلاب 1948م، وتأثيرات فشله، وانقلاب 1955م، وفشله وما أثير من جدل سياسي حوله، والاستعمار في الجنوب وسياساته، والمنظمات والأحزاب المحلية، التي كان لها دور في التأثير على تطور الفكر السياسي والحركة الوطنية.

ثم المؤثرات الخارجية، التي تمثلت في كتابات المفكرين العرب من ذوي الاتجاهات الإسلامية والاتجاهات العروبية الاستقلالية خلال القرن التاسع عشر وحتى أواخر العهد التركي، كما تمثلت في القضية الفلسطينية، وثورة 1952م في مصر واطروحات الأحزاب القومية والإسلامية والشيوعية، وتحقق أول محاولة وحدوية عربية (وحدة مصر وسوريا) ثم فشلها.

وفي الفصل الثاني، تطرق إلى أهم القضايا التي تناولها الفكر السياسي اليمني في شمال اليمن، وهي فكرة الإمامة التي وجدت في اليمن لفترة تزيد عن ألف عام وحُكم اليمن بواسطتها، وفكرة الإمامة الدستورية التي طرحتها حركة الأحرار اليمنيين، كبديل للحكم الإمامي المطلق، وفكرة الجمهورية التي تبناها الأحرار اليمنيين بديلا عن فكرة الإمامة الدستورية بعد فشلهم في انقلابي 1948م و 1955م.

وتناول الفصل الثالث أهم قضايا الفكر السياسي في جنوب اليمن، وهي: فكرة الحكم الذاتي التي دعت إلى قيام حكم مستقل لمستعمرة عدن وفكرة الجنوب العربي، التي دعت إلى قيام حكم يضم عدن والمحميات دون الاعتراف بكونها يمنية. وفكرة الجنوب اليمني التي كانت فكرة مضادة للفكرتين السابقتين الداعيتين إلى فصل عدن عن بقية أجزاء اليمن تحت شعار (عدن للعدنيين)، وفصل عدن ومحمياتها عن شمال اليمن تحت اسم (الجنوب العربي).

وفي الفصل الرابع- الأخير-، تناول أهم قضايا الفكر السياسي اليمني في عموم اليمن ومنها الوحدة الإسلامية والوحدة العربية والوحدة اليمنية، والقضية الفلسطينية والاستعمار.

أما الخاتمة، فقد تضمنت خلاصة عامة للبحث وأهم النتائج التي توصل إليها الباحث.

* عنوان أطروحة نال عنها الباحث درجة الماجستير في التاريخ الحديث: قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة صنعاء، 2005م.

أهمية الدراسة:

وتستمد هذه الدراسة أهميتها من الآتي:

أولاً: أهمية الموضوع الذي تبحث فيه حيث تبحث في الفكر السياسي في اليمن خلال الفترة الممتدة بين عامي 1930م و 1962م وهي فترة تاريخية لم يسبق لأي باحث - حسب علمي - أن درسها. ولم أجد دراسات أكاديمية متخصصة كرست لتتبع تطور الفكر السياسي في اليمن شماله وجنوبه.

ثانياً: ركزت الدراسة على أهم القضايا التي تناولها الفكر السياسي في شمال اليمن، وأهم القضايا التي تناولها الفكر السياسي في جنوب اليمن، ثم أهم القضايا التي كانت قاسماً مشتركاً للفكر السياسي اليمني في عموم اليمن. وبذلك يمكن أن تُعد هذه الدراسة محاولة تناولت الفكر السياسي في اليمن كله (شماله وجنوبه) خلال الثلاثين عاماً التي سبقت قيام ثورة 1962م. دون الاقتصار على دراسة جزء من اليمن دون آخر.

ثالثاً: أن من أهمية هذه الدراسة، تتبعها التاريخي للحركات والتنظيمات السياسة في شمال اليمن وجنوبه، والتي أسهمت في تطور الفكر السياسي في اليمن من حيث نشأتها، واستمرارها، أو انقسامها وتفككها في بعض الحالات كما حدث للجمعية العدنية، أو قيام تحالفات وتكتلات سياسية من عدد من هذه التنظيمات مثل الجبهة الوطنية المتحدة، وكذلك تتبع الأفكار السياسة لكل حركة ومدى تأثير هذه الحركة على مجرى الأحداث.

رابعاً: وتكمن أهمية الفترة التاريخية موضع الدراسة في أنها تعد مرحلة تحول خطير في تاريخ اليمن الحديث. فهي المرحلة التي شهدت نهاية الحكم الإمامي في الشمال، ونمت فيها عوامل الثورة على الوجود الاستعماري في الجنوب، الذي أنهى احتلاله لمستعمرة عدن فيما بعد (عام 1967م).

خامساً: أن هذه المرحلة من تاريخ اليمن (1930- 1962م) وما نشأ فيها من أفكار سياسية، تمثل جزءاً من تاريخ اليمن السياسي الذي ما يزال ممتداً إلى الآن ويمكنها أن تعطينا تصوراً عن طبيعة الوضع السياسي الحالي في اليمن. حيث أن كثير من تلك التنظيمات السياسية ما زالت قائمة حتى الآن وما تزال تتبنى كثير من الأفكار التي تبنتها حين النشأة.

ويأتي **اختيار الموضوع لأسباب**، كان من أهمها أن هذا الموضوع أنه لم يحظ بدراسات عميقة قائمة بذاتها، واقتصر الحديث عنه في الكتابات والدراسات المختلفة إما على شكل تناولات موجزة وسريعة أو على شكل إشارات عابرة ضمن سياق دراسات تاريخية متعددة الجوانب مثل كتاب حركة المعارضة اليمنية للدكتور أحمد قائد الصايدي، وكتاب مجلة الحكمة اليمانية للدكتور سيد مصطفى سالم، وكتاب تطور مسار الحركة الوطنية في اليمن الديمقراطية لعادل رضا، وكتاب معالم تاريخ اليمن المعاصر 1905- 1948م للدكتور عبدالعزيز المسعودي. فإن هذه الدراسة قد اعتمدت اعتماداً أساسياً على المصادر الأولية المتمثلة بالكتابات الصادرة عن الحركات السياسية في الشمال والجنوب، المتناثرة في المجلات والصحف والمنشورات والكتيبات والبرامج المعلنة على مدى ثلث قرن تقريباً، بقصد استخراج الآراء والتصورات والاجتهادات ذات الطابع الفكري السياسي.

ومن اللافت للنظر أن هذا التطور في التفكير السياسي عند حركة المعارضة في الشمال والحركة الوطنية في الجنوب لم يجد أي دراسات أكاديمية متخصصة كرست لتتبعه في اليمن شماله وجنوبه، في الفترة الممتدة من عام 1930م. وحتى قيام النظام الجمهوري في

الشمال عام 1962م. وهذا التحديد للإطار الزمني لهذه الدراسة (1930- 1962م.) مكن الباحث من تتبع الفكر السياسي في اليمن منذ بداياته الملموسة التي عبرت عنها كتابات من يمكن تسميتهم بالمستنيرين في شمال اليمن وكتابات بعض أبناء الأسر العدنية المتعلمة في الجنوب في عقد الثلاثينات من القرن الماضي، وحتى عشية ثورة سبتمبر 1962م.

وقد خلص الباحث إلى نتائج أهمها:

◆ إن النزعة الاستبدادية، وتوريث الحكم في الدولة المتوكلية كان نتيجة لأفكار سياسية دينية مسبقة ترسخت منذ قيام الدولة الهادوية في اليمن على يد الهادي يحيى بن الحسين، والتي اعتمدت نظرية التفويض الإلهي للحاكم وإعطائه السلطة المطلقة على اعتبار انه الوصي من الله على عباده، كما اعتمدت مبدأ الوراثة وحصر الإمامة في أبناء فاطمة بنت الرسول (ص) مخالفا بذلك مذهب الإمام زيد الذي يجيز إمامة غير الفاطمي.

◆ إن الدعوة لإقامة نظام حكم جمهوري في الشمال لم يكن بالأمر الهين؛ فقد لاقت معارضة وعداء من أطراف عديدة في شطري اليمن، كما لاقى دعاتها العنت الشديد من القوى السياسية التي تتعارض مصالحها مع نظام الحكم الجمهوري. فقد عارضها الرابطيون واعتبروها دعوة انفصالية، والسبب في ذلك خوفهم من قيام نظام حكم قوي في الشمال يعمل على ضم عدن والمحميات إلى الدولة الجديدة. كما عارضها الشيوعيون في البداية واعتبروها دعوة انفصالية موالية للاستعمار وأنها مجرد احتياطي وحليف قوي له، والسبب في ذلك ارتباطهم بعلاقة مع المملكة المتوكلية والإمام أحمد.

◆ إن حركة المعارضة للحكم المتوكلي، مرت بمراحل من التطور الفكري السياسي، حيث بدأت بالمراهنة على إصلاح سياسات الإمام يحيى ونظام حكمه عن طريق النصح وتأكيد الولاء والطاعة له. ثم أخذت بعد يأسها من الإمام يحيى تراهن على ابنه وولي عهده الشاب (أحمد)، الذي توسمت فيه الخير وتوقعت حدوث الإصلاح على يديه. ولما كشف ولي العهد عن حقيقته وعبر عن نيته في البطش برجال المعارضة، ارتقى التفكير السياسي للمعارضين إلى طرح فكرة الإمامة الدستورية، أي الإمامة المقيدة بدستور كبديل للإمامة ذات السلطة المطلقة. ولما فشل انقلاب 1948م. ومن بعده انقلاب 1955م. وبفعل تأثير الأفكار الثورية، القادمة من المحيط العربي، وخاصة من مصر، شهد الفكر السياسي اليمني نقلة جديدة؛ حيث أخذ الأحرار اليمنيون يتبنون بصورة علنية وواضحة فكرة النظام الجمهوري.

◆ رغم إسهام جميع القوى السياسية اليمنية في تطور الفكر السياسي في اليمن إلا أن هذا الإسهام لم يكن جميعه على نفس المستوى، فقد تبنى بعضها فكرا سياسيا ضيقا كفكرة الحكم الذاتي لمستعمرة عدن في إطار التبعية لبريطانيا، وفكرة الجنوب العربي المنفصل عن كيان اليمن الأم، في حين تبنى بعضها الأخر فكرا أكثر اتساعا، كفكرة الوحدة اليمنية، والوحدة العربية، والوحدة الإسلامية.

◆ إن تطور الفكر السياسي خلال الفترة من 1930- 1962م. والمؤثرات الفكرية التي أدت إلى هذا التطور، وأثر هذا التطور على الأوضاع الداخلية لليمن. أدى إلى إضعاف سلطة الحكومة المتوكلية في الشمال ثم سقوطها، وكذلك إضعاف سلطة الاستعمار الإنجليزي في الجنوب، وفي النهاية خروجه منه.

استدراك

عند طبع العدد الماضي من المجلة سقطت فقرة من دراسة الدكتور مجبل لازم مسلم المالكي "تحقيق المخطوطات اليمنية ونشرها" - دراسة تحليلية- والفقرة المشار إليها من الموضوع الجدول (ببليوجرافيا الكتب المحققة) تتضمن العناوين من رقم (264-358)، ونستدرك في هذا العدد بنشر الفقرة المشار إليها.

264- المقرائي، يحيى بن محمد/مكنون الستر في تحرير تحارير السر/ تحقيق زيد بن علي الوزير، صنعاء: مركز التراث والبحوث اليمني، 2002م.

265- المقري، إسماعيل بن أبي بكر (ت 837هـ)" عنوان الشرف الوافي في علم الفقه والعروض والتاريخ والنحو والقوافي"/ تحقيق عبد الله إبراهيم الأنصاري، أبو ظبي (قطر): المجمع الثقافي، 1985م.

266- عنوان الشرف الوافي/ تحقيق عبدالله إبراهيم الأنصاري، صنعاء: مكتبة الإرشاد، 1996م.

267- المقريزي، أحمد بن علي (ت 845هـ)، "الطرفة الغريبة من أخبار وادي حضرموت العجيبة" / تحقيق بول سكلوج. بون، 1866م.

268- الملك الأشرف، عمر بن يوسف الرسولي (ت 696هـ)، "طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب"/. دمشق: المجمع العلمي العربي، 1949م.

269- - - - - - - - -. - طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب/ تحقيق ك. و. سترستين. ط2، صنعاء: دار الكلمة، 1985م.

270- - - - - - - - - - - العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك/ تحقيق شاكر محمود عبد المنعم، بغداد: دار البيان، 1975م.

271- المعتمد في الأدوية المفردة/ تحقيق مصطفى السقا. بيروت: دار المعرفة، 1975م.

272- المعتمد في الأدوية المفردة/ تحقيق محمود عمر الدمياطي. بيروت: منشورات محمد علي بيضون (دار الكتب العلمية) 2000م.

273- المغني في البيطرة/ تحقيق رمزية محمد الأطرقجي. بغداد: مركز إحياء التراث العلمي العربي، 1989م.

274- ملح الملاحة في معرفة الفلاحة/ تحقيق عبدالله محمد علي مجاهد. دمشق: دار الفكر، 1987م.

275- الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة (ت 614هـ). "العقد الثمين في أحكام الأئمة الهادين"/ تحقيق عبد السلام عباس الوجيه، صنعاء: مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، 2001م.

276- - - - - - - - المجموع المنصوري (2) مجموع رسائل الإمام عبد الله بن حمزة (القسم الأول)/ تحقيق عبدالسلام عباس الوجيه. صنعاء: مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، 2002م.

277- - - - - - - - - - - - المجموع المنصوري (2) مجموع رسائل الإمام عبد الله بن حمزة (القسم الثاني)/ تصحيح ومقابلة عبد السلام عباس الوجيه. صنعاء: مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، 2002م.

278- - - - - - - - - - - - المهذب في فتاوى الإمام عبد الله بن حمزة/تصحيح ومقابلة عبد السلام عباس الوجيه. صنعاء: مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، 2001م.

279- المهري، سليمان بن أحمد (القرن العاشر الهجري) "العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية"/ تحقيق إبراهيم الخوري، دمشق، مجمع اللغة العربية، 1970م.

280- المهلا الشرفي، القاضي الحسين بن الناصر (ت 1111هـ). "مطمح الآمال في إيقاظ جهلة العمال من سيرة الضلال/ تحقيق عبد الله بن عبد الله الحوثي، صنعاء: مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، 2002م.

281- الموزعي، عبد الصمد بن إسماعيل."الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان/تحقيق عبدالله محمد الحبشي، بيروت، منشورات المدينة، 1986م.

282- مؤلف مجهول (عاش في القرن التاسع الهجري). "تاريخ الدولة الرسولية في اليمن"/ تحقيق عبد الله محمد الحبشي، صنعاء: دار الجيل، 1984م.

283- مؤلف مجهول، "صفحات مجهولة من تاريخ اليمن" / تحقيق القاضي الحسين بن أحمد السياغي. صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، 1978م.

284- الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهاروني(ت411هـ)."التبصرة في العدل والتوحيد"/تحقيق عبد الله الشريف. صنعاء، مكتبة مركز بدر العلمي والثقافي، 2002م.

285- - - - - - - - - - - - "التجريد في فقه الإمامين الأعظمين القاسم بن إبراهيم والهادي يحيى بن الحسين عليهما السلام"/ تحقيق عبد الله بن حمود العزي، عمّان: مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، 2002م.

286- - - - - - - - - - - - "سياسة المريدين"/ تحقيق عبد الله بن إسماعيل بن هاشم الشريف. صنعاء: مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، 2002م.

287- الإمام المؤيد بالله محمد بن إسماعيل بن القاسم (ت 1097هـ)."مذكرات المؤيد بالله محمد بن إسماعيل"/ تحقيق عبد الله محمد الحبشي. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1991م.

288- الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة (ت 749هـ). "الانتصار على علماء الأمصار" (الجزء الأول من كتاب الطهارة، باب الوضوء)/ تحقيق عبد الوهاب بن علي المؤيد، وعلي بن أحمد مفضل. صنعاء: مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، 2002م. (ج2 +ج3).

289- تربية الأبناء (منتزع من كتاب تصفية القلوب)/ أعدّه وقدم له عبد الله بن حمود العزي. صنعاء: مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، 2001م.

290- - - - - - - - - - - - - - تصفية القلوب من أدران الأوزار والذنوب/ تحقيق حسن محمد مقبولي الأهدل. صنعاء: مكتبة الجيل الجديد، 1993م.

291- - - - - - - - - - - - - - الديباج الوضي في الكشف عن أسرار الكلام الوصي/ تحقيق خالد قاسم المتوكل، صنعاء: مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، 2003م، ج6.

292- - - - - - - - - - - - - - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز / تحقيق عبد الحميد هنداوي. بيروت: المكتبة الرضوية، 2002م. ج3.

293- - - - - - - - - - - - - - المعالم الدينية في العقائد الإلهية/ تحقيق سيد مختار محمد أحمد. بيروت: دار الفكر المعاصر، 1988م.

294- المؤيدي، مجد الدين بن محمد بن منصور، "البلاغ الناهي عن الغناء وآلات الملاهي"/ تحقيق مركز بدر العلمي والثقافي، صنعاء: مكتبة المركز، 1999م.

295- - - - - - - - - - - - - - التحف شرح الزلف/ تحقيق مركز بدر العلمي والثقافي، صنعاء: مكتبة المركز، 1997م.

296- - - - - - - - - - - - - - - الرسالة الصادعة / تحقيق مركز بدر العلمي والثقافي، صنعاء، مكتبة المركز، 1997م.

297- المؤيدي عبد الرحمن بن حسين شايم، رفع الخصاصة عن قراء لباب المصاصة وشرح نظم الخلاصة للإمام الهادي بن إبراهيم الوزير/ تحقيق عبدالله بن حمود العزي، صنعاء: مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، 2002م.

298- المؤيدي، الشهيد يحيى بن محمد (ت 1412هـ)، "طالب يبحث عن عقيدة صحيحة"/ تحقيق عبد الرحمن المروني، صنعاء: مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية. 2002م.

299- الناشري، حمزة بن عبد الله (ت 926 هـ)، "انتهاز الفرص في الصيد والقنص"/ تحقيق عبد الله محمد الحبشي، بيروت: منشورات المدينة، 1986م.

300- الناشري، عثمان بن عمر بن أبي بكر الزبيدي. "شرح الإمام الزبيدي على متن الدرّة في القراءات الثلاث المتممة للقراءات العشر لأبي الخير الجزري الشافعي"/ تحقيق عبد الرزاق إبراهيم موسى، بيروت: المكتبة العصرية، 1989م.

301- النجري، عبدالله بن محمد اليمقي، (ت 877هـ) "شفاء العليل في شرح الخمسمائة آية من الترتيل"/ تحقيق أحمد علي أحمد الشامي، صنعاء: مكتبة الجيد الجديد، 1986م.

302- نشوان بن سعيد الحميري (ت 753هـ)، "الحور العين" / تحقيق كمال مصطفى. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1948م.

303- - - - - - - - - - - - - - - -
- (ت 753هـ)، "الحور العين"/ تحقيق كمال مصطفى.ط2، صنعاء: المكتبة اليمنية، 1985م.

304- - - - - - - - - - - - - - - -
- - "شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم"/ تحقيق حسين عبدالله العمري، مطهر بن علي الإرياني، ويوسف محمد عبد

الله، دمشق: دار الفكر، 1999م، ج12.

305- - - - - - - - - - - - - - - - -

- "ملوك حمير وأقيال اليمن"، قصيدة نشوان بن سعيد الحميري وشرحها المسمّى خلاصة السيرة الجامعة لعجائب أخبار الملوك التبابعة/ باعتناء فون كريمر. ليبزك، 1865م.

306- - - - - - - - - - - - - - - - -

- "ملوك حمير وأقيال اليمن"/ تحقيق علي بن إسماعيل المؤيد، وإسماعيل بن أحمد الجرافي. القاهرة: المطبعة السلفية، 1378هـ (1958م).

307- - - - - - - - - - - - - - - - -

- "منتخبات في أخبار اليمن"(من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب)/ تحقيق عظيم الدين أحمد خان. ليدن، 1916م (سلسلة جب التذكارية).

308- منتخبات في أخبار اليمن/ اعتنى بنسخه وتصحيحه عظيم الدين أحمد خان. ط2. صنعاء: وزارة الإعلام والثقافة، 1981م: (مشروع الكتاب رقم 318).

309- النعمى التهامي، أحمد بن أحمد (ت حوالي 1260هـ). "حوليات"/ تحقيق حسين عبد الله العمري، صنعاء: دار الحكمة اليمانية، 1987م. (طبع في دمشق، دار الفكر).

310- النهروالي، قطب الدين، محمد بن علي (ت 990هـ) "البرق اليماني في الفتح العثماني"(نشر بعنوان: غزوات الجراكسة والأتراك في جنوب الجزيرة)/ تحقيق حمد الجاسر، الرياض: منشورات دار اليمامة، 1967م.

311- الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم (ت 298هـ). "مجموع رسائل الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم (الرسائل الأصولية)/ تحقيق عبد الله محمد الشاذلي، صنعاء: مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، 2001م.

312- - - - - - - - - - - - - - - - -

المنزلة بين منزلتين/ تحقيق عبد الله بن حمود العزي، صنعاء: مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، 2003م.

313- الهاروني، يحيى بن الحسين بن هارون (ت 424 هـ) " الإفادة في تاريخ أئمة الزيدية"/ تحقيق محمد يحيى سالم عزان، صنعاء: دار الحكمة اليمانية، 1996م.

314- - - - - - - - - - - - - - - - -

التحرير/ تحقيق محمد يحيى سالم عزان، صنعاء: مكتبة مركز بدر العلمي والثقافي، 1997م.

315- - - - - - - - - - - - - - - - -

تيسير المطالب في أمالي السيد أبي طالب/ تحقيق عبد الله بن حمود العزي، صنعاء: مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، 2002م.

316- شرح البالغ المدرك/ تحقيق محمد يحيى سالم عزان، صنعاء: مكتبة مركز بدر العلمي والثقافي، 1997م.

317- همام بن منبه اليمني (ت 131 هـ). " صحيفة همام بن منبه/ تحقيق ودراسة محمد حميد الله، دمشق: المجمع العلمي العربي، 1953م.

318- الهمداني، الحسن بن أحمد (ت 344 هـ). "الإكليل" (ج1)/ تحقيق محمد بن علي الأكوع. القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، 1963م.

319- - - - - - - - - - - - - - - - -

الإكليل (ج1)/ تحقيق محمد بن علي الأكوع، بغداد: وزارة الثقافة والإعلام (دار

الحرية)، 1977م.

320- - - - - - - - - - - - - الإكليل (ج[1])/ تحقيق محمد بن علي الأكوع، ط3، بيروت: منشورات المدينة، 1986م.

321- - - - - - - - - - - - - الإكليل (ج[2])/ تحقيق محمد بن علي الأكوع، القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، 1965م.

322- - - - - - - - - - - - - الإكليل (ج[2])/ تحقيق محمد بن علي الأكوع، بيروت: منشورات المدينة، 1986م.

323- - - - - - - - - - - - - الإكليل (ج[8])/ تحقيق الأب انستاس ماري الكرملي، بغداد: مطبعة السريان الكاثوليكية، 1931م.

324- - - - - - - - - - - - - الإكليل (ج[8])/ تحقيق نبيه فارس، برنستن، 1940م.

325- - - - - - - - - - - - - الإكليل (ج[8])/ تحقيق محمد بن علي الأكوع، بيروت: منشورات المدينة، 1986م.

326- - - - - - - - - - - - - الإكليل (ج[10])/ تحقيق محب الدين الخطيب. القاهرة: المطبعة السلفية، 1931م.

327- - - - - - - - - - - - - الإكليل (ج[10])/ تحقيق محمد بن علي الأكوع، صنعاء: مكتبة الجيل الجديد، 1990م.

328- - - - - - - - - - - صفة جزيرة العرب/ نشرة موللر. ليدين: مطبعة بريل، 1884م.

329- - - - - - - - - - - - صفة جزيرة العرب/ نشرة محمد عبد الله بن بليهد النجدي، القاهرة: مطبعة الحبلي، 1953م.

330- - - - - - - - - - - - صفة جزيرة العرب/ تحقيق محمد بن علي الأكوع، الرياض: دار اليمامة، 1977م.

331- - - - - - - - - - - - - قصيدة الدامغة/ تحقيق محمد بن علي الأكوع. القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، 1978م.

332- - - - - - - - - - - - - كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء/ نشرة كريستوفر تول آوبسالا (السويد): جامعة آوبسالا، 1968م.

333- - - - - - - - - - - - - كتاب الجوهرتين العتيقتين/ تحقيق محمد محمد الشعيبي، دمشق: دار الكتاب، 1982م.

334- - - - - - - - - - - - - كتاب الجوهرتين العتيقتين/ بعناية يوسف محمد عبد الله، صنعاء: مكتبة الإرشاد، 2003م.

335- - - - - - - - - - - - - المشتبه به من كتاب الإكليل/ تحقيق لوفغرين، آوبسالا: جامعة آوبسالا، 1953م.

336- - - - - - - - - - - - - المقالة العاشرة من سرائر الحكمة/ نسخه وعلق عليه محمد بن علي الأكوع، صنعاء: المكتبة اليمنية، 1978م.

337- الهمداني، حميد بن أحمد المحلي (ت 652هـ)، "تصيحة الولاة الهادية إلى النجاة"/ تحقيق محمد بن يحيى المأخذي، صنعاء:

مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، 2003م.

338- الهمداني، محمد بن حمير بن عمر الوصابي (ت 651 هـ). "ديوان ابن حمير"/ تحقيق محمد بن علي الأكوع، صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، 1985م.

339- الوجيه، محمد بن قاسم، "المنهاج السوي شرح منظومة الهدي النبوي"/ تحقيق محمد بن أحمد الجرافي، صنعاء: دار الحكمة اليمانية، 1988م.

340- الوزير، إبراهيم بن محمد (ت 914 هـ)، "الفصول اللؤلؤية في أصول فقه العترة الزكية وأعلام الأمة المحمدية"/ تحقيق محمد يحيى سالم عزان. صنعاء: مركز التراث والبحوث اليمني، 2001م.

341- - - - - - - - - - - القلك الدوار في علوم الحديث والفقه والآثار/ تحقيق محمد يحيى سالم عزان، صنعاء: دار التراث اليمني، 1994م.

342- الوزير، أحمد بن محمد عثمان، "الرسائل الخمس المنتقاة الجامعة لأدلة الجمع في الصلاة"/ جمع وتحقيق أحمد بن محمد عثمان الوزير، صنعاء: مطابع المفضل للأوفست، 1990م.

343- الوزير عبد الله بن علي (ت 147اهـ). تاريخ اليمن خلال القرن الحادي عشر الهجري المسمى طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى/ تحقيق محمد عبد الرحيم جازم، صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، 1985م.

344- الوزير، محمد بن إبراهيم (ت 840 هـ) "تنقيح الأنظار في معرفة علوم الآثار"/ تحقيق محمد صبحي حسن الحلاق، وعامر حسين، بيروت: دار ابن حزم، 1999م.

345- - - - - - - - - - - - - - "العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم"/ تحقيق شعيب الأرناؤط، عمّان: دار البشير، 1986م.

346- الوزير، الإمام الهادي بن إبراهيم (ت 822هـ). "نهاية التنويه في إزهاق التمويه"/ تحقيق أحمد بن درهم بن عبد الله حورية، وإبراهيم مجد الدين بن محمد المؤيدي، صعدة: مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية، 2000م.

347- الوصابي، وجيه الدين الحبيشي، "تاريخ وصاب: الاعتبار في التواريخ والآثار"/ تحقيق عبد الله محمد الحبشي، صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، 1979م.

348- الوشلي، إسماعيل بن محمد الحسني (ت 1356هـ)، "نيل نشر الثناء الحسن"/ تحقيق محمد محمد الشعيبي، صنعاء: مطابع اليمن العصرية، 1982م.

349- - - - - - - - - - - - - - - - - نشر الثناء الحسن/ تحقيق إبراهيم أحمد المقحفي، صنعاء: مكتبة الإرشاد، 2003م، 4ج.

350- وهب بن منبه اليمني، "التيجان في ملوك حمير/ نشر بعناية فرتز كرنكو. الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1324هـ (1906م).

351- - - - - - - - - - - - - - - - التيجان في ملوك حمير/ تحقيق مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط2. صنعاء: المركز، 1979م.

352- اليافعي، عبد الله بن أسعد (ت 797 هـ) "ذكر مذاهب الفرق الاثنتين والسبعين المخالفة للسنة والمبتدعين/ تحقيق موسى بن

سليمان الدويش. المدينة المنورة: دار البخاري للنشر والتوزيع، 1410هـ (1989م).

353- ياقوت الحموي، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت 626 هـ) "البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي/ جمع وتحقيق إسماعيل بن علي الأكوع. صنعاء: مكتبة الجيل الجديد، 1988م.

354- يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت 1099 أو 1100 هـ)، "غاية الأماني في أخبار القطر اليماني"/ تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور. القاهرة: دار الكاتب العربي، 1968م.

355- - - - - - - - - - - - - - -
يوميات صنعاء في القرن الحادي عشر/ تحقيق عبد الله محمد الحبشي، أبو ظبي: المجمع الثقافي، 1996م.

356- يحيى بن الإمام المهدي بن القاسم (ت 793 هـ). "الوسيلة إلى الرحمن بالابتهال إليه بآي القرآن وبالأسماء الحسنى"/ تحقيق عبد السلام الوجيه، صنعاء: مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، 2002م.

357- اليماني، محمد بن الحسن الديلمي، "قواعد عقائد آل محمد في الرد على الباطنية"/ تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري، صنعاء: مكتبة اليمن الكبرى، 1987م.

358- اليمني، حسن بن أحمد. "الدر الثمين في ذكر المناقب والوقائع لأمير المؤمنين محمد بن عائض"/ تحقيق عبد الله بن علي بن حميد، دمشق: دار الفكر، 1987م.